
سورة الأنبياء

سورة الأنبياء(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ(٢) وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ① ﴾

والاقتراب : إما أن يكون زمناً أو مكاناً ، فإذا كانت المسألة فى مسافات قلنا : اقترب للناس حسابهم يعنى مكانه . وإذا كانت للزمن قلنا : اقترب زمنه . فالاقتراب : دُنُو الحدث من ظرفيه زماناً أو مكاناً .

والحق سبحانه حينما يُعبِّر بالماضى ﴿ اقْتَرَبَ .. ① ﴾ [الأنبياء] يدل على أن ذلك أمر لازم وسيحدث ولا بُدَّ ، والبشر حينما يتحدثون عن أمر مقبل يقولون : يقترب لا اقتربَ ؛ لأن اقتربَ هكذا بالجزم والحكم بأنه حدثَ فعلاً لا يقولها إلا الله الذى يملك الأحداث ويقدر

---

(١) سورة الأنبياء هى السورة رقم (٢١) فى ترتيب المصحف ، وهى سورة مكية فى قول الجميع ، وعدد آياتها ١١٢ آية ، وقد نزلت سورة الأنبياء بعد سورة إبراهيم وقبل سورة المؤمنين ، وهى السورة رقم ٧٢ فى ترتيب نزول القرآن . [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] .

(٢) قال الضحاك : أى اقترب عذاب أهل مكة ، لأنهم استبطأوا ما وُعدوا به من العذاب تكذيباً ، وكان قتلهم يوم بدر . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٤٣] .

عليها ، أما الإنسان فلا يملك الأحداث ، ولا يستطيع الحكم على شيء لا يملكه بعد أن يتلفظ بهذا اللفظ .

ومثال ذلك فى قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] فأتى تعنى أن الأمر حدث قبل أن يتكلم ، والأمر ما زال مستقبلاً بدليل قوله : ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] فلا يُقال لك : لا تستعجل شيئاً إلا إذا كان لم يحدث بَعْد . فكيف ـ إذن ـ جمع بين الماضى ﴿أَتَىٰ .. (١)﴾ [النحل] والمستقبل ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] ؟

قالوا : أنت ممنوع أن تحكم بمُضىٍّ على أمر مستقبل ؛ لأنك لا تملك نفسك ، ولا تملك ظروف المستقبل ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

لا بُدَّ أن تُردف هذا القول بالمشيئة ؛ لأن قولك « سأفعل ذلك غداً » قضيةٌ لها عناصر : الفاعل أنت والمفعول به والزمن غداً ، والسبب الذى يدعوك للفعل والقدرة التى تُعينك أن تفعل .

وهذه كلها عناصر لا تملك أنت شيئاً منها ، وربما جاء غَدٌ فتغيَّر عنصر من هذه العناصر ، وحال بينك وبين ما تريد ، فينبغى أن تُبرِّىء نفسك من احتمال الكذب فتقول : إن شاء الله وتردُّ الأمر إلى القادر عليه الذى يملك كل هذه العناصر ، وكأن ربك يُعلِّمك ألا تكون كاذباً .

لذلك نجد أن اللغة قد راعتْ قدرة المتكلم ، ووضعتْ له الزمن المناسب ، فإنْ علمتَ حدوث الفعل قُلْ بالماضى : حضر فلان ، انتهت القضية ، فإنْ علمتَ أنه توجه للحضور واستعدَّ له قُلْ : سيحضر فلان أى قريباً ، أو سوف يحضر أى : بعد ذلك .

هذا الذى يناسب قدرة البشر . أما الحق سبحانه فيملك زمام الأشياء وتوجيهها ، وكلّ شىء مرهون بأمره التكوينى ، فإنْ قال للأمر المستقبل : أتى أو اقترب فصدِّق ؛ لأنه لا شىءَ يُخرج الأمر عن مراده تعالى ، وهو وحده الذى يملك الانفعال لكلمة كُنْ ، فإنْ قالها فَقد انتهتْ المسألة .

لذلك يقول سبحانه ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ۝١ ﴾ [الأنبياء] بصيغة الماضى ولم يقل : يقترب أو سيقترب ؛ لأن المتكلم هو الله .

وقد ورد الماضى (اقترب) أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ ﴾ [القمر]

وفى قوله تعالى ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝١٩ ﴾ [العلق] فاقترب غير قَرُب ، قرُب : يعنى دنا ، أما اقترب أى : دنا جداً حتى صار قريباً منك .

والحساب : كلمة تُطلَق إطلاقات عدّة ، فالحساب أنْ تحسب الشىء بالأعداد جمعاً ، أو طرحاً ، أو ضَرْباً ، وتدير حصيلة لك أو عليك ، فإنْ كانت لك فأنت دائن ، وإنْ كانت عليك فأنت مدين . أو تربط المسبِّبات بأسبابها .

وهناك أمور تأتى بغير حساب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧ ﴾ [آل عمران] فهذه مسألة لا تستطيع ضبطها ، والله لا يُسأل : أعطانى زيادة أم نقصاناً .

أما الحساب فى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ۝١ ﴾ [الأنبياء] فيقتضى مُحَاسِباً هو الله عز وجل ، ومُحاسَباً هم الناس ، ومُحَاسَباً عليه وهى الأعمالَ والأحداث التى أحدثوها فى دنياهم ، وهذه قسمان : قسم قبل أنْ يُكلَّفوا ، وقسم بعد أن كُلِّفوا .

ما كان قبل التكليف وسنِّ البلوغ لا يحاسبنا الله عليه ، إنما تركنا نمرح ونرتع فى نعمه سبحانه دون أن نسأل عن شىء ، أما بعد البلوغ فقد كلَّفنا بأشياء تعود علينا بالخير ، وألزمنا المنهج الذى يضمن سعادتنا « بافعل » و « لا تفعل » وهذا يقتضى أن نحاسب ، فعلنا ، أم لم نفعل .

إذن : المسألة حساب ، ليست جُزَافاً : جماعة فى الجنة وجماعة فى النار ، وقوله سبحانه فى الحديث القدسى : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى »[1] بناءً على علمه تعالى بما يُؤدُّونه وقت الحساب ، ففى علم الله ما فعلوا وما تركوا .

ولا تنْسَ أن المحاسب فى هذا الموقف هو الله ، فإنْ كان الحساب فى الخير عاملك بالفضل والزيادة كما يشاء سبحانه ؛ لذلك يضاعف الحسنات ، وإنْ كان الحساب فى الشر كان على قَدْره دون زيادة ، كما قال تعالى : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) ﴾ [النبأ]

وما دام المحاسب هو الله سبحانه وتعالى ، وهو لا ينتفع بما يقضيه على الخَلْق ، فمن رحمته بنَا ونعمته علينا أنْ حذَّرنا من أسباب الهلاك ، ولم يأخذنا على غَفْلة ، ولم يفاجئنا بالحساب على غرّة ، إنما أبان لنا التكاليف ، وأوضح الحلال والحرام ، وأخبرنا بيوم الحساب لنستعدَّ له ، فلا نسير فى الحياة على هوانا .

فقال سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٦/٤٤١) وعبد الله بن أحمد فى زوائده على مسند أبيه من حديث أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالى . وقال للذى فى كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالى ».

فمن رحمته تعالى بعباده أنْ وعدهم هذا الوعد ، وعرفهم هذا الميزان وهم فى سَعَة الدنيا ، وإمكان تدارك الأخطاء ، واستئناف التوبة والعمل الصالح ، من رحمته بنا أنْ يعظَنا هذه الموعظة ويكررها على أسماعنا ليلَ نهارَ .

إذن : ما أخذنا ربنا على غرَّة ، ولم تُفاجئْنا القيامة بأهوالها ، فمن الآن اعلم ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء] وما دام الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يُقَدِّر قَدْر الاقتراب ، ومتى سينتقل إلى يوم الحساب ، ولا تظن أن عُمرك هو عمر الدنيا منذ خلقها الله ، إنما عمرك ودنياك على قَدْر مُكْثك فيها ، وهو مُكْث مظنون غير مُتيقَّن ، فمن الخلْق من عمَّر دهراً ، ومنهم مَنْ مات فى بطن أمه . إذن : لا تُؤجِّل لأنك لا تدرى ، أيمهلك الأجل حتى تتوب ؟ أم يُعاجلك فتُؤخذ بذنبك ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء] مع أن الساعة ما زالت بعيدة ، وبيننا وبين القيامة مَا لا يعلمه إلا الله . فكيف ذلك ؟

قالوا : لأن الحساب إنما يكون على الأعمال ، والأعمال لها وقت هو الدنيا ، فَمنْ مات فقد انقطع عمله ، واقترب وقت حسابه ؛ لأن المدة التى يقضيها فى القبر لا يشعر بها ، فكأنها ساعة من نهار .

فإنْ قُلْت : من الناس مَنْ يعيش مائة عام ، ومائة وخمسين عاماً . نقول : هذا شيء ظنىّ لا نضمنه ، والإنسان عُرْضة للموت فى أىِّ لحظة لسبب أو دون سبب .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء] فقال (للنَّاسِ) مع أن الحساب لهم وعليهم ، فهل معنى (للناس)

أي : لمصلحتهم ؟ لا يبدو ذلك ؛ لأنه قال بعدها : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء]

إذن : الحساب ليس فى مصلحتهم إنما الحساب عليهم ، إذن : كيف يكون فى مثل هذا السياق ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ۝ ﴾ [الأنبياء] ما دام الأمر على الكفار ؟ كان المفروض أن يقول : اقترب على الناس حسابهم .

نقول : هذا إذا أخذتَ اللام للحساب ، إنما اللام هنا للاقتراب ، لا للحساب ، أى : اقترب من الناس ، إنما الحساب لهم أو عليهم ، هذه مسألة أخرى .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء] الغفلة معناها : زحزحة الشىء عن بال الواجب ألاَّ يزحزح عنه ، فكان الواجب أنْ يتذكره ولا يغفل عنه ، والغفلة غير النسيان ؛ لأن الغفلة أن تهمل مسألة كان يجب ألاَّ تهمل ، وألاَّ تغيب عن بالك ، أما النسيان فخارج عن إرادتك .

وغفلتهم هنا عن أصل وقمة الدين ، وهو الإيمان بالألوهية ، فإن آمنتَ بالألوهية فالغفلة عن الأحكام التى جاء بها الدين ، وهذه هى المعاصى ، والكلام هنا عن الكافرين بدليل قوله بعدها : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ .. ۝ ﴾ [الأنبياء] والغفلة عن الربِّ الأعلى مثلها الغفلة عن حكم الرب الأعلى ، وفَرْق بين غَفْلة وغَفْلة .

وقد حدَّثَ النبى ﷺ صحابته عن هذه الغفلة ، كما روى سيدنا حذيفة بن اليمان قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا (أن الأمانة نزلت فى جِذْر[1] قلوب الرجال)

---

(١) الجذر : الأصل من كل شىء . وفى حديث حذيفة بن اليمان : نزلت الأمانة فى جذر قلوب الرجال ، أى : فى أصلها . [لسان العرب ـ مادة : جذر] .

والأمانة هى الإيمان الحق بالله ، أى : حَلَّ الإيمان ، واستقر فى القلب ، ونطقنا بالشهادة (ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن ، وعلموا من السُّنة) ثم حدَّثنا عن رَفْع الأمانة فقال : (ينام الرجل النومة ، فتُقبض الأمانة من قلبه) أى : يغفل الغفلة (فيظل أثرها مثل أثر الوكت)[1] الوكت : مثل سيجارة مثلاً تقع على الجلد فلسعته ، فيتغير لونه (ثم ينام النومة) أى : مرة أخرى (فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل) والمجل : جمرة النار (فنفط[2] فتراه منتبراً عالياً ، وليس به شىء) أى : انتفخ (فيصبح الناس) أى : بعد رفع الأمانة (يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلاً أميناً) لندرة الأمانة بين الناس .

ثم يقول الراوى : (وقد مر علىَّ زمان ما كنت أبالى أيكُم بايعت ، فلئن كان مسلماً ليردنَّه علىَّ دينه) يعنى : إنْ غشَّنى فى شىء أو حدث خطأ ما فى البيع (ولئن كان يهودياً أو نصرانياً ليردنَّه علىَّ ساعيه) أى : الناس المكلفون بمراقبة الأسواق ، وهم أهل الحسْبة ، فإنْ رأوْا غشّاً منعوه ، وردوا إلى صاحب الحق حقه (وأما الآن فأنا لا أكاد أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً)[3] فإنْ كان هذا فى أيامهم فما بال أيامنا ؟

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها

---

(١) الوكت : الأثر اليسير فى الشىء . كالنقطة من غير لونه . [اللسان - مادة : وكت] .

(٢) النفطة : بثرة تخرج فى اليد من العمل ملأى ماءً . قال أبو زيد : إذا كان بين الجلد واللحم ماء . [اللسان - مادة : نفط] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٠٨٦) وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

راحلة »[١] أى : رَغْم كثرتها لا تجد فيها جملاً يحمل رَحْلك ويحملك .

وفى رواية أخرى : « تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عوداً »[٢] أى : كنسج الحصير ، عُوداً بعد عود ، حتى تتم الحصيرة ، ثم يكون الرَّان[٣] على القلب .

فغفْلة هؤلاء غَفْلة عن القمة ، وعن الألوهية ، لا عن التكاليف ؛ لأنهم ليسوا مؤمنين بالمكلّف سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ مُّعْرِضُونَ ① ﴾ [الأنبياء] تدل على الافتعال أى : أنهم مفتعلون هذا الإعراض ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② ﴾

أى : ذكر من القرآن ﴿ مُّحْدَثٍ .. ② ﴾ [الأنبياء] يعنى : يسمعونه جديداً لأول مرة ﴿ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② ﴾ [الأنبياء] لا يعطونه اهتماماً ، ولا يُلْقون له بالاً ، وهم يتعمدون هذا ، ويُوصِى بعضهم

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٤٧) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . قال ابن حجر فى فتح البارى (١١/٣٣٥) : « المعنى : لا تجد فى مائة إبل راحلة تصلح للركوب ، لأن الذى يصلح للركوب ينبغى أن يكون وطيئاً سهل الانقياد ، وكذا لا تجد فى مائة من الناس من يصلح للصحبة بأن يعاون رفيقه ويلين جانبه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٨٦ ، ٤٠٥) ، ومسلم فى صحيحه (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان ، وتمامه : « فأيّما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء » .

(٣) الران والرين : هو كل ما غلبك وعلاك . والرين : سواد القلب من الذنوب . وأصل الرين : الطبع والتغطية . [لسان العرب ـ مادة : رين] .

بعضاً به ويُحرِّضون عليه ، كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

إنهم يخافون إنْ سمعوا القرآن أنْ يتأثروا به فيؤمنوا ؛ لذلك لا تسمعوه ، بل شَوِّشوا عليه حتى لا يسمعه أحد فى هدوء واطمئنان فيؤمن به . وهذا يعنى أن هذا العمل فى مصلحتهم ؛ لأنهم لا يستطيعون رَدَّ حُجَج القرآن ولا الثبات أمام إعجازيته ولا بلاغته ولا تأثيره على النفوس ، فهُمْ لا يملكون إلاَّ أنْ يصرفوا الناس عن سماعه ، والتشويش عليه ، حتى لا يتمكّن من الأسماع ، وينفذ إلى القلوب ، فيخالطها الإيمان .

واللعب : أن تشغل نفسك بعمل لا قَصْدَ فيه لغاية ، كما يأخذ الطفل الصغير كراسة أخيه ، ويعبث فيها بالقلم دون نظام ودون هدف .

وهناك أيضاً اللهو : وهو عمل مقصود لغاية ، لكن هذه الغاية تضعها أنت لنفسك ، أو يضعها غيرك ممَّنْ يريد أنْ يُفسدك بها ، إذن : هو عمل مقصود وله غاية ، ليس مجرد (شخبطَة) كمَنْ ينشغل مثلاً برسم بعض الصور للتسلية ، أو ينشغل بحلِّ الكلمات المتقاطعة ، فهى أعمال لا فائدة منها .

أما العمل النافع الذى ينبغى أن ينشغل الإنسان به فهو الذى يضعه لك مَنْ هو أعلى منك ، وأنْ يكون حكيماً مُحباً لك ، وهذه المواصفات لا تجدها إلا فى الإله ؛ لذلك كل ما يُلهيك عمَّا يضعه لك إلهك فهو لَهْو ؛ لأنه شَغَلك عما هو أهَمّ .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .. (٣٦) ﴾ [محمد]

فاللعب فى مرحلة الطفولة ، بل نأتى نحن باللُّعب ونقول للطفل : العب ، إنما اللهو أن تنشغلَ بعمل مقصود وله غاية ، لكنها تلهيك عن غاية أسمى هى التى وضعها لك الحكيم القادر الأعلى منك المحبّ لك .

إذن : منتهى اللهو واللعب أن يلعبوا عند سماع القرآن ، فلم يستمعوا له ، حتى على أنه لهو له غاية ، إنما على أنه لَعِبٌ لا غايةَ له ولا فائدةَ منه ؛ لأن غايته ضارّة .

واللعب وإنْ كان مُباحاً فى فترة ما قبل البلوغ ، إنما القلوب يجب أن تُربَّى على أنْ تلتفت إلى الله عز وجل الخالق الرازق فى هذه الفترة المبكرة من حياة الإنسان ، وهذه مهمة الأب ، فإنْ أتى لولده بطعام أو شراب يقول أمام الولد الصغير : ربنا رزقنا به . وهكذا فى كل أمور الحياة يسند الأمر إلى الله وينبه الولد الصغير : قل : بسم الله قل : الحمد لله .

وهكذا تُربِّى فى الولد مواجيده على اليقين بالله القوى ، وإنْ كان الولد لا يراه فإنه يرى آثاره ونِعَمه . ويرى أباه الذى يتعهده ، ويأتى له بكل شىء لا يتصيّد المجد لنفسه ، إنما ينسب كل شىء إلى الله .

فأبوه - وهو المثل الأعلى له - يزحزح هذه المسائل عنه وينسبها لله ، فيتربى وجدانُ الولد على الإيمان . فإذا لم يُرَبَّ الولد هذه التربية تسلل إلى نفسه اللَّهْو واللَّعِب .

وسبق أن قلنا : إن كُلَّ فعل من الأفعال لا بُدَّ أنْ ينشأ عن مَوْجدة من المواجيد ، ولا ينشأ الفعل دون مَوجدة إلا فعل المجنون ، والقلوب هى التى تُوجِّه الجوارح ، ولو لم تكُنْ القلوب لاهية ما لعبت الجوارح .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما دخل على رجل يعبث بذقنه وهو يصلى - كما يفعل الكثيرون - قال : لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحه[1] . فحركة الجوارح دليل على انشغال القلب ؟ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ويا ليت كلاً منهم يفعل هذا الفعل فى نفسه ، إنما يتآمرون جميعاً على الحق ليفسدوه باللعب واللهو ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .. ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء] أى : يتناجَوْن فى الإثم ، ويُسِرُّونه يعنى : يجعلونه سراً . والنَّجْوى أو التناجى : خَفْض الصوت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ .. ﴿٧﴾﴾ [المجادلة]

فلا تظنوا أنكم مستورون عن الله ، أو تُخْفون عنه شيئاً . وتلاحظ فى ارتقاءات العدد فى هذه الآية أنها لم تذكر اثنين ، فبدأت من العدد ثلاثة ؛ لأنه عادةً لا تكون النجوى بين الاثنين ، إنما تكون بين الثلاثة ، حيث يتناجى اثنان حتى لا يسمع الثالث .

كما أنها لم تذكر الأعداد بالترتيب ، فلم تَقُلْ مثلاً : ولا أربعة إلا هو خامسهم ؛ ذلك لأن الآية لا تقصد الترتيب العددى ، إنما تعطيك مجرد أمثلة ونماذج من الأعداد .

---

(١) أورده الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين (١٥١/١) من حديث رسول الله ﷺ ، قال العراقى فى تخريجه للإحياء : « أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث أبى هريرة بسند ضعيف لأنه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبى شيبة فى المصنف وفيه رجل لم يسم » .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

وما داموا يُخْفون كلاماً ويُسِرُّونه ، فلا بُدَّ أنه مخالف للفطرة السليمة ، ولو كان حقّاً لَقالُوه علانية ، فالنجْوى دليلُ اتهامهم فى العقل ، وفى القلب ، وفى كل شىء .

أما قوله تعالى فى شأن النبى ﷺ : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً .. (١٢) ﴾ [المجادلة]

وهل كان الصحابة يُحدِّثون الرسول سراً ؟ لا بل هنا إشارة أخرى أوضحها قوله تعالى : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا .. (٦٣) ﴾ [النور]

فالمراد ألاّ نرفع أصواتنا فى حضرة النبى ﷺ كما يحدث منّا حين يُكلِّم بعضنا بعضاً ، بل نُكلِّمه كلام المهيب ، ونلتزم معه الأدب والخشوع .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا .. (٣) ﴾ [الأنبياء] هل (الذين) هنا هى الفاعل لأسرُّوا ؟ القاعدة النحوية : إذا تقدم الفعل على الفاعل لزم صورة الإفراد نقول : أكل القوم . لا نقول : أكلوا القوم ، وهنا ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .. (٣) ﴾ [الأنبياء] لو أن (الذين ظلموا) هى الفاعل لقال : وأسَرَّ الذين ظلموا ، إنما جاء الفاعل (واو الجماعة) ثم الاسم الموصول (الذين) بعدها فليست هى الفاعل ، وليست هذه من لغات العرب الصحيحة .

فكأن سائلاً سأل : ومَن الذى أسَرَّ ؟ فأجاب : (الَّذِينَ ظَلَمُوا)

وكلمة (ظَلَمُوا) عامة فى الظلم ، فقد ظلموا أنفسهم أولاً ؛ لأن ظلمهم عائد عليهم بالعذاب ، وظُلْم نفسه ناشئ من أنه ظلم الحق الأعلى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

ثم ظلم الناس فى أمور أخرى وفى حقوق لهم ، لكن جاءتْ (ظلموا) عامة ؛ لأن الظلم الواحد سيشمل كل أنواع الظلم ، وما دام قد وصل به الأمر إلى أنْ ظَلَمَ اللهَ فلا غرابةَ أنْ يظلم ما دونه تعالى .

فما النجوى التى أسرَّهَا القوم ؟ ومَنْ أخبر رسول الله بها ؟

النجوى قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴿٨﴾﴾ [المجادلة]

فكيف عرف محمد هذه المقولة ، وقد قالوها فى أنفسهم وأسرُّوها ؟ ألم يكُن على هؤلاء أنْ يتنبَّهوا : كيف عرف محمد مقولتهم ؟ وأن الذى أخبره بما يدور هو ربُّه الإله الأعلى ، الذى لا تَخْفَى عليه خافية ، كان عليهم أن يلتفتوا إلى رب محمد ، الله الإله الحق الذى يعلم خَبْءَ كل شىء فيرتدعوا عَمَّا هم فيه ، وبدل أنْ يشغلوا عقولهم بمسائل الشرك ينتهوا بها إلى الإيمان .

ومما جاء فى تناجيهم : ﴿هَلْ هَـٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء] إذن : أنكروا أن يكون رسولاً لأنه بشر ، والرسول لا بُدَّ أن يكون ملكاً ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء] فسمُّوا القرآن سحْراً ، لأنهم يروْنَ السحر يُفرِّق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء] أن القرآن يفعل مثل هذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

كأن سائلاً قال : من أين لك يا محمد بكل هذا وقد أسرّه القوم ؟ ﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ④﴾ [الأنبياء] فلا تَخْفى عليه خافية ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ④﴾ [الأنبياء] السميع لما يُقال ويُسر العليم بما يُفعل ، فالأحداث أقوال وأفعال .

ومما قالوه أيضاً :

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ⑤﴾[1]

(بَلْ) تعنى أنهم تمادَوْا ، ولم يكتفوا بما قالوا ، بل قالوا أيضاً ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ .. ⑤﴾ [الأنبياء] وأضغاث : جمع ضِغْث ، وهو الحزمة من الحشيش مختلفة الأشكال ، كما جاء فى قصة أيوب عليه السلام : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ .. ④④﴾ [ص] أى : حزمة من أعواد الحشيش .

ووردتْ أيضاً فى رُؤْيا عزيز مصر : ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ④④﴾ [يوسف]

وقوله ﴿بَلِ افْتَرَاهُ .. ⑤﴾ [الأنبياء] أى تمادَوْا فقالوا : تعمد كذبه واختلاقه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ .. ⑤﴾ [الأنبياء] إذن : أقوالهم واتهاماتهم لرسول الله متضاربة فى ماهية ما هو ؟ وهذا دليل تخبطهم ، فمرة ينكرون أنه من البشر ، ومرة يقولون : ساحر ، ومرة يقولون : مفتر ، والآن يقولون : شاعر !!

وقد سبق أنْ فنَّدنا كل هذه الاتهامات وقلنا : إنها تحمل فى

---

(١) أضغاث أحلام . أى : أحلام مختلفة مختلطة ملتبسة غير مميّزة على سبيل الاستعارة كالأشياء المختلطة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٤] .

طياتها دليل كذبهم وافترائهم على رسول الله .

ثم يقولون : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ⑤ ﴾ [الأنبياء] كأن آية القرآن ما أقنعتْهم ، فلم يكتفُوا بها ، ويطلبون آية أخرى مثل التى جاء بها السابقون ، والقرآن يردّ عليهم فى هذه المسألة : لو أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم الآية التى اقترحوها لأنزلناها عليهم ، إنما السوابق تؤكد أنهم لنْ يؤمنوا مهما جاءتهم من الآيات ، وهذا من أسباب العذاب .

وقد أوضح الحق سبحانه أنه لن يُعذِّبهم ما دام فيهم رسول الله ؛ لذلك لم يُجِبْهم إلى ما طلبوا من الآيات ؛ لأن الله تعالى لا يُخلف وعْدَه ، فإنْ جاءتهم الآية فلم يؤمنوا بها لا بُدَّ أنْ يُنزِل بهم العذاب ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ⑥ ﴾

إذن : هذه التجربة مَرَّتْ مع غيرهم من الأمم السابقة ، وهم كأمثالهم من السابقين لو أنزلنا عليهم الآية ما آمنوا ، كما لم يؤمن سابقوهم ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ㉘ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ⑦ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يردُّ على اعتراضهم على بشرية الرسول وطلبهم أن يكون الرسول ملكاً ، كما قالوا فى موضع آخر : ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. ⑥﴾ [التغابن]

يعنى : هم مثلنا ، وليسوا أفضل منَّا ، فكيف يهدوننا ؟! وهل الرسول يهديكم ببشريته ؟ أم بشىء جاءه من أعلى ؟ هل منهجه من عنده ؟

الرسول ليس مُصلحاً اجتماعياً ، إنما هو مُبلِّغ عن الله ربى وربكم . وقد سبقتْ السَوابق فيمَنْ قبلكم أن يكون الرسول بشراً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. ⑦﴾ [الأنبياء] ولو أرسلنا إليهم ملَكاً لجاءكم الرسول ملَكاً . ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ⑦﴾ [الأنبياء] وهم اليهود والنصارى ، ماذا أرسلنا إليهم أرجالاً أم ملائكة ؟

ذلك لأن المفروض فى النبى أن يكون قدوة لقومه وأُسْوة ، مُبلِّغَ منهج ، وأُسْوةَ سلوك ، منهج يحققه عن الله ، ثم يُطبِّقه على نفسه ، فهو لا يحمل الناس على أمر هو عنه بنَجْوة[1] ، إنما هو أُسْوتهم وقُدْوتهم ، وشرط أساسى فى القدوة أنْ يتحد فيها الجنس : المتأسِّى مع المتأسَّى به .

فلو رأيتَ مثلاً فى الغابة أسداً يصول ويجول ويفترس ، هل تفكر فى يوم ما أن تكون أسداً ؟! هل تأخذ الأسد لك أُسْوة ؟! لا ، لأنه يُشترط فى أُسْوتك أن يكون من جنسك ، فإذا رأيتَ فارساً على جواده يصول ويجول ويضرب فى الأعداء يميناً وشمالاً ، لا شكَّ أنك تود أن تكون مثله .

---

(١) النجوة : ما ارتفع من الأرض . قال أبو زيد : النجوة المكان المرتفع الذى تظن أنه نجاؤك . [لسان العرب - مادة : نجا] .

كذلك إذا جاء النبى ملكاً ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمرون ، إنما نحن بشر ، ولو جاءنا الرسول ملكاً لجاءنا فى صورة بشرية .

يقول تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

ويردُّ الحق سبحانه عليهم : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام] . وهكذا تظل الشبهة موجودة .

إذن : لا يمكن أن يكون الرسول للبشر إلا من البشر . ونعم ، محمد بشر لكن بشر يُوحَى إليه ، كما جاء فى الحديث الشريف : « يرد علىَّ - يعنى من الحق الأعلى - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقوله : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء] أى : إنْ كنتم فى شكٍّ من هذه المقولة فاسألوا أهل الذكر من السابقين : اليهود والنصارى أهل الكتاب(١) .

وقال : ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء] لأنها مسألة علْمُها مشكوك فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾

---

(١) قاله سفيان . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن . أى : فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن . قال جابر الجعفى : لما نزلت هذه الآية قال على رضى الله عنه : نحن أهل الذكر . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٤٧] .

﴿ جَعَلْنَاهُمْ .. ⑧ ﴾ [الأنبياء] أى : الرسل ﴿ جَسَدًا .. ⑧ ﴾ [الأنبياء] يعنى : شيئاً مصبوباً جامداً لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ، إنما هم بشر يأكلون ويشربون كأىّ بشر ، ويمشون فى الأسواق ، ويعيشون حياة البشر العادية ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ⑧ ﴾ [الأنبياء] فليس الخلود من صفة البشر وقد تابعوا الرسل ، وعَلموا عنهم هذه الحقيقة ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ③⓪ ﴾ [الزمر]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ⑨ ﴾

وهذه سُنة من سُنَن الله فى الرسل أنْ يَصْدقهم وعده ، وهل رأيتم رسولاً عانده قومه وحاربوه واضطهدوه ، وكانت النهاية أن انتصروا عليه ؟

ألم يقل الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ①⑦① إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ①⑦② وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ①⑦③ ﴾ [الصافات]

وكان صِدْق الوعد أن أنجيناهم ومَنْ نشاء وأهلكنا المسرفين والمسرفون هم الذين تجاوزوا الحدَّ المعروف . فنهاية الرسل جميعاً النُّصْرة من الله ، والوفاء لهم بما وعدهم .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ①⓪ ﴾

الحق سبحانه يخاطب المكذِّبين للنبى : ما أنزلتُ إليكم آية بعيدة عن معرفتكم ، إنما أرسلتُ إليكم رسولاً بآية من جنس ما نبغتُم فيه ،

ولما نزل فهمتموه وعرفتم مراميه ، بدليل أن فى القرآن ألفاظاً تُستقبل بالغرابة ولم تعترضوا أنتم عليها ، ولم تُكذِّبوا محمداً فيها مع أنكم تتلمسون له خطأ ، وتبحثون له عن زلة .

فمثلاً لما نزلتْ (الم) ما سمعنا أحداً منهم قال : أيها المؤمنون بمحمد ، إن محمداً يدَّعى أنه أتى بكتاب مُعْجز فاسألوه : ما معنى (الم) ؟ مما يدل على أنهم فهموها وقبلوها ، ولم يجدوا فيها مَغْمزاً فى رسول الله ؛ لأن العرب فى لغتهم وأسلوبهم فى الكلام يستخدمون هذه الحروف للتنبيه .

فالكلام سفارة بين المتكلِّم والسامع ، المتكلِّم لا يُفَاجأ بكلامه إنما يعدّه ويُحضره قبل أن ينطق به ، أمّا السامع فقد يُفَاجأ بكلام المتكلم، وقد يكون غافلاً يحتاج إلى مَنْ يُوقظه ويُنبِّهه حتى لا يفوته شىء .

وهكذا وُضعَتْ فى اللغة أدوات للتنبيه ، إنْ أردتَ الكلام فى شىء مهم تخشى أنْ يفوتَ منه شىء تُنبِّه السامع ، ومن ذلك قول عمرو ابن كلثوم[1] :

★ ألاَ هُبِّى بِصَحْنِك فَاصْبِحينَا[2] ★

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، كان من أعز الناس نفساً ، ساد قومه تغلب وهو فتى ، وعمر طويلاً ، مات فى الجزيرة الفراتية عام ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/٨٤] .

(٢) شطر البيت الأول من معلقة عمرو بن كلثوم . والصحن : القدح العظيم . والجمع : الصحون . ومعنى البيت : ألا استيقظى من نومك أيتها الساقية واسقينى الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر هذه القرى . [انظر شرح المعلقات السبع للزوزنى . ص ١٦٥].

وقول آخر :

أَلاَ أنعِمْ صبَاحاً أيُّهـا الطَّلَلُ البَـالى[1]

وَهَـلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كَانَ فى العَصْرِ الخالى[2]

إذن : (ألا) هنا أداة للتنبيه فقط يعنى : اسمعوا وانتبهوا لما أقول .

وكذلك أسلوب القرآن : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [يونس] ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ .. (٥) ﴾ [هود]

إذن : عندما نزل القرآن عليهم فهموا هذه الحروف ، وربما فهموا منها أكثر من هذا ، ولم يردُّوا على رسول الله شيئاً من هذه المسائل مع حرصهم الشديد على نقده والأخذ عليه .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء] الذكر : سبق أنْ أوضحنا أن الذكر يُطلق بمعنى : القرآن ، أو بمعنى : الكتب المنزّلة ، أو بمعنى : الصِّيت والشرف . أو بمعنى : التذكير أو التسبيح والتحميد .

والذكر هنا قد يُراد به تذكيرهم بالله خالقاً ، وبمنهجه الحق دستوراً ، ولو أنكم تنبهتم لما جاء به القرآن لعرفتُم أن الفطرة تهدى إليه وتتفق معه ، ولعرفتم أن القرآن لم يتعصّب ضدكم ، بدليل أنه أقرَّ بعض الأمور التى اهتديتم إليها بالفطرة السليمة ووافقكم عليها .

ومن ذلك مثلاً الدِّيَة فى القتل هى نفس الدية التى حدَّدها القرآن ، مسائل الخطبة والزواج والمهر كانت أموراً موجودة أقرها القرآن ،

---

(١) الطلل : ما شخص من آثار الديار . [لسان العرب ـ مادة : طلل] .

(٢) البيت لامرىء القيس ، ذكره الزوزنى فى شرح المعلقات السبع ص ١٠٢ (هامش) .

كثيرون منهم كانوا يُحرِّمون الخمر ولا يشربونها ، هكذا بالفطرة ، وكثيرون كانوا لا يسجدون للأصنام ، إذن : الفطرة السليمة قد تهتدى إلى الحق ، ولا تتعارض ومنهجَ الله .

أو : يكون معنى ﴿ ذِكْرُكُمْ .. ۝ ﴾ [الأنبياء] شرفكم وصيْتكم ومكانتكم ونباهة شأنكم بين الأمم ؛ لأن القرآن الذى نزل للدنيا كلها نزل بلغتكم ، فكأن الله تعالى يثنى عقول الناس جميعاً ، ويثنى قلوبهم للغتكم ، ويحثُّهم على تعلّمها ومعرفتها والحديث بها ونشرها فى الناس ، فمَنْ لم يستطع ذلك ترجمها ، وأىُّ شرف بعد هذا ؟!

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء] أفلا تُعملون عقولكم وتتأملون أن خيركم فى هذا القرآن ، فإنْ كنتم تريدون خُلقاً وديناً ففى القرآن ، وإنْ كنتم تريدون شرفاً وسُمعة وصيتاً ففى القرآن ، وأىُّ شرف بعد أن يقول الناس : النبى عربى ، والقرآن عربى ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ ﴾

قصمنا : القَصْم هو الكَسْر الذى لا جَبْرَ فيه ، وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يضع أمام أعينهم القُرَى المكذِّبة الظالمة ، ليأخذوا منها عبْرة وعظَة ، فليس بدعاً أنْ نقصم ظهور المكذِّبين ، بل لها سوابق كثيرة فى التاريخ[1] .

(١) قال القرطبى هنا فى تفسيره (٦/٤٤٤٩) : « يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حَضُور ، وكان بُعث إليهم نبى اسمه شعيب بن ذى مَهْدَم ، وليس بشعيب صاحب مدين » .

لذلك قال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا .. (١١) ﴾ [الأنبياء] وكم هنا خبرية تفيد الكثرة التى لا تُعَدُّ ، فاحذروا إنْ لويتُم أعناقكم أنْ يُنزل بكم ما نزل بهم .

وقوله : ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) ﴾ [الأنبياء] أى : خلَف بعدهم خلْف آخرون .

﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا (١) إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) ﴾

أى : حين أحسُّوا العذاب ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) ﴾ [الأنبياء] حتى لا يلحقهم العذاب . والركْضُ : الجرْى السريع بهَرْولة ، والأصل فيه : ركْضُ الدابة . يعنى : ضَرْبها برِجْله كى تُسرع . ومنها : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. (٤٢) ﴾ [ص] يعنى : اضرب الأرض برِجْلك لتُخرج الماء ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) ﴾ [ص]

وفى هذه الآية ملْمحٌ من ملامح الإعجاز القرآنى ، فقد أصاب أيوبَ عليه السلام مرضٌ فى جلده ، وأراد له ربُّه - عز وجل - الشفاء . فقال له : اضرب الأرض برِجْلك تُخرج لك ماءً بارداً ، منه مُغْتَسل ومنه شراب ، فالماء هنا دواء يعالج أمرين : يعالج الظاهر والباطن .

وآفةُ المعالجين أنهم إذا رأوْا مثلاً البثور والدمامل فى الجلد يعالجونها بالمراهم التى يندملُ معها الجُرْح ، لكنها لا تعالج أسباب الظاهرة من الداخل ، أما العلاج الإلهى فمغتسلٌ لعلاج الظاهرة ، وشرابٌ لعلاج أسباب الظاهرة فى الجوف .

---

(١) البأس : الشدة والقوة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى قصة هؤلاء المكذِّبين قدَّم الغاية من العذاب ، فقال : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأنبياء] ثم فصَّل القَصْم بأنهم لما أحسُّوا العذاب تركوا قريتهم ، وأسرعوا هاربين أنْ يلحقهم العذاب ، وهنا يقول لهم : لا تركضوا وعودوا إلى مساكنكم ، وإلى ما أُترفْتم فيه .

والتَّرفُ : هو التنعُّم نقول : ترف الرجل يترف مثل : فرح يفرَح أى : تنعَّم ، فإذا زِيدتْ عليها همزة فقيل : أترف الرجل فمعناها : أخذ نعيماً وأبطره .

ومنها أيضاً : أترفَهُ الله يعنى : غرَّه بالنعيم ؛ ليكون عقاباً له .

فقوله هنا ﴿ إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنبياء] من أترفه الله يعنى : أعطاهم نعيماً لا يؤدون حقَّه ، فيجرّ عليهم العذاب . لكن ما دام أن الله تعالى يريد بهم العذاب ، فلماذا يُنعِّمهم ؟

قالوا : فَرْق بين عذاب واحد وعذابين : العذاب أن تُوقع على إنسان شيئاً يؤلمه ، أما أن تُنعِّمه وترفعه ثم تعذبه ، فقد أوقعتَ به عذاباً فوق عذاب .

وقد مثَّلْنا لذلك بأنك إنْ أردت أنْ تُوقِع عدوك لا توقعه من فوق حصيرة مثلاً ، إنما ترفعه إلى أعلى ليكون أشدَّ عليه وآلمَ له .

ومن ذلك قَوْلُ القرآن ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] أعطيناهم الصحةَ والمال والجاه والأرض والدُّور والقصور ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)﴾ [الأنعام] وهكذا يكون أَخْذه أليماً شديداً ، فعلى قَدْر ما رفعهم الله على قَدْر ما يكون عذابهم .

وملْمَح آخر في قوله تعالى : ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] لا لهم كما في : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [الفتح] فليس هذا كله في صالحهم ، بل هو وَبَال عليهم ، فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم ، وهم سَيَبْطرون بها ، فتكون سببَ عذابهم .

وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣)﴾ [الأنبياء] أي : عودوا إلى مساكنكم وقصوركم وما كنتم فيه من النعيم ، لعل أحداً يمرُّ بكم فيسألكم : أين ما كنتم فيه من النعيم ؟ أين ذهب ؟ لكن ما هم فيه الآن من الخزي سيُخرس ألسنتهم ، ولن يقولوا شيئاً مما حدث ، إنما سيكون قولهم وسلوكهم :

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾

لما أحسَّ المكذِّبون بأسَ الله وعذابه حاولوا الهرب ليُفوِّتوا العذاب ، فقال لهم : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلن يُنجيكم من عذاب الله شيء ، ولا يفوت عذاب الله فائت ، فلما وجدوا أنفسهم في هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلا الحسرة فتوجَّهوا إلى أنفسهم ليقرعوها ، ويحكموا عليها بأنها تستحق ما نزل بها .

فقولهم : ﴿يَا وَيْلَنَا .. (١٤)﴾ [الأنبياء] ينادون على العذاب ، كما تقول (يا بؤسي) أو (يا شقائي) وهل أحد ينادي على العذاب أو

البُؤْس أو الشقاء ؟ الإنسان لا ينادى إلا على ما يُفرِح .

فالمعنى : يا ويلتى تعالى ، فهذا أوانك ، فلن يشفيه من الماضى إلاّ أنْ يتحسَّر عليه ، ويندم على ما كان منه . فالآن يتحسَّرون ، الآن يعلمون أنهم يستحقون العذاب ويلومون أنفسهم .

﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنبياء] ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا فى أننا كفرنا به ، كما قال فى آية أُخْرى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزمر]

﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : قولهم : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنبياء] فلم يقولوها مرة واحدة سرقة عواطف مثلاً ، إنما كانت ديدنهم ، وأخذوها تسبيحاً : يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فلا شئَ يشفى صدورهم إلا هذه الكلمة يُردِّدونها . كما يجلس المجرم يُعزِّى نفسه نادماً يقول : أنا مُخطئ ، أنا أستحق السجن ، أنا كذا وكذا .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء] الحصيد : أى المحصود وهو الزرْع بعد جمعه ﴿ خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء] الخمود من أوصاف النار بعد أنْ كانت مُتأجِّجة مشتعلة ملتهبة صارت خامدة ، ثم تصير تراباً وتذهب حرارتها . كأن الحق - سبحانه وتعالى - يشير إلى حرارتهم فى عداء الرسول وجدلهم وعنادهم معه ﷺ ، وقد خمدتْ هذه النار وصارتْ تراباً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

ربنا - سبحانه وتعالى - يعطينا المثل الأعلى فى الخلْق ؛ لأن خلْق السموات والأرض مسألة كبيرة : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر] فالناس تُولَد وتموت وتتجدد ، أمّا السماء والأرض وما بينهما من نجوم وكواكب فهو خلْق هائل عظيم منضبط ومنظوم طوال هذا العمر الطويل ، لم يطرأ عليه خَلَل أو تعطُّل .

والحق سبحانه لا يمتنُّ بخلْق السماء والأرض وما بينهما ؛ لأنها أعجب شيء ، ولكن لأنها مخلوقة للناس ومُسخَّرة لخدمتهم ، فالسماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم وهواء ومطر وسحاب والأرض وما عليها من خَيْرات ، بل وما تحتها أيضاً ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [طه]

الكل مخلوق لك أيها الإنسان ، حتى ما تتصوره خادماً لغيرك هو فى النهاية يصبُّ عندك وبين يديك ، فالجماد يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، وكلهم يخدمون الإنسان .

فإنْ كان الإنسان هو المخدوم الأعلى فى هذا الكون فما عمله هو ؟ وما وظيفته فى كون الله ؟ فكل ما دونك له مهمة يؤديها فما مهمتك ؟ إذن : إنْ لم يكن لك مهمة فى الحياة فأنت أتفه من الحيوان ، ومن النبات ، حتى ومن الجماد ، فلا بُدَّ أنْ تبحثَ لك عن عمل يناسب سيادتك على هذه المخلوقات .

ثم هل سخَّرْتَ هذه المخلوقات لنفسك بنفسك ، أم سخَّرها الله وذلَّلها لخدمتك ؟ فكان عليك أن تلتفت لمن سخَّر لك هذه المخلوقات

وهى أقوى منك ، ألك قدرة على السماء ؟ أتطول الشمس والقمر ؟

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : كان يجب عليك أن تبحثَ بعقلك فيمَنْ سخَّر لك هذا كله ، كان عليك أنْ تهتدى إلى الخالق للسماء والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه ما خلقها عبثاً ، ولا خلقها للعب ، إنما خلقها من أجلك أنت .

لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلى ، فلا تنشغل بما هو لك عمن أنت له » .

فالكون مملوك لك ، وأنت مملوك لله ، فلا تنشغل بالمملوك لك عن المالك لك .

فما الحكمة من خَلْق السماء والأرض وما بينهما ؟ الحكمة أن هذه المخلوقات لولاها ما كُنَّا نستدل على القوة القادرة وراء خَلْق هذه الأشياء ، وهو الخالق سبحانه ، فهى - إذن - لإثبات صفات الجلال والجمال لله عز وجل . فلو ادَّعَى أحد أنه شاعر - ولله المثل الأعلى - نقول له : أين القصيدة التى قلتها ؟ فلا نعرف أنه شاعر إلا من خلال شعْره وآثاره التى ادَّعاها . وهى دعوى دون دليل ؟!

وقد خلق الله هذا الخَلْق من أجلك ، وتركك تربَع فيه ، وخلقه مقهوراً مُسيَّراً ، فالشمس ما اعترضتْ يوماً على الشروق ، والقمر والنجوم والمطر والهواء والأرض والنبات كلها تعطى المؤمن والكافر والطائع والعاصى ؛ لأنها تعمل بالتسخير ، لا بالإرادة والاختيار . أما الإنسان فهو المخلوق صاحب الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل .

ولو نظرتَ إلى هذا الكون لأمكنك أنْ تُقسِّمه إلى قسمين : قسم لا دَخْلَ لك فيه أبداً ، وهذا تراه منسجماً فى نظامه واستقامته وانضباطه ، وقسم تتدخل فيه ، وهذا الذى يحدث فيه الخَلَل والفساد .

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[1] الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

فالكَوْن من حولك يسير بأمر خالقه ، منضبط لا يتخلف منه شىء ، فلو أخذتَ مثلاً سنة كاملة ٣٦٥ يوماً ، ثم حاولتَ أنْ تعيدها فى عام آخر لوجدتَ أن الشمس طلعتْ فى اليوم الأول من نفس المكان ، وفى اليوم الثانى من نفس مكان اليوم الثانى ، وهكذا بدقة متناهية ، سبحان خالقها .

لذلك ؛ فالذين يضعون التقويم لمعرفة الأوقات يضعون تقويم ثلاث وثلاثين سنة يُسجِّلون دورة الفلك ، ثم يتكرر ما سجَّلوه بانضباط شديد ، ومن ذلك مثلاً إذا حدَّد العلماء موعد الكسوف أو الخسوف أو نوعه جزئى أو حَلْقى ، فإذا ما تابعته وجدته منضبطاً تماماً فى نفس موعده ، وهذا دليل على انضباط هذا الكون وإحكامه ؛ لأنه لا تدخُّل لنا فيه أبداً .

---

(١) العرجون : هو أصل عذق النخلة ، ومنه تتفرع شماريخ البلح ، ويكون أول ظهوره أخضر ثم يبيض ثم يصفر عند نضج البلح ، فإذا قطع وجفَّ صار أبيض ، وشبه به القمر آخر الشهر لأنه يكون ملتوياً كجزء من القوس أبيض قليل الضياء . [القاموس القويم ١٤/٢] .

وفى المقابل انظر إلى أىِّ شىء للإنسان فيه تدخّل : فمثلاً نحن يكيل بعضنا لبعض ، ويزن بعضنا لبعض ، ويقيس بعضنا لبعض ، ويخبز بعضنا لبعض ، ويبيع بعضنا لبعض .. الخ انظر إلى هذه العلاقات تجدها - إلاّ ما رحم الله - فاسدة مضطربة ، ما لم تَسِرْ على منهج الله ، فإنْ سارت على منهج الله استقامتْ كاستقامة السماء والأرض .

إذن : كلما رأيتَ شيئاً فاسداً شيئاً قبيحاً فاعلم أن الإنسان وضع أنفه فيه .

وكأن الخالق - عز وجل - يقول للإنسان : أنت لستَ أميناً حتى على نفسك ، فقد خلقتُ لك كل هذا الكون ، ولم يشذ منه شىء ، ولا اختلَّتْ فيه ظاهرة ، أمّا أنت - لأنك مختار - فقد أخللْتَ بنفسك وأتعبتها .

فاعلم أن المسائل عندى أنا آمَنُ لك ، فإذا أخذتُك من دنيا الأسباب إلى الآخرة وإلى المسبِّب ، فأنا أمين عليك أُنعمك نعيماً لا تعبَ فيه ولا نصبَ ولا شقاء ، وإنْ كنت تخدم نفسك فى الدنيا ، فأنا أخدمك فى الآخرة ، وأُلبِّى لك رغبتك دون أن تُحرِّك أنت ساكناً .

إذن : لو أننى شغلت نفسى بمَنْ يملكنى وهو الله تعالى لاستقام لى ما أملكه .

فهذا الكون وهذا الإيجاد خلقه الله لخدمة الإنسان ، فلماذا ؟ كأن الحق - سبحانه وتعالى - يقول : لأنِّى يكفينى من خلقى أن يشهدوا مختارين أنه : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وإنْ كانت المخلوقات قد شهدتْ هذه الشهادة مضطرة ، فالعظمة أن يشهد المختار الذى يملك أنْ يشهد أو لا يشهد .

كما أننى بعد أنْ أنعمتُ عليك كلَّ هذه النعم أنزلتُ إليك منهجاً بافعل كذا ولا تفعل كذا ، فإنْ أطعتَ أثبتك ، وإنْ عصيت عاقبتك ، وهذه هى الغاية من خَلْق السماء والأرض ، وأنها لم تُخلَق لعباً .

وهذا المنهج تعرفه من الرسل ، والرسل يعرفونه من الكتاب . فلو كذَّبْتَ بالرسل لم تعرف هذه الأحكام ولم تعرف المنهج ، وبالتالى لا نستطيع أنْ نثيب أو نعاقب ، فيكون خَلْقُ السماء والأرض بدون غاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا(١) لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فلو أردنا اللهو لفعلناه ، فنحن نقدر على كل شىء ، وقوله : ﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] تدل على أن ذلك لن يحدث .

فمعنى اللهو هو أن تنصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه ، فالإنسان اللاهى يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم ، فاللهو واللعب حركتان من حركات الجوارح ، ولكنها حركات لا مقصد لها إلا الحركة فى ذاتها ، فليس لها هدف كمالى نسعى له فى الحركة ، ولذلك فاللهو واللعب دون هدف يسمى عَبَثاً .

---

(١) اللهو : المرأة بلغة اليمن ، قاله قتادة . وقال عقبة بن أبى جسرة ، وجاء طاوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فقال : اللهو الزوجة ، وقاله الحسن . وقال ابن عباس : اللهو الولد . وقاله الحسن أيضاً . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٥٢] .

وهذا يمتنع فى حق الله سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ[1] فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ﴾

ما دام أنهم فعلوا اللهو واللعب ، وخانوا نِعَم الله فى السماء والأرض فليعلموا أن هذا الحال لن يستمر ، فالحق سبحانه يُملى للباطل ويُوسع له حتى يزحف ويمتد ، حتى إذا أخذه أخذه أخْذ عزيز مقتدر ، وقذف عليه بالحق .

فقوله : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ .. (١٨) ﴾ [الأنبياء] القذف : الرَّمْى بشدة مثل القذائف المدمرة ﴿فَيَدْمَغُهُ .. (١٨) ﴾ [الأنبياء] يقال : دمغه أى : أصاب دماغه . والدماغ أشرف أعضاء الإنسان ففيه المخ ، وهو ميزان المرء ، فإنْ كان المخ سليماً أمكن إصلاح أىِّ عطل آخر ، أما إنْ تعطل المخ فلا أملَ فى النجاة بعده .

لذلك جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عَظْمة الدماغ أقوى عظام الجسم لتحفظ هذا العضو الهام ، والأطباء لا يحكمون على شخص بالموت ـ مثلاً ـ إذا توقف القلب ؛ لأن القلب يجرى له تدليك معين فيعود إلى عمله كذلك التنفس ، أما إنْ توقف المخ فقد مات صاحبه ، فهو الخلية الأولى والتى تحتفظ بآخر مظاهر الحياة فى الجسم ؛ لذلك يقولون : موت إكلينيكى .

وللمخ يصل خلاصة الغذاء ، وهو المخدوم الأعلى بين الأعضاء ،

---

(١) دمغ الحق الباطل : أبطله ومحقه وأزاله . [القاموس القويم ١/٢٣٣] .

فالجسم يأخذ من الغذاء ما يكفى طاقته الاحتراقية فى العمل ، وما زاد على طاقته يُختزَن على شكل دهون يتغذّى عليها الجسم ، حين لا يوجد الطعام ، فإذا ما انتهى الدُّهْن تغذَّى على اللحم ، ثم على العَظْم ليُوفِّر للمخ ما يحتاجه ، فهو السيد فى الجسم ، ومن بعده تتغذّى باقى الأعضاء .

إذن : كل شيء فى الجسم يخدم المخ ؛ لأنه أعْلَى الأعضاء ، أما النبات مثلاً فيخدم أسفله ، فإذا جَفَّ الماء فى التربة ولم يجد النباتُ الغذاءَ الكافى يتغذى على أعلاه فيذبل أولاً ، ثم تتساقط الأوراق ، ثم تجفّ الفروع الصغيرة ، ثم الجذع ، ثم الجذر .

ومن ذلك قول سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .. ④﴾ [مريم] فالعَظْم آخر مخزن للغذاء فى الجسم ، فَوهَنُ العظم دليل على أن المسألة أوشكتْ على النهاية .

إذن : فقوله تعالى : ﴿فَيَدْمَغُهُ .. ⑱﴾ [الأنبياء] أى : يصيبه فى أهم الأعضاء وسيدها والمتحكم فيها ، لا فى عضو آخر يمكن أنْ يُجبر ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .. ⑱﴾ [الأنبياء] زاهق : يعنى خارج بعنف .

وقوله تعالى : ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ⑱﴾ [الأنبياء] يعنى : أيها الإنسان المغتَرّ بلججه وعناده فى الباطل ، ووقف بعقله وقلبه ليصادم الحق ، سنقذف بالحق على باطلك ، فنصيب دماغه فيزهق ، ساعتها ستقول : يا ويلتى كما سبق أنْ قالوا : ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑭﴾ [الأنبياء] حينما يباشرون العذاب .

ومعنى : ﴿تَصِفُونَ ⑱﴾ [الأنبياء] تكذبون كذباً افترائياً ، كما لو رأيتَ شخصاً جميلاً ، فتقول : وجهه يَصِفُ الجمال ، يعنى : إنْ كنت

تريد وَصْفاً للجمال ، فانظر إلى وجهه يعطيك صورة للجمال . كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل] يعنى : إنْ أردتَ أنْ تعرف الكذب بعينه ، فاسمع كلامهم وما قالتْه ألسنتهم .

كما يقولون : حديث خرافة[1] ، وأصل هذه المقولة رجل اسمه خرافة ، كان يقول : أنا عندى سهم إنْ أطلقتُه على الظَّبى يسير وراءه ، فإن التفت يميناً سار وراءه ، فإنْ ذهب شمالاً ذهب وراءه ، فإنْ صعد الجبل صعد وراءه ، فإنْ نزل نزل وراءه . وكأن سهمه صاروخ مُوجَّه كالذى نراه اليوم !! فسار كلامه مثالاً يُضرب للكذب[2] .

لذلك قال الشاعر :

* حَدِيثُ خُرَافَةٍ يا أُمَّ عَمْرو *

فإنْ أردتَ تعريفاً للكذب فأنا لا أُعرِّفه لك بأنه قولٌ لا يوافق الواقع ، إنما اسمع إلى كلامهم ، فهو أصدق وَصْف للكذب ؛ لأنه كذب مكشوف مفضوح .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنعام] أى : يكذبون ويفترون على الله .

وقد يقول قائل : لماذا يُملِى الله للباطل حتى يتمرَّد ويعلو ، ثم يعلو عليه الحق فيدمغه ؟

---

(١) الخرافة : الحديث المستملح من الكذب . ذكر ابن الكلبى : أن خرافة من بنى عذرة أو من جهينة اختطفته الجن ، ثم رجع إلى قومه فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس ، فكذَّبوه ، فجرى على ألسن الناس » . [لسان العرب ـ مادة : خرف] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٦/١٥٧) عن عائشة قالت : حدث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثاً فقالت امرأة منهن : يا رسول الله كأن الحديث حديث خرافة فقال : أتدرون ما خرافة ؟ إن خرافة كان رجلاً من عذرة ، أسرته الجن فى الجاهلية ، فمكث فيهن دهراً طويلاً ثم ردوه إلى الإنس ، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس : حديث خرافة » .

نقول : الحكمة من هذا أنْ تتم الابتلاءات ، والناس لا نتعشق الحق إلا إذا رأتْ بشاعة الباطل ، ولا تعرف منزلة العدل إلا حين ترى بشاعة الظلم ، وبضدها تتميز الأشياء ، كما قال الشاعر :

فَالوجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبيضٌ وَالشَّعْر مِثْلُ الليْلِ مُسْوَدُ
ضِدَّان لَمَّا اسْتُجْمِعَا حَسُنَا والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَه الضِّدُّ

إذن : لا نعرف جمال الحق إلا بقُبْح الباطل ، ولا حلاوة الإيمان إلا بمرارة الكفر .

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ(١) لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

سبق أن أخبر الحق سبحانه أنه خلق السماء والأرض وما بينهما ، وهذا ظَرْف ، فما المظروف فيه ؟ المظروف فيه هم الخَلْق ، وهم أيضاً لله ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنبياء] وإنْ كان من الخَلْق مَنْ ميَّزه الله بالاختيار يؤمن أو يكفر ، يطيع أو يعصى ، فإنْ كان مختاراً فى أمور التكليف فهو مقهور فى الأمور الكونية لا دَخْلَ له فيها .

فليس للإنسان تحكم فى ميلاده أو وفاته ، ولا تحكم له فى صحته وعافيته أو مرضه أو ذكائه أو طوله أو قصره ، إذن : فهو مِلْك لله ، مقهور له ، إلا أنه سبحانه ترك له زاوية اختيار تكليفية .

أما السماء والأرض فهى مُسخَّرة مقهورة : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

(١) قوله ﴿ وَمَنْ عِندَهُ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٥٣] .

فاختارت التسخير على الاختيار الذى لا طاقة لها به .

أما الإنسان فقد دعاه عقله إلى حملها وفضَّل الاختيار ، ورأى أنه سيُوجِّه هذه الأمانة التوجيه السليم ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فوصفه رَبُّه بأنه كان فى هذا العمل ظلوماً جهولاً ؛ لأنه لا يدرى عاقبة هذا التحمل . فإنْ قلتَ : فما ميزة طاعة السموات والأرض وهى مضطرة ؟ نقول : هى مضطرة باختيارها ، فقد خيَّرها الله فاختارت الاضطرار .

وقوله : ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ .. (١٩)﴾ [الأنبياء] أى : ليسوا أمثالكم يكذبون ويكفرون ، بل هم فى عبادة دائمة لا تنقطع ، والمراد هنا الملائكة ؛ لأنهم ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)﴾ [الأنبياء] من حسر : يعنى ضَعُفَ وكَلّ وتعب وأصابه الملل والإعياء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ [الملك] أى : كليل ضعيف ، لا يَقْوى على مواجهة الضوء الشديد كما لو واجهت بعينيك ضوءَ الشمس أو ضوء سيارة مباشر ، فإنه يمنعك من الرؤية ؛ لأن الضوء الأصل فيه أن نرى به ما لا نراه .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ..(١٧٢)﴾ [النساء] لأن عِزَّهم فى هذه المسألة .

﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ[1] ﴿٢٠﴾ ﴾

فهؤلاء الملائكة يعبدون الله ويسبحونه ، لا يصيبهم ضَعْف ، ولا يصيبهم فُتُور ، ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه ؛ فالملائكة لا تتكبر عن عبادته والخضوع له .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

أى : فما لهم أعرضوا عن كل هذه الحقائق ؟ ألهم آلهة غيرى وأنا خالق السماء والأرض ، وهى لى بمَنْ فيها من الإنس والجن والملائكة ؟ فالجميع عَبْد لى يُسبِّح بحمدى ، فما الذى أعجبهم فى غيرى فأعرضوا عنى ، وانصرفوا إليه ؟ أهو أحسن منى ، أو أقرب إليهم منى ؟

كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يستنكر انصرافهم عن الإله الحق الذى له كل هذا الملك ، وله كل هذه الأيادى والنِّعَم .

وقوله تعالى : ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : لهم قدرة على إحياء الموتى وبَعْثهم . وشىء من هذا كله لم يحدث ؛ لأنه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) لا يفترون : لا ينقطعون عن التسبيح . والفترة : الانكسار والضعف . وفتر الشىء : سكن بعد حدة ولان بعد شدة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

فمَع انصرافكم عن الإله الحق الذى له مُلْك السماء والأرض ، وله تُسبِّح جميع المخلوقات ، لا يوجد إله آخر ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] أى : ما زال الكلام مرتبطاً بالسماء والأرض ﴿لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] السماء والأرض ، وهما ظرفان لكلِّ شىء من خلْق الله .

ومعنى ﴿إِلاَّ اللَّهُ .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] إلا : أداة استثناء تُخرِج ما بعدها عن حكم ما قبلها كما لو قلتَ : جاء القوم إلا محمد ، فقد أخرجتَ محمداً عن حكم القوم وهو المجىء ، فلو أخذنا الآية على هذا المعنى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء] يعنى : لو كان هناك آلهة ، الله خارج عنها لفسدت السماوات والأرض .

إذن : ما الحال لو قلنا : لو كان هناك آلهة والله معهم ؟ معنى ذلك أنها لا تفسد . فإلا إنْ حققت وجود الله ، فلم تمنع الشَّركة مع الله ، وليس هذا مقصود الآية ، فالآية تقرر أنه لا إله غيره .

إذن : (إلا) هنا ليست أداةَ استثناء . إنما هى اسم بمعنى (غير) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ .. (٣٦)﴾ [هود]

فالمعنى : لو كان فيهما آلهة موصوفة بأنها غير الله لَفسدتَا ، فامتنع أن يكون هناك شريك .

وهناك آية أخرى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا القسمة العقلية فى القرآن : فلنفرض جدلاً أن هناك آلهة أخرى ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا

يَقُولُونَ إِذًا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء] أي : لو حدث هذا ﴿لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

السبيل : الطريق ، أى طلبوا طريقاً إلى ذى العرش أى : إلى الله ، لماذا ؟ إما ليجادلوه ويصاولوه ، كيف أنه أخذ الألوهية من خلف ظهورهم ، وإمّا ليتقربوا إليه ويأخذوا ألوهية من باطنه ، وقوة فى ظل قوته ، كما أعطى الله تعالى قوة فاعلة للنار مثلاً من باطن قوته تعالى ، فالنار لا تعمل من نفسها ، ولكن الفاعل الحقيقى هو الذى خلق النار ، بدليل أنه لو أراد سبحانه لَسلَبها هذه القدرة ، كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

وقوله : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون] وهذه الآية الكريمة وأمثالها تثبت أنه سبحانه موجود وواحد .

أما على اعتبار أن (إلا) استثناء فهى تثبت أنه موجود ، إنما معه شريك ، وليس واحداً . فهى - إذن - اسم بمعنى غير ، ولما كانت مبنية بناء الحروف ظهر إعرابها على ما بعدها (لو كان فيهما آلهة إلا اللهُ) فيكون إعراب (غيرُ) إعرابَ (إلا) الذى ظهر على لفظ الجلالة (اللهُ) .

لكن ، لماذا تفسد السماء والأرض إنْ كان فيهما آلهة غير الله ؟

قالوا : لأنك فى هذه المسألة أمام أمرين : إما أن تكون هذه الآلهة مستويةً فى صفات الكمال ، أو واحد له صفات الكمال والآخر له صفة نقص . فإنْ كان لهم صفات الكمال ، اتفقوا على خَلْق الأشياء أم اختلفوا ؟

إنْ كانوا متفقين على خَلْق شيء ، فهذا تكرار لا مُبرِّر له ، فواحد سيخلق ، والآخر لا عملَ له ، ولا يجتمع مؤثران على أثر واحد .

فإن اختلفوا على الخَلْق : يقول أحدهم : هذه لى . ويقول الآخر : هذه لى ، فقد علا بعضهم على بعض .

أما إنْ كان لأحدهم صفة الكمال ، وللآخر صفة النقص ، فصاحب النقص لا يصحّ أن يكونَ إلهاً . وهكذا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُصرِّف لنا الأمثال ويُوضِّحها ليجلى هذه الحقيقة بالعقل وبالنقل : لا إله إلا الله ، واتخاذ آلهة معه سبحانه أمر باطل .

كذلك يردُّ على الذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل مَنْ قالوا : العزيرُ ابن الله ومَنْ قالوا : المسيح ابن الله . ومَن اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله : ﴿أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ .. ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء]

إن هؤلاء الذين تدعُونهم مع الله يطلبون إليه الوسيلة ، ويتقرّبون إليه سبحانه ، وينظرون أيّهم أقرب إلى الله من الآخر ، فكيف يكونون آلهة ؟

ثم يقول تعالى : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء] أى : تنزيهاً لله عَمَّا قال هؤلاء ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء] أى : يُلحِدون ويكذبون ويفترون .

والعرش : هو السرير الذى يجلس عليه الملك ، وهو علامة المُلْك والسيطرة ، كما فى قوله تعالى عن ملكة سبأ على لسان الهدهد : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل] فحين يقول سبحانه ﴿رَبِّ الْعَرْشِ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء] ينصرف

إلى عرشه تعالى ، الذى لا يعلو عليه ، ولا ينازعه عَرْش آخر .

ثم يقول الحق سبحانه عن ذاته سبحانه :

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

فالله تعالى لا يُسأل عما يفعل ؛ لأن السائلَ له مراتب مع المسئول ، والعادة أن يكون المسئول فى مرتبة أَدْنى من السائل ؛ لذلك لا أحدَ يسأل الله تعالى عمَّا يفعل ، أمّا هو سبحانه فيسأل الناس .

لذلك قال بعض الظرفاء : الدليل على أن الله لا شريك له ، خَلْقه لفلان ، لأنه لو كان له شريك كان عارضه فى هذه المسألة .

إذن : لا أحدَ أعلى من الله ، حتى يسأله : لِمَ فعلتَ كذا وكذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

طالما اتخذوا من دون الله آلهة فهاتوا البرهان على صدْقها ، كما أن الله تعالى ـ وهو الإله الحق ـ أتى بالبراهين الدامغة على وجوده ، وعلى قدرته ، وعلى وحدانيته ، وعلى أحديته ، فهاتوا أنتم أيضاً ما لديكم ، أم أنها آلهة لا أدلةَ لها ولا برهانَ عليها ، فلم تنزل كتاباً ، ولا أرسلتْ رسولاً ، ولا جاءت بمنهج .

فأين هم إذن ؟ إذا لم يكونوا على دراية بما يحدث ، فهى آلهة غافلة لا يصح أنْ يحتلوا هذه المنزلة ، وإنْ كانوا على دراية فلمَ لَمْ

يُجابهوا الحقائق ويدافعوا عن أنفسهم ؟ إذن : هم ضعفاء عن هذه المواجهة .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنبياء] أى : هاتوا الدليل على وجود آلهة غير الله ، والبرهان : التدليل بإيجاد الكون على هذا النظام البديع ، فهل سمعتم أن إلهاً آخر قال : أنا الذى أوجدتُ ؟ هل أرسل رسولاً بآية ؟

إذن : هذا كلام كذب وافتراء واختلاق من عند أنفسكم ؛ لأنكم لستم أهلَ علم فى شىء ، ولا يعنى هذا عدمَ وجود العلم ، إنما العلم موجود ، ولكنكم مُعرِضون عن سماعه : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤)﴾ [الأنبياء]

كأن للحق سمات يعلم بها ، فَمَنْ أقبل على معرفة الحق وجده ، أما مَنْ أعرض عن المعرفة ، فمن أين له أنْ يعرفَ ؟ إذن : فالحق موجود ولو التمسوه لوجدوه وعرفوه ، وأمسكوا بالدليل عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾

إذن : فقضية التوحيد واضحة منذ بداية الرسالات إلى خاتمها ، الكل جاء بقول لا إله إلا الله قضية مشتركة بين جميع رسالات السماء .

وقوله تعالى : ﴿مِن رَّسُولٍ .. (٢٥)﴾ [الأنبياء] (مِنْ) هنا للشمول والتعميم ، يعنى : كل أفراد الرسل ، كلّ مَنْ يُقَال له رسول . فلو قال لك شخص : ما عندى مال ، لا يمنع هذا القول أن يكون عنده قليل

من المال ، قروش مثلاً لا يُقال لهـا مال ، فإنْ قال لك : ما عندى من مال فقد نفى وجود جنس المـال من بداية ما يقال له مال ، ما عندى حتى مليم واحد .

إذن : مـا جئـتم به من مـسألة الشـرك بالله أو إنكاره عـز وجل مسألة جديدة (موضة) طلعتُم علينا بها .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا[1] ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : تنزيهاً له أنْ يكون له ولد ، فقُلْ : إنْ كان له ، فله عباد مكرمون وهم الملائكة .

ومن صفات هؤلاء العباد المكرمين الذين هم الملائكة أنهم :

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ومع أنهم عبـاد مكرمون إنمـا لا يسبقـونه بالقول ، فـلا يقولون مـا لم يقُلْه ولا يتـقدمـون عليـه بقـول حتى إنْ وافق مـراد الله ، ولا يفـعلون ما لم يأمـر به ، وكأن الحق سـبحـانه يعطينا إشارة لبـعض آفات المجتمع ، فمن آفـات المجتمع أن ترى العظماء المكرمين إلا أنهم يصنعون لأنفسهم سلطة زمنية من باطنهم ، فيقولون ما لم يَقُلْه ربهم عز وجل ، ويفعلون ما لم يأمر به ، ويُقدِّمون أوامرهـم على أوامره .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يأتمرون بأمره ، فإنْ أمر فعلوا ، وإنْ نَهَى تركوا .

---

(١) قال القـرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٥٧) : « نزلت فـى خزاعة حيث قـالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعاً فى شفاعتهم لهم » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ﴾

الكلام هنا عن العباد المكرمين من الملائكة ، فمَع أن الله أكرمهم وفضَّلهم ، إلا أنه لم يتركهم دون متابعة ومراقبة ، إنما يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولم تُترك لهم مسألة الشفاعة يُدخلون فيها مَنْ أحبوا إنما ﴿ لا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. (٢٨) ﴾ [الأنبياء]

أى : لمن ارتضاه الله وأحبه ، فإياكم أنْ تفهموا أنكم حين تقولون : الملائكة بنات الله ، أو تعبدونهم من دون الله أنهم يكونون لكم شفعاء عند الله ؛ لأنهم لا يشفعون إلا لمنْ أحبّه الله ، وارتضاه من أهل الإيمان ، فلا تظن أنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾ [الأنبياء] أى : مُدلِّلُون يفعلون ما يحلو لهم ، لا ، إنهم مع ذلك ملتزمون بحدودهم لا يتعدونها ، فما أكرمتهم كل هذا الإكرام إلا لأنهم مطيعون ملتزمون .

وهم مع هذه الطاعة ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ﴾ [الأنبياء] فليسوا مع هذا الإكرام مطمئنين آمنين ، بل مشفقون خائفون وجلون من خشية الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ[1] مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾

(١) قال الضحاك : لم يقل ذلك أحد من الملائكة إلا إبليس ، دعا إلى عبادة نفسه وشرع الكفر . وقال قتادة : إنما كانت هذه خاصة لإبليس . [أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٢٥] .

أى : على فَرْض أنْ قال أحدهم هذا القول ، إذن : هذا كلام لم يحدث ، ولا يمكن أنْ يُقال منهم ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء] لماذا ؟ لأنهم أخذوا الظُّلم فى أعلى مراتبه وعُنفوانه وطغيانه ، ظلم فى مسألة القمة ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]

لذلك يُهدِّدهم ، مع أنهم ملائكة ومكرمون ، لكن إنْ بدر من أحدهم هذا القول فجزاؤه جهنم ، وفى هذا اطمئنان للخَلْق أجمعين .

● ● ●

بعد ذلك أراد الحق - سبحانه وتعالى - أنْ يُدلِّل على هذه الوحدانية التى أكَّدها فى كلامه السابق ، والوحدانية فى طَيِّها الأحدية ، لأن هناك فَرْقاً بينهما ، وليسا مترادفين كما يظن البعض ، فواحد وأحد وَصْفان لله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص] وقال : ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد]

فالواحد أى : الفرد الذى لا يُوجد له نظير ، وهذا الواحد فى ذاته أحد أى : ليس له أجزاء ، فالواحدية تمنع أنْ يُوجد فَرْد مثله ، والأحدية تمنع أن يكون فى ذاته مُكوّناً من أجزاء ؛ لأنه سبحانه لو كوّن من أجزاء لصار كل جزء محتاجاً فى وجوده إلى الجزء الآخر ، فلا احتياج له فى وجوده ليكوِّن كله ، إذن : فلا هو كلىّ ، ولا هو جزئى .

فاختار سبحانه للتدليل آيات الكون الموجودة والمشهودة التى لا يمكن أنْ ينكرها أحد ؛ لأنها آيات مُرتّبة واضحة ونافعة فى الوقت نفسه ، فقد يكون المرئى واضحاً لكن لا حاجةَ لك فيه - فالإنسان يشعر بمنفعة الشمس لو غابت عنه ، ويشعر بمنفعة المطر إن امتنعت السماء عن المطر .. إلخ .

فمشهودية هذه الآيات تقتضى الالتفات إليها ، والنفعية فيها تقتضى أيضاً الالتفات إليها ، حتى وهى غائبة عنك ، فتنظر وتتطلع إلى عودتها من جديد .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا(١) فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : أعميتْ أبصارهم ، فلم ينظروا إلى هذا الكون البديع الصنع المحكم الهندسة والنظام ، فيكفروا بسبب أنهم عَمُوا عن رؤية آيات الله . وهكذا كلما رأيت الهمزة بعد الواو والفعل المنفى .

لكن كيف يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] والحديث هنا عن السماء والأرض ، وقد قال تعالى ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] ؟

فهذه مسألة لم يشهدها أحد ، ولم يخبرهم أحد بها ، فكيف يرونْها ؟

سبق أن تكلمنا عن الرؤية فى القرآن ، وأن لها

(١) رتقاً : أى مرتوقتين أى متصلتين فى كتلة واحدة ، وبهذا يقول علم الفلك الحديث . [القاموس القويم ١/٢٥٤] . وقد أورد القرطبى فى تفسيره [٦/٤٤٥٩] آثاراً للسلف فى هذا ، منها : « قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعنى أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء » .

استعمالات مختلفة : فتارة تأتى بمعنى : نظر أى : بصرية . وتأتى بمعنى : علم ، ففى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل]

والنبى ﷺ لم يَرَ هذه الحادثة ولم يشهدها ؛ لأنه وُلد فى نفس عامها ، فالمعنى : ألم تعلم ، فلماذا عَدلَ السياق عن الرؤية البصرية إلى الرؤية العلمية ، مع أن رؤية العين هى آكد الرُّؤى ، حتى أنهم يقولون : ليس مع العَيْن أيْن ؟

قالوا : لأن الله تعالى يريد أن ينبه رسوله ﷺ : أنت صحيح لم ترهَا بعينيك ، لكن ربك أخبرك بها ، وإخبار الله أصدق من رؤية عينيك ، فإذا أخبرك الله بشىء فإخبار الله أصدقُ من رؤية العين ، فالعين يمكن أنْ تخدعك ، أو ترى بها دون أنْ تتأمل . أما إخبار الله لك فصادقٌ لا خداعَ فيه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣﴾ [مريم]

لكن ، كيف تمَّتْ الرؤية العلمية لهم فى مسألة خَلْق السموات والأرض ؟

قالوا : لأن الإنسانَ حين يرى هذا الكون البديع كان يجب عليه ولو بغريزة الفضول أنْ يتساءلَ : من أين جاء هذا الكون العجيب ؟ والإنسان بطبعه يلتفت إلى الشىء العجيب ، ويسأل عنه ، وهو لا يعنيه ولا ينتفع به ، فما بالُكَ إنْ كان شيئاً نافعاً له ؟

إذن : كان عليهم أن ينظروا : مَنِ الذى نبَّأ رسول الله بهذه المسألة ؟ خاصة وقد كانوا يسألون عنها ، وقد جاءهم رسول الله

بمعجزة تُثبت صدقه فى البلاغ عن الله ، وتُخبرهم بما كانوا يبحثون عنه ، وما دام الكلام من الله فهو صدق : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)﴾ [النساء]

وقد نزل القرآن وفى جزيرة العرب كفار عُبَّاد أصنام ، وفيها اليهود وبعض النصارى ، وهما أهل كتاب يؤمنون بإله وبرُسُل وبكتب ، حتى إنهم كانوا يجادلون الكفار الوثنيين يقولون لهم : لقد أطلّ زمان نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم(١) .

ومع ذلك ، لما جاءهم ما عرفوا من الحق كفروا به ، والتحموا بالكفار ، وكوَّنوا معهم جبهة واحدة ، وحزباً واحداً ، ما جمعهم إلا كراهية النبى ، وما جاء به من الدين الحق ، وما أشبهَ هذا بما يفعله الآن كُلٌّ من المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى من اتحاد ضد الإسلام .

إذن : بعد أنْ جاء الإسلام أصبح أهلُ الكتاب والكفار ضد الإسلام فى خندق واحد ، وكان الكفار يسمعون من أهل الكتاب ، وفى التوراة كلام عن خَلْق السماء والأرض يقول : إن الله أول ما خلق الخَلْق خلق جوهرة ، ثم نظر إليها نظرَ الهيبة فحصل فيها تفاعل وبخار ودخان ، فالدخان صعد إلى أعلى فكوَّنَ السماء ، والبقية ظلتْ فكوَّنت الأرض .

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم يعنى فى الأنصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعنى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » . أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٢٤) .

وهكذا كان لديهم طرف من العلم عن مسألة الخَلْق ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء]

وقد كان للمستشرقين كلام حول قوله تعالى : ﴿كَانَتَا رَتْقًا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] قالوا : السموات جمع ، والأرض كذلك جنس لها جمع ، فالقاعدة تقتضى أنْ نقول : كُنَّ رتقاً بضمير الجمع . وصاحب هذا الاعتراض لم يَدْرِ أن الله سبحانه وتعالى نظر إلى السماء كنوع والأرض كنوع ، فالمراد هنا السماوية والأرضية وهما مُثَنَّى .

وفى القرآن نظائر كثيرة لهذه المسألة ؛ لأن القرآن جاء بالأسلوب العربى المبنىّ على الفطْنة والذكاء ومُرونة الفهم . فخُذْ مثلاً قوله تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩)﴾ [الحجرات]

فلم يقُلْ حسْب الظاهر : اقتتلتَا ؛ لأن الطائفة وإنْ كانت مفرداً إلا أنها تحوى جماعة ، والقتال لا يكون بين طائفة وطائفة ، إنما بين أفراد هذه وأفراد هذه ، فالقتال ملحوظ فيه الجمع ﴿واقْتَتَلُوا.. (٩)﴾ [الحجرات] فإذا ما جئْنا للصُّلْح نرى أن الصُّلْح لا يتم بين هؤلاء الأفراد ، وإنما بين ممثل عن كل طائفة ، فالصُّلْح قائم بين طرفين ؛ لذلك يعود السياق للتثنية .

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ..(٩)﴾ [الحجرات]

والرَّتْق : الشىء الملتحم الملتصق ، ومعنى ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا .. (٣٠)﴾ [الأنبياء] أى : فَصلْناهما وأزحْنَا هذا الالتحام ، وما ذُكر فى التوراة من أن الله تعالى خلق جوهرة ، ثم نظر إليها فى هَيْبة ، فحصل لها كذا

وكذا في القرآن له ما يؤيده في قوله تعالي : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. (١١)﴾ [فصلت]

والعلماء ساعةَ يستقبلون الآية الكونية لهم فيها مذاهب اجتهادية مختلفة ؛ لأنها تتعرَّض لحقيقة الكون ، وهذا أمر قابل للخلاف ، فكلٌّ واحد منهم يأخذ منه على قَدْر ثقافته وعِلْمه .

فالعربى القديم لم يكُنْ يعرف كثيراً عن الظواهر الكونية ، لا يعرف الجاذبية ، ولا يعرف كُروية الأرض ولا حركتها ، فلو أن القرآن تعرَّض لمثل هذه الأمور التى لا يتسع لها مداركه وثقافته فلربما صرفه هذا الكلام الذى لا يفهمه ، ولك أنْ تتصوَّر لو قلتَ له مثلاً : إن الأرض كرة تدور بنا بما عليها من بحار وجبال الخ .

والقرآن بالدرجة الأولى كتاب منهج « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » لذلك كلُّ ما يتعلق بهذا المنهج جاء واضحاً لا غموض فيه ، أمَّا الأمور الكونية التى تخضع لثقافات البشر وارتقاءاتهم الحضارية فقد جاءت مُجْملةً تنتظر العقول المفكرة التى تكشف عن هذه الظواهر واحدةً بعد الأخرى ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعطينا مجرد إشارة ، وعلى العقول المتأمِّلة أنْ تُكملَ هذه المنظومة .

وقد كان لعلماء الإسلام موقفان فى هذه المسألة ، كلاهما ينطلق من الحب لدين الله ، والغرام بكتابه ، والرغبة الصادقة فى إثبات صدْق ما جاء به القرآن من آيات كونية جاء العلم الحديث ليقول بها الآن ، وقد نزل بها القرآن منذ أكثر من أربعةَ عشر قرناً من الزمان .

الموقف الأول : وكان أصحابه مُولعين بأنْ يجدوا لكل اكتشاف جديد شاهداً من القرآن ليقولوا : إن القرآن سبق إليه وأن محمداً ﷺ صادق فى بلاغه عن الله .

الموقف الثانى : أما أصحاب الموقف الآخر فكانوا يتهيَّبون من هذه المسألة خشية أن يقولوا بنظرية لم تثبت بَعْد ، ويلتمسون لها شاهداً من كتاب الله ، ثم يثبُت بطلانها بعد أنْ ربطوها بالقرآن .

والموقف الحق أن هناك فرقاً بين نظرية علمية ، وحقيقة علمية ، فالنظرية مسألة محلّ بحث ومحلّ دراسة لم تثبت بَعْد ؛ لذلك يقولون : هذا كلام نظرى أى : يحتاج إلى ما يؤيده من الواقع ، أمّا الحقيقة العلمية فمسألة وقعتْ تحت التجربة ، وثبت صدقها عملياً ووثقنا أنها لا تتغير .

فعلينا - إذن - ألاَّ نربط القرآن بالنظرية التى تحتمل الصدق أو الكذب ، حتى لا يتذبذب الناس فى فَهْم القرآن ، ويتهمونا أننا نُفسِّر القرآن حَسْب أهوائنا . أمّا الحقيقة العلمية الثابتة فإذا جاءت بحيث لا تُدفَع فلا مانعَ من ربطها بالقرآن .

من ذلك مُسألة كروية الأرض ، فعندما قال بها العلماء اعترض كثيرون وأثاروها ضجة وألَّفوا فيها كتباً ، ومنهم مَنْ حكم بكفر مَنْ يقول بذلك ؛ لأن هذه المسألة لم ينص عليها القرآن . فلما تقدم العلم ، وتوفرتْ له الأدلة الكافية لإثبات هذه النظرية ، فوجدوا الكواكب الأخرى مُدوَّرة كالشمس والقمر ، فلماذا لا تكون الأرض كذلك ؟!

كذلك إذا وقفتَ مثلاً على شاطئ البحر ، ونظرتَ إلى مركب قادم من بعيد لا ترى منها إلا طرفَ شراعها ، ولا ترى باقى المركب إلا إذا اقتربتْ منك ، عَلاَم يدلُّ ذلك ؟ هذا يدل على أن سطح الأرض ليس مستوياً ، إنما فيه تقوُّس وانحناء يدل على كُرويتها .

فلما جاء عصر الفضاء ، وصعد العلماء للفضاء الخارجى ، وجاءوا للأرض بصور ، فإذا بها كُروية فعلاً ، وهكذا تحولتْ النظرية

إلى حقيقة علمية لا تُدفع ، ولا جدال حولها ، ومَنْ خالفها حينما كانت نظرية لا يسعه الآن إلاّ قبولها والقول بها .

وما قلناه عن كُروية الأرض نقوله عن دورانها ، ومَنْ كان يصدق قديماً أن الأرض هى التى تدور حول الشمس بما عليها من مياه ومَبانٍ وغيره ؟ ولك أن تأخذَ كوزاً ممتلئاً بالماء ، واربطه بخيط من أعلى ، ثم أَدِرْه بسرعة من أسفل إلى أعلى ، تلاحظ أن فوهة الكوز إلى أسفل دَون أنْ ينسكب الماء ، لماذا ؟ لأن سرعة الدوران تفوق جاذبية الأرض التى تجذب الماء إليها ، بدليل أنك إذا تهاونتَ فى دوران الكوز يقع الماء من فُوهته ، ولا بُد من وجود تأثير للجاذبية ، فجاذبية الأرض هى التى تحتفظ بالماء عليها أثناء دورانها .

أما أن نلتقط نظرية وليدة فى طَوْر البحث والدراسة ، ثم نفرح بربطها بالقرآن كما حدث أوائل العصر الحديث والنهضة العلمية ، حين اكتشف العلماءُ المجموعةَ الشمسية ، وكانت فى بدايتها سبعة كواكب فقط مُرتَّبة حسب قُرْبها من الشمس فى المركز : عطارد ، فالزهرة ، فالأرض ، فالمريخ ، فالمشترى ، فزُحَل ، فأورانوس .

وهنا أسرع بعض علمائنا الكبار - منهم الشيخ المراغى - بالقول بأنها السموات السبع ، وكتبوا فى ذلك بحوثاً ، وفى القرآن الذى سبق إلى هذا . ومرَّتْ الأيام ، واكتشف العلماء الكوكب الثامن (نبتون) ، ثم التاسع[1] .

إذن : رَبْط النظرية التى لم تتأكد بَعْد علمياً بالقرآن خطأ كبير ، ومن الممكن إذا توفَّر لهم أجهزةٌ أحدث ومجاهر أكبر - كما يقول بعض علماء الفضاء - لاكتشفوا كواكب أخرى كثيرة ، لأن مجموعتنا الشمسية هذه واحدة من مائة مليون مجموعة فى المجرة التى نسميها

(١) لم يتم اكتشاف كوكب (بلوتو) إلا فى عام ١٩٣٠ م . [موسوعة المعرفة - ص ٣٧] .

(سكة التبَّانة) ، والإغريق يسمونها (الطريق اللبنى)[(١)] .

وهذه الكواكب التى نراها كبيرة وعظيمة ، لدرجة تفوق تصورات الناس ، فالشمس التى نراها هذه أكبر من الأرض بمليون وربع مليون مرة[(٢)] ، وهناك من الكواكب ما يمكنه ابتلاع مليون شمس فى جوفه . والمسافة بيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وتُحسب الدقيقة الضوئية بأن تُضرب فى ستين ثانية ، الثانية الواحدة السرعة فيها ١٨٦ ألف ميل يعنى : ثلاثمائة ألف كيلومتر[(٣)] .

أما المسافة بين الأرض والمرأة المسلسلة فقد حسبوها بالسنين الضوئية لا الدقائق ، فوجدوها مائة سنة ضوئية ، أما الشِّعْرى الذى امتنَّ الله به فى قوله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [النجم] فهو أبعد من ذلك . وهذه الكواكب والأفلاك كلها فى السماء الدنيا فقط ، فما دَخْل هذا بالسموات السبع التى تحدثوا عنها ؟!

لذلك حاول كثيرون من عُشَّاق هؤلاء العلماء أن يمحوا هذه المسألة من كتبهم ، حتى لا تكون سُبَّة فى حقِّهم وزلّة فى طريقهم العلمى .

كذلك من النظريات التى قالوا بها وجانبتْ الصواب قولهم : إن المجموعة الشمسية ومنها الأرض تكوَّنت نتيجة دوران الشمس وهى كتلة ملتهبة ، فانفصل عنها بعض (طراطيش) ، وخرج منها بعض الأجزاء التى بردتْ بمرور الوقت ، ومنها تكونت الأرض ، ولما بردتْ

---

(١) أول من وصف حزمة الضوء العريضة التى تعرف باسم الطريق اللبنى هو ديموكريتس والذى ذهب إلى أن الطريق اللبنى إنما يتكون من عدد وفير من النجوم بحيث لا يمكن لأحد أن يميز بينها ، ولقد أثبتت المناظير الفلكية الحديثة صحة ما ذهب إليه . [موسوعة المعرفة ص ٥] .

(٢) جاء فى « موسوعة المعرفة » (ص ٢٢) : « لو كانت الشمس كرة مفرغة لأمكنها أن تستوعب ١,٣٠٠,٠٠ كرة ، كل واحدة منها فى مثل حجم الأرض ، من قبل أن تمتلىء » .

(٣) أى : أن الشمس تبعد عن الأرض بحوالى ٩٤ مليون ميل ، ويصلنا ضوؤها الذى ينطلق بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية فى أكثر من ثمانى دقائق بقليل . [موسوعة المعرفة ص ٣٦] .

الأرض أصبحتْ صالحة لحياة النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان ، بدليل أن باطن الأرض ما يزال ملتهباً حتى الآن . وتتفجر منه براكين كبركان (فيزوف)[1] مثلاً .

والقياس العقلى يقتضى أن نقول : إذا كانت الأرض قطعة من الشمس وانفصلت عنها ، فمن الطبيعى أن تبرد مع مرور الزمن وتقلّ حرارتها حتى تنتهى بالاستطراق الحرارى ، إذن : فهذه نظرية غير سليمة ، وقولكم بها يقتضى أنكم عرفتم شيئاً عن خَلْق السموات والأرض ما أخبر الله به ، وقد قال تعالى : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥١) ﴾ [الكهف]

ثم يقول فى آية جامعة ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١) ﴾ [الكهف]

والمضلّ هو الذى يأخذ بيدك عن الحقيقة إلى الباطل ، وكأن الحق سبحانه يعطينا إشارة إلى ما سيكون من أقوال مُضلِّلة فى هذه المسألة تقول : حدث فى الخلق كيت وكيت .

والواجب علينا أن نأخذ هذه التفاصيل من الخالق - عز وجل - وأن نقف عند هذا الحد ، لأن معرفتك بكيفية الشىء ليست شرطاً لانتفاعك به ، فأنت تنتفع بمخلوقات الله وإن لم تفهم كيف خُلقَتْ ؟ وكيف كانت ؟ انتفعنا بكروية الأرض وبالشمس وبالقمر دون أن نعرف شيئاً عنها ، ووضع العلماء حسابات للكسوف وللخسوف والأوقات قبل أن تكتشف كروية الأرض .

فالرجل الأمىّ الذى لا يعلم شيئاً يشترى مثلاً « التليفزيون » ويتعلم كيفية تشغيله والانتفاع به ، دون أنْ يعلم شيئاً عن تكوينه أو كيفية عمله ونَقْله للصورة وللصوت .. الخ . فخُذْ ما فى الكون من

(١) يقع بركان « ڤيزوف » على بعد ١١ كم من مدينة نابولى بإيطاليا ، وهو عبارة عن بركان داخل بركان ، لأنه يقع فى فوهة حوض البركان الخامد المسمى مونت زوما . [موسوعة المعرفة - صفحة ١٠١٢] .

جمال وانتفع به كما خلقه الله لك دون أن تخوض فى أصل خَلْقه وكيفية تكوينه ، كما لو قُدِّم لك طعام شهىّ أتبحثُ قبل أن تأكل : كيف طُهِى هذا الطعام ؟!

وقد تباينتْ آراء العلماء حول هذه الآية ومعنى الرَّتْق والفَتْق ، فمنهم مَنْ قال بالرأى الذى قالتْه التوراة ، وأنها كانت جوهرة نظر الله إليها نظرة المهابة ، وحدث لها كذا وكذا ، وتكوَّنت السماء والأرض .

ومنهم مَنْ رأى أن المعنى خاصٌّ بكل من الأرض والسماء ، كل على حدَة ، وأنهما لم يكونا أبداً ملتحمتين ، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨)﴾ [عبس]

وفى موضع آخر قال : ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر]

فالمراد ـ إذن ـ أن الأرض وحدها كانت رَتْقاً ، فتفجرت بالنبات ، وأن السماء كانت رتْقاً فتفجرت بالمطر[1] ، فشقَّ الله السماء بالمطر ، وشَقّ الأرض بالنبات الذى يصدعها : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢)﴾ [الطارق]

وقال عن السماء : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. (٢٥)﴾ [الفرقان]

---

(١) قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضاً فيما ذكر المهدوى : إن السماوات كانت رتقاً لا تمطر ، والأرض كانت رتقاً لا تنبت ، ففتق السماء بالمطر ، والأرض بالنبات [تفسير القرطبى ٦/٤٤٦٠]

على اعتبار أن السماء كُلُّ ما علاك فأظلّك ، فيكون السحاب من السماء .

نفهم من هذا الرأى أن الفَتْق ليس فَتْقَ السماء عن الأرض ، إنما فتق كل منهما على حدَة ، وعلى كل حال هو فَهْم لا يُعطى حكماً جديداً ، واجتهاد على قَدْر عطاء العقول قد تُثبته الأيام ، وقد تأتى بشىء آخر ، المهم أن القوليْن لا يمنع أحدُهما الآخر .

وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] قال أصحاب التأويل الثانى : ما دام ذكر هنا الماء ، فلا بُدَّ أن له صلة بالرَّتْق والفَتْق فى كل من الأرض والسماء .

ونلحظ أن الآية لم تَقُلْ : كل شىء حيًّا ، إنما ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] وقد استدلوا بها على أن الحىَّ المراد به الحياة الإنسانية التى نحياها ، ولم يفطنوا إلى أن الماء داخلٌ فى تكوين كل شىء ، فالحيوان والنبات يحيا على الماء فإنْ فَقَد الماء مات وانتهى ، وكذلك الأدنى من الحيوان والنبات فيه مائية أيضاً ، فكُلُّ ما فيه لمعة أو طراوة أو ليونة فيه ماء .

فالمعنى ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : كل شىء مذكور موجود .

والتحقيق العلمى أن لكل شىء حياةً تناسبه ، وكل شىء فيه ماء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

والحق سبحانه يخاطبهم وهم أحياء ، إذن : يحييكم أى : حياة أخرى لها قيمة ؛ لأن حياتكم هذه قصاراها الدنيا ، إنما استجيبوا لحياة أخرى خالدة هى حياة الآخرة .

وسُمِّى الشىء الذى يتصل بالمادة ، فتدبّ فيها الحياة روحاً ، فقال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى .. (٢٩) ﴾ [الحجر]

وسُمِّى المنهج الذى ينزل من السماء لهداية الأرض روحاً ، وسُمِّى الملَك الذى ينزل به روحاً ؛ لأنه يعطينا حياة دائمة باقية ، لا فناء لها ، وهكذا يتم الارتقاء بالحياة .

فإذا نزلنا أدنى من ذلك وجدنا للحيوان حياة ، وللنبات حياة ، فالحيوان يَنْفَق ويموت ، والنبات إنْ منعتَه الماء جَفَّ وذَبُل وانتهى . أما الجماد فله حياة أيضاً ، بدليل قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فوَصَف كل ما يقال له شىء بأنه هالك ، والهلاك ضد الحياة ، فلا بُدَّ أن تكون له حياة ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾[الأنفال] فالحياة ضدُّها الهلاك .

إذن : فكل شىء فى المخلوقات حتى الجماد له حياة ، وفى تكوينه مائية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء]

ويختتم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ [الأنبياء] يعنى : أعَمُوا عن هذه الآيات التى نُبِّهوا إليها ، وامتنعوا عن الإيمان ؟ فكان يجب عليهم أنْ يلتفتوا إلى هذه الآيات العجيبة والنافعة لهم ، كيف والبشر الآن يقفون أمام مخترع أو آلة حديثة أو حتى لُعبة تبهرهم فيقولون : مَنْ فعل هذه ؟ ويُؤرِّخون له ولحياته ، وتخرَّج فى كلية كذا ... الخ .

فمن الأَوْلى أنْ نلتفتَ إلى الخالق العظيم الذى أبدع لنا هذا الكون ، فالانصراف ـ إذن ـ عن آيات الله والإعراض عنها حالة غير طبيعية لا تليق بأصحاب العقول .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا(١) سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾

الرواسى : الجبال جمع رَاسٍ يعنى : ثابت ، وقد عبر عنها أيضاً بالأوتاد ، فقال : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) ﴾ [النبأ] شبَّه الجبال بالنسبة للأرض بالأوتاد بالنسبة للخيمة .

ثم يذكر علَّة ذلك : ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ .. (٣١) ﴾ [الأنبياء] أى : مخافة أن تميل وتضطرب وتتحرك بهم ، ولو أنها مخلوقة على هيئة الثبوت ما كانت لتميد أو تتحرك ، وما احتاجت لأنْ يُثبِّتها بالجبال ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨) ﴾ [النمل]

فليس غريباً الآن أن نعرف أن للجبال حركة ، وإنْ كنا لا نراها ؛ لأنها ثابتة بالنسبة لموقعك منها ؛ لأنك تسير بنفس حركة سيرها ، كما لو أنك وصاحبك فى مركب ، والمركب تسير بكما ، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنك تتحرك بنفس حركته .

وقد شبَّه الله حركة الجبال بمرِّ السحاب ، فالسحاب لا يمرُّ بحركة ذاتية فيه ، إنما يمرُّ بدفْع الرياح ، كذلك الجبال لا تمرُّ بحركة ذاتية إنما بحركة الأرض كلها ، وهذا دليل واضح على حركة الأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً .. (٣١) ﴾ [الأنبياء] أى : من حكمة الله أنْ جعل لنا فى الأرض سُبُلاً نسير فيها ، فلو أن الجبال كانت كتلة تملأ وجه الأرض ما صلُحَتْ لحياة البشر وحركتهم

---

(١) الفج : الطريق الواضح الواسع ، وجمعه فجاج . [القاموس القويم ٢/ ٧٢] . والفجاج : المسالك ، والفج : الطريق الواسع بين الجبلين . [تفسير القرطبى ٦/ ٤٤٦٢] .

فيهـا ، فقال ﴿ فِجَاجًا سُبُلاً .. (٣١) ﴾ [الأنبياء] أى : طرقاً واسعة في الوديان والأماكن السهلة . وفى موضع آخر قال : ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح]

ومعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا .. (٣١) ﴾ [الأنبياء] يصح فى الجبال أو فى الأرض ، ففى كل منهمـا طرق يسلكها الناس ، وهى فى الجـبال على شكل شعَاب ووديان .

ثم يذكـر سبحـانه علَّة ذلك ، فـيقـول : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] والهداية هـنا تحتمل مـعنيين : يهـتدون لخـالقها ومـكوِّنها ، ويستـدلون بها على الصـانع المـبدع سبـحانه ، أو يهتـدون إلى البلاد والأمـاكن والاتجـاهات ، وقـديمـاً كانوا يـتخـذون من الجـبـال دلائل وإشارات ويجعلونها علامات ، فيصفون الأشياء بمواقعها من الجبال ، فيقولون : المكان الفلانى قريب مـن جبل كذا ، وعلى يمين جبل كذا ، وقد قال شاعرهم :

خُذَا بَطْنَ هِرْشَى[1] أو قَفَاهَا فَإنَّهُ ... كِلاَ جَانبَى هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ[2]

فالهداية هنا تشمل هذا وذاك ، كـما فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل] أى : يهـتـدون إلـى الطرق والاتجـاهات ، وكان العـربى يقول مـثلاً : اجـعل الثُّريَا عن يمـينك أو النجم القطبـى ، أو سهـيل أو غـيرهـا ، فكانوا على علم بمـواقع هذه النجوم ويسيرون على هَدْيها .

---

(١) هرشى : ثنية فى طريق مكة قريبة من الجُحْفـة يُرَى منها البحر ، ولها طريقان ، فكلٌ من سلكهما كان مصيباً . [لسان العرب ـ مادة : هرش] .

(٢) أورد ابن منظور هذا البـيت فى لسان العرب ، ولم يعـزه لأحد . [لسان العـرب ـ مادة : هرش] .

أو : يهتدون إلى أن للنجوم علاقة بحياة الإنسان الحيِّ ، وقديماً كانوا يقولون : فلان هَوَى نَجْمه ، كأن لكل واحد منا نجماً فى السماء له علاقة ما به ، وهذه يعرفها بعض المختصين ، وربما اهتدوا من خلالها إلى شيء ، شريطة أن يكونوا صادقين أمناء لا يخدعون خَلْق الله .

ويُؤيِّد هذا قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة] أى : لو كنتم على معرفة بها لعلمتُم أن للنجوم دوراً كبيراً وعظيماً فى الخَلْق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)﴾

سمَّى السماء سقفاً ؛ لأن السماء كل ما علاك فأظلّك ، وفرْقٌ بين سقف من صنع البشر يعتمد على أعمدة ودعائم .. الخ ، وسقف من صُنْع الخالق العظيم ، سقف يغطى الأرض كلها ومحفوظ بلا أعمدة ، سقف مُسْتوٍ لا نتوءَ فيه ولا فتور .

والسماء أخذتْ دوراً تكوينياً خصَّها الله به كما خَصَّ آدم عليه السلام . فالخَلْق جميعاً خُلقوا بكُنْ من أب وأم ، أمّا آدم فقد خُلق خلقاً مباشراً بيد الله سبحانه ، لذلك قال تعالى : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ.. (٧٥)﴾ [ص] وهذا شرف كبير لآدم .

وكذلك قال فى خَلْق السماء : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ[1] .. (٤٧)﴾[الذاريات]

---

(١) بأييد : أى بقوة وقدرة . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٣٧) .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ ٧ ﴾ [الذاريات] يعنى : محبوكة ومحكمة ، والحبكة معناها أن ذراتها التى لا تُدرَك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحام ذرات ؛ لذلك ترى السماء ملساء ؛ ولذلك قال عنها الخالق عز وجل : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا[1] فَسَوَّاهَا ۝ ٢٨ ﴾ [النازعات]

ولك أن تلاحظ صنعة البشر إذا أراد أحدنا أنْ يبنىَ مثلاً ، أو يصنع سقفاً ، فالبناء يُبنى بمنتهى الدقة ، ومع ذلك ترى طوبة بارزة عن طوبة ، فيأتى عامل المحارة فيحاول تسوية الجدار ، ويزنه بميزان الماء ، ومع ذلك نجد فى الجدار تعاريج ، ثم يأتى عامل الدهانات ، فيحاول إصلاح مثل هذه العيوب فيعد لها معجوناً ويكون له فى الحائط دور هام .

وبعد أن يستنفد الإنسان كل وسائله فى إعداد بيته كما يحب تأتى بعد عدة أيام ، فترى الحق - سبحانه وتعالى - يُعدِّل على الجميع ، ويُظهر لهم عيوب صنعتهم مهما بلغتْ من الدِّقة بقليل من الغبار ينزل عمودياً فيُريك بوضوح ما فى الحائط من عيوب .

وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كل منهم وحَذَقه فى عمله ، فما بالك إنْ كان الصانع هو الله الذى يبنى ويُسوِّى ويُزيِّن ؟

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا[2] مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ .. ۝ ٣ ﴾ [الملك]

وانظر إلى أمهر الصُّناع الآن ، يُسوِّى سقفاً لعدة حجرات ،

---

(١) أى : جعل سقفها مرفوعاً عالياً ، أو جعل المسافة بينها وبين الأرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٢٩] .

(٢) أى : طبقة فوق طبقة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٩٦) : « أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هُنَّ متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان : أصحهما الثانى كما دل على ذلك حديث الإسراء » .

ويستخدم مادة واحدة ويُلوِّنها بلون واحد ، لابُدَّ أن تجد اختلافاً من واحدة للأخرى ، حتى إنْ خلط العامل اللون مرة واحدة لكل الحجرات يأتى اللون مختلفاً ، لماذا ؟ لأنه حين يأخذ من هذا الخليط تجد ما يتبقى أكثر تركيزاً ، فإذا لم يكمل العمل فى نفس اليوم تجد ما تبقَّى إلى الغد يفقد كمية من الماء تؤثر أيضاً فى درجة اللون .

ومعنى ﴿ مَّحْفُوظًا .. (٣٢) ﴾ [الأنبياء] أى : فى بنية تكوينه ؛ لأنه مُحْكَم لا اختلافَ فيه ، ولا يحفظ إلا الشىء النفيس ، تحافظ عليه لنفاسته وأصالته . لكن من أىِّ شىء يحفظه الله ؟ يحفظها أن تمور ، يحفظها أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٦٥) ﴾ [الحج]

وقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ .. (٢٥) ﴾ [الروم]

إذن : فى خَلْق السماء عظمة خَلْق ، وعظمة تكوين ، وعظمة صيانة تناسب قدرته تعالى ، ولا يقدر عليها إلا الله . فالصيانة من عندنا نحن ، ولن نترك لكم صيانتها ، وإنْ كانت لا تحتاج إلى صيانة لأنها صنعتنا .

ومن المسائل التى بيَّنها لنا الحق - سبحانه وتعالى - فى أمر السماء مسألة استراق السمع ، فكانت الشياطين قبل الإسلام تسترق السمع[1] ، لكن بعد رسالة محمد ﷺ شاء الحق سبحانه ألاَّ يدلس على دعوته بسماع شيطان يُوحى إلى أعدائه ، فمنع الجن من استراق السمع بالشُّهُب ، فقال سبحانه :

---

(١) قال تعالى عن الجن أنهم قالوا : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ [الجن] قال ابن عباس : كان الشياطين لهم مقاعد فى السماء يستمعون فيها الوحى ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً ، فأما الكلمة فتكون حقاً ، وأما ما زادوا فيكون باطلاً ، فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنعُوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس : ما هذا الأمر إلا لأمر حدث فى الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلى بين جبلى نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض . أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن جرير وأبو نعيم فى دلائل النبوة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٨/٣٠٢]

﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين ﴿١٦﴾ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴿١٧﴾ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴿١٨﴾﴾ [الحجر]

ثم يقول سبحانه : ﴿وهم عن آياتها معرضون ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء] كأن للسماء آيات خاصة بها ، ففى الكون آيات كثيرة ، وللسماء آياتها ، فالشمس والقمر والنجوم والأفلاك من آياتها .

وبعد ذلك نسمع من رجال الأرصاد أن من كواكب السماء ما لم يصلنا ضوؤه منذ خلق الله الأرض حتى الآن ، مع أن سرعة الضوء ثلثمئة ألف كيلومتر فى الثانية ، ويمكن أن نفهم هذا فى ضوء قوله تعالى : ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات]

لذلك يعطينا رسول الله ﷺ صورة تقريبية لهذه المسألة ، حتى لا نرهق أنفسنا بالتفكير فيها : « ما السموات والأرض وما بينهما بالنسبة لملك الله إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة »[1] .

ومع ذلك لما صعد رواد الفضاء للقمر سارع بعض علمائنا من منطلق حبهم للإسلام وإخلاصهم للقرآن بالقول بأنهم صعدوا للسماء ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن]

والمراد هنا : سلطان العلم الذى مكنهم من الصعود .

لكن ما داموا نفذوا بسلطان العلم ، فلماذا قال بعدها : ﴿يرسل عليكما شواظ[2] من نار ونحاس فلا تنتصران ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمن] إذن :

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٤ ـ موارد الظمآن) من حديث طويل لأبى ذر الغفارى وفيه « يا أبا ذر ، ما السماوات السبع مع الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة » .

(٢) الشواظ : بضم الشين وكسرها ، القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ٣٦١/١] .

السلطان المراد ليس هو سلطان العلم كما يظنون ، إنما المراد سلطانٌ مِنِّى ، بإذنى وإرادتى .

ولو كان الأمر كما يقولون لقالوا لرسول الله ﷺ لما أخبرهم بالمعراج : كيف تقول ذلك يا محمد وربك هو القائل : ﴿ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ(١) السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن]

إذن : المراد هنا سلطان من الله تعالى هو سبحانه الذى يأذن بهذه المسألة ، فتُفتَّح له أبواب السماء .

ثم ما علاقة القمر بالسماء ؟ والكلام عن النفاذ من أقطار السموات ، وأين القمر من السماء ؟ إن المسافة بين الأرض والقمر سنتان ضوئيتان ، فالقمر - إذن - ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض ، كالمعادى مثلاً بالنسبة للقاهرة ، فأىُّ سماء هذه التى يتحدثون عنها ؟!

وقوله تعالى : ﴿ مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء] سبق أن تحدّثنا عن الإعراض ، وهو الانصراف عن الشىء مِنْ أعرض يعنى: أعطاه ظهره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يمتنّ ببعض خَلْقه ، ولا يمتن الله إلا

---

(١) الأقطار : جمع قُطر ، وهو الناحية والجانب ، فأقطار السماوات والأرض : نواحيها . [لسان العرب - مادة : قطر] .

بشىء عظيم ونعمة من نعمه على عباده ، ومن ذلك الليل والنهار ، وقد أقسم سبحانه بهما فى قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ②﴾ . [الليل]

وقال : ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②﴾ [الضحى] فالليل والنهار آيتان متكاملتان ، ليستا متضادتين ، فالأرض خلقها الله ليعمرها خليفته فيها : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ⑥١﴾ [هود]

أى : طلب منكم عمارتها بما أعطاكم الله من مُقوِّمات الحياة ، فالعقل المدبر ، والجوارح الفاعلة ، والقوة ، والمادة كلها مخلوقة لله تعالى ، وما عليك إلا أنْ تستخدم نِعَم الله هذه فى عمارة أرضه ، فإذا ما تَمَّتْ الحركة فى النهار احتاج الجِسم بعدها إلى الراحة فى الليل .

لذلك كان النوم آية عُظْمى من آيات الله للإنسان تدلّ على أن الخالق ـ عز وجل ـ أمين على النفس أكثر من صاحب النفس .

لذلك نرى البعض منّا يُرهق نفسه فى العمل ، ولا يعطى لجسده راحته الطبيعية ، إلى أَنْ يصيرَ غير قادر على العمل والعطاء ، وهنا يأتى النوم كأنه رادع ذاتىٌّ فيك يُجبرك على الراحة ، ويدقُّ لك ناقوس الخطر : أنت لستَ صالحاً الآن للعمل ، ارحم نفسك وأعطها حقَّها من الراحة . فإنْ حاولتَ أنت أنْ تنام قبل وقت النوم يتأبَّى عليك ولا يطاوعك ، أما هو فإنْ جاء أخذك من أعتى المؤثرات . وغلبك على كل شىء فتنام حتى على الحصى .

وفى المثل العربى : (فراش المتعَب وطىء ، وطعام الجائع هَنِىء) أى : حين ينام الإنسان المتعَب المجهد ينام ، ولو على

الحصى ، ولو دون أىِّ وسائل للراحة ، ومع ذلك ينام نَوْمة مريحة .

وفى المثل أيضاً : (النوم ضيف ، إنْ طلبتَه أعْنَتَك ، وإنْ طلبك أراحك) والحق سبحانه يُحدِّثنا عن آية النوم فى موضع آخر : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم]

وهنا احتياط وملْحظ ، فإنْ كان النوم بالليل للسكن وللراحة ، فهناك مَنْ يعملون بالليل ، فينامون بالنهار كالحرّاس ورجال الشرطة والخبازين وغيرهم ، وهؤلاء لا مانعَ أن يناموا بالنهار ليسايروا حركة الحياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] نعم هناك آيات أخرى كثيرة فى كَوْن الله ، لكن أوضحها وأشهرها : الشمس والقمر فهما تحت المشاهدة ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] فالليل والنهار والشمس والقمر يدور كُلٌّ منهم خَلْف الآخر ويخلفه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. ﴿٦٢﴾ ﴾[الفرقان]

وكلمة ﴿ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] تعبير قرآنى دقيق للأداء الحركى ، وهى مأخوذة من سبحة السمك فى الماء حيث يسبح السمك فى ليونة الماء بحركة انسيابية سهلة ؛ لأن الحركة لقطع المسافات إما حركة انسيابية ، وإما حركة قفزية .

وتلاحظ هاتين الحركتين فى عقارب الساعة ، فلو لاحظتَ عقرب الثوانى مثلاً لوجدّتَه يتحرّك حركة قفزية ، يعنى : ينطلق من الثبات إلى الحركة إلى الثبات ، فالزمن فيه جزء للحركة وجزء للسكون . أما عقرب الدقائق فيسير بحركة انسيابية مستمرة ، كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة ، وهكذا تكون سُبْحة السمك ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ ﴾ [النازعات]

وكذلك تكون حركة الظل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] وأيضاً حركة نمو الطفل ، فلو أدمْتَ النظر إلى طفلك الصغير لا تكاد تلاحظ عليه مظاهر النمو ، وكأنه لا يكبر أمام عينيك ، أمّا لو غبْتَ عنه مثلاً عدة شهور يمكن أن تلاحظ نُموه ؛ ذلك لأن النمو حركة مُوزّعة على كل ثانية فى الزمن ، لا أن النمو يتجمع ثم يظهر فجأة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) ﴾

ذلك لأن الكفار حاولوا قتل النبى ﷺ بإلقاء حجر عليه من مكان عال[1] وهكذا يتخلَّصون منه ﷺ ، وكانوا يتمنون ذلك ، فيخاطبه ربه : يا محمد لست بدعاً من الرسل ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر]

وهذه سُنَّة الله فى خَلْقه ، بل موتك يا محمد لنسرع لك بالجزاء على ما تحمّلْته من مشاقٍّ الدعوة ، وعناء الحياة الدنيا .

لذلك لما خُيِّر رسول الله ﷺ فى الموت قال : « بل الرفيق الأعلى»[2] أما نحن فنتشبث بالحياة ، ونطلب امتدادها .

---

(١) أتى رسول الله ﷺ يهود بنى النضير ليعيناه فى دية قتيلين قُتلا ، فقالوا : نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمَنْ رجل يعلو على هذا البيت ، فيُلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش ، فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة ، فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم . [السيرة النبوية - لابن هشام ٣/ ١٩٠] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦/ ٢٧٤) من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما أسمعه يقول : إن الله لم يقبض نبياً حتى يخيره قالت : فلما حُضِر رسول الله ﷺ كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » .

فقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ .. (٣٤) ﴾ [الأنبياء] فأنت كغيرك من البشر قبلك ، أما مَنْ بعدك فلن يخلدوا بعد موت ﴿ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) ﴾ [الأنبياء] فلا يفرحوا بموتك ؛ لأنهم ليسوا خالدين من بعدك .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾

إذن : فالموت قضية كونية عامة ، وهى فى حقيقتها خَيْر ، فإنْ كانوا أخياراً نُعجِّل لهم جزاءهم عند الله ، وإنْ كانوا أشراراً فقد أراحَ اللهُ منهم البلاد والعباد .

لكن ، كيف يُذَاق الموت ؟ الذَّوْق هنا يعنى إحساسَ الإنسان بالألم من الموت ، فإنْ مات فعلاً يستحيل أنْ يذوق ، أما قبل أن يموت فيذوق مقدمات الموت ، والشاعر يقول :

وَالأَسَى بَعْد فُرْقَة الرُّوحِ عَجْزٌ وَالأَسَى لاَ يكُونُ قَبْل الفِرَاقِ

فعلى أىِّ شىء يحزن الإنسان بعد أن يموت ؟ ولماذا الحزن قبل أن يموت ؟

فالمراد ـ إذن ـ ذائقةٌ مقدمات الموت ، التى يعرف بها أنه ميت ، فالإنسان مهما كان صحيحاً لابُدّ أنْ يأتى عليه وقت يدرك أنه لا محالةَ ميت ، ذلك إذا بلغت الروح الحلقوم ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) ﴾ [القيامة] فالموت فى هذه الحالة أمر مقطوع به .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. (٣٥) ﴾ [الأنبياء] أى : نختبركم ، والابتلاء لا يُذَمُّ فى ذاته ، إنما تذم غاية الابتلاء :

أينجح فيه أم يفشل ؟ كما نختبر الطلاب ، فهل الاختبار فى آخر العام شَرٌّ ؟ لكن هل الحق سبحانه فى حاجة لأنْ يختبر عباده ليعلم حالهم ؟ الحق يختبر الخَلْق لا ليعلم ، ولكن ليقيم عليهم الحجة .

والمخاطب فى ﴿ نَبْلُوكُم .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] الجميع : الغنى والفقير ، والصحيح والسقيم ، والحاكم والمحكوم .. الخ .

إذن : كلنا فتنة ، بعضنا لبعض : فالغنىّ فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغنى ، كيف ؟ الفقير : هل يصبر على فقره ويرضى به ؟ هل سيحقد على الغنى ويحسده ، أم يقول : بسم الله ما شاء الله ، اللهم بارك له ، وأعطنى من خَيْرك ؟ والغنى : هل يسير فى ماله سَيْراً حسناً ، فيؤدى حقَّه ، وينفق منه على المحتاجين ؟

وهكذا ، يمكنك أنْ تُجرى مثل هذه المقابلات لتعلم أن الشر والخير كلاهما فتنة واختبار ، ينتهى إما بالنجاح وإما بالفشل ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء] لنجازى كُلاًّ على عمله ، فإنْ حالفك التوفيق فلَكَ الأجر والمكافأة ، وإنْ أخفقتَ فلَكَ العقوبة ، فلا بُدَّ أن تنتهى المسألة بالرجوع إلى الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى[1] :

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : « مرّ النبى ﷺ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبى سفيان : هذا نبى بنى عبد مناف . فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكرون أن يكون لبنى عبد مناف نبى ، فسمعها النبى ﷺ فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوّفه وقال : ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك . وقال لأبى سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية » فنزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا ..﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] . الآية » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٣٠) .

هذا خطاب لرسول الله ﷺ عن واقعٍ حدثَ له مع الكفار : ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا .. (٣٦)﴾ [الأنبياء] و (إنْ) هنا ليست شرطية ، إنما للنفى كما فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ.. (٢)﴾ [المجادلة] أى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولَدْنهم .

فالمعنى : إذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا هُزُواً ، أى : يهزأون بك ، لكن ما وَجْه الهُزْو هنا ؟

قولهم : ﴿أَهَـٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ .. (٣٦)﴾ [الأنبياء] أى : يعيبها ويسبُّها ، ويقول عنها : إنها باطلة ومعنى ﴿أَهَـٰذَا .. (٣٦)﴾ [الأنبياء] كأنهم يستقلّونه ، ويستقلّون أنْ يقول هذا عن آلهتهم .

والذكر قد يكون بالخير ، وقد يكون بالشر ، فإنْ ذكرك صديق تتوقع أنْ يذكرك بخير ، وإنْ ذكرك عدو تتوقع أنْ يذكرك بشرٍّ ، وطالما أن محمداً سيذكر آلهتهم ، فلا بُدَّ أنه سيذكرها بشرٍّ ، والشر الذى ذكره محمد عن آلهتكم أنها أصنام وحجارة لا تضرُّ ولا تنفع :

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ .. (١٤)﴾ [فاطر]

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)﴾ [الأنبياء] فكيف تتعجبون وتغضبون أنْ يسُبَّ محمد آلهتكم الباطلة ، وأنتم تسبُّون الإله الحق ، وتكفرون به ، ونلحظ أن السياق ذكر الضمير العائد عليهم مرتين : ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦)﴾ [الأنبياء] ليؤكد أن ذلك حدث منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ[1] سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾

معنى : ﴿ مِنْ عَجَلٍ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مُتعجِّلاً كأن فى طينته عجلة ، والعجلة أن تريد الشىء قبل نُضْجه وقبل أوانه ، وقد يتعجَّل الإنسان الخير ، وهذا أمر جائز ، أما أنْ يتعجَّل الشر فهذا هو الحمق بعينه والغباء ، ألم يقولوا لرسول الله : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

ألم يقولوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

إذن : تعجَّل هؤلاء العذاب ؛ لأنهم غير مؤمنين به ، لا يُصدِّقون أن شيئاً من هذا سيحدث ؛ لذلك يردُّ عليهم : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء] وخاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

أى : سنُريك فيهم آياتنا ، وسترى ما وعدناهم من العذاب ، فإنْ قبضناك إلينا فسترى ما ينزل بهم فى الآخرة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

---

(١) أى : طبع الإنسان العجلة ، فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرة . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٦٥] .

وهذا استبطاء منهم لوَعْد الله بالآخرة والعَرْض عليه سبحانه ، وأنه سيُعذِّبهم بالنار التى تُنضج جلودهم ، ويُبدِّلهم الله جلوداً غيرها .. الخ ؛ لأنهم لا يُصدِّقون هذا ولا يؤمنون به ، وسبق أنْ قالوا لرسول الله : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) ﴾ [الإسراء]

ثم يقول تعالى :

﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) ﴾

أى : لو يعلمون ما يحدث لهم فى هذا الوقت حين لا يستطيعون دَفْع النار عن وجوههم ، وذكر الوجه بالذات لأنه أشرف أعضاء الإنسان وأكرمها ؛ لذلك إذا أصابك أذىً فى وجهك تحرص على إزالته بيدك ، وأنت لم تفعل أكثر من أنك نقلْتَ الأذى من وجهك إلى يدك ، لماذا ؟ لأن الوجه عزيز عليك ، لا تقبل إهانته ، ولا تتحمَّل عليه أيَّ سوء.

فقوله تعالى : ﴿ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ .. (٣٩) ﴾ [الأنبياء] دلالة على إهانتهم ﴿ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ .. (٣٩) ﴾ [الأنبياء] لأنها تأتيهم من كل مكان : ﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) ﴾ [الأنبياء] أى : لا يجدون مَنْ ينقذهم ، أو يأخذ بأيديهم ويدفع عنهم .

حتى الشيطان الذى أغواهم وأغراهم فى الدنيا سيتبرّأ منهم يوم القيامة ، ويقول : ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] وأصرخه : أزال سبب صراخه ، والهمزة فى أصرخه تسمى

همزة إزالة ، تقول : صرخ فلان إذا وقع عليه ما هو فوق طاقته واحتماله ، فيصرخ صرخةً يستدعى بها مَنْ يغيثه ويُعينه ، فإنْ أجابه وأزال ما هو فيه فقد أصرخه ، يعنى : أزال سبب صراخه . فالمعنى : لا أدافع عنكم ، ولا تدافعون عنى ، ولا أنقذكم من العذاب ، ولا تنقذوننى .

وفى موضع آخر : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر] فحظُّ الشيطان أنْ يُوقعك فى المعصية ، ثم يتبرأ منك .

فما جواب (لو) هنا ؟ المعنى : لو يعلم الذين كفروا الوقت الذى لا يكفُّون فيه النار عن وجوههم ، ولا عن ظهورهم ولا يُنصرون لكفّوا عما يُؤدِّى بهم إلى ذلك ، وانتهَوْا عن أسبابه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) ﴾

أى : القيامة ، والبغتة : نزول الحدث قبل توقعه لذلك ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ .. (٤٠) ﴾ [الأنبياء] من البهت : أى : الدهشة والحيرة ، فإذا ما باغتتهم القيامة يندهشون ويتحيرون ماذا يفعلون ؟ وأين يفرون ؟

والبغتة تمنع الاستعداد والتأهُّب ، وتمنع المحافظة على النفس . ومن ذلك ما كانوا يفعلونه أوقات الحروب من صافرات الإنذار التى تُنبّه الناس إلى حدوث غارة مثلاً ، فيأخذ الناس استعدادهم ، ويلجئون إلى المخابىء ، أمّا إن داهمهم العدو فجأة فلن يتمكنوا من

ذلك ، ولن يجدوا فرصة للنجاة من الخطر .

ومن البَهْت قوله تعالى فى قصة الذى حَاجَّ إبراهيم عليه السلام فى ربه : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : لا يُمهلون ولا يُؤخَّرون ، فليست المسألة تهديداً وننصرف عنهم إلى وقت آخر ، إنما هى الأَخْذة الكُبْرى التى لا تُرَدُّ عنهم ولا تُؤخَّر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

سبق أنْ خاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ بقوله : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ..﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] لذلك يُسلِّيه هنا : لست بدعاً من الرسل ، فَخُذْ هذه المسألة بصدر رَحْب ، فلقد استهزىء بالرسل من قبلك فلا تحزن ، فسوف يحيق بهم ما صنعوا ، ويجدون عاقبة هذا الاستهزاء .

كما جاء فى قصة نوح عليه السلام : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود] فيردُّ نوح : ﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود] أى : انتظروا النهاية ، وسوف ترون !!

ومعنى ﴿ فَحَاقَ.. ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : حَلَّ ونزل بقسوة ﴿ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنبياء]

وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين] أى : مسرورين فرحين ، وهذا دليل على لُؤْمِهم ورذالة طباعهم ، فلم يكتفوا بالاستهزاء ، وإنما يحكونه ويتبجحون به .

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

هل استطعنا أنْ نُجازيهم بما عملوا ؟ نعم يا ربِّ .

ولا ننسى أن استهزاء الكفار بأهل الحق استهزاء موقوت بوقته فى الدنيا ، أمّا استهزاء الله بهم فاستهزاء أبدىّ لا نهايةَ له . ويجب هنا أن نتنبه لهذه المسألة ، فكثيراً ما يتعرض أهل الإيمان للاستهزاء وللسخرية من أهل الباطل ، وهؤلاء الذين يسخرون منهم لأجلهم يصون الله لهم الحياة ويدفع عنهم العذاب ، كما جاء فى الحديث القدسى : « فلولا أطفال رُضَّع ، وشيوخ رُكّع ، وبهائم رُتَّع[1] لصببتُ عليكم العذاب صباً »[2] .

فحين ترى تقياً ، فإذا لم تشكره على تقواه وتقتدى به فلا أقلَّ من أنْ تدعَه لحاله ، لا تهزأ به ، ولا تسخر منه ؛ لأن فى وجوده

(١) الرَّتْع : الرعى فى الخصب ، ورتعَتْ الماشية : أكلت ما شاءت ، وجاءت وذهبت فى المرعى نهاراً . [لسان العرب ـ مادة : رتع] .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٢٧) من حديث أبى هريرة وعزاه للبزار والطبرانى فى الأوسط إلا أنه قال : « لولا شباب خشع ، وشيوخ ركع ، وأطفال رضع ، وبهائم رتع ، لصب عليكم العذاب صباً » وفيه : إبراهيم بن خيثم وهو ضعيف .

استبقاءً لحياتك وأَمْنكَ ، وأقل ما يمكنك أنْ تُقيِّم به التقى : يكفيك منه أن أمنتَ شرَّه ، فلنَ يعتدى عليك ، ولن ترى منه شيئاً يسوؤك .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أى : يرعاكم ويحفظكم ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُجرى مقارنة بين إنعامه سبحانه على عباده وما يقابلونه به من جحود ونكران وكفران ، أنتم تكفرون بالله وتُؤذُون الصالحين من عباده وتسخرون منهم ، وهو سبحانه الذى ﴿ يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : كلاءة صادرة من الله الرحمن .

كما فى قوله تعالى : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] فليس المراد أنهم يحفظونه من أمر الله الذى أراده الله فيه ؛ لأن الحفْظَ صادر من الله ، والحفَظة مكلّفون من قبله تعالى بحفظكم ، وليس تطوُّعاً منهم . وكلاءة الله لك وحفْظه إياك فى النهار وفى الليل وأنت نائم عليك حَفَظة يحفظونك ، ويدفعون عنك الأذى .

وكثيراً ما نسمع أن بعض الناس قام من نومه فوجد ثعباناً فى فراشه ، ولم يُصبْه بسوء ، وربما فزع لرؤيته فأصابه مكروه بسبب هذا الخوف ، وهو لا يعلم أن الثعبان لا يؤذيه طالما أنه لم يتعرَّض له ، وهذا من عجائب هذه المخلوقات أنها لا تؤذيك طالما لا تؤذيها . إذن : لا أحدَ يرقبك ويحفظك فى نومك ممَّا يُؤذيك إلا الحق سبحانه .

وكلاءة الله لكم لا تقتصر على الحفْظ من المعاطب ، فمن كلاءته سبحانه أن يمدّكم بمقوّمات الحياة ، فالشمس بضوئها ، والقمر

بنوره ، والأرض بنباتها ، والسماء بمائها . ومع هذا تكفرون به ، وتسخرون من رسله وأهل طاعته ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) ﴾ [الأنبياء] وما كان يصحّ أنْ يغيبَ ذِكْره تعالى عنهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾

ألَهم آلهة أخرى تمنعهم من الإيمان بالله ؟ هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نَصْر أنفسهم ، وكيف ينصرون أنفسهم ، وهى أصنام من حجارة نحتَها عُبَّادها على أشكال اختاروها ؟ كيف ينصرون أنفسهم ، ولو أطاحت الريح بأحدهم لاحتاج لمَنْ يرفعه ويقيمه ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾ [الأنبياء] كانوا قديماً فى البادية ، إذا فعل أحدهم ذنباً ، أو فعل فَعْلة فى إحدى القبائل ، واحتاج إلى المرور عليهم فى طريقه يذهب إلى واحد قوىٍّ يصاحبه فى مشواره ، ويحميه منهم إلى أنْ يمرَّ على ديارهم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) ﴾ [الشعراء]

فالمراد : يصحبه كى يحميه بهذه الصُّحْبة وينجو من العذاب ، فهؤلاء لن نكون فى صُحْبتهم لننجيهم ، ولا أحدَ يستطيع أن يصحبهم لينجيهم من عذابنا ، فلا هذه ولا تلك .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أى : أنهم مكثوا فترة طويلة من الزمن يتقلَّبون فى نعَم الله ، لكن انظروا ماذا حدث لهم بعد ذلك ، فخذوا منهم عبرةً : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا(١) الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا .. ﴿٩﴾ ﴾ [الروم]

ومع ذلك أُخذوا أَخْذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا(٢) آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنبياء]

وفى موضع آخر : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد]

---

(١) أثار الأرض : حرثها وشقها وقلَّبها للزراعة أو لغيرها كاستخراج المعادن أو استنباط المياه . [القاموس القويم ١/١١٣] .

(٢) القرن : الأمة تأتى بعد الأمة . والقرن من الناس : أهل زمان واحد . قال الأزهرى : الذى يقع عندى والله أعلم أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبى أو كان فيها طبقة من أهل العلم ، قلَّتْ السنون أو كثرت » . [لسان العرب ـ مادة : قرن] .

وهذه آية من الآيات التى وقف عندها بعض علمائنا من المعنيين بعلميات القرآن ، فلما أعلن العلماء أن الأرض بيضاوية الشكل ، وليست كاملة الاستدارة ، يعنى : أقطارها مختلفة بالنسبة لمركزها ، سارع بعضهم من منطلق الغَيْرة على دين الله ومحاولة إثبات صدْق القرآن ، وأنه سبق إلى ذكْر هذه المسألة فقالوا : لقد ذكر القرآن هذا الاكتشاف فى قوله تعالى : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : من ناحية خط الاستواء ، لا من ناحية القطبين .

وغفل هؤلاء أن الآية تقول : ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ..(٤٤)﴾ [الأنبياء] لا من طرفها ، فالنقص من جميع الأطراف ، فمثْل هذه الأقوال تفتح الباب للطعن فى القرآن والخوْض فيه .

ونتساءل ﴿أَفَلا يَرَوْنَ .. (٤٤)﴾ [الأنبياء] رأى هنا علمية أم بصرية ؟ لو قلنا : إنها بصرية فهذه ظاهرة لم تُعْرَف إلا فى القرن العشرين ، ولم ينتبه لها أحد قبل ذلك ، إذن : فهى ليست بصرية . وأيضاً ليست علمية ، فلم تصل هذه المعلومة إلى هؤلاء ، ولم يكُنْ العرب حينذاك أمةَ علم ، ولا أمة ثقافة ، ولا شىء من ذلك أبداً . فإذا ما استبعدنا هذا التفسير ، فما المعنى المناسب ؟

نقول : إنْ كانت رأى بصرية ، فقد رأوا هذه الظاهرة فى الأمم السابقة ، وقد كانوا يصادمون دين الله ويحاربونه ؛ لأنه جاء ليقضى على سلطتهم الزمنية ، ويجعل الناس سواء ، ومع ذلك كان الدين ينتشر كل يوم وتزيد رقعته وتقلّ رُقعة الكفر .

فالمعنى : ننقص أرض الكفر إما من الناس ، أو من العمائر التى تُهدم وتُخرب بالزلازل والخسف وغيره ، فننقص الأرض ، وننقص

الناس ، وننقص مظاهر العمران فى جانب الكفر ، وهذا النقص هو نفسه الزيادة فى أرض الإيمان[1] . وهذه الظاهرة حدثت فى جميع الرسالات .

فإنْ قال قائل : كيف نقبل هذا التفسير ، وزيادة أرض الإيمان لم تحدث إلا بعد الهجرة ، والآية مكية ؟ نقول : كَوْن الآية مكية لا يقدح فى المعنى هنا ، فليس من الضرورى أن يَروْا ذلك فى أنفسهم ، ويكفى أنْ يروها فى الأمم السابقة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) ﴾ [الفجر]

وإن اعتبرنا (رأى) علمية ، فقد علموا ذلك من أهل الكتاب ممَّنْ تحالفوا معهم ، فما حدث للأمم السابقة سيحدث لكم .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) ﴾ [الأنبياء] يعنى : أفلم يشاهدوا أنَّا ننقص الأرض من أطرافها ، أم أن هذا لم يحدث ، وهم الغالبون ؟ أيهما الغالب : رسل الله ، أم الكافرون ؟ الإجابة أنهم غُلبوا واندحروا ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] وقال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٥١) ﴾ [غافر]

ويخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) ﴾

---

(١) قال ابن عباس : أولم يروا أنَّا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وقال الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين على المشركين . وقال عكرمة : لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تقعد فيه ، ولكن هو الموت . وقال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٥٢٠) : « القول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية وهذا اختيار ابن جرير » .

أى : أن رسول الله ما أبلغكم بشيء من عند نفسه ، إنما كل ما جاء به من وعد ووعيد فهو من عند الله ، وأنتم أنفسكم تؤكدون على بشريته ، نعم هو بشر لا يعلم شيئاً كما تقولون ، وهذه تُحسَب له لا عليه ، إنما ربه يوحى إليه .

فلو قال محمد : إنما أنذركم .. لكان لكم حق أنْ تتشكَّكوا ، إنما القائل هو الله ، وأنا مجرد مُبلِّغ عن الله الذى يملك أعنَّة الأحداث ، فإذا قال بوجود حدث فلا بُدَّ أنْ يقع .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنبياء]

وحاسّة السمع هى أول معلوميات الإنسان ، وأول حواسه عملاً ، وقبل أن يتكلم الطفل لا بُدَّ أنْ يسمع أولاً ، لينطق ما سمعه ؛ لأن السمع هو الإدراك الأول المصاحب لتكوين الإدراكات ، والأذن ـ كما قلنا ـ تسبق العين فى أداء مهمتها .

لذلك قدَّمه الحق سبحانه ، فقال : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء]

والسمع هو الآلة التى لا تتعطّل عن مهمتها ، حتى ولو كان الإنسان نائماً ؛ لأن به يتم الاستدعاء ؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ضرب على آذانهم ، وعطّل عندهم حاسة السمع حتى لا تُزعجهم أصوات الطبيعة خارج الغار ، فقال :
﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف]

ومعنى : ﴿ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ.. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنبياء] صحيح أنهم يسمعون ، وآلة السمع عندهم صالحة للعمل ، إلا أنه سماعٌ لا فائدةَ

منه ، ففائدة السمع أنْ تستجيب لمن يُحدِّثك ، فإذا لم تستجبْ فكأنك لم تسمع ، وإذا أمرتَ العامل مثلاً بشيء فتغافل عنه تقول له : أأنت أطرش ؟ ولذلك سماهم القرآن : صُمّاً .

وقوله تعالى : ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء] أى : لَيْتهم يتغافلون عن نداء عادى ، إنما يتغافلون وينصرفون ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء] حين يُخوِّفهم عذاب الله ، والإنذار والتحذير أَوْلَى ما يجب على الإنسان الاهتمام به ، ففيه مصلحته ، ومن الغباء ألاَّ يهتم به ، كما لو أنذرتَ إنساناً وحذَّرْتَه من مخاطر طريق ، وأن فيه ذئاباً أو أُسُوداً أو ثعابين أو قطاعَ طريق ، فلا يهتم بكلامك ، ولا يحتاط للنجاة بنفسه .

وقلنا : إن الإنذار : أنْ تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليستعد لتلافيه ، لا أنْ تنذره ساعة الحادث فلا يجد فرصة .

إذن : المسألة ليست طبيعة فى التكوين ، إنما توجيه إدراكات ، كأنْ تكلِّم شخصاً فى أمر لا يعجبه ، فتجده « أذن من طين ، وأذن من عجين » ينصرف عنك كأنه لم يسمع شيئاً ، كأحدهم لما قال لصاحبه : فيك مَنْ يكتم السر ؟ قال : نعم سِرُّك فى بير ، قال : أعطنى عشرة جنيهات ، فردَّ عليه : كأنِّى لم أسمع شيئاً !!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

الآن فقط تنبهتم ووَعَيْتُم ؟ الآن بعد أن مسَّكم العذاب ؟

ومعنى : ﴿مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] أى : مساً ولمساً خفيفاً ، والنفحة : هى الريح اللينة التى تحمل إليك آثارَ الأشياء دون حقيقتها ، كأن تحمل لك الريحُ رائحةَ الورود مثلاً ، هى لا تحمل لك الورود نفسها ، إنما رائحتها ، وتظل الورود كما هى .

كذلك هذه المسَّة من العذاب ، إنها مجرد رائحة عذاب ، كما نقول لفح النار الذى نشعر به ، ونحن بعيدون عنها .

والنفحة : اسم مرَّة أى : تدل على حدوثها مرة واحدة ، كما تقول : جلس جلسة أى : مرة واحدة ، وهذا أيضاً دليل على التقليل . (فمسَّتْهُمْ) تقليل و (نَفْحَة) تقليل ، وكونها مرة واحدة تقليل آخر ، ومع ذلك يضِجُّون ويجأرون ، فما بالك إنْ نزل بهم العذاب على حقيقته ، وهو عذاب أبدىّ ؟!

وقوله تعالى : ﴿لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] الآن ينطقون ، الآن يقولون كلمة الحق التى طالما كتموها ، الآن ظهرتْ حساسية الإدراك لديهم ، فمن أقلِّ القليل ومن رائحة العذاب يجأرون ، وأين كان هذا الإدراك ، وهذه الحساسية من قبل ؟ إذن : المسألة - كما قلنا - ليست طبيعة تكوين ، إنما توجيه إدراكات .

وقولهم : ﴿يَـٰوَيْلَنَا .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء] إحساس بما هم مُقبلون عليه ، وهذا القول صادر عن مواجيد فى النفس وفى الذِّهْن قبل أن ينطق بالكلمة ، ثم يُقِرُّون على أنفسهم ويعترفون : ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء]

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ (١) أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

نقلهم الحق سبحانه من إنكار وتكذيب وتسفيه كلام الرسول ، وعدم الإيمان بالوحى ، وصَمِّ آذانهم عن الخير إلى مسألة الحساب والميزان القسط ، فلماذا هذه النَّقْلة ؟ ليُنبههم ويلفت أنظارهم إلى أن هذا الكلام الذى قابلتموه بالتكذيب والتشكيك كان لمصلحتكم ، وأن كل شىء محسوب ، وسوف يُوزَن عليكم ويُحْصَى ، وكأنه ينصحهم ، فما تزال رحمانية الله بهم وحِرْصه على نجاتهم .

وكلمة (موازين) جمع : ميزان ، وهو آلة نُقدِّر بها الأشياء من حيث كثافتها ؛ لأن التقدير يقع على عدة أشياء : على الكثافة بالوزن ، وعلى المسافات بالقياس .. الخ ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت ، فمثلاً : المتر صنعوه من البلاتين حتى لا يتآكل ، وهو موضوع الآن - تقريباً - فى باريس ، وكذلك الياردة . وجعلوا للوزن معايير من الحديد : الكيلو والرطل .. الخ .

وقديماً كانوا يَزِنُون قطعةً من الحجارة تساوى كيلو مثلاً ، ويستعملونها فى الوزن ؛ لأن لها مرجعاً ، لكن هذه القطعة تتآكل من كثرة الاستعمال ، فلا بُدَّ من تغييرها .

---

(١) الخردل : نبات له حَبٌّ صغير جداً ، وإذا جفَّت حبة الخردل كانت نهاية فى الصغر ، وهو نبات عُشبى تستعمل بذوره فى الطب . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء] . أى : إن كان عمل الإنسان فى الخير أو الشر صغيراً قليلاً فى وزن حبة واحدة من الخردل أحضرها الله يوم الحساب وحاسبه عليها . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

وهنا تكلَّم عن الشىء الذى يُوزَن ، ولم يذكر المعايير الأخرى ، قالوا : لأن الأشياء التى لها كثافة هى الأكثر ، وكانوا يختبرون الأولاد يقولون : كيلو الحديد أثقل ، أم كيلو القطن ؟ فالولد ينظر إلى القطن فيراه هَشّاً مُنتفشاً فيقول : القطن ، والقطن أزيد من الحديد فى الحجم ، لكن كثافته يمكن أن تستطرق ، فنُرقّق القطن إلى أن يتحول إلى مساحة طول وعرض . إذن : العُمْدة فى التقدير : الثقل .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ[1] الْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن] فهل هى موازين متعددة ، أم هو ميزان واحد ؟

الخَلْق جميعاً سيُحاسبون مرة واحدة ، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كل منهم دَوْره ، بل فى وقت واحد ؛ لذلك لما سُئل الإمام على - كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسب الله الخَلْق جميعاً فى وقت واحد ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد . فالمسألة صعبة بالنسبة لك ، إنما سهلة ميسورة للحق سبحانه .

والقِسْط : صفة للموازين ، وهى مصدر بمعنى عدل ، كما تقول فى مدح القاضى : هذا قاضٍ عادل . أى : موصوف بالعدل ، فإذا أردتَ المبالغة تقول : هذا قاضٍ عَدْل ، كأنه هو نفسه عَدْل أى (معجون بالعدل) ؛ لذلك نقول فى أسماء الحق سبحانه : الحكم العدل . ولا نقول : العادل .

وهذه المادة (قسط) لها دور فى اللغة ، فهى من الكلمات المشتركة التى تحمل المعنى وضده ، مثل (الزوج) تُطلق على

---

(١) قال الإمام أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » (ص ٤٠٥) : « قرن وضع الميزان برفع السماء ؛ لأنه تعالى عدَّد نعمه على عباده ، ومن أجلِّها الميزان ، الذى هو العدل ، الذى به نظام العالم وقوامه » .

الرجل والمرأة ، و (العَيْن) تطلق على : العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وعلى الذهب والفضة .

كذلك (القسْط) نقول : القسْط بالكسر مثل : حمْل بمعنى العدل من قَسَط قسْطاً . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)﴾ [المائدة] ونقول : القَسْط بالفتح يعنى : الظلم من قسط قُسوطاً وقَسْطاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن] أى : الجائرون الظالمون .

والقسْط بمعنى العدل إذا حكم بالعدل أولاً وبداية ، لكن أقسط يعنى كان هناك حكم جائر فعدَّله إلى حكم بالعدل فى الاستئناف .

ومن هذه المادة أيضاً قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] فأقسط هنا : أفعل تفضيل ، تدل على أن حكم محمد ﷺ فى مسألة زيد كان عَدْلاً وقسْطاً ، إنما حكم ربه تعالى هو أقسط وأعدل .

ومعلوم من قصة زيد بن حارثة أنه فضَّل رسول الله واختاره على أهله ، وكان طبيعياً أنْ يكافئه رسول الله على محبته وإخلاصه ويُعوِّضه عن أهله الذين آثر عليهم رسولَ الله ، وكانت المكافأة أن سماه زيد بن محمد .

إذن : الحق سبحانه عدل لرسوله ، لكن عدل له العدل لا الجوْر ، وعَدْل الله أَوْلى من عدل محمد لذلك قال : ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] أما عندكم أنتم فقد صنع محمد عَيْن العَدْل .

وقوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ .. (٥)﴾ [الأحزاب] جاء ليبطل التبنى ؛ ليكون ذلك مقدمة لتشريع جديد فى الأسرة والزواج والمحارم وأمور كثيرة فى شرع الله لا تستقيم فى وجود هذه

المسألة ، وإلاّ فكيف سيكون حال الأسرة حين يكبر المتبنّى ويبلغ مَبْلَغَ الرجال ؟ وما موقفه من الزوجة ومن البنت ، وهو فى الحقيقة غريب، عن الأسرة ؟

ومسألة الموازين هذه من المسائل التى وجد فيها المستشرقون تعارضاً فى ظاهر الآيات ، فجعلوا منها مَأخَذاً على كتاب الله ، من ذلك قولهم بالتناقض بين الآيتين : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ.. (٤٧)﴾ [الأنبياء] وقوله تعالى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] حيث أثبت الميزان فى الأولى ، ونفاه فى الثانية .

وقلنا : إن هؤلاء معذورون ؛ لأنهم لا يملكون الملكَة اللغوية التى تمكِّنهم من فَهْم كلام الله . ولو تأملنا اللام فى ﴿نُقِيمُ لَهُمْ .. (١٠٥)﴾ [الكهف] لانحلَّ هذا الإشكال ، فاللام للملك والانتفاع ، كما يقولون فى لغة البنوك : له وعليه . والقرآن يقول : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة]

فالمعنى : ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف] أى : وزناً فى صالحهم ، إنما نقيم عليهم ونَدينهم . كذلك نجد أن كلمة الوزن تُستعمل فى اللغة إمَّا لوزن المادىّ ، أو لوزن المعنى ، كما نقول : فلان لا وَزْنَ له فى الرجال .

وعلى هذا يكون المعنى : أنهم لا وَزْنَ لذواتهم ومادتهم ، إنما الوزن لأعمالهم ، فلا نقول : كان من الأعيان ، كان أصله كذا وكذا ، وهذه المسألة واضحة فى قصة ابن نوح عليه السلام : ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

فالبنوة هنا بُنوّة عمل وإيمان ، لا بُنوة ذات .

وقد ظَنَّ الكفار والعصاة أن لهم وَزْناً عند الله ، ومنزلة ستكون لهم فى الآخرة ، كما كانت لهم فى الدنيا ، كما جاء فى قصة صاحب الجنتين الذى قال لأخيه متباهياً مفتخراً :

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَداً ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف]

لكن هيهات أنْ يكون لهم وَزْنٌ فى الآخرة ، فالوزن فى القيامة للأعمال ، لا للأعيان .

إذن : المعنى لا نقيم لذواتهم ، إنما نزن أعمالهم ؛ لذلك قال النبى ﷺ لقرابته : « لا يأتينى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأحسابكم »[1] .

وقال ﷺ :« يا فاطمة بنت محمد اعملى فإنِّى لا أغنى عنك من الله شيئاً »[2]

فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمةَ لها فى هذا الموقف .

وقوله تعالى : ﴿فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً .. ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء] مع أن القاعدة : ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة] وهؤلاء قد ظلموا الحق سبحانه ظُلْماً عظيماً حين أشركوا به ، وظلموا رسول الله لما قالوا عنه : ساحر ، وكاذب ومجنون ، ومع ذلك فلن نردّ هذا الاعتداء بمثله بظلمهم .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن أوليائى يوم القيامة هم المتقون ، وإن كان نسب أقرب من نسب ، لا يأتى الناس بالأعمال ، وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ، وتقولون : يا محمد ، فأقول هكذا ، وأعرض فى عطفيه » . أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٩٤) .

(٢) عن حذيفة قال : جئت إلى النبى ﷺ والعباس جالس عن يمينه وفاطمة - رضى الله عنها - عن يساره . فقال : يا فاطمة بنت رسول الله ﷺ اعملى لله خيراً ، فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً يوم القيامة » . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ٤٩) وعزاه للبزار .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا .. (٤٧) ﴾ [الأنبياء] والخردل : مثال للصِّغَر ، للدلالة على استقصاء كل شيء ، ولا يزال الخردل هو المقياس العالمى للكيلو ، فقد وجدوا حَبَّ الخردل مُتَساوِياً فى الوزن ، فأخذوا منه وحدة الكيلو الآن ، وقد أتى بها القرآن منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان .

ومعنى : ﴿ أَتَيْنَا بِهَا .. (٤٧) ﴾ [الأنبياء] أى : لهم أو عليهم ، فإنْ كانت لهم علموا أنَّ الله لا يظلمهم ، ويبحث لهم عن أقلِّ القليل من الخير ، وإنْ كانت عليهم علموا أن الله يستقصى كل شيء فى الحساب ، وحَبّة الخردل تدل فى صغَرها على الحجم ، وكلمة مثقال تدل على الوزن ، فجمع فيها الحجم والوزن .

ثم يُعقِّب سبحانه على هذه المسألة : ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء] فلا أحدَ يُجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن ، فليست عندنا غفلة بل دِقَّة وضَبْط لمعايير الحساب .

ولا تظن أن مسألة الحساب والميزان مسألة سهلة يمكن أن تصل فيها إلى الدقة الكاملة مهما أخذتَ من وسائل الحيطة ، فأنت بشر لا تستطيع أنْ تزِنَ الوزن المضبوط ؛ لأن المعيار الحديد الذى تزن به عُرْضة فى استعماله للزيادة أو النقصان .

فقد يتراكم عليه الغبار ويقع عليه مثلاً نقطة زيت ، وبمرور الوقت يزيد المعيار ولو شيئاً ضئيلاً ، وهذا فى صالح الموزون له ، وقد يحدث العكس فينقص الميزان نتيجة الملامسة للأشياء ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (أكرة) الباب تراها لامعةً على خلاف ما حولها . إذن : أى ملامسة أو احتكاك للأشياء يُنقصها .

حتى فى الموازين الحديثة التى تضمن لك أقصى درجات الدقة

فبشرية الإنسان لا يمكن أن تُعطى الدقة المتناهية . وهذا معنى ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الأحزاب] ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾ [الأنبياء] لأن معياره تعالى لا يختلف ، ولا ينسى شيئاً ، ولا يغفل عن شيء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾

يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يُسلِّي رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما لاقاه من قومه ، فيذكر له نماذجَ من إخوانه أُولي العزم[1] من الرسل الذين اضطهدهم أقوامهم ، وآذوهم ليُسهِّل على رسول الله مهمته ، فلا يصده إيذاء قومه عن غايته نحو ربه .

فبدأ بموسى - عليه السلام - لأنه من أكثر الرسل الذين تعبوا في دعوتهم ، فقد تعب موسى مع المؤمنين به فضلاً عن الكافرين به ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ .. (٤٨) ﴾ [الأنبياء] لأن رسالتهما واحدة ، وهم فيها شركاء : ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. (٣٤) ﴾ [القصص] وقال : ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴾ [طه]

والفرقان : هو الفارق القوى بين شيئين ؛ لأن الزيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى ، كما تقول : غفر الله لفلان غفراناً ،

---

(١) يقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف] . قال ابن كثير في تفسيره (٤/١٧٢) : « قد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال ، وأشهرها أنهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ . وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرسل فتكون (من) في قوله (من الرسل) لبيان الجنس والله أعلم » .

وتقول : قرأت قراءة ، وقرأت قـرآناً ، فليست القراءة واحدة ، ولا كل كتاب يُقرأ .

والفرقان من أسـماء القرآن : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ۝١ ﴾ [الفرقان]

فالفرقان ـ إذن ـ مـصدر يدلُّ على المبالغة ، تقـول : فرَّق تفريقاً وفرقاناً ، فزيادة الألف والنون تدل على زيادة فى المعنى ، وأن الفَرْق فى هذه المسـألة فَرْق جليل وفَـرْق واضح ؛ لأن كـونك تُفـرِّق بين شيئـين الأمر بينهما هَيِّن تسـمى هذا فَرْقاً ، أمّا أن تفرق بين شـيئين يتـرتب على ذلك خطورة فى تكـوين المـجتـمع وخطورة فى حـركـة الحياة ، فهذا فرقان ؛ لذلك سَمَّى القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل .

ومن الفرقان ، قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ۝٢٩ ﴾ [الأنفال] وتقوى الله لا تـكون إلا بتنفيـذ أوامره وتعـاليمـه الواردة فى القـرآن الذى نزل على محـمـد ، والفرقـان هنا يعنى : نور تُفَرِّق به بين الأشياء وتُميِّز به بين المتشابهات .

وعلى قَدْر مـا تتقى الله باتباع الفـرقان الأول يجعل لكم الفـرقان الثـانى ، وتتكوَّن لديـكم فـراسة المـؤمن وبـصيـرته ، وتـنزل عليكم الإشراقات التى تُسعِف المؤمن عندما يقع فى مأزق .

ألاَ تراهم يقـولون : فـلان ذكى ، فـلان حـاضر البـديهـة . أى : يستحـضر الأشياء البـعيدة وينتفع بها فى الوقـت الحاضر ، وهذا من توفيق الله له ، ونـتيجـة لبصيـرته وفراستـه ، وكانت العـرب تضرب

المثل فى الفراسة والذكاء بإياس بن معاوية حتى قال الشاعر[١] :

إقْدامُ عَمْروٍ فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فى حِلْمِ أحنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

ويُرْوَى أن الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور لما أراد أنْ يحج بيت الله فى آخر مرة ، بلغه أن سفيان الثورى[٢] يتناوله وينتقده ويتهمه بالجور ، فقال : سوف أحج هذا العام ، وأريد أنْ أراه مصلوباً فى مكة ، فبلغ الخبر أهل مكة ، وكان سفيان الثورى يقيم بها فى جماعة من أصحابه من المتصوفة وأهل الإيمان ، منهم سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض ، وكانا يُدلِّلان الثورى ويعتزان به .

وفى يوم كان الثلاثة فى المسجد والثورى مُسْتَلْقٍ بين صاحبيه يضع رأسه فى حِجْر أحدهما ، ورجْلَيْه فى حِجْر الآخر ، وقد بلغهم خبر المنصور ومقالته ، فتوسل ابنُ عيينة والفضيل للشيخ الثورى : يا سفيان لا تفضحنا واختفِ حتى لا يراك ، فلو تمكَّن منك المنصور ونفذ فيك تهديده فسوف يضعف اعتقاد الناس فى المنسوبين إلى الله .

وهنا يقول الثورى : والذى نفسى بيده لن يدخلها ، وفعلاً دخل المنصور مكة من ناحية الحجون ، فعثرت به الدابة ، وهو على مشارف مكة فوقع وأُصيب بكسر فمات لساعته . ودخل المنصور مكة محمولاً وأتَوْا به إلى المسجد الحرام حيث صلى عليه الثورى .

---

(١) هو : أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى عام (٢٣١هـ) عن ٥١ عاماً .

(٢) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، من مُضَر أبو عبد الله ، أمير المؤمنين فى الحديث ، ولد بالكوفة (٩٧ هـ) ، كان سيد أهل زمانه فى علوم الدين والتقوى راوده المنصور العباسى على أن يلى الحكم فأبى ، مات مستخفياً بالبصرة من المهدى عام (١٦١ هـ) (الأعلام للزركلى ٣/١٠٤) .

هذا هو الفرقان والنور والبصيرة وفراسة المؤمن الذى يرى بنور الله ، ولا يصدر فى أمر من أموره إلا على هَدْيه .

ويُروى أن المهدى الخليفة العباسى أيضاً دخل الكعبة ، فوجد صبياً صغيراً فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره يلتف حوله أربعمائة شيخ كبير من أصحاب اللحى والهَيْبة والوقار ، والصبى يُلْقِى عليهم درساً ، فتعجب المهدى وقال : أُفٍّ لهذه السعانين يعنى الذقون ، أمَا كان فيهم مَنْ يتقدم ؟! ثم دنا من الصبى يريد أن يُقرِّعه ويُؤنِّبه فقال له : كم سنّك يا غلام ؟ فقال الصبى : سنى سنُّ أسامة بن زيد حينما ولاه رسول الله ﷺ إمارة جيش فيه أبو بكر وفيه عمر ، فقال له المهدى - معترفاً بذكائه وأحقيته لهذا الموقف : بارك الله فيك .

فالفرقان - إذن - لا تُستعمل إلا للأمور الجليلة العظيمة ، سواء ما نزل على موسى ، أو ما نزل على محمد ، إلا أن الفرقان أصبح علَماً على القرآن ، فهناك فَرْق بين العلم والوصف ، فكل ما يُفرِّق بين حَقٍّ وباطل تصفه بأنه فرقانٌ ، أمّا إنْ سُمِّى به ينصرف إلى القرآن .

والمتأمل فى مادة (فَرَق) فى القرآن يجد أن لها دوراً فى قصة موسى عليه السلام ، فأول آية من آياته : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ .. ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة]

والفَرْق أنْ تفصل بين شىء مُتصل مع اختلاف هذا الشىء ، وفى علم الحساب يقولون : الخَلْط والمزج ، ففَرْق بين أن تفصل بين أشياء مخلوطة مثل برتقال وتفاح وعنب ، وبين أنْ تفصلها وهى مزيج من العصير ، تداخل حتى صار شيئاً واحداً .

إذن : ففَرْق البحر لموسى - عليه السلام - ليس فَرْقاً بل فرقاناً ،

لأن أعظم ألوان الفروق أن تَفرق السائل إلى فِرْقَيْن ، كل فِرق كالطود[1] العظيم ، ومَنْ يقدر على هذه المسألة إلا الله ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : نوراً يهدى الناس إلى مسالك حياتهم دون عَطَب ، وإلاَّ فكيف يسيرون فى دروب الحياة ؟ فلو سار الإنسان على غير هدى فإمّا أنْ يصطدم بأقوى منه فيتحطم هو ، وإمّا أن يصطدم بأضعف منه فيحطمه ، فالضياء - إذن - هام وضرورى فى مسيرة الإنسان ، وبه يهتدى لحركة الحياة الآمنة ويسعى على بينة ، فلا يَتْعب ، ولا يُتعِب الآخرين .

﴿ وَذِكْرًا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يذكِّر ويُنبِّه الغافلين ، فلو تراكمتْ الغفلات تكوَّنَ الران الذى يحجب الرؤية ويُعمى البصيرة ؛ لذلك لما شبه النبى ﷺ غفلة الناس قال : « تُعْرَض الفتَن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً » .

وفى رواية : « عوذاً عوذاً »[2] أى : يستعيذ بالله أن يحدث هذا لمؤمن ، فهل رأيتَ صانع الحصير حينما يضمُّ عُوداً إلى عُود حتى يُكوِّن الحصير ؟ كذلك تُعرَض علينا الفتن ، فإنْ جاء التذكير فى البداية أزال ما عندك من الغفلة فلا تتراكم عليك الغفلات .

« فأيُّما قلب أُشْرِبها - يعنى قَبلَها - العود تلو العود - نُكِتَتْ فيه نكتة سوداء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكِتَتْ فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . قال تعالى : ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء] .

(٢) وقال ابن الأثير : روى بالذال المعجمة ، كأنه استعاذ من الفتن . [لسان العرب - مادة : عوذ] .

على قلبين - صدق رسول الله - على أبيض مثل الصفا لا تضرُّه فتنة ، ما دامت السموات والأرض . أو على أسود كالكوز مُجَخِّياً - يعنى منكُوساً - لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[(١)] .

قالوا : فذلك هو الرَّانُ الذى يقول الله فيه : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين] والذكر هو الذى يُجلِّى هذا الران .

﴿ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء] ومن صفاتهم أنهم :

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

الخشية : الخوف بتعظيم ومهابة ، فقد تخاف من شىء وأنت تكرهه أو تحتقره . فالخشية كأنْ تخاف من أبيك أو من أستاذك أنْ يراك مُقصِّراً ، وتخجل منه أنْ يراك على حال تقصير . فمعنى الخوف من الله : أن تخاف أن تكون مُقصِّراً فيما طُلب منك ، وفيما كلَّفك به ؛ لأن مقاييسه تعالى عالية ، وربما فاتكَ من ذَلك شىء .

وفى موضع آخر يشرح الحق سبحانه هذه المسألة ، فيقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر] لماذا ؟ لأنهم الأعلم بالله وبحكمته فى كونه ، وكلما تكشَّفَتْ لهم حقائق الكون وأسراره ازدادوا لله خشية ، ومنه مهابة وإجلالاً ؛ لذلك قال عنهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل] أى : أعلى منهم وعلى رؤوسهم ، لكن بحُبٍّ ومهابة .

ومعنى : ﴿ بِالْغَيْبِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء] أنهم يخافون الله ، مع أنهم

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

لا يَرَوْنه بأعينهم ، إنما يَرَوْنَه فى آثار صُنْعه ، أو بالغيب يعنى : الأمور الغيبية التى لا يشاهدونها ، لكن أخبرهم الله بها فأصبحتْ بَعْد إخبار الله كأنها مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم .

أو يكون المعنى : يخشون ربهم فى خَلَواتهم عن الخَلْق ، فمهابة الله والأدب معه تلازمهم حتى فى خَلْوتهم وانفرادهم ، على خلاف مَنْ يُظهِر هذا السلوك أمام الناس رياءً ، وهو نمرود فى خَلْوته .

وقوله تعالى : ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنبياء] والإشفاق بمعنى الخوف أيضاً ، لكنه خَوْف يصاحبه الحذر مما تخاف ، فالخوف من الله مصحوب بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوب بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعدوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعة يلقوْنَه .

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أى : كما جاءت التوراة ﴿ذِكْراً .. ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء] كذلك القرآن الذى نزل عليك يا محمد (ذكر) ، لكنه ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء] يقولون : هذا شىء مبارك يعنى : فيه البركة ، والبركة فى الشىء أنْ يعطى من الخير فوق ما يتوقع فيه .

كما كان النبى ﷺ يسقى صحابته من قَعْب[1] واحد من اللبن[2] ،

---

(١) القَعْب : القدح الضخم الغليظ ، وقيل : قدح من خشب مُقعَّر ، وهو يُروى الرجل . [لسان العرب ـ مادة : قعب] .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٤١٥٢) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٤/١١٥) من حديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى يوم الشجرة فى الحديبية بماء فى تور ، فوضع يده فيه ، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون ، قال : فشربنا ووسعنا وكفانا ، فقيل لجابر : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف كفانا ، كنا ألفاً وخمسمائة .

ويُطعِم الجيش كله من الطعام اليسير القليل[1] . وتسمعهم يقولون : فلانٌ راتبه ضئيل ، ومع ذلك يعيش هو وأولاده فى كذا وكذا فنقول : لأن الله يُبارك له فى هذا القليل .

فمعنى ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. (٥٠)﴾ [الأنبياء] أى : فيه من الخير فوق ما تظنون ، فإياك أنْ تقولوا : إنه كتاب أحكام وتكاليف فحسْب ، فالقرآن فيه صفة الخلود ، وفيه من الأسرار مَا لا ينتهى ، فبركته تشمل جميع النواحى وجميع المجالات إلى أنْ تقومَ الساعة . فمهما رددنا آياته نجدها جميلة مُوحِية مُعبِّرة . فكل عصر يأتى بجديد ، لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه فهو مبارك لأن ما فيه من الخير يتجاوز عصر الرسول ﷺ وكل العصور والأعمار والقرون فيعطى كل يوم سراً جديداً من أسرار قائله سبحانه .

إذن : فالقرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. (٥٠)﴾ [الأنبياء] لأن ما فيه من وجوه الخير سيتجاوز العصر الذى نزل فيه ، ويتجاوز كل الأعمار وكل القرون ، فيعطى كل يوم لَوْناً جديداً من أسرار قائله والمتكلِّم به ؛ لذلك يتعجّب بعدها من إنكار القوم له : ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠)﴾ [الأنبياء] أَمِثْل هذا الكلام يُنكر ؟

وسبق أنْ أوضحنا أقوالهم فى القرآن .

منهم مَنْ قال : سحر . ومنهم من قال : شعر . ومنهم من قال :

(١) عن عبد الله بن عباس قال : إن رسول الله ﷺ لما نزل مَرَّ فى صلح قريش قال أصحاب النبى ﷺ : يا رسول الله لو نحرنا من ظهورنا فأكلنا من لحومها وشحومها وحسونا من المرق أصبحنا غداً إذا غدونا عليهم وبنا جَمَام قال : لا ولكن ائتونى بما فضل من أزوادكم ، فبسطوا أنطاعاً ثم صَبُّوا عليها فضول ما فضل من أزوادهم ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ بالبركة ، فأكلوا حتى تضلعوا شبعاً ، ثم لَفَّفُوا فضول ما فَضُل من أزوادهم فى جُربهم ، أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب اللقطة ـ باب استحباب خلط الأزواد إذا قلَّت) . وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ١٢٠) .

كذب وأساطير الأولين ، وهذا كله إفلاس فى الحُجَّة ، وتصيُّد لا معنى له ، ودليل على تضارب أفكارهم .

ألم يقولوا هم أنفسهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] إذن : هم يعرفون صدْق القرآن ومكانته ، وأنه من عند الله ، ولا يعترضون عليه فى شىء ، إنما اعتراضهم على مَنْ جاء بالقرآن ، وفى هذا دليل على أنهم ليستْ عندهم يقظة فى تغفيلهم .

وتأمل : ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ .. (٥٠) ﴾ [الأنبياء] ولم يقل : هذا القرآن ، كأنه لا يُشار إلا إلى القرآن .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ[1] وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١) ﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه بدأ تسليته لرسوله ﷺ بذكْر طرف من قصة موسى ، ثم ثنَّى بقصة إبراهيم ، مع أن إبراهيم عليه السلام سابقٌ لموسى ، فلماذا ؟ قالوا : لأن موسى له صلَة مباشرة باليهود وقريب منهم ، وكان اليهود معه أهلَ جدَل وعناد .

ومعنى ﴿ رُشْدَهُ .. (٥١) ﴾ [الأنبياء] الرُّشْد : اهتداء العقل إلى الأكمل فى الصلاح والأعلى فى الخير ، بحيث لا يأتى بعد الصلاح فسادٌ ، ولا بعد الخير شر ، ولا يُسلمك بعد العُلو إلى الهبوط ، هذا هو الرُّشْد . أما أنْ يجرَّك الصلاح الظاهر إلى فساد ، أو يُسلمك الخير إلى شر ، فليس فى ذلك رُشْدٌ .

---

(١) أى : من قبل النبوة . أى : وفقناه للنظر والاستدلال ، لما جَنَّ عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر . وقيل : « من قبل » أى : من قبل موسى وهارون . والرشد على هذه النبوة . وعلى الأول أكثر أهل التفسير . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٧٣) .

والآن نسمعهم يتحدثون عن الفنون الجميلة ، ويستميلون الناس بشعارات برّاقة أعجبتْ الناس حتى وصلت بهم الجرأة إلى أنْ قالوا عن الرقص : فنٌّ راقٍ وفنّ جميل .. سبحان الله ، الرقص كما قلتم لو أنه فعلاً راقٍ وجميلٌ ، وظل كذلك إلى آخر الطريق ، ولم ينحدر إلى شيء قبيح وهابط ، ماذا يحدث حين يجلس الرجل أمام راقصة تُبدى من مفاتنها وحركاتها مَا لاَ تُحسنه زوجته فى البيت ؟ كم بيوت خَرِبَتْ وأُسَر تهدمت بسبب راقصة ، فأىُّ رقىٍّ ؟ وأىُّ جمال فى هذا الفن ؟!

لذلك ؛ فالإمام على - كرَّم الله وجهه - لخَّص هذه المسألة فقال : « لا شَرَّ فى شَرٍّ بعده الجنة ، ولا خيرَ فى خير بعده النار » .

إذن : على الإنسان أن ينتبه إلى الرُّشْد الذى هو اهتداء العقل إلى الصالح الأعلى أو إلى الكمال الأعلى أو الخير الأعلى . وهذا الرُّشْد له اتجاهان : رُشْد البِنْية ، ورُشْد المعنى .

رُشْد البِنْية وهو اكتمال تكوين الإنسان بحيث يُؤدِّى كل جهاز فيه وظيفته ، وهذا لا يكون إلا بعد سنِّ البلوغ ، وقد جعل الخالق سبحانه استواء الأعضاء التناسلية دليلاً على اكتمال هذا الرُّشْد حين يصير المرء قادراً على إنجاب مثله .

وهذا واضح فى الثمار حيث لا يحلو مذاقها إلا بعد نضجها واكتمال بذرتها لتكون صالحة للإنبات إذا زرعتها ، وهذا من حكمة الخالق - سبحانه وتعالى - فنأكل الثمرة ونستبقى نوعها ببذرتها الصالحة ، أمّا لو استوت الثمرة للأكل قبل نُضْج بذرتها لأكلنا الثمار الموجودة ولم نستبق نوعها فتنقرض .

لذلك ، من حكمة الله أيضاً أن الثمرة إذا استوتْ ونضجَتْ ولم تجد مَنْ يقطفها تسقط من تلقاء نفسها ، وتُجدِّد دورتها فى الحياة .

ولأمر ما جعل الله التكليف بعد البلوغ ، فلو كلّفك قبل البلوغ لوجدتَ فى التكاليف نَهْياً عن بعض الأمور التى لا تعرفها ولا تدركها . وقد تعترض على ربك : كيف أفعل يا ربّ وقد جاءتنى هذه الغريزة ففعلتْ بى كذا وكذا .

ولكل آلة وجهاز فى جسم الإنسان رُشْد يناسبه ، ونمو يناسب تكوينه ، فمثلاً عَيْن الطفل وفمه وأصابع يده كلها تنمو نمواً مناسباً لتكوين الطفل .

أما الأسنان ففيها حكمة بالغة من الخالق عز وجل ، فقد جعل للطفل فى المرحلة التى لا يستطيع فيها تنظيفَ أسنانه بنفسه ، ولا حتى يستطيع غيره تنظيفها جعل له (طقماً) احتياطياً من الأسنان ، يصاحبه فى صغَره تُسمَّى الأسنان اللبنية ، حتى إذا ما شَبَّ وكَبِر واستطاع أنْ يُنظِّف أسنانه بنفسه أبدله الله (طَقْماً) آخر يصاحبه طوال عمره .

وهناك رُشْد أعلى ، رُشْد فكرى معنوى ، رُشْد يستوى فيه العقل والتفكير ويكتمل الذِّهْن الذى يختار ويُفَاضل بين البدائل ، فقد يكتمل للمرء رُشْده البُنيانى الجسمانى دون أنْ يكتملَ عقله وفكْره ، وفى هذه الحالة لا نُمكِّنه من التصرف حتى نختبره ، لنعلمَ مدى إحسانه للتصرف فيما يملك ، فإنْ نجح فى الاختبار فَلْنُعْطه المال الذى له ، يتصرف فيه كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم[1] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ .. ۝ ﴾ [النساء] أى : لا تنتظر حتى يكبر ، ثم تعطيه

(١) آنس الشىء : أدركه وأحسَّه ببصره ، أو بعلمه وفكره . وقوله ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا .. ۝ ﴾ [النساء] . أى : علمتم وأدركتم إدراكاً معنوياً . [القاموس القويم ١/٣٧] .

ماله ، يفعل فيه ما يشاء دون خبْرة ودون تجربة ، إنما تختبره وتَشْركه فى خضَمِّ الحياة ومعتركها ، فيشبّ مُتمرِّساً قادراً على التصرف السليم .

وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥)﴾ [النساء] لأنهم إنْ بلغوا الرُّشْد البدنىّ فلم يبلغوا الرُّشْد العقلى ، وإياك أن تقول : هو ماله يتصرف فيه كما يشاء ، فليس للسفيه مال بدليل : ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .. (٥)﴾ [النساء] ولم يقُلْ : أموالهم ، فهو مالُكَ تحافظ عليه كأنه لك ، وأنت مسئول عنه أمام الله ، ولا يكون مال السَّفيه له إلا إذا أحسنَ التصرف فيه .

ومن الرُّشْد ما سماه القرآن الأشُدّ : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

والأشُدُّ هو : التسامى فى الرُّشْد وقال هنا (أربعين سنة) مع أننا ذكرنا أن الإنسان يبلغ رُشْد البِنْية ورُشْد العقل بعد سنِّ البلوغ فى الخامسة عشرة تقريباً ، إذن : مَنْ لم يرشُدْ حتى الأربعين فلا أملَ فيه ، والنار أَوْلَى به ؛ لأنه حين يكفر أو ينحرف عن الطريق فى عنفوان شبابه وقوته نقول : شراسة الشباب والشهوة والمراهقة ، إلى آخر هذه الأعذار فإذا ما بلغ الأربعين فما عذره ؟

وإذا لم يتلقَّ مبادىء الرُّشْد فى صغَره وفى شبابه ، فلا شكَّ أنه سيجد فى أحداث الحياة طوال أربعين سنة واقعاً يُرشده قَهْراً عنه ،

---

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثّه وأغراه . أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. (١٥)﴾ [الأحقاف] . أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىَّ . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٤] .

حيث يرى أعماله وعواقبها وأخطاءه وسقطاته ، وينبغى أنْ يأخذ منها درساً عملياً نظرياً فى الرُّشْد .

ومن ذلك ما نسمعه من مصطلحات معاصرة يقولون « الرشد السياسى » ويقولون « ترشيد الاستهلاك » ، ما معنى هذه المصطلحات ؟ معناها أن أحداث الحياة وتجاربها وعدم الرُّشْد فى مسيرتهم عضَّت الناس ، وألجأتْهم إلى التفكير فى ترشيد يُذهب هذا الفساد .

إذن : فالرُّشْد للذات والترشيد للغير كما نفعل فى ترشيد استهلاك القمح مثلاً وكنا نعلف به المواشى ، حتى أصبحنا لا نجده ؛ لذلك بدأنا فى ترشيد استهلاك رغيف الخبز وصرْنا نقسمه أربعة أقسام ، ونأكل بحساب ، ولا نهدر شيئاً ، وما يتبقى يتبقى نظيفاً نأكله فى وَجْبة أخرى .

وقد لا يكون عند الخباز نفسه ترشيد ، فيُخرج الرغيف قبل استوائه فتجده عجيناً ، كله لبابة ، فتأتى ربة البيت الواعية فتفتح الرغيف قبل وضعه على المائدة ، وتُخرِج منه هذه اللبابة ، وتجمعها ثم تُحمِّصها فى الفرن ، وتصنع منها طعاماً آخر .

وما يقال فى « ترشيد الخبز » يقال فى « ترشيد الماء » ، وقد أمرنا رسول الله بترشيد استهلاك الماء حتى فى الوضوء الذى هو قربى إلى الله .

هذا الرُّشْد الذى وصفنا رُشْد كل عاقل غير الرسل ، وهو أنه يهتدى إلى قضايا حياته ، ويتصرّف فيها تصرفاً سليماً ، إنما مقتضى نتيجة هذا الصلاح فى الدنيا ، أما الرسل فلهم رُشْد آخر ، رُشْد أعلى للدنيا وللآخرة ، وهذه هبة من الله للرسل .

قال تعالى فى حَقِّ إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ .. (٥١) ﴾ [الأنبياء] وكأن رُشْد إبراهيم لا يخضع لهذه القواعد ، ولا يرتبط ببلوغ ، ولا نبوة ، بل هو رُشْد سابق لأوانه منذ أنْ كان صغيراً يتأمل فى النجوم ويبحث عن ربه :

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) ﴾ [الأنعام]

فكان ـ عليه السلام ـ مُؤهَّلاً للرسالة منذ صغَره ، ولما أُرسل ونُبِّىء ظهرتْ مواهب رُشْده حين أُلقى فى النار ، وجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ يعرض عليه المساعدة ، فيقول إبراهيم : أما إليك فلا . وهذه أول بشائر الرشد الفكرى والعقدى عند إبراهيم .

وفى حَقِّه قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة] أى : اختبره فى أشياء فأتمهُنَّ وأتى بِهنّ على أكمل وجه ، منها : أنه طلب منه أنْ يرفعَ قواعد البيت ، وكان يكفى أن يرفع إبراهيم قواعد البيت إلى ما تطول يده ، إنما إبراهيم عليه السلام كان حريصاً أنْ يتم الأمر على أكمل وجه ، فيفكر ويحتال فى أنْ يأتىَ بحجر ويقف عليه ليرفع البناء بمقدار الحجر ، ويساعده ولده الصغير إسماعيل فيناوله الحجارة ، لكن الولد الصغير تتزحلق قدماه حينما يرفع الحجارة لأبيه ، فيحتال على هذا الأمر فيحفر فى الحجرِ على قَدْر قدميه حتى يثبت ، وهاتان القدمان نشاهدهما حتى الآن فى حِجْر إسماعيل .

إذن : كان عنده عِشْق للتكاليف وحِرْص على إتمامها .

وقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١)﴾ [الأنبياء] هذا واضح فى قوله تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤)﴾ [الأنعام]

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾

أى : اذكر يا محمد ، إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ .. (٥٢)﴾ [الأنبياء]

والتماثيل : جمع تمثال ، وهو مأخوذ من مِثْل أو مَثَل ، ومِثْل الشيء يعنى : شبيهه ونظيره ، وكانوا يعمدون إلى الأشياء التى لها جِرْم ويُصوِّرونها على صورة أشياء مخلوقة لله تعالى ، كصورة الإنسان أو الحيوان ، من الحجر أو الحديد أو الخشب أو غيرها ويُسمُّونه تمثالاً ، ويُقيمونه ليعبدوه .

وكانوا يبالغون فى ذلك : فهذا من الحجر ، وهذا من المرمر ، وهذا صغير ، وهذا كبير ، وقد يضعون فى عينيه خرزتين ليظهر للرائى أن له نظراً ، وهى ألوان من التفنن فى هذه الصناعة .

فإبراهيم - عليه السلام - يقول مستنكراً لأبيه وقومه ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾ [الأنبياء]

فالاستفهام هنا على غير حقيقته ، بل هو استفهام إنكارى يحمل لهجة الاستهزاء والسخرية والتقريع ، ولابد أنه ألقى عليهم هذا السؤال بشكل أدائى يُوحى بالتقريع .

وسبق أنْ تحدّثنا فى معنى (أبيه) هنا وقلنا : المراد عَمُّه ،

بدليل قوله فى موضع آخر : ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤) ﴾ [الأنعام] فقد بدأ المسألة بأبيه أو عمه ، وهو أقربُ الناس إليه ، يريد أن يطمئنَ الناسُ إلى ما يدعو إليه ، وأنه خير ، وإلا ما بدأ بأبيه .

وأيضاً لأن القومَ قد لا يكونُ لهم فى نفسه تأثير هَيْبة أو حُبٍّ إنما الهيبة والحب موجود بالنسبة لأبيه أو لعمه ، ومع ذلك لم تمنعه هذه الهيبة أنْ يُسفِّه كلامهم وأفعالهم الباطلة ، كما جاء فى قول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

وقد وقف المفسرون عند اللام فى قوله تعالى : ﴿ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء] مع أن المعنى : يعكفون على عبادتها ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ .. (١٣٨) ﴾ [الأعراف] وهنا جاءت باللام ؛ لذلك قال بعضهم : اللام هنا بمعنى على ، فلماذا عدَل عن على إلى اللام ؟

ولو تنبَّهنا لمعطيات الألفاظ ﴿ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء] نقول : الاعتكاف : هو الإقامة . فلان عاكف فى المسجد يعنى : على الإقامة فى المسجد ، فكلمة عاكفون وحدها تعطى معنى (على) أى : لصالح هذه الآلهة . أمّا اللام فلشىء آخر ، اللام هنا لام الملكية والنفعية . وذكروا لها مثالاً آخر فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء]

السِّجل هو : القرطاس والورق الذى نكتب فيه ، ومنه قولهم : نُسجِّل كذا يعنى : نكتبه فى السِّجل أو الورق لتحفظ ، ومعنى

﴿لِلْكُتُبِ .. (١٠٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : الشىء المكتوب ، فكأن المعنى : نطوى الورق على ما كُتِب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣)﴾

إذن : لا حُجَّة لهم فى عبادتهم لهذه التماثيل التى صنعوها وأقاموها بأنفسهم ، إلا أنهم رأَوْا آباءهم يعبدونها ، فحُجَّتهم التقليد الأعمى ، ولو كان عندهم حجة لذاتية العمل لَقالُوها .

وفى موضع آخر قالوا : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف] إذن : نعيب عليهم هذا التقليد ونعيب على آبائهم أيضاً ، فكيف يكون رَدُّ إبراهيم إذن ؟

وكلمة ﴿عَابِدِينَ (٥٣)﴾ [الأنبياء] هنا تعبير عن أن عبادتهم لهم عبادة عن غير فَهْم ، لأن العبادة طاعة عابد لأوامر معبوده ، فبماذا أمرتهم الأصنام ؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إبراهيم أنه قال لقومه :

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤)﴾

أراد أنْ يُرشِّد هذا السَّفَه فقال : أنتم فى ضلال ؛ لأنكم قلّدتم فى الإيمان ، والإيمان لا يكون بالتقليد ، وآباؤكم لأنهم اخترعوا هذه المسألة وسَنُّوهَا لكم .

ومن العجيب أنْ يُقلِّدوا آباءهم فى هذه المسألة بالذات دون غيرها ، وإلاَّ فَمن الذى يظل على ما كان عليه أبوه ، ونحن نرى كُلَّ جيل يأتى بجديد مِمَّا لم يكُنْ معروفاً للجيل السابق .

لذلك يقولون : الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، فلكُل زمن وَضْعه وارتقاءاته ، وأنت تتحكم فى ولدك ما دام صغيراً ، فيأكل الولد ويشرب ويلبس حَسْب ما تحب أنت ، فإذا ما شبَّ وكَبر صارتْ له شخصيته الخاصة وفكْره المستقلّ ، فيختار هو مَأْكله وملْبسه ، والكلية التى يدخلها ، وربما انتقدكَ فى بعض الأمور .

إذن : هؤلاء قلَّدوا آباءهم فى هذه المسألة دون غيرها ، فلماذا مسألة الإيمان بالذات تتمسَّكون فيها بالتقليد ؟ ولو أن كُلَّ جيل جاء صورة طِبْق الأصل لسابقه لما تغيَّر وَجْه الحياة ، ففى هذا دلالة على أن لكل جيل ذاتيته المستقلة وفكْره الخاص .

لقد قلَّد هؤلاء آباءهم فى هذه العبادة دون غيرها من الأمور ؛ لأنها عبادة وتديُّن بلا تكليف ، وآلهة بلا منهج ، لا تُضيِّق عليهم فى شىء ، ولا تمنعهم شيئاً مما ألِفُوه من الشهوات ، فهو تديُّن بلا تَبِعة .

لذلك ؛ فالحق سبحانه يردُّ عليهم فى أسلوبين مختلفين ، فمرة يقول تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر يقول : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾ [المائدة]

ونلحظ أن عَجُزَ الآيتين مختلف ، فمرة : ﴿لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا .. (١٧٠)﴾ [البقرة] ومرة : ﴿لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا .. (١٠٤)﴾ [المائدة] فلماذا ؟

قالوا : لأن عَجُزَ كل آية مناسب لصَدْرها ، وصَدْر الآيتين مختلف ، ففى الأولى قالوا ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠)﴾

[البقرة] فيمكن أن نتبع هذا أو هذا ، دون أنْ يقصروا أنفسهم على شيء واحد .

وفى الثانية قالوا : ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا.. (١٠٤)﴾ [المائدة] يعنى : يكفينا ، ولا نريد زيادة عليه ، فقصروا أنفسهم على ما وجدوا عليه آباءهم .

لذلك قال فى عَجُز الأولى : ﴿لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا .. (١٧٠)﴾ [البقرة] وفى عَجُز الثانية ﴿لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا.. (١٠٤)﴾ [المائدة] لأن العاقل هو الذى يهتدى إلى الأمر بذاته .

أمّا الذى يعلم فيعلم ما عَقَله هو ، وما عَقَله غيره ، إذن : فدائرة العلم أوسع من دائرة العقل ؛ لأن العقل يهتدى للشيء بذاته ، أمَّا العلم فيأخذ اهتداء الآخرين .

فكان ردُّهم :

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥﴾

يعنى : أهذا الكلام يا إبراهيم جدٌّ ؟ أم أنك تَهْزِر معنا ؟ كأنهم يستبعدون أن يكون كلام إبراهيم جداً ؛ لأنه بعيد عن مداركهم .

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦﴾

يردّ إبراهيم : لقد جئتكم بالحق الذى يقول : إن هذه الأصنام لا تُعبد ، بل الذى يستحق العبادة هو الله ربُّ السموات والأرض : ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ .. (٥٦)﴾ [الأنبياء] فـ (بل) تُضرب عما قبلها ، وتُثبت الحكم لما بعدها

﴿الَّذِى فَطَرَهُنَّ .. (٥٦)﴾ [الأنبياء] يعنى : خلق السموات والأرض والأصنام ، وكل ما فى الوجود .

﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)﴾ [الأنبياء] والشاهد هو الذى اهتدى إلى الحق ، كأنه رأى العَيْن ، وليس مع العين أَيْن ، واهتدى إلى الدليل على هذا الحق ، فقال : أنا شاهد على أن ربكم ربّ السموات والأرض ومعى الدليل على هذه الحقيقة .

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾

بعد ما حدث منهم من لجج وجدال بالباطل أقسم إبراهيم عليه السلام ﴿تَاللَّهِ .. (٥٧)﴾ [الأنبياء] والتاء هنا للقسم ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم .. (٥٧)﴾ [الأنبياء] وهل الأصنام تُكَاد ؟ أم أن المراد : لأكيدنكم فى أصنامكم ؟ فالأصنام كمخلوق من مخلوقات الله تُسبِّح لله ، وتشكر إبراهيم على هذا العمل .

وما أجملَ ما قاله الشاعر[1] فى هذا المعنى حين تكلَّم بلسان الأحجار فى غار حراء وغار ثور ، حيث كانت الحجارة تَغَارُ وتحسد حراء ؛ لأن المصطفى ﷺ كان يتعبَّد به قبل البَعْثة ، فحراء شاهدُ تعبُّد لرسول الله يزهو بهذه الصحبة ، فلما نزل رسول الله بغار ثور عند الهجرة فرح ثور ؛ لأنه صار فى منزلة حراء :

كَمْ حَسَدْنَا حراءَ حينَ تَرَى ... الرُّوحَ أميناً يغزُوكَ بالأَنْوارِ

فَحراءُ وثَوْرٌ صَارَا سَواءً ... بهمَا تشفع لدولة الأحْجَارِ

عَبَدُونَا ونحْنُ أعبَدُ ... للـه منَ القائمينَ بالأسْحَارِ

تخِذُوا صَمْتَنَا عليْنَا دَليلاً ... فَغَدَوْنا لَهُمْ وقُودَ النَّارِ

---

(١) من شعر الشيخ ـ رضى الله عنه ـ فى قصيدة عن الهجرة .

لأن الله قال : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة]

قَدْ تَجَنَّوْا جَهْـــلاً كما قَدْ   تَجنَّوْهُ علَى ابْنِ مرْيَم والحَوارِى

لِلْمُغَالِى جَزَاؤُهُ وَالمغالَى فِيهِ   تُنجيـــه رَحْمَـــةُ الغَفَّـــار

إذن : فتحطيم الأصنام ليس كَيْداً للأصنام ، بل لعُبَّادها الذين يعتقدون فيها أنها تضرُّ وتنفع ، وكأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقيم لهؤلاء الدليل على بطلان عبادة الأصنام ، الدليل العملى الذى لا يُدْفَع وكأن إبراهيم يقول بلسان الحال : حين أُكسِّر الأصنام إنْ كنتُ على باطل فليمنعُونى وليردّوا الفأسَ من يدى ، وإنْ كنتُ على حق تركونى وما أفعل .

وقوله تعالى : ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : بعد أنْ تنصرفوا عنها . يعنى : على حين غَفْلة منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ونلحظ هنا أن السياق القرآنى يحذف ما يُفهم من الكلام ، كما فى قصة سليمان ـ عليه السلام ـ والهدهد : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل] وحَذْف ما كان من الهدهد ورحلته إلى بلقيس ، وإلقائه الكتابَ إليها ، وأنها أخذتْه وعرضتْه على مستشاريها : ﴿ قَالَتْ يَٰأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النمل]

ومعنى ﴿ جُذَاذًا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : قطعاً متناثرة وحطاماً ،

بعد أنْ كانت هياكل مجتمعة ﴿ إلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ .. (٥٨) ﴾ [الأنبياء] أي : أنه تركه فلم يحطمه ، وقد كانوا يضعون الأصنام على هيئة خاصة و(ديكور) ، بحيث يكون الكبير في الوسط ، وحوله الأصنام الصغيرة يعني : كأن له سيطرةً عليهم ومنزلة بينهم ، وكانوا يضعون في عينه الزبرجد ، حتى يُخيَّل لمَنْ يراه أنه ينظر إليه .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾ [الأنبياء] فيسألونه عَمَّا حدث لأولاده الآلهة الصغار ، ولماذا لم يدافع عنهم خاصةً وقد وجدوا الفأس على كتفه ؟

﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٩) ﴾

أي : لما ذهبوا إلى المعبد الذي يعبدون فيه أصنامهم وجدوها مُحطمة فقالوا : ﴿ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) ﴾ [الأنبياء] لأنه اعتدى على الآلهة السليمة وكسَّرها .

إذن : هذه الآلهة لا تستطيع أنْ تدفع عن نفسها الضر ، وكان عليهم أنْ يتنبّهوا إلى هذه المسألة ، كيف يقبلُون عبادتها ، ولو أوقعتْ الريحُ أحدَهم لكسرته ، فيحتاج الإله إلى مَنْ يُصلِح ذراعه ويُرمِّمه ويُقيمه في مكانه ، فأيُّ ألوهية هذه التي يدافعون عن حقوقها ؟!

﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى [1] يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠) ﴾

أي : تطوّع بعضهم وقالوا هذا ، وكان للقوم يوم مُحدّد يذهبون

---

(١) الفتى : الشاب ، وقد يُراد به الكامل من الشباب . [القاموس القويم ٢/٧٢] . قال القتيبي : ليس الفتى بمعنى الشابّ والحدَث ، إنما هو بمعنى الكامل الجزْل (الجيد الرأى العاقل) من الرجال . [لسان العرب ـ مادة : فتا] . قال ابن عباس فيما أخرجه ابن أبي حاتم وذكره ابن كثير في تفسيره (٣/١٨٢) : « ما بعث الله نبياً إلا شاباً ، ولا أُوتِي العلم عالم إلا وهو شاب » .

فيه إلى معبدهم ومكان أصنامهم ، ويأخذون طعامهم وشرابهم ، ويبدو أنه كان يَوْمَ عيد عندهم ، وقد استعدّ آزر لهذا اليوم ، وأراد أنْ يأخذ معه إبراهيم لعلَّ الآلهة تجذبه فيهتدى وينصرف عمَّا هو فيه .

لكن إبراهيم عليه السلام ادّعى أنه مريض ، لا يستطيع الخروج معهم ، فقال ﴿إِنِّى سَقِيمٌ[(١)] (٨٩)﴾ [الصافات] وعندها عزم إبراهيم على تحطيم أصنامهم وقال : ﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾ [الأنبياء] سمعه بعض القوم فأخبرهم بأمره .

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنبياء] والذكْر هنا يعنى بالشر بالنسبة لهم ، ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠)﴾ [الأنبياء] يعنى : اسمه إبراهيم ، أو حين نناديه نقول : يا إبراهيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)﴾

ومعنى ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ .. (٦١)﴾ [الأنبياء] يعنى : على مَرْأىً منهم ليشاهدوه بأعينهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١)﴾ [الأنبياء] أى : يشهدون ما نُوقعه به من العذاب حتى لا يجترىء أحد آخر أنْ يفعل هذه الفعْلة ، ويكون عبرةً لغيره .

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢)﴾

هنا أيضاً كلام محذوف : فأتَوْا به ، ثم سألوه هذا السؤال ، والاستفهام ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا .. (٦٢)﴾ [الأنبياء] استفهام عن الفاعل ؛

---

(١) قال تعالى : ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩)﴾ [الصافات] . قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر فى النجوم ، يعنى قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال ﴿إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩)﴾ [الصافات] . أى : ضعيف . [تفسير ابن كثير ٤/١٣] .

لأن الفعلَ واضح لا يحتاج إلى استفهام ؛ لذلك لم يقُلْ : أفعلتَ هذا يا إبراهيم ، بل اهتم بالفاعل : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا .. (٦٢) ﴾ [الأنبياء] كما تقول : أبنيتَ الدار التي كنتَ تنوي بناءها ؟ فهذا استفهام عن الفعْل ، إنما أأنت بنيت الدار ، فالمراد الفاعل .

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾

وكأنه يريد أنْ ينتزعَ منهم الإقرار بأن هذا الكبير لا يفعل شيئاً ، فيُواجههم : فلماذا - إذن - تعبدونهم ؟

وقَوْل إبراهيم ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا .. (٦٣) ﴾ [الأنبياء] فيه توبيخ وتبكيت لهم ، حيث ردَّ الأمر إلى مَنْ لا يستطيعه ولا يتأتّى منه ، وقد ضرب الزمخشري - رحمه الله - مثلاً لذلك برجل جميل الخطِّ ، وآخر لا يُحسن الكتابة ، فيرى الأخيرُ لوحة جميلة ، فيقول للأول : أأنت كاتب هذه اللوحة ؟ فيقول : لا بل أنت الذي كتبتَها !! تبكيتاً له وتوبيخاً .

ثم يُصرِّح إبراهيم لهم بما يريد : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾ [الأنبياء] وهم لن يسألوهم ؛ لأنهم يعرفون حقيقتهم .

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾

أي : تنبّهوا وعادوا إلى عقولهم ، ونطقوا بالحق : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾ [الأنبياء] يعني : بعبادتكم هذه الأصنام ، وأنتم تعلمون أنها لا تنفع ولا تضرُّ ، ولا ترى ولا تتكلم .

هكذا واجهوا أنفسهم بهذه الحقيقة وكشفوا عن بطلان هذه

العبادة ، لكن هذه الصحوة ستكون على حسابهم ، وخسارتهم بها ستكون كبيرة ، هذه الصحوة ستُفقدهم السُّلْطة الزمنية التى يعيشون فى ظلها ، وينتفعون منْ ورائها بمَا يُهدَى للأصنام ؛ لذلك سرعان ما يتراجعون ويعودون على أعقابهم بعد أن غلبهم الواقع وتذكَّروا ما تجرُّه هذه الصحوة :

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ[1] لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

فبعد أنْ جابهوا أنفسهم بالحق ﴿ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء] والنكسة : أن الأعلى يأتى فى الأسفل ، وأنتم تعلمونها طبعاً !! ورجعوا يقولون له نفس حجته عليهم : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰـؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء] وهذا هو التغفيل بعينه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾

يعنى : لا ينفعكم بشىء إنْ عبدتموه ولا يضرّكم بشىء إنْ تركتم عبادته .

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

(١) أى : عادوا إلى الضلال والانتصار لآلهتهم المحطّمة بعد أن أرشدهم إبراهيم عليه السلام إلى أنها عاجزة لا تصلح آلهة . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

أفٍّ : اسم فعل بمعنى أتضجر ، فليس اسماً ، ولا فعلاً ، ولا حرفاً ، إنما (أف) اسمٌ مدلوله فعل ، ففيه من الاسمية ، وفيه من الفعلية ؛ لذلك يسمونها « الخالفة » لأن كلام العرب يدور على اسم أو فعل أو حرف ، مثل هيهات : اسم فعل بمعنى بَعُدَ . فإبراهيم - عليه السلام - يعبِّر بهذه الكلمة (أُفٍّ) عن ضيقه وتضجُّره ممَّا يفعل قومه من عبادة الأصنام من دون الله .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

ونلحظ قولهم ﴿ حَرِّقُوهُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء] بالتضعيف الدالّ على المبالغة ، ولم يقولوا مثلاً : احْرِقوه ، وقد اجتمعوا على هذا الفعل فبنَوْا بناءً وضعوا فيه النار ، ومكثوا أربعين يوماً يسجرونها[(١)] بكل ما يمكن أن يشتعل ، وبذلك اشتدت حرارة النار ، حتى إن الطير الذى يمرُّ فوق هذه النار كان يسقط مشوياً من شدة حرها[(٢)] .

والدليل على ذلك أنهم لما أرادوا إلقاء إبراهيم فى النار لم يستطيعوا الاقتراب منها لشدة لَفْحها ، فصنعوا له مِنجنيقاً ليُلْقُوه به فى النار من بعيد .

وقولهم : ﴿ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء] حسب اعتقادهم كأن المعركةَ بين إبراهيم والآلهة ، والحقيقة أن الآلهة التى يعبدونها مع إبراهيم وليست ضده ، فالمعركة - إذن - بين إبراهيم وبين عُبَّاد الأصنام .

---

(١) سجر التنور يسجره سَجْراً : أوقده وأحماه . وقيل : أشبع وقوده . [لسان العرب - مادة : سجر] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت ، حتى أنْ كان الطائر ليمرّ بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦/٤٤٨١]

وقولهم : ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : إنْ فعلتم شيئاً بإبراهيم فَحرِّقوه .

ثم يقول الحق سبحانه عن إنجائه لإبراهيم - عليه السلام - من هذه المَحْرَقَة :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

جاء هذا الأمر من الحق الأعلى سبحانه ؛ ليخرق بالمعجزة نواميسَ الكون السائدة ، ولا يخرق الناموسَ إلا خالقُ الناموس ، كما قلنا فى قصة موسى عليه السلام : الماء قانونه السيولة والاستطراق ، ولا يسلبه هذه الخاصية إلا خالقه ؛ لذلك فَرَقه لموسى فُرْقاناً - كما قلنا - كلُّ فرْق كالطَّوْد العظيم ، فلا يُعطّل قانون الأشياء إلا خالقها ؛ لأن الأشياء لم تُخلق لتكون لها القدرة على قيُّومية نفسها ، بل مخلوقة تُؤدِّى مهمة ، والذى خلقها للمهمة هو القادر أنْ يسلبَها خواصّها .

وفَرْق بين فعْل العبد وفعْل الحق سبحانه : فلو أنَّ فى يدك مسدساً ، وأنت تُحسن التصويب ، وأمامك الهدف ، ثم أطلقتَ تجاه الهدف رصاصةً ، أَلَكَ تحكُّمٌ فيها بعد ذلك ؟ أيمكن أنْ تأمرها أنْ تميلَ يميناً أو شمالاً ؟

لكن الحق سبحانه يتحكّم فيها ، ويُسيِّرها كيف يشاء ، فالحق سبحانه خلق النار وخلق فيها خاصية الإحراق ، وهو وحده القادر على سَلْب هذه الخاصية منها ، فتكون ناراً بلا إحراق ، فليس للنار قيومية بذاتها .

لذلك يقول البعض : بمجرد أنْ صدر الأمر : ﴿ يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا .. (٦٩) ﴾ [الأنبياء] انطفأت كل نار فى الدنيا ، فلما قال : ﴿ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء] أصبح الأمر خاصاً بنار إبراهيم دون غيرها ، فاشتعلت نيران الدنيا عدا هذه النار . ونلحظ أن الحق سبحانه قيَّد بَرْداً بسلام ؛ لأن البرد المطلق يؤذى[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾

والمراد بالكيد هنا مسألة الإحراق ، ومعنى الكيد : تدبير خفىٌّ للعدو حتى لا يشعر بما يُدبَّر له ، فيحتاط للأمر ، والكيد يكون لصالح الشىء ، ويكون ضده ، ففى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦) ﴾ [يوسف]

أى : لصالحه فلم يقُلْ : كِدْنا يوسف إنما كدْنا له ، وقالوا فى الكيد : إنه دليل ضعف وعدم قدرة على المواجهة ، فالذى يُدبِّر لغيره ، ويتآمر عليه خُفْية ما فعل ذلك إلاّ لعدم قدرته على مواجهته .

لذلك يقولون : أعوذ بالله من قبضة الضعيف ، فإنِّى قوىٌّ على قبضة القوى . فإذا ما تمكّن الضعيف من الفرصة لا يدعها ؛ لأنه لا يضمنها فى كل وقت ، أما القوى فواثق من قوته يستطيع أن ينال خَصْمه فى أىِّ وقت ، ومن هنا قال الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً ... قتلتْ كَذلكَ قُدْرَةُ الضُّعفَاء

---

(١) قال ابن عباس : لو لم يتبع بردها (سلاماً) لمات إبراهيم من بردها ، فلم يبق فى الأرض يومئذ نار إلا طفئت ، ظنت أنها هى تعنى ، أخرجه الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم [قاله السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤٠] .

لذلك استدلوا على ضعف النساء بقوله تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨)﴾ [يوسف] وما دام أن كيدهن عظيم ، فضعفهن أيضاً عظيم أو حتى أعظم .

ثم يقول تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾ [الأنبياء] والأخسرون جمع أخسر ، على وزن أفعل ؛ ليدل على المبالغة فى الخُسْران ، وقد كانت خسارتهم فى مسألة حَرْق إبراهيم من عدَّة وجوه : أولاً أن إبراهيم عليه السلام لم يُصبْه سوء رغم إلقائه فى النار ، ثم إنهم لم يَسْلَموا من عداوته ، وبعد ذلك سيُجازون على فِعْلهم ، هذا فى الآخرة ، فأىُّ خُسْران بعد هذا ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ (٧١)﴾

﴿نَجَّيْنَاهُ .. (٧١)﴾ [الأنبياء] يعنى : كان هناك شرٌّ يصيبه ، وأذىً يلحق به ، فنجّاه الله منه ، وهذه النجاة مستمرة ، فبعد أنْ أنجاه الله من النار أنجاه أيضاً ممَّا تعرَّض له من أذاهم .

﴿وَلُوطًا .. (٧١)﴾ [الأنبياء] وكان لوط عليه السلام ابنَ أخ إبراهيم ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)﴾ [الأنبياء] أى : قلنا لإبراهيم : اترك هذه الأرض - وهى أرض بابل من العراق - واذهب إلى الأرض المقدسة بالشام ، وخُذْ معك ابن أخيك ، فبعد أنْ نجاهما الله لم يتركهما فى هذا المكان ، بل اختار لهما هذا المكان المقدس .

والأرض حينما تُوصَف يُراد بها أرضاً مُحدَّدة مخصوصة ، فإذا لم تُوصَف فتطلق على الأرض عامة إلا أن يعينها سياق الحال ، فمثلاً لما قال أخو يوسف : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي .. (٨٠)﴾ [يوسف]

فالسياق يُوضِّح لنا أنها أرض مصر .

لكن قوله : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] فلم تُعيِّن ، فدلَّ ذلك على أنها الأرض عامة ، اسكنوا كُلَّ الأرض ، يعنى : تبعثروا فيها ، ليس لكم فيها وطن مستقل ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

فإذا أراد الله تجمعوا من الشتات ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] أى : المرة التى سينتصرون فيها ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾ [الإسراء] وهكذا يتجمَّعون فى مكان واحد ، فيسْهُلُ القضاء عليهم .

ومعنى ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا .. (٧١) ﴾ [الأنبياء] البركة قد تكون مادية أو معنوية ، وهى الزروع والثمار والأنهار والخيرات ، أو بركة معنوية ، وهى بركة القيَم فى الأرض المقدسة ، وهى أرض الأنبياء ، ومعالم النبوة والرسالات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً [(١)] وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا لقطةً من قصة إبراهيم لكن بعيدة عمَّا نحن بصدده من الحديث عنه ، فقد وهب الله لإبراهيم إسحق لما دعا الله قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] مع أنه كان عنده

(١) النافلة : الحفيد ؛ لأنه زيادة بعد الابن . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٠] . قال القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٤٨٤) : « أى : زيادة ؛ لأنه دعا فى إسحاق ، وزيد فى يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة ، أى : زيادة على ما سأل ، ويُقال لولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد » .

إسماعيل ، لكن إسماعيل من هاجر ، وقد تحركت مشاعر الغَيْرة لدى سارة ، ووجدت فى نفسها ما تجده النساء فى مسألة الولد ، وكيف يكون لإبراهيم ولد من هاجر التى زوَّجتها له دون أن يكون لها مثْله .

لذلك ألحَّتْ سارة على إبراهيم أن يدعو الله أنْ يرزقها الولد ، فدعا إبراهيم ربه ، وأراد الحق سبحانه أن يجيب إبراهيم ، وأن يُحقِّق له ما ترجوه زوجته ، لكن أراد أن يعطيه هذا الولد فى ملحظ عقدى يُسجَّل ولا يزول عن الأذهان أبداً ، ويظلُّ الولد مقترناً بالحادثة .

فبداية قصة إسحق لما أمر الله نبيه إبراهيم فى الرؤيا أن يذبح ولده إسماعيل ، فأخبره برؤياه : ﴿ **يَـٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ..** (١٠٢) ﴾ [الصافات]

أراد إبراهيم أنْ يُشرك ولده معه فى هذا الاختبار ، وألاَّ يأخذه على غِرَّة حتى لا تتغير نفسه نحو أبيه فيكرهه وهو لا يعلم ما حدث ، وأراد أيضاً ألاَّ يحرم ولده من الثواب والأجر على هذه الطاعة وهذا الصبر على البلاء .

أما إسماعيل فمن ناحيته لم يعارض ، ولم يقُلْ مثلاً : يا أبت هذه مجرد رؤيا وليست وحياً ، وكيف نبنى عليها ، بل نراه يقول : ﴿ **يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ..** (١٠٢) ﴾ [الصافات] ولم يقُلْ : أفعل ما تقول ، فما دام الأمر من الله فافعل ما أمرتَ به ﴿ **سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** (١٠٢) ﴾ [الصافات]

﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا ..** (١٠٣) ﴾ [الصافات] أى : هما معاً إبراهيم وإسماعيل ﴿ **وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ** (١٠٣) ﴾ [الصافات] يقال : تله يعنى جعل رأسه على

---

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض ، وقوله ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] . أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١/١٠١] .

التل ، وهو المكان المرتفع من الأرض ، و ﴿ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : جعل جبهته مباشرة للأرض ، بحيث يذبحه من قفاه ، وهذا هو الذَّبْح العاجل المثمر .

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات] وما دُمْتَ صدَّقْتَ الرؤيا ، فلكَ جزاء الإحسان ؛ لأنك أسرعتَ بالتنفيذ مع أنها رؤيا ، كان يمكنه أن يتراخى فى تنفيذها ، لكنه بمجرد أن جاء الأمر قام وولده بتنفيذه .

إذن : الحق سبحانه لا يريد من عبده إلا أنْ يُسلِّم بقضائه ، وصدق القائل[1] :

سلِّم لربِّكَ حُكْمَهُ فلحكْمَةٍ يَقْضِيه حتى تستريح وتنْعمَا
واذْكُرْ خليلَ الله فى ذَبْحِ ابنه إذ قال خالقه فلما أسلمَا

لذلك لا يرفع الله قضاءً يقضيه على خلقه إلا إذا رُضِىَ به ، فلا أحدَ يُجبر الله على شىء . وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثَل الأعلى - بالأب حين يدخل ، فيجد ولده على أمر يكرهه ، فيزجره أو يضربه ضربة خفيفة تُعبِّر عن غضبه ، فإنْ خضع الولد لأبيه واستكان عاد الوالد عطوفاً حانياً عليه وربما احتضنه وصالحه ، أمّا لو عارض الولد وتبجَّح فى وجه والده فإنه يشتد عليه ويُضاعف له العقوبة ، وتزداد قسوته عليه .

وهكذا الحال مع إبراهيم ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات] ففدينا له إسماعيل ، ليس هذا وفقط بل ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات] ثم زاده بأنْ جعل إسحق أيضاً نبياً مثل إسماعيل ، هذه هى مناسبة الكلام عن إسحق ويعقوب .

---

(١) الشيخ رحمه الله .

هنا يقول تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنبياء] والنافلة : الزيادة ، وقد طلب من ربه ولداً من الصالحين ، فبشَّره الله بإسحق ومن بعده يعقوب وجميعهم أنبياء ؛ لذلك قال ﴿ نافلة .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : أمر زائد عما طلبتَ ، فإجابة الدعاء بإسحق ، والزيادة بيعقوب ، وسرور الإنسان بولده كبير ، وبولد ولده أكبر ، كما يقولون : « أعز من الولْد ولْد الولد » والإنسان يضمن بقاء ذكْره فى ولده ، فإن جاء ولد الولد ضَمِن ذكْره لجيل آخر .

والهبة جاءت من الله ؛ لأن المرأة لم تكُنْ صالحة للإنجاب ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فأقبلت امرأته فى صرة[1] فصكت[2] وجهها وقالت عجوز عقيم ﴿٢٩﴾ ﴾ [الذاريات] فردَّ عليها : ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود] أى : أنه سبحانه قادر على كل شىء.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وكلاً جعلنا صالحين ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنبياء] فالحفيد نافلة وزيادة فى عطاء الذرية ، ومبالغة فى الإكرام ، ثم يمتن الله على الجميع بأن يجعلهم صالحين ، ويجعلهم أنبياء ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وكلاً جعلنا نبيا ﴿٤٩﴾ ﴾ [مريم]

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

---

(١) الصرة : تقطيب الوجه ، والصيحة ، والجماعة ، أى : أقبلت فى صيحة من التعجب ، أو فى تقطيب وجه استبعاداً وتعجباً ، أو فى جماعة من خدمها . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤].

(٢) الصَّك : الضرب الشديد بالشىء العريض ، وقيل : هو الضرب عامة بأى شىء كان . [لسان العرب ـ مادة : صكك] .

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السُّلْطة الزمنية من باطنهم ، إنما إمامة القدوة بأمر الله ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا .. (٧٣)﴾ [الأنبياء] فهم لا يصدرون فى شىء إلا على هُدًى من الله .

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ .. (٧٣)﴾ [الأنبياء] أى : يفتح لهم أبواب الخير ويُيسِّر لهم ظروفه ؛ لأن الموفّق الذى يتوفّر لديه الاستعداد للخير يفتح الله له مصارف الخير ويُعينه عليه

﴿وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ .. (٧٣)﴾ [الأنبياء] وإقامة الصلاة هى : عَيْن الخيرات كلها ؛ لأن الخيرات نعمة ، لكن إقامة الصلاة حضرة فى جانب المنعِم سبحانه ، فالصلاة هى خَيْر الخَيْر .

ومع ذلك نجد مَنْ يتشاغل عن الصلاة ، ويعتذر بالعمل وعدم الوقت ... الخ وكلها أعذار واهية ، فكنتُ أقول لبعض هؤلاء : بالله عليك لو احتجتَ دورة المياه أتجد وقتاً أم لا ؟ يقول : أجد الوقت ، فلماذا - إذن - تحتال فى هذه المسألة وتدبر الوقت اللازم ، ولا تحتال فى وقت الصلاة ؟

وربك عز وجل لو علم منك أنك تُجيب نداءه لَسهَّل لك الإجابة ، وقد رأينا الحق سبحانه يُسخِّر لك حتى الكافر ليعينك على أمر الصلاة .

ففى إحدى سفرياتنا إلى بلجيكا رأينا أن أولاد المسلمين هناك لا يدرسون شيئاً من الدين الإسلامى فى المدارس ، بل يُدرِّسون لهم الدين المسيحى ، فطلبنا مقابلة وزير المعارف عندهم ، وتكلمنا معه فى هذا الأمر ، وكانت حُجَّتنا أنكم قبلتُم وجود هؤلاء المسلمين فى بلادكم لحاجتكم إليهم ، وإسهامهم فى حركة حياتكم ، ومن مصلحتكم أن يكون عند هؤلاء المسلمين دين يراقبهم قبل مراقبتكم أنتم ، وأنتم أوّلُ

المستفيدين من تدريس الدين الإسلامى لأولاد المسلمين .

وفعلاً فى اليوم التالى أصدروا قراراً بتدريس الدين الإسلامى فى مدارسهم لأولاد المسلمين ؛ ذلك لأن الإسلام دين مثمر ، ودين إيجابى تضمنه وتأمنه .

فلأهمية الصلاة ذكرها الحق سبحانه فى أول أفعال الخيرات ، وفى مقدمتها ، فقمّة الخيرات أنْ تتواجد مع الإله الذى يهبُكَ هذه الخيرات .

﴿ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ .. (٧٣) ﴾ [الأنبياء] والزكاة تطبيق عملىٌّ للاستجابة لله حين تُخرج جزءًا من مالك لله ، والصلاة دائماً ما تُقرَن بالزكاة ، فالعلاقة بينهما قوية ، فالزكاة تضحية بجزء من المال ، والمال فى الحقيقة نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، أما الصلاة فهى تضحية بالوقت ذاته .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) ﴾ [الأنبياء] أى : مطيعين لأوامرنا ، مجتنبين لنواهينا ، فالعبادة طاعة عابد لمعبوده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ(١) ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ(٢) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ (٧٤) ﴾

---

(١) هى قرية « سَدُوم » قال ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبقى واحدة للوط وعياله ، وهى زَغَر التى فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد السراة ، ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٤) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٥) : « فى الخبائث التى كانوا يعملونها قولان : أحدهما : اللواط . والثانى : الضراط ، أى : كانوا يتضارطون فى ناديهم ومجالسهم » .

﴿ وَلُوطًا .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] جاءتْ منصوبة ؛ لأنها معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ .. (٥١) ﴾ [الأنبياء] وأيضاً : آتينا لوطاً رشده . والحُكْم : يعنى الحكمة ، وأصله من الحكمة[1] التى تُوضَع فى حنك الفَرَس ؛ لأن الفَرس قد يشرد بصاحبه أو يتجه إلى جهة غير مرادة لراكبه ؛ لذلك يوضع فى حنكه اللجام أو الحكمة ، وهى قطعة من الحديد لها طرفان ، يتم توجيه الفرس منهما يميناً أو شمالاً .

ومن ذلك الحكْمة ، وهى وَضْع الشئ فى موضعه ، ومنه الحُكْم ، وهو : وضع الحق فى موْضعه من الشاكى أو المشكو أى : الخصمين .

﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] وفرْقٌ بين العلْم والحكم: العلم أن تُحقِّق وتعرف ، أمَّا الحكم فسلوك وتطبيق لما تعلَم ، فالعلم تحقيق والحكم تطبيق .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] فقد نجَّى الله إبراهيم عليه السلام من النار ، وكذلك نجَّى لوطاً من أهل القرية التى كانت تعمل الخبائث ، والخبائث فى قوم لوط معروفة[2]

لذلك يقول بعدها : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) ﴾ [الأنبياء] ورجل السَّوْء هو الذى يسوء كل مَنْ يخالطه ، لا يسوء البعض دون البعض ، فكل مَنْ يخالطه أو يحتكّ به يسوؤه .

---

(١) الحكمة : حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . [لسان العرب ـ مادة : حكم] .

(٢) أخرج ابن عساكر عن أبى أمامة الباهلى قال : كان فى قوم لوط عشر خصال يُعرفون بها : لعب الحمام ، ورمى البندق ، والمكاء (الصَّفير بالفم) . والخذف فى الأنداء (رَمْى الحصى أو النوى) ، وتسبيط الشعر ، وفرقعة العلك (اللبان) ، وإسبال الإزار (إطالته حتى يجاوز الكعبين) ، وحبس الأقبية ، وإتيان الرجال ، والمنادمة على الشراب . وستزيد هذه الأمة عليها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٦٤٤] .

والفسْق : الخروج عن أوامر التكليف ، وهذا التعبير ككُلِّ التعابير القرآنيةَ مأخوذ من واقعيات الحياة عند العرب ، فأصل الفسْق من فَسَقت الرُّطبة عن قشرتها حين تستوى البلحة فتنفصل عنهاَ القشرة حتى تَظهر منها الرُّطبة ، وهذه القشرة جُعلَتْ لتؤدى مهمة ، وهى حفْظ الثمرة ، كذلك نقول فى الفسق عن المنهج الدينى الذى جاء ليَؤدى مهمة فى حياتنا ، فمَنْ خرج عنه فهو فاسق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾

كيف ؟ ألسنا جميعاً فى رحمة الله ؟ قالوا : لأن هناك رحمة عامة لجميع الخَلْق تشمل حتى الكافر ، وهناك رحمة خاصة تعدى الرحمة منه إلى الغير ، وهذه يعنُون بها النبوة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] أى : النبوة : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فكيف يقسمون رحمة الله التى هى النبوة ، وهى قمة حياتهم ، ونحن نقسم لهم أرزاقهم ومعايشهم فى الدنيا ؟

فمعنى ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا .. (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى : فى رَكْب النبوة ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى : للنبوة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، لكن قمة هذه الرحمة جاءت فى النبى الخاتم والرسول الذى لا يُسْتدرك عليه برسول بعده ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

فالرسل قبل محمد ﷺ كانوا رحمة لأممهم ، أمّا محمد فرحمة لجميع العالمين .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن رسول آخر من أولى العزم من الرسل :

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحًا .. (٧٦) ﴾ [الأنبياء] مثلما قلنا فى ﴿ وَلُوطًا .. (٧٤) ﴾ [الأنبياء] أى : آتيناه هو أيضاً رُشْده ﴿ إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. (٧٦) ﴾ [الأنبياء] والنداء فى حقيقته : طلبُ إقبال ، فإنْ كان من أعلى لأدنى فهو نداء ، وإنْ كان من مُسَاوٍ لك فهو التماس ، فإنْ كان من أدنى لأعلى فهو دعاء ، فحين تقول يا رب : الياء هنا ليست للنداء بل للدعاء .

وحين تمتحن تلميذاً تقول له : أعرب : رَبِّ اغفر لى ، فلو كان نبيهاً يقول : ربِّ مدعو . والتقدير يا رب ، ومن قال : منادى نسامحه لأنه صحيح أيضاً ، فالياء فى أصلها للنداء ، لكنه غير دقيق فى الأداء . كذلك فى : اغفر لى ، إنْ قال فِعْل أمر نعطيه نصف الدرجة ، أما إن قال دعاء فَلَهُ الدرجة الكاملة .

فماذا قال نوح عليه السلام فى ندائه ؟ المراد قوله : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) ﴾ [نوح] فاستجاب الله لنبيه نوح عليه السلام : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴾ [الأنبياء] والمراد بالكرب ما لبثه نوح فى دعوة قومه من عمر امتد ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما تحمَّله فى سبيل دعوته من عَنَتٍ ومشقّة قال الله فيها :

---

(١) الديار : من يسكن الدار أو من يتحرك فيها ويدور فيها بحرية . ويقال : ما بالدار ديّار . أى : ما فيها أحد . ومعنى دعاء نوح عليه السلام : أى : لا تذر أحداً منهم حياً . [القاموس القويم ١/ ٢٣٧] .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا[1] ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) ﴾ [نوح]

ثم لما أمره الله بصناعة الفُلْك أخذوا يسخرون منه : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ .. (٣٨) ﴾ [هود]

إذن : استجاب الله دُعَاءه ونداءه ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ .. (٧٦) ﴾ [الأنبياء]
وفى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) ﴾ [الصافات]
فوصف الحق سبحانه إجابته لنوح بـ (نِعْم) الدالة على المدح .

فهل يعنى ذلك أن هناك مَنْ يكون بِئْس المجيب ؟ قالوا : نعم إذا سألته شيئاً فأجابك إليه وهو شَرٌّ لك ، أمَّا الحق سبحانه فهو نِعْم المجيب ؛ لأنه لا يُجيبك إلا بما هو صالح ونافع لك ، فإنْ كان فى دعائك شَرٌّ ردَّه لعلمه سبحانه أنه لن ينفعك .

وكأن الحق الأعلى سبحانه يقول لك : أنا لستُ موظفاً عندك ، أجيبك إلى كُلِّ ما تطلب ، إنما أنا قيُّوم عليك ، وقد تدعو بما تظنّه خيراً لك ، وأعلم بأزلية علْمى أن ذلك شر لا خيرَ فيه ، فيكون الخير لك ألاَّ أجيبك ؛ لأننى نِعْم المجيب .

وَهبْ أن الله تعالى يجيب كُلاً منّا إلى ما يريد ، فكيف حال الأم التى تغضب مثلاً من وحيدها ، وفى لحظة الغضب والثورة تدعو عليه فتقول مثلاً : (إلهى أشرب نارك) ؟ فالحق - تبارك وتعالى - حين يردُّ مثْل هذا الدعاء هو نِعْم المجيب ؛ لأنه نِعْم المانع .

---

(١) استغشى ثيابه وتغشّى بها : تغطَّى بها كى لا يُرَى ولا يُسْمَع . [لسان العرب - مادة : غشى] .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء] أى : يدعو ويُلِحُّ فى الدعاء بما يظنُّه خَيْراً ، وهو ليس كذلك .

﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾

ما زالت الآيات تقصُّ علينا طرفاً مُوجزاً من رَكْب النبوات ، ونحن فى سورة الأنبياء ، وحينما نتأمل هذه الآية نجد أن الله تعالى يُعذِّب بالماء كما يُعذِّب بالنار ، مع أنهما ضدَّان لا يلتقيان ، فلا يقدر على هذه المسألة إلا خالقهما سبحانه وتعالى .

وقصة غَرَق قوم نوح وأهل سبأ بعد انهيار سَدِّ مأرب أحدثا عقدة عند أهل الجزيرة العربية ، فصاروا حين يروْنَ الماء يخافون منه ويبتعدون عنه ، حتى إذا احتاجوا الماء يذهبون إلى مكان بعيد يملأون قِرَبهم ؛ ذلك لعلمهم بخطر الطوفان ، وأنه لا يُصَدُّ ولا يردُّه عنهم شىء .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن نبيين من أنبياء بنى إسرائيل من بعد موسى :

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾

---

(١) النفش : الرعى بالليل . نفشت : أى : رعت فيه ليلاً . [تفسير القرطبى ٦/٤٤٨٦] . نفشت الإبل : إذا تفرقت فرعَتْ بالليل من غير علم راعيها . [لسان العرب ـ مادة : نفش] .

يحكمان تعنى أن هناك خصومةً بين طرفين ، والحرْث : إثارة الأرض وتقليب التربة ؛ لتكون صالحة للزراعة ، وقد وردتْ كلمة الحرث أيضاً فى قوله تعالى : ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥)﴾ [البقرة]

والحرْث ذاته لا يهلك ، إنما يهلك ما نشأ عنه من زُروع وثمار ، فسمَّى الزرع حَرْثاً ؛ لأنه ناشىء عنه ، كما فى قوله تعالى أيضاً : ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ[1] أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ .. (١١٧)﴾ [آل عمران]

لكن ، لماذا سَمَّى الحرْث زَرْعاً ، مع أن الحَرْث مجرد إعداد الأرض للزراعة ؟ قالوا : ليُبيِّن أنه لا يمكن الزرع إلا بحرْث ؛ لأن الحرْث إهاجة تُرْبة الأرض ، وهذه العملية تساعد على إدخال الهواء للتربة وتجفيفها من الماء الزائد ؛ لأن الأرض بعد عملية الريِّ المتكررة يتكوَّن عليها طبقة زَبَدية تسدُّ مسَام التُّربة ، وتمنع تبخُّر المياه الجوفية التى تُسبِّب عطباً فى جذور النبات .

لذلك ، ليس من جَوْدة التربة أن تكون طينية خالصة ، أو رملية خالصة ، فالأرض الطينية تُمسك الماء ، والرملية يتسرَّب منها الماء ، وكلاهما غير مناسب للنبات ، أما التربة الجيدة ، فهى التى تجمع بين هذه وهذه ، فتسمح للنبات بالتهوية اللازمة ، وتُعطيه من الماء على قَدْر حاجته .

---

(١) الصِّر : البرد الشديد . [القاموس القويم ١/٣٧٤] . قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٩٧) : « عن ابن عباس أيضاً ومجاهد (فيها صر) أى : نار ، وهو يرجع إلى الأول ، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار ، كما يُحرق الشىء بالنار » .

لذلك سَمَّى الزرْع حَرْثاً ؛ لأنه سببُ نمائه وزيادته وجَوْدته ، وليُلفت أنظارنا أنه لا زَرْع بدون حَرْث ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة]

ففى هذه المسألة إشارة إلى سُنَّة من سُنَن الله فى الكون ، هى أنك لا بُدَّ أن تعمل لتنال ، فربُّك وخالقك قدَّم لك العطاء حتى قبل أنْ تُوجد ، وقبل أن يُكلِّفك بشىء ، ومكثت إلى سِنِّ البلوغ ، تأخذ من عطاء الله دون أنْ تُحاسبَ على شىء من تصرفاتك .

وكذلك الأمر فى الآخرة سيعطيك عطاءً لا ينتهى ، دون أن تتعب فى طلبه ، هذا كُلُّه نظير أنْ تطيعه فى الأمور الاختيارية فى سِنِّ التكليف .

إذن : لقد نلْتَ قبل أن تعمل ، وستنال فى الآخرة كذلك بدون أنْ تعمل ، فلا بُدَّ لك من العمل بين بدايتك ونهايتك لتنال الثمرة .

لذلك ، فى الحديث الشريف يقول ﷺ : « أَعْطُوا الأجير أجره قبل أنْ يجفَّ عَرَقُه »[1] ما دام قد عمل فقد استحق الأجر ، والأمر كذلك فى مسألة الحرث .

ثم يقول تعالى : ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ .. (٧٨)﴾ [الأنبياء] هذه خصومة بين طرفين ، احتكما فيها لداود عليه السلام : رجل عنده زرع ، وآخر عنده غنم ، فالغنم شردتْ فى غفلة من صاحبها فأكلتْ الزرع ، فاشتكى صاحبُ الزرع صاحبَ الغنم لداود ، فحكم فى هذه

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى « حلية الأولياء » (٧/ ١٤٢) من حديث أبى هريرة ، والطبرانى فى المعجم الصغير (١/ ٢٠) من حديث جابر بن عبد الله ، وابن ماجة فى سننه (٢٤٤٣) من حديث عبد الله بن عمر ، وفى سند ابن ماجة ضعيفان ، قاله البوصيرى فى الزوائد .

القضــية بأن يأخذَ صــاحبُ الزرعِ الغنَم ، وربما وجد ســيدنا داود أن الزرع الذى أتلفتْه الغنم يساوى ثمنها .

فحينما خرج الخَصْمان لقيـهما سليمان - عليه السلام - وكان فى الحادية عشرة من عمره ، وعرف منهما حكومة أبيه فى هذه القضية ، فقــال : (غير هذا أرفق بالفــريقين)[1] فسمَّى حُكْم أبيــه رِفْقاً ، ولم يتهمه بالجَوْر مثلاً ، لكن عنده ما هو أرفق .

فلما بلغت مقالته لأبيه سأله : ما الرِّفق بالفريقين ؟ قال سليمان : نعطى الغنم لصــاحب الزرع يستــفيــد من لبنها وأصــوافهــا ، ونعطى الأرض لصاحب الغنم يُصلحــها حتى تعود كمــا كانت ، ساعتــها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زَرْعه .

ومعنى ﴿ نَفَشَتْ .. (٧٨) ﴾ [الأنبياء] نقول : نفش الشىء أى : أخذ حَجْماً فوق حَــجْمه ، كما لو أخذتَ مثلاً قطعة من الخبــز أو البقسماط ووضــعتَها فى لبن أو ماء ، تلاحظ أنهــا تنتفش ويزداد حجمها نقول : انتفشت ، كــما نقول لمن يأخذ حــجماً أكثر من حــجمه : « أنت نافش ريشك » .

وقــوله تعــالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِــهِمْ شَــاهِدِينَ (٧٨) ﴾ [الأنبيــاء] أى مراقبين .

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٧) أن سليمان سأل الخصمين بعد أن خرجا من عند أبيه داود ، بم قضى بينكمــا نبى الله داود ؟ فقالا : قضى بالغنم لصاحب الحــرث . فقال : لعل الحكم غير هذا ، انصرفا مــعى . فأتى أباه فقال : « يا نبى الله إنك حكمت بكذا وكذا ، وإنى رأيت ما هو أرفق بالجمــيع » وقال حكمه بين الخصمين . فــقال داود : وفقت يا بنى لا يقطع الله فهمك .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

فداود وسليمان - عليهما السلام - نبيان ، لكل منهما مكانته ، وقد أعطاهما الله حُكْماً وعلماً ، ومع ذلك اختلف قولهما في هذه القضية ، فما توصَّل إليه سليمان لا يقدح في عِلْم داود ، ولا يطعن في حُكْمه .

وما أشبه حُكْم كُلٍّ من داود وسليمان بمحكمة درجة أولى ، ومحكمة درجة ثانية ، ومحكمة النقْض ، ومحكمة الاستئناف ، وإياك أن تظن أن محكمة الاستئناف حين تردُّ قضاء محكمة درجة أولى أنها تطعن فيها .

فهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] فجاء بحكْم غير ما حكَم به أبوه ؛ لذلك فالقاضي الابتدائي قد يحكم في قضية ، ويتم تأجيلها إلى أنْ يترقى إلى قاضي استئناف ، فيقرأ نفس القضية لكن بنظرة أخرى ، فيأتي حُكْمه غير الأول .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] حينما جمع السياق القرآني بين داود وسليمان أراد أنْ يُبيِّن لنا طَرَفاً مِمَّا وهبهما الله ، فقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] مظهر من مظاهر امتيازه ، وهنا يُبيِّن مَيْزةً لداود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

والتسخير : قَهْر المسَخّر على فعل لا يستطيع أنْ ينفكَّ عنه ،

وليس مختاراً فيه ، ونلحظ هنا الارتقاء من الأَدْنى إلى الأعلى : أولاً : سخّر الجبال وهى جماد ، ثم الطير وهى أَرْقَى من الجماد ، لكن إنْ تصوَّرْنا التسبيح من الطير ؛ لأنه حَىٌّ ، وله روح ، وله حركة وصوت مُعبّر ، فكيف يكون التسبيح من الجبال الصماء ؟

بعض العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التفسير ، لا بُعمْق ونظر فى لُبِّ الأشياء ، فالجبال يروْنها جامدة ، ليس لها صوت مُعبّر كما للطير ؛ لذلك يعجبون من القول بأن الجبال تُسبِّح ، فكيف لها ذلك وهى جمادات ؟

لكن ؛ ما العجب فى ذلك ، وأنت لو قُمْتَ بمَسْح شامل لأجناس الناس فى الأرض ، واختلاف لغاتهم وألسنتهم وأشكالهم وألوانهم بحسْب البيئات التى يعيشون فيها ، فالناس مختلفون فى مثل هذه الأمور متفقون فقط فى الغرائز ، فالجوع والعطش والخوف والضحك والعواطف كلها غرائز مشتركة بين جميع الأجناس ، وهذه الغرائز المشتركة ليس فيها اختيار .

ألم تَرَ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم] فما دام أنه سبحانه الذى يُضحِك ، والذى يُبكِى ، فلن نختلف فى هذه الأمور .

فالكلام - إذن - من الأشياء التى يختلف فيها الناس ، وهذا الاختلاف ليس فى صوت الحروف ، فالحروف هى هى ، فمثلاً حين ننطق (شرشل) ينطقها أهل اللغات الأخرى كذلك : شين وراء وشين ولام ، فنحن - إذن - متحدون فى الحروف ، لكن نختلف فى معانى الأشياء .

وقد يعزّ على بعض الحناجر أن تنطقَ ببعض الحروف بطبيعة تكوينها ، فغيْر العربى لا ينطق الضاد مثلاً ، فليس عندهم إلا الدال ، أما فى العربية فعندنا فَرْق بين الدال المرقّقة والضاد المفخّمة ، وفرْق بين السين والثاء ، وبين الزاى والذال ، وبين الهمزة والعَيْن ، لذلك نجد غير العربى يقول فى (على) : ألي ، فليس له قدرة على نُطْق العين ، وهو إنسان ناطق بلغة ومُتكلِّم .

فإذا كنا ـ نحن البشر ـ لا يفهم بعضُنا لغاتِ بعض ، فهذا عربى ، وهذا إنجليزى ، وهذا فرنسى .. الخ فإذا لم تَتعلم هذه اللغة لا تفهمها .

ومعلوم أن اللغة بنت المحاكاة وبنت السماع ، فما سمعتْه الأذن يحكيه اللسان ، والأبكم الذى لا يتكلم كان أصمَّ لا يسمع ، والطفل ينطق بما سمع ، فلو وُضِع الطفل الإنجليزى فى بيئة عربية لنطق بالعربية .. وهكذا .

فلماذا نعجب حين لا نفهم لغة الطَّيْر أو لغة الجمادات ، وهى أشياء مختلفة عنّا تماماً ، فلا يعنى عدم فَهْمنا للغاتهم أنهم ليست لهم لغة فيما بينهم يتعارفون عليها ويُعبِّرون بها .

إذن : لا تستبعد أنْ يكونَ للأجناس الأَدْنى منك لغات يتفاهمون بها وأنت لا تفهمها ، بدليل أن الله تعالى أعطانا صورةً من لغات الطير ، وهذه يعلمها مَنْ علَّمه الله ، كما امتنَّ الله على سليمان وعلَّمه لغة الطير ، ففهم عنها وخاطبها .

وقد حكى الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (١٦) ﴾ [النمل] ولولا أن الله علَّمه لغة الطير ما علمها .

وها هو الهدهد يقول لسليمان عليه السلام لما تفقَّد الطير ، ولم يجد الهدهد فتوعَّده : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

ونلحظ هنا دقَّة سليمان - عليه السلام - في استعراض مملكته ، فلم يترك شيئاً حتى الهدهد ، ونلحظ أدبه في قوله : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] فقد اتهم نظره وشكَّ أولاً ، فربما الهدهد يكون موجوداً ، ولم يَرَهُ سليمان .

وانظر إلى قَوْل الهدهد للملك : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .. (٢٢)﴾ [النمل] ثم معرفته الدقيقة بقضية التوحيد والعقائد : ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٢٤)﴾ [النمل]

ويعترض الهدهد على هذا الشرك ، ويردُّ عليه بشيء خاص به ، وبظاهرة تُهمه : ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [النمل]

فاختار الهدهد مسألة إخراج الخبْء ؛ لأن منه طعامه ، فلا يأكل من ظاهر الأرض ، بل لا بُدَّ أنْ ينبشَ الأرض ، ويُخرِج خبأها ليأكله .

وكذلك النمل ، وهو أقلُّ من الهدهد ، فقد كان للنملة مع سليمان لغة ، وكلام ، وفَهْم عنها : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. (١٩)﴾ [النمل]

---

(١) الخبأ : المخبوء المخفيّ . [القاموس القويم ١/١٨٥] . قيل : الخبء الذي في السماوات هو المطر ، والخبء الذي في الأرض هو النبات . قيل : والصحيح أن الخبء كل ما غاب . [لسان العرب - مادة : خبأ] .

إذن : كان الكلام للنمل ، لكنْ فَهمه سليمان ؛ لذلك قال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ .. (١٩) ﴾ [النمل]

ذلك لأننا لا نفهم هذه اللغات إلا إذا فَهَّمنا الله إياها .

ومع هذا حينما وقف العلماء أمام هذه الآية ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] قالوا : يعنى تسبيح دلالة ، فهى بحالها تدلُّ على الخالق سبحانه ، وليس المراد التسبيح على حقيقته ، وأَوْلى بهم أنْ يعترفوا لها بالتسبيح ؛ لكنه تسبيح لا نفهمه نحن ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

والآن نرى فى طموحات العلماء السَّعْى لعمل قاموس للغة الأسماك ولغة بعض الحيوانات ، ولا نستبعد فى المستقبل عمل قاموس للغة الأحجار والجمادات ، وإلا فكيف ستكون ارتقاءات العلم فى المستقبل ؟ وهذه حقيقة أثبتها القرآن تنتظر أن يكتشفها العلم الحديث .

والمزيّة التى أعطاها الله تعالى لنبيه داود ـ عليه السلام ـ ليستْ فى تسبيح الجبال ؛ لأن الجبال تُسبِّح معه ومع غيره ، إنما الميزة فى أنها تُردِّد معه ، وتوافقه التسبيح ، وتجاوبه ، فحين يقول داود : سبحان الله تردد وراءه الجبال : سبحان الله . وكأنهم جميعاً (كورس) يردد نشيداً واحداً .

وليس معنى الجماد أنه جامد لا حياةَ فيه ، فهو جماد من حيث صورة تكوينه ، ولو تأملتَ المحاجر فى طبقات الأرض لوجدتَ بين الأحجار حياة وتفاعلاً وحركةً منذ ملايين السنين ، ونتيجة هذه الحركة يتغير لَوْنُ الحجر وتتغير طبيعته ، وهذا دليل الحياة فيها ، انظر مثلاً لو دهنتَ الحجرة لَوْناً معيناً تراه يتغير مع مرور الزمن ، إذن : فى هذه الجمادات حياة ، لكن لا ندركها .

وسبق أن أشرنا إلى أن الذين يقولـون فى معجزات النبى ﷺ أنه سبَّح الحصى فى يده . أن هذه المـقولة غير دقيقة تحـتاج إلى تنقيح عقلى ، فالحجر مُـسبِّح فى يد رسول الله ، وفى يد أبى جهل ، إذن : قل : إن المعجزة هى أن رسول الله سمع تسبيح الحصى فى يده .

فما من شـىء فى كـون الله إلا وله حياة تناسبـه ، وله لغة يُسبِّح الله بها ، أدركناها أم لم ندركها ؛ لأن الكلام فـرع وجود حياة ، وكل شىء فى الوجود له حيـاة ، فعلبة الكبريت هذه التى نستعـملها يقول العلماء : إن بين ذراتها تفاعـلات تكفى لإدارة قطار حول العالم . هذه التفاعلات دليل حركة وحياة .

ألم يقُلْ الحق سـبـحانه وتعـالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨)﴾ [القصص]

فكلُّ مـا يقال له شـىء ـ إلا وَجْـه الله ـ هالك ، والهـلاك يعنى أن فـيه حـياةً ؛ لأن الهـلاك ضـد الحيـاة ، كمـا جـاء فى قوله تعـالى : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ (٤٢)﴾ [الأنفال]

فكُلُّ شـىء فى الوجود له حيـاة بقانونه ، وليس من الضرورى أن تسمع الكلام حتى تعـترف بوجوده ، فهناك مثـلاً لغة الإشـارة ، وهى لغة مفهومة ومُعبِّرة ، ألاَ ترى مثلاً إلى الخادم ينظر إليه سيده مجرد نظرة يفهم منها ما يريد أنْ يُقدِّمه للضيف مثلاً .

البحـارة لهم إشارات يتـعارفـون عليها ويـتفاهمـون بها . جـهاز التلغـراف لَوْن من ألوان الأداء ووسـيلة من وسـائل التـفـاهم ، إذن : الأداء والبـيان ليس من الـضرورى أنْ يتمّ بالكلام المـسـموع ، إنمـا تتفـاهم الأجناس ويُكلِّم بعـضـهـا بعضـاً كلّ بلغتـه ، فإذا أراد الله أن يفيض عليك من إشراقاته أعطاك من البصيرة والعلم ما تفهم به لغات غيرك من الأجناس .

لذلك يقول تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور] والتنوين هنا دالٌّ على التعميم ، فلكل شيء صلاته التى تناسبه ، وتسبيحه الذى يناسب طبيعته .

والحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية التسبيح والخضوع والقَهْر من المخلوقات جميعاً لله يأتى الكلام عاماً فى كل الأجناس بلا استثناء ، إلا فى الكلام عن الإنسان ، فإن التسبيح والخضوع خاصٌّ ببعض الناس .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. (١٨) ﴾ [الحج] هكذا بلا استثناء ، أمّا فى الإنسان ، فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾ [الحج]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء] نعم ، الحق سبحانه خالق كل شيء ، وفاعل كل شيء ، لكن مع ذلك يؤكد هذه الحقيقة حتى لا نتعجب من تسبيح الطير والجماد ، فالله هو الفاعل ، وهو المانح والمحرك.

ثم يقول الحق سبحانه عن داود عليه السلام :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ[1] لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٠٠) : « الصنعة يكفُّ بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس ، وفى الحديث : « إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفف ويبغض السائل الملحف » وقد كانت صناعة داود هى صناعة الدروع » .

﴿ عَلَّمْنَاهُ .. ⁽٨٠⁾ ﴾ [الأنبياء] العلْم نقل قضية مفيدة فى الوجود من عالم بها إلى جاهل بها ، والإنسانَ دائماً فى حاجة إلى معرفة وتعلُّم ، لأنه خليفة الله فى الأرض ، ولن يؤدى هذه المهمة إلا بحركة واسعة بين الناس ، هذه الحركة تحتاج إلى فَهْم ومعرفة وتفاعل وتبادل معارف وثقافات ، فمثلاً تشكيل الحديد يحتاج إلى تسخين حتى يصير لَيِّناً قابلاً للتشكيل ، الماء لا بُدَّ أنْ نغليَه لكذا وكذا .. الخ .

وقضايا العلم التى تحتاجها حركة الإنسان فى الأرض نوعان : نوع لم يأمن الله فيه الخلْق على أنفسهم ، فجاء من الله بالوحى ، حتى لا يكون للعقل مجال فيه ، ولا تختلف حوله الأهواء والرغبات ، وهذا هو المنهج الذى نزل يقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لكن الأمور التى لا تختلف فيها الأهواء ، بل تحاول أن تلتقى عليها وتتسابق إليها ، وربما يسرق بعضهم من بعض ، هذه الأمور تركها الحق ـ سبحانه ـ لعمل العقول وطموحاتها ، وقد يلهم فيها بالخاطر أو بالتعلم ، ولو من الأدنى كما تعلَّم ابن آدم (قابيل) من الغراب ، كيف يوارى سوأة أخيه ، فقال سبحانه : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. ⁽٣١⁾ ﴾ [المائدة]

والقضية العلمية قد يكون لها مقدمات فى الكون حين نُعمل فيها العقل ، ونُرتِّب بعض الظواهر على بعض ، نتوصل منها إلى حقائق علمية ، وقد تأتى القضية العلمية بالتجربة ، أو بالخاطر يقذفه الله فى قلْب الإنسان .

فقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ .. ⁽٨٠⁾ ﴾ [الأنبياء] يصح أن نقول : كان هذا التعليم بالوحى ، أو بالتجربة أو الإلقاء فى الرَّوْع ، وهذه الصنعة لم تكن معروفة قبل داود عليه السلام .

واللَّبوس : أبلغ وأحكم من اللباس ، فاللباس من نفس مادة (لبس) هى الملابس التى تستر عورة الإنسان ، وتقيه الحر والبرد ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ[1] تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١)﴾ [النحل]

أما فى الحرب فنحتاج إلى حماية أكبر ووقاية أكثر من العادية التى نجدها فى اللباس ، فى الحرب نحتاج إلى ما يقينا البأس ، ويحمينا من ضربات العدو فى الأماكن القاتلة ؛ لذلك اهتدى الناس إلى صناعة الخوذة والدرع لوقاية الأماكن الخطرة فى الجسم البشرى ، وتتمثل هذه فى الرأس والصدر ، ففى الرأس المخ ، وفى الصدر القلب ، فإن سَلِمَتْ هذه الأعضاء فما دونها يمكن مداواته وجَبْره .

إذن : اللبوس أبلغ وأكثر حماية من اللباس ؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس ، وهذه كانت صنعة داود ـ عليه السلام ـ كان يصنع الدروع ، وكانت قبل داود مَلْساء[2] يتزحلق السيف عليها ، فلما صنعها داود جعلها مُركَّبة من حلقات حتى ينكسر عليها السيف ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء] أى : تحميكم فى حَرْبكم مع عدوكم ، وتمنعكم وتحوطكم .

إذن : ألهمنا داود عليه السلام ، فأخذ يُفكِّر ويبتكر ، وكل تفكير فى ارتقاء صَنْعة إنما ينشأ من ملاحظة عيب فى صَنْعة سابقة ،

---

(١) السربال : القميص والدرع . وقيل فى قوله تعالى : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ..(٨١)﴾ [النحل] . إنها القُمُص تقى الحر والبرد ، فاكتفى بذكر الحر كأن ما وقى الحر وقى البرد ، وأما قوله تعالى : ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. (٨١)﴾ [النحل] . فهى الدروع [لسان العرب ـ مادة : سربل] .

(٢) قال قتادة : كانت صفائح ، فأول من مدَّها وحلَّقها داود عليه السلام أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٦٥٠) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير الطبرى وأبى الشيخ فى العظمة .

فيحاول اللاحق تلافى أخطاء السابق ، وهكذا حتى نصلَ إلى شىء لا عَيْبَ فيه ، أو على الأقل يتجنب عيوب سابقه ؛ لذلك يُسمُّونه (آخر موديل) .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء] شاكرون على نعمة الله الذى يرعاكم ويحفظكم فى المآزق والمواقف الصعبة ، واختار سبحانه موقف البأس أمام العدو ؛ ليعطينا إشارة إلى ضرورة إعداد المؤمن لمواجهة الكافر ، والأخذ بأسباب النجاة إذا تمَّتْ المواجهة .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

فليست مُهمة الحديد فى الحياة أنه ينفع الناس فحسْب ، إنما له مهمة قتالية أيضاً ؛ لذلك قال : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] كما قال : ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإنسان] فإنْ كان القرآن للهداية فالحديد يُؤيِّد هذه الهداية ، حيث نضرب به على أيدى الكافرين العاصين ، ونحمى به صدور المؤمنين المصدِّقين ؛ لذلك قال ﴿ أَنزَلْنَا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] أى : من أعلى مع أنه خارج من الأرض .

إذن : مسألة الحديد فى الأرض نعمة كبيرة من نِعَم الله علينا ، بها نحفظ أنفسنا من العدو ، فالحق - سبحانه وتعالى - خلق الخَلْق ولم يتركه هكذا يُدبِّر أمره ، إنما خلقه ووضع له قانون حمايته وصيانته ، وهذا يستحقّ مِنّا الشكر الدائم الذى لا ينقطع .

ثم ينتقل السياق من الكلام عن داود إلى ابنه سليمان عليهما السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾

لا شكّ أن سليمان ـ عليه السلام ـ قد استفاد بما علَّم الله به أباه داود ، وأخذ من نعمة الله على أبيه ، وهنا يزيده ربه ـ تبارك وتعالى ـ أموراً يتميز بها ، منها الريح العاصفة أى : القوية الشديدة ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا .. ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء] وكأنها مواصلات داخلية فى مملكته من العراق إلى فلسطين[1] .

وفى موضع آخر قال : ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص]

رُخَاء : أى : هيّنة ليّنة ناعمة ، وهنا قال ﴿عَاصِفَةً .. ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء] فكأن الله تعالى جمع لهذه الريح صفة السرعة فى (عاصفة) وصفة الراحة فى (رخاء) ، وهاتان صفتان لا يقدر على الجمع بينهما إلا الله ، فنحن حين تُسْرِع بنا السيارة مثلاً لا تتوفر لنا صفة الراحة والاطمئنان ، بل يفزع الناس ويطلبون تهدئة السرعة .

أما ريح سليمان فكانت تُسرع به إلى مراده ، وهى فى الوقت نفسه مريحة ناعمة هادئة لا تُؤثِّر فى تكوينات جسمه ، ولا تُحدث له رجَّة أو قوة اندفاع يحتاج مثلاً إلى حزام أمان ، فمَنْ يقدر على

---

(١) « قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل باصطخر يتغدى بها ويذهب رائحاً من اصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع » نقله ابن كثير فى تفسيره (٥٢٨/٣) . وكابل : هى عاصمة أفغانستان حالياً .

الجمع بين هذه الصفات إلا الله القابض الباسط ، الذى يقبض الزمن فى حق قوم ويبسطه فى حق آخرين .

ومعنى : ﴿ بَارَكْنَا فِيهَا .. (٨١) ﴾ [الأنبياء] أى : بركة حسِّية بما فيها من الزروع والثمار والخصْب والخيرات ، وبركة معنوية حيث جعل فيها مهابط الوحى والنبوات وآثار الأنبياء .

وليس تسخير الريح لسليمان أنها تحمله مثلاً ، كما رأينا فى (السينما) بساط الريح الذى نراه يحمل شيئاً ويسير به فى الهواء ، أو : أنها كانت تُسيِّر المراكب فى البحار ، إنما المراد بتسخيرها له أن تكون تحت مراده ، وتأتمر بأمره ، فتسير حيث شاء يميناً أو شمالاً ، فهى لا تهُبُّ على مرادات الطبيعة التى خلقها الله عليها ، ولكن على مراده هو .

وإنْ كانت هذه الريح الرُّخَاء تحمله فى رحلة داخلية فى مملكته ، فهناك من الرياح ما يحمله فى رحلات وأسفار خارجية ، كالتى قال الله تعالى عنها : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. (١٢) ﴾ [سبأ] فيجوب بها فى الكون كيف يشاء ﴿ حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) ﴾ [ص]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) ﴾ [الأنبياء] أى عندنا علْم نُرتِّب به الأمور على وَفْق مرادنا ، ونكسر لمرادنا قانون الأشياء فنُسيِّر الريح كما نحب ، لا كما تقتضيه الطبيعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ﴾

فبعـد أنْ سخَّر الله له الريح سخَّـر له الشياطين ﴿ يَغُوصُونَ لَهُ .. (٨٢) ﴾ [الأنبياء] والغَوْصُ : الـنزول إلى أعماق البـحر ؛ ليـأتوه بكنوزه ونفائسه وعجائبـه التى ادخرها الله فيه ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ .. (٨٢) ﴾ [الأنبياء] أى : مما يُكلِّفـهم به سليمان من أعمال شـاقة لا يقدر عليها الإنسان ، وقـد شرحت هذه الآية فى موضـع آخر : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ[1] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [سبأ] فأدخل مرادات العمل فى مشيئته .

والمـحاريب جـمع مـحراب ، وهو مكان العـبادة كـالقـبْلة مثـلاً ، والجِفَان : جمع جَفْنة ، وهى القَصْعة الكبيرة الواسعة التى تكفى لعدد كبـير ، والقـدور الراسيات أى : الثـابتة التى لا تنقل مـن مكان لآخر وهى مبنية .

وقد رأينا شيئاً من هذا فى الرياض أيام الملك عـبد العزيز رحمه الله ، وكان هذا القـدْر من الاتساع والارتفاع بحـيث إذا وقف الإنسان مادّاً ذراعيه إلى أعلى لا يبلغ طولها ، وفى الجاهلية اشتهرت مثل هذه القدور عند ابن جدعان ، وعند مطعم بن عدى .

أمـا التمـاثيل فـهى مـعروفـة ، والمـوقف منهـا واضح منذ زمن إبراهيم عليه السلام حينما كسَّرها ونهى عن عبادتها ، وهذا يردُّ قول مَنْ قال بأن التماثيل كانت حلالاً ، ثم فُـتن الناس فيها ، فعبدوها من دون الله فَحرِّمـت ، إذن : كيف نخرج من هذا الموقف ؟ وكـيف يمتنّ الله على نبيه سليمان أن سخر له من يعملون التماثيل وهى مُحرَّمة ؟

نقول : كـانوا يصنعون له التمـاثيل لا لغرض التعظيم والعـبادة ،

---

(١) الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يُجبى فيه الماء ، وقال ابن عباس : كالحياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك . [تفسير ابن كثير ٣/٥٢٨] .

إنما على هيئة الإهانة والتحقير ، كأنْ يجعلوها على هيئة رجل جبار ، أو أسد ضخم يحمل جزءاً من القصر أو شرفة من شرفاته ، أو يُصوِّرونها تحمل مائدة الطعام .. الخ . أي أنها ليست على سبيل التقديس .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ﴾ [الأنبياء] حافظين للناس المعاصرين لهذه الأعمال حتى لا تؤذيهم الشياطين أو تفزعهم ، ومعلوم أن الشياطين يروْنَ البشر ، والبشر لا يروْنَهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

أما سليمان عليه السلام فكان يرى الجنَّ ويراقبهم وهم يعملون له ، وفي قصته : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ[1] .. (١٤) ﴾ [سبأ]

وفي هذا دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ [سبأ]

ويُقال : إن سليمان ـ عليه السلام ـ بعد أنْ امتنَّ الله عليه ، وأعطاه مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، أخذ هؤلاء الجن وحبسهم في القماقم حتى لا يعملوا لأحد غيره .

هذه مجرد لقطة من قصة سليمان ، ينتقل السياق منها إلى أيوب عليه السلام :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٨٣) ﴾

---

(١) المنسأة : العصا الغليظة . بلسان الحبشة . [القاموس القويم ٢/٢٦٢] .

(نَادَى) : قلنا النداء لمثلك طلب إقبال ، أما بالنسبة لله تعالى فهو بمعنى الدعاء ، فمعنى ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ .. (٨٣)﴾ [الأنبياء] أى : دعاه وناداه بمطلوب هو : ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] والضُّر : ابتلاء من الله فى جسده بمرض أو غيره .

أما الضَّر بفتح الضاد ، فهو إيذاء وابتلاء فى أى شىء آخر غير الجسد ، ولا مانع أن يمرض الأنبياء لكن بمرض غير مُنفِّر .

لكن ، كيف ينادى أيوب عليه السلام ربه ويتوجع ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ .. (٨٣)﴾ [الأنبياء] أليس فى علم الله أن أيوبَ مسَّه الضُّر ؟ وهل يليق بالنبى أنْ يتوجّع من ابتلاء الله ؟

نعم ، يجوز له التوجُّع ؛ لأن العبد لا يَشْجَعُ على ربه ؛ لذلك فإن الإمامُ علياً رضى الله عنه لما دخل عليه رجل يعوده وهو يتألم من مرضه ويتوجع ، فقال له : أتتوجَّع وأنت أبو الحسن ؟ فقال : أنا لا أشجع على الله يعنى : أنا لست فتوة أمام الله .

ألا ترى أنه من الأدب مع مَنْ يريد أنْ يُثبت لك قوته فيمسك بيدك مثلاً ، ويضغط عليها لتضجّ وتتألم ، أليس من الأدب أن تطاوعه فتقول : آه وتُظهر له ولو مجاملة أنه أقوى منك ؟

ومعنى : ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] ساعةَ أنْ ترى جَمْعاً فى صفة من الصفات يُدخل الله فيه نفسه مع خَلْقه ، كما فى : ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء] و ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] و ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران] فاعلم أن الله تعالى يُثبت نفس الصفة لعباده ، ولا يبخسهم حقهم .

فالرحمة من صفات البشر ، كما جاء فى الحديث الشريف : « الراحمون يرحمهم الرحمن »[١] .

وفى « ارحموا مَنْ فى الأرض يرحمكم مَنْ فى السماء »[٢] .

فالرحمة تخلُّق بأخلاق الحق سبحانه ، والنبى ﷺ يقول : « تخلَّقوا بأخلاق الله » .

إذن : للخَلْق صفة الرحمة ، لكن الله هو أرحم الراحمين جميعاً ؛ لأن رحمته تعالى وسعَتْ كل شىء . كما قلنا فى صفة الخَلْق : فيمكنك مثلاً أن تصنع من الرمل كوباً ، وتُخرِجه إلى الوجود ، وتنتفع به ، لكن أخَلْقك للكوب كخَلْق الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ[٣] وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

استجاب الله لأيوب فيما دعا به من كَشْف الضُّر الذى أصابه ،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٦٠) ، والترمذى فى سننه (١٩٢٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) أخرج أبو نعيم فى الحلية (٤/٢١٠) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٢٧٧) وكذا فى المعجم الصغير (١/١٠١) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ : « ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء » .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٠٧) : « اختُلفَ فى مدة إقامته فى البلاء ، فقال ابن عباس : كانت مدة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وقال وهب : ثلاثين سنة ، وقال الحسن : سبع سنين وستة أشهر . قلت : وأصح من هذا والله أعلم ثمانى عشرة سنة ، رواه ابن شهاب عن النبى ﷺ ذكره ابن المبارك » .

وأعطاه زيادة عليه ونافلة لم يَدْعُ بهـا ، حيث كان فى قِلَّة من الأهل ، وليس له عزْوة .

﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء] ليعلـم كلُّ عابد أخلص عـبادته لله تعـالى ، أنه إذا مـسَّه ضُـرٌّ أو كَرْب ولجـأ إلى الله أجـابه الله إلى مَـا يريد ، وأعطاه فـوق الإجـابة نافلة أخـرى ، وكـأن ما حدث لنبى الله أيوب نموذج يجب أن يُحْتَذَى .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ[1] كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قلنا : إن سـورة الأنبياء لا تذكـر قَصَـصاً كامـلاً للأنبيـاء ، إنما تعطينا طَرَفـاً منها ، وهنا تذكـر إسماعـيل وإدريس وذا الكفل بالاسم فقط .

ثم يقول تعالى : ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأنبياء] كأن الصبر فى حَدِّ ذاته حـيثيـة يُرسل الله من أجلها الرسـول ، ولنتأمل الصـبر عند إسـماعـيل ، وكيف أنه صـبر عـلى أنْ يذبحه أبوه برؤيا رآها ، فـأىُّ صبر أعظم من هذا ؟

ثم يعـيش فى صغَـره - وحـتى كبـر - فى وَاد غيـر ذى زرع ، ويتحمل مشاق هذه البِيئة الجـافة المجْدِبة ، ويخضـعُ لقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

وكأن فى خروجه من هذه الأرض وطلبه لأرض أخرى فيها النعيم

(١) قال ابن كثـير فى تفسيـره (٣/ ١٩٠) : « الظاهر من السياق أنه ما قـرن مع الأنبياء إلا وهو نبى . وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحـاً وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير فى ذلك والله أعلم » .

والزروع والثمار تأبّياً على إقامة الصلاة ؛ لذلك نراه يُفضّل البقاء فى هذا المكان ، ويزهد فى نعيم الدنيا الذى يتمتع به غيره امتثالاً لأمر الله .

وتكون النتيجة أنْ أعطاه الله ما هو خَيْر من الزروع والثمار ، أعطاه عطاءً يفخر به بين جميع الأنبياء ، هو أنه جعل من نسله النبى الخاتم محمد بن عبد الله ، وأىُّ ثمرة أحسن من هذه ؟

وإدريس : وهو من الجيل الخامس من أولاد آدم عليه السلام ، وبعض العلماء يقولون هو « أوزوريس » ، ونحن لا نقول إلا ما قاله القرآن (إدريس) وأهل السير يقولون : إن نبى الله إدريس أول مَنْ علّمه الله غزل الصوف وخياطة الملابس ، وكانوا قبلها يسترون عوراتهم بقطع الجلود .

وهو أول مَن استخدم النجوم لمعرفة الاتجاهات والأحوال ، وأول مَنْ خط بالقلم ، هذه يُسمُّونها أوليات إدريس .

وذا الكفل : الكِفْل هو الحظ والنصيب ، فلماذا سُمِّى « ذو الكفل » ؟ ذو الكفل ابن أيوب عليه السلام ، ويظهر أن أولاد أيوب كانوا كثيرين ، إنما اختص الله ذا الكفل بالرسالة ، وكان هذا حظه دون غيره من أبناء أيوب ؛ لذلك سُمِّى « ذو الكفل »[1] .

(١) قال مجاهد عن ذى الكفل : رجل صالح غير نبى ، تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل ففعل ذلك فسمى ذا الكفل . [أورده ابن كثير فى تفسيره ١٩٠/٣] ، وقد أورد القرطبى فى تفسيره (٤٥٠٨/٦) أقوالاً أخرى منها :
- كان رجلاً عفيفاً يتكفل بشأن كل إنسان وقع فى بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه .
- سمى ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له فى سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا فى زمانه .

وقد جاءت هذه المادة (كَفَل) أيضاً فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ .. (٢٨) ﴾ [الحديد]

جاءت هذه الآية بعد الكلام عن عيسى - عليه السلام - والذين آمنوا به واتبعوه ، يقول تعالى : يا مَنْ آمنتم بالرسل السابقين ، وآخرهم عيسى - عليه السلام - آمنوا بالرسول الخاتم ليكون لكم كفلان أى : نصيبان وحظَّان من رحمةَ الله ، نصيبٌ لإيمانكم بعيسى ، ومَنْ سبقه من الرسل ، ونصيبٌ لإيمانكم بمحمد ﷺ .

ثم يقول تعالى فى وصفهم ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) ﴾ [الأنبياء] فوصف كلّ الأنبياء بالصبر ؛ لأنهم تعرَّضوا لأنواع الاضطهاد والإيذاء والأهوال فى سبيل دعوتهم ، وصبروا على هذا كله .

﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) ﴾

والرحمة هنا بمعنى النبوة ، وهى أمر عظيم وعطاء كبير ، فإنْ تحمّلوا فى سبيله بعض المتاعب ، فلا غضاضةَ فى ذلك .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾

« ذو النون » : هو سيدنا يونس بن متى صاحب الحوت ، والنون من أسماء الحوت ، وجمعه (نينان) كحوت وحيتان ؛ لذلك

سُمِّيَ به ، وقد أُرسل يونس عليه السلام إلى أهل (نِينَوَى) من أرض الموصل بالعراق .

وقد قال النبى ﷺ لعداس : « أنت من بلد النبى الصالح : يونس ابن متى »(١) .

والنون أيضاً اسم لحرف من حروف المعجم ، لكن قد يوافق اسمُ الحرف اسماً لشىء آخر ، كما فى (ق) وهو اسم جبل ، وكذلك السين ، فهناك نهر اسمه نهر السين ، وهكذا تصادف أسماء الحروف أسماء أشياء .

وقوله تعالى : ﴿ إذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] مادة (غضب) نأخذ منها الوصف للمفرد . نقول : غاضب وغضبان ، أمّا (مغاضب) فتعطى معنى آخر ؛ لأنها تدل على المفاعلة ، فلا بُدَّ أن أمامك شخصاً آخر ، أنت غاضب وهو غاضب ، مثل : شارك فلان فلاناً .

لكن فى أصول اللغة رجحنا جانب الفاعلية فى أحدهما ، والمفعُولية فى الآخر ، كما نقول : شارك زيدٌ عَمْراً ، فالمشاركة حدثتْ منهما معاً ، لكن جانب الفاعلية أزيد من ناحية زيد ، فكلٌّ واحد منهما فاعل مرة ومفعول أخرى .

واللغة أحياناً تلحظ هذه المشاركة ، فتُحمِّل اللفظ المعنيين معاً : الفاعل والمفعول ، كما جاء فى قَوْل الشاعر العربى الذى يصف السير فى أرض معتربة ، والتى إذا سِرْت فيها دون أنْ تتعرض للعقارب فإنها تسالمك ولا تؤذيك ، فيقول :

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٢١/٢) ، وفيه : أن عداساً قال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى ، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قَدْ سَالَمَ الحياتُ مِنْه القَدَمَا الأفْعُوانَ[١] والشُّجاعَ القَشْعَمَا[٢]

أى : أنه سَالَم الحيات ، فالحيات سالمتْه ، فالمسالمة منهما معاً ، لكن غلب جانب الحيات فجاءت فاعلاً ؛ لأن إيذاءَها أقوى من إيذائه ، فلما أبدل من الحيات (الأفعوان والشجاع القشعما) وهما من أسماء الحيات كان عليه أنْ يأتى بالبدل مرفوعاً تابعاً للمبدل منه ، إلا أنه نصبه فقال : **الأُفْعَوانَ** والشجاعَ القشعمَا ؛ لأنه لاحظ فى جانب الحيات أنها أيضاً مفعولٌ .

فَممَّ غضب ذو النون ؟ غضب لأن قومه كذبوه ، فتوعدهم إنْ لم يتوبوا أنْ يُنزل بهم العذاب ، وأتى الموعد ولم ينزل بهم ما توعدهم به ، فخاف أنْ يُكذِّبوه ، وأن يتجرَّأوا عليه ، فخرج من بينهم مغاضباً إلى مكان آخر ، وهو لا يعلم أنهم تابوا فأخَّر الله عذابهم ، وأجّل عقوبتهم .

وفى آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذا الموقف : ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** (٩٨) ﴾ [يونس]

أى : لم يحدث قبل ذلك أنْ آمنتْ قرية ونفعها إيمانها إلا قرية واحدة هى قوم يونس ، فقد آمنوا وتابوا فأجّل الله عذابهم .

إذن : خرج يونس مُغَاضِباً لا غاضباً ؛ لأن قومه شاركوه ، وكانوا سبب غضبه ، كما حدث فى مسألة هجرة النبى ﷺ فرسول

---

(١) الأفعوان : ذَكَر الأفاعى . والقشعم : الضخم . [لسان العرب ـ مادتا : فعا ، قشعم] .

(٢) أورد ابن منظور فى لسان العرب (مادة : شجع) وعزاه للأحمر ولكن بلفظ « الشجاع الشجعما » وقال : الشجعم : الضخم منها ، وقيل : هو الخبيث المارد منها ، ثم قال : « نصب الشجاع والأفعوان بمعنى الكلام ؛ لأن الحيات إذا سالمت القدم فقد سالمها القدم ، فكأنه قال : سالم القدم الحيات ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها » .

الله هاجر من مكة لكنه لم يهْجرهَا ، فسُمِّيَتْ هجرة ؛ لأن أهل مكة هجروا رسول الله أولاً ، وهجروا دعوته وألجئوه أيضاً إلى الهجرة وتَرْك مكة ، فهم طرف في الهجرة وسببٌ لها .

لذلك قال ﷺ مخاطباً مكة : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إليَّ ، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني منك ما خرجْتُ »[1] .

وقد أخذ المتنبى[2] هذا المعنى ، وعبَّر عنه بقوله :

إذَا ترحلْتَ عَنْ قَوْمٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقَهُمْ فالراحِلُون هُمُ

وقوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] البعض ينظر فى الآية نظرةً سطحية ، فيقولون : كيف يظن يونس أن الله لن يقدر عليه ؟ وهذا الفَهْم ناشىء عن جَهْل باستعمالات اللغة ، فليس المعنى هنا من القدرة على الشىء والسيطرة ، ولو استوعبتَ هذه المادة فى القرآن (قَدَرَ) لوجدت لها معنى آخر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] معنى قُدر عليه رزقه يعنى : ضُيِّق عليه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٣٠) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (٣١٠٨) ، والدارمى فى سننه (٢/٢٣٩) من حديث عبد الله بن عدى بن حمراء الزهرى قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو على راحلته واقفاً بالحزورة يقول .. الحديث .

(٢) هو : أحمد بن الحسين الكندى أبو الطيب المتنبى ، الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربى . ولد ٣٠٣ هـ بالكوفة فى محلة « كندة » ونشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس ، وفد على سيف الدولة الحمدانى صاحب حلب فمدحه ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدى ثم هجاه . قتل بالنعمانية وابنه وغلامه عام ٣٥٤ هـ (الأعلام للزركلى ١/١١٥) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

إذن : فقوله : ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] أى : أن يونس لما خرج من بلده مُغاضباً لقومه ظنَّ أن الله لن يُضيِّق عليه ، بل سيُوسِّع عليه ويُبدله ببلده مكاناً أفضل منها ، بدليل أنه قال بعدها ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ[1] أَن لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] يريد منه سبحانه تنفيس كربته ، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له .

فكيف يستقيم المعنى لو قلنا : لن يقدر عليه بمعنى : أن الله لا يقدر على يونس[2] ؟

إذن : المعنى : لن يُضيِّق عليه ؛ لأنه يعلم أنه رسول من الله ، وأن ربه لن يُسْلمه ، ولن يخذله ، ولن يتركه فى هذا الكرب .

وقد وُجِدَتْ شبهة فى قصة يونس - عليه السلام - فى قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

فكيف يلبث فى بطن الحوت إلى يوم يُبعثون ، مع أن يونس سيموت ، وسيأتى أجَل الحوت ويموت هو أيضاً ، أم أن الحوت سيظل إلى يوم القيامة يحمل يونس فى بطنه ؟

---

(١) قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل . وكذا روى عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير والحسن وقتادة . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/١٩٢] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥١١) : « هذا قول مردود مرغوب عنه ؛ لأنه كفر . وذكر الثعلبى وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيق عليه » .

وفات هؤلاء نظرية الاحتواء فى المزيجات ، كما لو أذبتَ قالباً من السكر فى كوب ماء ، فسوف تحتوى جزئيات الماء جزئيات السكر ، والأكثر يحتوى الأقل ، فقالب السكر لا يحتوى الماء ، إنما الماء يحتوى السكر .

فلو مات الحوت ، ومات فى بطنه يونس ـ عليه السلام ـ وتفاعلت ذراتهما وتداخلتْ ، فقد احتوى الحوتُ يونسَ إلى أن تقوم الساعة ، وعلى هذا يظل المعنى صحيحاً ، فهو فى بطنه رغم تناثر ذراتهما[1] .

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

استجاب الله نداء يونس ـ عليه السلام ـ ونجَّاه من الكرب ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] إذن : فهذه ليست خاصة بيونس ، بل بكل مؤمن يدعو الله بهذا الدعاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مثل هذا الإنجاء نُنْجى المؤمنين الذين يفزعون إلى الله بهذه الكلمة : ﴿ لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] فيُذهِب الله غمَّه ، ويُفرِّج كَرْبه .

لذلك يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « ثوِّروا القرآن » يعنى : أثيروه ونقِّبوا فى آياته لتستخرجوا كنوزه وأسراره[2] .

---

(١) قال قتادة فى قوله تعالى ﴿ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الصافات] قال : لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٧/١٢٧ ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

(٢) فى حديث عبد الله : أثيروا القرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين . قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . [لسان العرب – مادة : ثور] .

وكان سيدنا جعفر الصادق من المثوِّرين للقرآن المتأملين فيه ، وكان يُخرِج من آياته الدواء لكل داء ، ويكون كما نقول (روشتة) لكل أحوال المؤمن .

والمؤمن يتقلّب بين أحوال عدة منها : الخوف سواء الخوف أنْ يفوته نعيم الدنيا ، أو الخوف من جبار يهدده ، وقد يشعر بانقباض وضيق فى الصدر لا يدرى سببه وهذا هو الغَمُّ ، وقد يتعرض لمكر الماكرين ، وكَيْد الكائدين ، وتدبير أهل الشر .

هذه كلها أحوال تعترى الإنسان ، ويحتاج فيها لمَنْ يسانده ويُخرِجه مما يعانيه ، فليس له حَوْل ولا قوة ، ولا يستطيع الاحتياط لكل هذه المسائل .

وقد تراوده بهجة الدنيا وزُخْرفها ، فينظر إلى أعلى ممّا هو فيه ، ويطلب المزيد ، ولا نهايةَ لطموحات الإنسان فى هذه المسألة ، كما قال الشاعر :

تَمُوتُ مع المرْءِ حَاجَاتُه   وتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِى

والناس تحرص دائماً على أن تستوعب نِعَم الحياة وراحتها ، وهم فى ذلك مُخْطِئون ؛ لأن تمام الشىء بداية زواله ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىءٌ بَدَا نَقْصُه   تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قيلَ تَم

لأن الإنسان ابنُ أغيار ، ولا يدوم له حال من صحة أو مرض ، أو غنىً أو فقر ، أو حزن أو سرور ، فالتغيُّر سمَة البشر ، وسبحان مَنْ لا يتغير ، إذن : فماذا بعد أنْ تصل إلى القمة ، وأنت ابنُ أغيار ؟

ونرى الناس يغضبون ويتذمرون إنْ فاتهم شىء من راحة الدنيا ونعيمها ، أو انتقصتهم الحياة شيئاً ، وهم لا يدرون أن هذا النقص

هو الذى يحفظ عليك النعمة ، ويدفع عنك عيون الحاسدين فيُسلِّم لك ما عندك .

فتجد مثلاً أسرة طيبة حازتْ اهتمام الناس واحترامهم ، غير أن بها شخصاً شريراً سيِّئاً ، يعيب الأسرة ، فهذا الشخص هو الذى يدفع عنها عُيون الناسِ وحَسَدهم .

وقد أخذ المتنبى هذا المعنى ، وعبَّر عنه فى مدحه لسيف الدولة[1] ، فقال :

شَخَصَ الأنَامُ إلَى كَمَالِكَ فَاسْتعِذ مِنْ شَــرِّ أعيُنهِـمْ بِعَيْـبٍ وَاحِدِ

نعود إلى (روشتة) سيدنا جعفر الصادق التى استخلصها لنا من كتاب الله ، كما يستخلص الأطباء الدواءَ والعقاقير من كتب الحكماء :

يقول : عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿فَانقَلَبُوا[2] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران]

وعجبتُ لمَنْ اغتمَّ ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿لاَّ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] فإنِّى سمعت الله

---

(١) هو : على بن عبد الله بن حمدان أبو الحسن سيف الدولة الحمدانى ، صاحب المتنبى وممدوحه ، ولد فى ميافارقين (بديار بكر) عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ شجاعاً مهذباً على الهمة ، امتلك واسطاً ودمشق وحلب وتوفى فيها عام (٣٥٦ هـ) عن ٥٣ عاماً . الأعلام للزركلى (٤/٣٠٣) .

(٢) انقلب : رجع وتحوَّل إلى وضعه الأول ، أو إلى وضع آخر . فانقلبوا : أى : رجعوا . [القاموس القويم ٢/١٢٩] .

بعقبها يقول : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكِرَ به ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ .. (٤٤) ﴾ [غافر] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا .. (٤٥) ﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ، ولم يفزع إلى قوله تعالى : ﴿ مَاشَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الكهف] فإنِّى سمعت الله بعقبها يقول : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ .. (٤٠) ﴾ [الكهف]

وهكذا يجب على المؤمن أن يكون مُطْمئناً واثقاً من معيّة الله ، ويضع كما نقول (فى بطنه بطيخة صيفى) ؛ لأنه يفزع إلى ربه بالدعاء المناسب فى كل حال من هذه الأحوال ، وحين يراك ربك تلجأ إليه وتتضرع ، وتعزو كل نعمة فى ذاتك أو فى أهلك أو فى مالك وتنسبها إلى الله ، وتعترف بالمنعم سبحانه فيعطيك أحسنَ منها .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن نبى آخر من أنبيائه ، فيقول تعالى :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾

لقد بلغ زكريا ـ عليه السلام ـ من الكبر عتياً ، ولم يرزقه الله الولد ، فتوجه إلى الله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ[1] مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) ﴾ [مريم]

---

(١) الموالى هنا : الأقارب وبنو العم والعَصَبة الذين يلونه فى النسب . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٢٤٨) .

فلما بشَّره الله بالولد تعجَّب ؛ لأنه نظر إلى مُعْطيات الأسباب ، كيف يرزقه الله الولد ، وقد بلغ من الكبَر عتياً وامرأته عاقر ، فأراد أن يُؤكّد هذه البُشْرى : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم]

يُطمئنُ الله تعالى نبيَّه زكريا : اطرح الأسباب الكونية للخَلْق ؛ لأن الذى يُبشِّرك هو الخالق .

وقد تعلَّم زكريا من كفالته لمريم أن الله يُعطى بالأسباب ، ويعطى إن عزَّتْ الأسباب ، وقد تبارى أهل مريم فى كفالتها ، وتسابقوا فى القيام بهذه الخدمة ؛ لأنهم يعلمون شرفها ومكانتها ؛ لذلك أجروا القرعة على مَنْ يكفلها فأتوا بالأقلام ورموْها فى البحر[1] فخرج قلم زكريا ، ففاز بكفالة مريم :

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران]

وإجراء القرعة لأهمية هذه المسألة ، وعظَم شأنها ، والقرعة إجراء للمسائل على القدَر ، حتى لا تتدخّل فيها الأهواء .

فلما كفَل زكريا مريم كان يُوفِّر لها ما تحتاج إليه ، ويرعى شئونها ، وفى أحد الأيام دخل عليها ، فوجد عندها طعاماً لم يأتِ

---

(١) ذكر عكرمة والسدى وقتادة والربيع بن أنس وغير واحد ، أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت فى جرية الماء فهو كافلها ، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت . ويقال : إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء . [تفسير ابن كثير ١/٣٦٣] .

به[1] : ﴿قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

وهنا مَلْحظ وإشارة إلى ضرورة متابعة ربِّ الأسرة لأسرته ، فإذا ما رأى فى البيت شيئاً لم يأْتِ به فليسأل عن مصدره ، فربما امتدت يد الأولاد إلى ما ليس لهم ، إنه أصل لقانون « من أين لك هذا ؟ » الذى نحتاج إلى تطبيقه حين نشكّ .

التقط زكريا إجابة مريم التى جاءتْ سريعة واثقة ، تدل على الحق الواضح الذى لا يتلجلج : ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

نعم ، هذه مسألة يعرفها زكريا ، لكنها لم تكُنْ فى بُؤْرة شعوره ، فقد ذكّرْته بها مريم : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران]

أى : ما دام الأمر كذلك ، فَهَبْ لى ولداً يرثُ النبوة من بعدى . ثم يذكر حيثيات ضَعْفه وكِبَر سنِّه ، وكوْن امرأته عاقراً ، وهى حيثيات المنع لا حيثيات الإنجاب ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب وبغير أسباب .

وهكذا ، استفاد زكريا من هذه الكلمة ، واستفادتْ منها مريم كذلك فيما بعد ، وحينما جاءها الحَمْل فى المسيح بدون الأسباب الكونية .

وهنا يدعو زكريا ربه ، فيقول : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء] أى : لا أطلب الولد ليرث مُلْكى من بعدى ، فأنت خير الوارثين ترثُ الأرضَ والسماء ، ولك كل شىء .

---

(١) يعنى : وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف . قاله مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدى والعوفى . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/٣٦٠) .

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (1)

فلم تكُنْ استجابة الله لزكريا أنْ يهبه الولد حال كِبَره وكوْن امرأته عاقراً ، إنما أيضاً سماه ، ولله تعالى سرٌّ فى هذه التسمية ؛ لأن الناس أحرار فى وَضْع الأسماء للمُسمّيات كما قلنا فلا مانع أن نسمى فتاة زنجية (قمر) ؛ لأن الاسم يخرج عن معناه الأصلى ، ليصير علَماً على هذا المسمى . إذن : هناك فَرْق بين الاسم وبين المسمَّى .

وقد نُسمِّى الأسماء تفاؤلاً أن يكونوا كذلك ، كالذى سمَّى ولده يحيى ، ويظهر أنه كان يعانى من موت الأولاد ؛ لذلك قال :

فَسمَّيْتُه يَحيى ليحيى فلَم يكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ الله فيه سَبِيلُ

أى : سمَّيْته يحى أملاً فى أن يحيا ، لكن هذا لم يردّ عنه قضاء الله .

وكذلك لما سمَّى عبد المطلب محمداً قال : سمَّيته محمداً ليُحمد فى الأرض وفى السماء (2) .

---

(1) ذكر المفسرون هنا قولين :
الأول : أنها كانت عاقراً فجُعِلَتْ ولوداً . قاله أكثر المفسرين .
الثانى : كانت سيئة الخلق طويلة اللسان فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق ، قاله ابن عباس وعطاء .
قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٩٣) : « الأظهر من السياق الأول » .
قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥١٦) : « يحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولوداً » .

(2) عن أبى الحكم التنوخى قال : « لما كان اليوم السابع (لميلاد رسول الله ﷺ) ذبح عبد المطلب عنه ودعا له قريشاً ، فلما أكلوا قالوا : يا عبد المطلب ، أرأيت ابنك هذا الذى أكرمتنا على وجهه ، ما سمَّيْته ؟ قال : سمَّيته محمداً . قالوا : فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ قال : أردت أن يحمده الله تعالى فى السماء وخَلْقه فى الأرض . أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (١/١١٣) ، وابن عساكر فى « تهذيب تاريخ دمشق الكبير » (١/٢٨٢) ، ونقله ابن كثير فى « البداية والنهاية » (٢/٢٦٤) .

لكن ، حين يُسمِّى يحيى مَنْ يملك الحياة ويملك الموت ، فلا بُدَّ أن يكون اسماً على مُسمًّى ، ولا بُدَّ له أن يحيا ، حتى إنْ مات يموت شهيداً ؛ لتتحقق له الحياة حتى بعد الموت .

ومعنى ﴿ وَهَبْنَا .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : أعطيناه بدون قانون التكوين الإنسانى ، وبدون أسباب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء] فبعَد أنْ كانت عاقراً لا تلد أجرينا لها عملية ربانية أعادتْ لها مسألة الإنجاب ؛ لأن المرأة تلد طالما فيها البويضات التى تكوِّن الجنين ، فإذا ما انتهتْ هذه البويضات قد أصبحت عقيماً ، وهذه البويضات فى عنقود ، ولها عدد مُحدَّد أشبه بعنقود البيض فى الدجاجة ؛ لذلك يسمون آخر الأولاد « آخر العنقود » .

إذن : وُجِد يحيى من غير الأسباب الكونية للميلاد ؛ لأن المكوِّن سبحانه أراد ذَلك .

لكن ، لماذا لم يقُلْ لزكريا أصلحناك ؟ قالوا : لأن الرجل صالح للإنجاب ما دام قادراً على العملية الجنسية ، مهما بلغ من الكِبَر على خلاف المرأة المستقبِلة ، فهى التى يحدث منها التوقُّف .

وأصحاب العُقْم وعدم الإنجاب نرى فيهم آيات من آيات الله ، فنرى الزوجين صحيحين ، أجهزتُهما صالحة للإنجاب ، ومع ذلك لا ينجبان ، فإذا ما تزوج كل منهما بزوج آخر ينجب ؛ لأن المسألة ليست (آليّة) ، بل وراء الأسباب الظاهرة إرادة الله ومشيئته .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

ثم تُوضِّح الآيات سبب وعلَّة إكرام الله واستجابته لنبيه زكريا ـ عليه السلام : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء]

هذه صفات ثلاث أهَّلَتْ زكريا وزوجته لهذا العطاء الإلهى ، وعلينا أن نقف أمام هذه التجربة لسيدنا زكريا ، فهى أيضاً ليستْ خاصة به إنما بكل مؤمن يُقدِّم من نفسه هذه الصفات .

لذلك ، أقول لمن يُعانى من العقم وعدم الإنجاب وضاقتْ به أسباب الدنيا ، وطرق باب الأطباء أن يلجأ إلى الله بما لجأ به زكريا ـ عليه السلام ـ وأهله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء] خذوها (روشتة) ربانية ، ولن تتخلف عنكم الاستجابة بإذن الله .

لكن ، لماذا هذه الصفة بالذات : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ۝٩٠﴾ [الأنبياء] ؟

قالوا : لأنك تلاحظ أن أصحاب العُقْم وعدم الإنجاب غالباً ما يكونون بُخَلاء مُمْسكين ، فليس عندهم ما يُشجِّعهم على الإنفاق ، فيستكثرون أن يُخرجوا شيئاً لفقير ؛ لأنه ليس ولده .

فإذا ما سارع إلى الإنفاق وسارع فى الخيرات بشتى أنواعها ، فقد تحدَّى الطبيعة وسار ضدها فى هذه المسألة ، وربما يميل هؤلاء الذين ابتلاهم الله بالعُقْم إلى الحقد على الآخرين ، أو يحملون ضغينة لمن ينجب ، فإذا طرحوا هذا الحقد ونظروا لأولاد الآخرين على أنهم أولادهم ، فعطفوا عليهم وسارعوا فى الخيرات ، ثم توجَّهوا إلى الله بالدعاء رَغَباً ورَهَباً ، فإن الله تعالى وهو المكوِّن الأعلى يخرق لهم النواميس والقوانين ، ويرزقهم الولد من حيث لا يحتسبون .

ومعنى : ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء] يعنى : راضين بقدرنا

فيهم ، راضين بالعُقْم على أنه ابتلاء وقضاء ، ولا يُرفع القضاء عن العبد حتى يرضى به ، فلا ينبغى للمؤمن أنْ يتمرَّدَ على قدر الله ، ومن الخشوع التطامن لمقادير الخَلْق فى الناس .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

ولك أنْ تسأل : لماذا يأتى ذكْر السيدة مريم ضمن مواكب النبوة ؟ نقول : لأن النبوة اصطفاء الله لنبى من دون خَلْق الله ، وكوْنه يصطفى مريم من دون نساء العالمين لتلد بدون ذكورة ، فهذا نوع من الاصطفاء ، وهو اصطفاء خاص بمريم وحدها من بين نساء العالمين ؛ لأن اصطفاء الأنبياء تكرَّر ، أمّا اصطفاء مريم لهذه المسألة فلم يتكرر فى غيرها أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : عَفَّتْ وحفظتْ فَرْجها ، فلم تمكِّن منها أحداً[1] .

ومعنى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا[2] مِن رُّوحِنَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٥١٨/٦) : « قيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ، أى : لم تعلق بثوبها ريبة ، أى : أنها طاهرة الأثواب . وفروج القميص أربعة : الكُمّان والأعلى والأسفل . قال السهيلى : فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا ، فإنه من لطيف الكناية ، لأن القرآن أنزه معنى ، وأوزن لفظاً ، وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه الوهم » .

(٢) أى : فى جيب درعها . قاله أبو يحى زكريا الأنصارى فى (فتح الرحمن) (ص ٢٧١) وقال قتادة : نفخ فى جيبها . وقال مقاتل : نفخ فى فرجها . ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور (٦٧١/٥) . والدرع : ثوب المرأة .

مسألة خاصة به ، خارجة على قانون الطبيعة ، فليس في الأمر ذكورة أو انتقاء ، إنما النفخة التي نفخها الله في آدم ، فجاءت منها كل هذه الأرواح ، هي التي نفخها في مريم ، فجاءت منها روح واحدة . فالروح هي نفسها التي قال الله فيها : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩) ﴾ [الحجر]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ [الأنبياء] يعني : شيئاً عجيباً في الكون ، والعجيبة فيها أن تلدَ بدون ذكورة ، والعجيبة فيه أن يُولَد بلا أب ، فكلاهما آية لله ومعجزة .

ثم يقول الحق سبحانه بعد سَرْد لقطات من موكب الأنبياء :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) ﴾

الأمة : الجماعة يجمعها رباط واحد من أرض أو مُلك ملك أو دين ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ .. (٢٢) ﴾ [الزخرف] يعني : على دين .

فالمراد : هذه أمتكم أمةٌ حال كَوْنها أمةٌ واحدة ، لا اختلافَ فيها[1] والرسل جميعاً إنما جاءوا ليتمموا بناءً واحداً ، كما قال ﷺ : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاّ

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٥١٩/٦) : « لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ، فالأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام . قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

وُضِعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[١] .

والمعنى أن به ﷺ تتم النبوة وتختم .

وتُطلَق الأمة على الرجل الذى يجمع خصال الخير كلها ؛ لأن الله تعالى بعثر خصال الخير فى الخَلْق ، فليس هناك مَنْ هو مَجْمع مواهب وفضائل ، إنما فى كل منا ميزةٌ وفضيلةٌ فى جانب من الجوانب ؛ ليتكامل الناس ويحتاج بعضهم إلى بعض ، ويحدث الترابط بين عناصر المجتمع ، هذا الترابط يتم إمَّا بحاجات تطوُّعية ، أو حاجات اضطرارية .

فلو تعلَّم الناس جميعاً وتخرّجوا فى الجامعة فَمنْ للمهَن والحِرَف الأخرى ؟ مَنْ سيكنس الشوارع ، ويقضى مثل هذه الأمور ؟ لو تعطلتْ مجارى الصرف الصحى ، أيجتمع هؤلاء الدكاترة والأساتذة لإصلاحها ، ولو أصلحوها مرة فهذا تطوُّع .

أمّا المصالح العامة فلا تقوم على التطوع إنما تقوم على الحاجة والاضطرار ، ولولا هذه الحاجة لما خرجَ عامل الصرف الصحى فى الصباح إلى هذا العمل الشاقّ المنفّر ، لكن كيف وفى رقبته مسئولية أُسْرة وأولاد ونفقات ؟

وسبق أنْ قُلْنا : ينبغى ألاَّ يغتَرَّ المرء بما عنده من مواهب ومميزات ، ولا يتعالى بها على خَلْق الله ، وعليه أنْ يسأل عَمَّا عند الآخرين من مواهب يحتاج هو إليها ، ولا يؤديها بنفسه .

إذن : الحاجة هى الرابطة فى المجتمع ، ولو كانَ التطوّع

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٥) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٨٦) كتاب الفضائل (حديث ٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والتفـضّل فلن نحقق شيـئاً ، فلو قلنا للعامل : تفـضل بكنس الشارع لوجدَ ألْـفَ عذر يعتـذر به ، أما إنْ كـان أولاده سيـموتون جـوعاً إن لم يعمل فلا شكَّ أنه سيُسرع ويُبادر .

فالحقيـقة أن كل فرد فى المجتمع لا يخدم إلا نـفسه ، فكما تنفع الآخرين تنتفع بهم ؛ لـذلك إياك أنْ تحسد صاحب التفـوق على تفوّقه فى أمر من الأمور ؛ لأن تفوقه فى النهاية عائد عليك .

وكما نقول هذه المسائل فى أمور الدنيا نقولها فى أمور الآخرة ، حـين نرى صـاحب التـديُّن ، وصـاحب الـخُلق والالتـزام لا نهـزأ به ولا نسـخر منه ، كـما يحلو لـلبعض ؛ لأن صـلاحه سـيعـود عليك ، وسوف تنتفع بتديُّنه واستقامته ولعلنا نُرزَق بسبب هؤلاء .

وقد يكون فى البيت الواحد فُتوات وأذكياء ومتعلمون وفيهم مُعوَّق أو مـجنون أو مجـذوب ، فتـرى الجـميع يحـتـقرونه ، ويُهـوِّنون من شأنه ، أو تراه منبـوذاً بين هؤلاء مُبْعَداً ، لا يشـرُف بمعرفتـه أحد ، وربما يعيشون جميعاً فى ظلِّه ويُرزَقون كرامة له .

وكثيراً ما نرى الناس يغضبون وينقمون على قضاء الله إن رزقهم بمولود فـيه عـيب أو إعاقة ، ووالله لو رضـيتَ به وتقبلْتَ قـضاء الله فيه ، لكان هو الظل الظليل لك .

فهـؤلاء خُلقوا هكذا لحـكمة ، حتى لا نـتمرد على صَنْـعة الله فى كَوْنه ، وحتى يشعر أهل النعمة والسلامة والصحة بفضل الله عليهم ، ولنعلم أن الله تعـالى لا يسلب شيـئاً من عبـده إلاّ وقد أعطاه عِـوَضاً عنه .

ولك أن تلاحظ مثـلاً أحوال الناس المجـاذيب الذين تراهم فى أىّ

مكان مُهملين يستقلهم النـاس ، وينفرون من هيئتهم الرثَّة ، ومع ذلك ترى أصحاب الجـاه والسلطان إذا نزلتْ بهم ضائقة وأعيَتْـهم الأسباب يلجئـون لمثل هؤلاء المجاذيب يلتـمسون منهم البركـة والدعاء ، وهذا فى حَدٍّ ذاته أسـمى ما يمكن أن يتطلع إليه أهـل الجاه وأهل السلطان والنفوذ ، أن تكون كلمتهم مسمـوعةً وأمرهم مُطاعاً ، وأن يلجأ الناس إليهم كما لجئوا إلى هذا المجذوب المسكين .

فإذا ما أجرى الله الخير على يد هذا الـشيخ المجذوب ترى السيد العظيم يتـمـحك فـيه ، ويدعـوه إلى طعـامـه ، ويدفع عنه أذى الناس ويحـتضنه ، لأنه جـرَّب وعلم أن لديه فـيضـاً من فـيض الله وكرامـة يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده ، ونحن جـميعاً عباد الله ليس فينا مَنْ هو ابن لله ، أو بينه وبين الله قرابة .

وإنْ كان العقل هو أعزّ ما يعتز به الإنسان ، وهو زينته وحليته ، فلك أن تنظر إلى المجنون الذى فقد العـقل ، وحُرِم هذه الآلة الغالية ، وترى الناس يشيرون إليه : هذا مجنون ، نعم هو مجنون ، لكن انظر إلى سلوكه : هل رأيتم مجنوناً يسرق ؟ هل رأيتم مجنوناً يزنى ؟ هل رأيتم مجنوناً انتحر ؟

إذن : مع كونه مجنوناً إلا أنه مدرك لنفسه تماماً ؛ لأن خالقه عز وجل وإنْ سلبه العـقل إلا أنه أعطاه غريزة تحكمه كمـا تحكم الغريزة الحيوان ، وهل رأيتم حماراً ألقى بنفسه مثلاً أمام القطار ؟

إذن : علينا ألاَّ نُحقِّر هؤلاء ، وألاَّ نسـتقل بهم فقد عوَّضـهم الله عما سلبـه منهم ، ومنّا مَنْ يـسـعى ليـصل إلى مـا وصلوا هـم إليـه ولا يستطيع ، ومَنْ منَّا لا يتـمنى أن يكون مثل هذا المجذوب الذى يـتمسَّح الناس فيـه ، ويطلبون منه البركـة والدعاء ؟ وأىُّ عظمة يطلبهـا الإنسان

فوق هذا ؟ ويكفى هذا أنه لا يُسألُ عمَّا يفعل فى الدنيا ، ولا يُسْأل كذلك فى الآخرة .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. (٩٢)﴾ [الأنبياء] فمن معانى أمة : الرجل الذى جمع خصال الخير كلها ؛ لذلك وصف الله نبيه إبراهيم بأنه أمة ، فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً[1] .. (١٢٠)﴾ [النحل]

يعنى : جمع من خصال الخير ما لا يوجد إلا فى أمة كاملة .

والأمة لا تكون واحدة ، إلا إذا صدر تكوينها المنهجى عن إله واحد ، فلو كان تكوينها من متعدد لذهب كُلُّ إله بما خلق ، ولعلاَ بعضهم على بعض ، ولفسد الحال . إذن : كما قال سبحانه : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

فلا تكون الأمة واحدة إلا إذا استقبلت أوامرها من إله واحد وخضعت لمعبود واحد ، فإنْ نسيتْ هذا الإله الواحد تضاربتْ وتشتتتْ .

وكأن الحق سبحانه يقول : أنتم ستجربون أمة واحدة ، تسودون بها الدنيا وتنطلق دعوتكم من أمة أمية لا تعرف ثقافة ، ولا تعرف علماً ، ولم تتمرس بحكم الأمم ؛ لأنها كانت أمة قبلية ، لكل قبيلة قانونها وسيادتها وقيادتها .

ثم ينزل لكم نظام يجمع الدنيا كلها بحضاراتها ، نظام يطوى تحت جناحه حضارة فارس وحضارة الروم ويُطوِّعها ، ولو أنكم أمة

---

(١) سُئل ابن مسعود : ما الأمة ؟ قال : الذى يُعلِّم الناس الخير . وقال قتادة : إمام هدى يُقتدَى به ، وتُتبع سنته . [الدر المنثور للسيوطى ٥/١٧٦] .

مثقفة لقالوا قفزة حضارية ، إنما هذه أمة أمية ، ونبيها أيضاً أُمِّى إذن : فلا بُدَّ أن يكونَ المنهج الذى جاء به ليسلب هذه الحضارات عِزَّها ومجدَها منهجاً أعلى من كل هذه المناهج والحضارات .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء] أى : التزموا بمنهجى لتظلوا أمة واحدة ، واختار صفة الربوبية فلم يقُلْ : إلهكم ؛ لأن الرب هو الذى خلق ورزق وربى ، أمّا الإله فهو الذى يطلب التكاليف .

فالمعنى : ما دُمْتُ أنا ربكم الذى خلقكم من عَدَم ، وأمدكم من عُدْم ، وأنا القيوم على مصالحكم ، أكلؤكم بالليل والنهار ، وأرزق حتى العاصى والكافر بى ، فأنا أَوْلَى بالعبادة ، ولا يليق بكم أن أصنع معكم هذا كله وتذهبون إلى إله غيرى ، هذا منطق العقل السليم ، وكما يقولون (اللى يأكل لقمتى يسمع كلمتى) .

ومن العبادة أن تطيع الله فى أمره ونَهْيه ؛ لأن ثمرة هذه الطاعة عائدة عليك بالنفع ، فلله تعالى صفات الكمال الأزلىّ قبل أنْ يخلق مَنْ يطيعه ، فطاعتك لن تزيد شيئاً فى مُلْك الله ، ومعصيتك لن تنتقص منه شيئاً . إذن : فالأمر راجع إليك ، وربك يُثيبك على فعل هو فى الحقيقة لصالحك .

لكن ، هل سمع الناس هذا النداء وعملوا بمقتضاه ، فكانوا أمة واحدة كهذه الأمة التى أدخلتْ الدنيا فى رحاب الإسلام فى نصف قرن ؟ هذه الأمة التى ما زلنا نرى أثرها فى البلاد التى تمردتْ على العروبة ، وعلى لغة القرآن ، ومع ذلك هم مسلمون على لغاتهم وعلى حضارتهم ، إن الدين الذى يصنع هذا ، والأمة الواحدة التى تحمَّلتْ هذه المسئولية ما كان ينبغى أن نتخلى عنها .

والسؤال : هل بقيت الأمة الواحدة ؟ تجيب الآيات :

﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

أى : صاروا شيعاً وأحزاباً وجماعات وطوائف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

لماذا ، لست منهم فى شىء ؟ لأنهم يقضون على واحدية الأمة ، ولا يقضون على واحدية الأمة إلا إذا اختلفتْ ، ولا تختلف الأمة إلا إذا تعددتْ مناهجها ، هنا ينشأ الخلاف ، أمَّا إنْ صدروا جميعاً عن منهج واحد فلن يختلفوا .

وما داموا قد تقطعوا أمرهم بينهم ، فصاروا قطَعاً مختلفة ، لكل قطعة منهج وقانون ، ولكل قطعة تكاليف ، ولكل قطعة راية ، وكأن آلهتهم متعددة ، فهل سيُتركون على هذا الحال ، أم سيعودون إلينا فى النهاية ؟

﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنبياء] إذن : أنتم أمة واحدة فى الخلْق من البداية ، وأمة واحدة فى المرجع وفى النهاية ، فلماذا تختلفون فى وسط الطريق ؟

إذن : الاختلاف ناشىء من اختلاف المنهج ، وكان ينبغى أن يكون واضع المنهج واحداً . وقد جاء النبى ﷺ خاتماً للرسالات ، وجاءت شريعته جامعة لمزايا الشرائع السابقة ، بل وتزيد عليها المزايا التى تتطلبها العصور التى تلى بعثته .

فكان المفروض أن تجتمع الأمة المؤمنة على ذلك المنهج الجامع

المانع الشامل ، الذى لا يمكن أن يستدرك عليه ، وبذلك تتحقق وحدة الأمة ، وتصدر فى تكليفاتها عن إله واحد ، فلا يكون فيها مَدْخَل للأهواء ولا للسلطات الزمنية أو الأغراض الدنيئة .

لذلك ، إذا تعددت الجماعات التى تقول بالإسلام وتفرقت نقول لهم : كونوا جماعة واحدة ، وإلا فالحق مع أىِّ جماعة منكم ؟! لأن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ.. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

ولا يتفرق الداعون لدعوة واحدة إلا باتباع الأهواء والأغراض ، أما الدين الحق فهو الذى يأتى على هوى السماء ، موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخَلْقه .

لقد انفضَّ المؤمنون عن الجامع الذى يجمعهم بأمر الله ، فانفضت عنهم الوحدة ، وتدابروا حتى لم يَعُدْ يجمعهم إلا قَوْلُ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أما مناهجهم وقوانينهم فقد أخذوها من هنا أو من هناك ، وسوف تعضهم هذه القوانين ، وسوف تخذلهم هذه الحضارات ، ويرون أثرها السيء ، ثم يعودون فى النهاية إلى الإسلام فهو مرجعهم الوحيد ، كما نسمع الآن نداء لا حَلَّ إلا الإسلام .

نعم ، الإسلام حَلٌّ للمشاكل والأزمات والخلافات والزعامات ، حَلٌّ للتعددية التى أضعفتْ المسلمين وقوَّضَتْ أُخوَّتهم التى قال الله فيها : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران]

ووالله ، لو عُدْنا إلى حبل الله الواحد فتمسَّكنا به ، ولم تلعب بنا الأهواء لَعُدْنا إلى الأمة الواحدة التى سادتْ الدنيا كلها .

إذن : ﴿ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) ﴾ [الأنبياء] أى : فى الآخرة للحساب ، وأنا أقول يا رب .. لعل هذا الرجوع يكون فى الدنيا بأنْ تعضّنا قوانين البشر ، فنفزع إلى الله ونعود إليه من جديد ، فيعود لنا مجدنا ، ويصْدُق فينا قَوْل الرسول ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء »(١) .

ويُعزِّز هذا الفهم ويُقوِّى هذا الرجاء قول الله تعالى بعدها :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ (٩٤) ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يستأنف معنا العظة بالعمل الصالح ليعطينا الأمل لو رجعنا إلى الله ، والدنيا كلها تَشهد أن أىَّ مبدأ باطل ، أو شعار زائف زائل يُزخرفون به أهواءهم لا يلبث أنْ ينهار ولو بَعْد حين ، ويتبين أصحابه أنه خطأ ويعدلون عنه .

ومثال ذلك الفكر الشيوعى الذى ساد روسيا منذ عام ١٩١٧ وانتهكت فى سبيله الحرمات ، وسفكتْ الدماء ، وهدمتْ البيوت ، وأخذت الثروات ، وبعد أن كانت أمة تصدر الغذاء لدول العالم أصبحت الآن تتسول من دول العالم ، وهم أول مَنْ ضَجَّ من هذا الفكر وعانى من هذه القوانين .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. (٩٤) ﴾ [الأنبياء] ربط العمل الصالح بالإيمان ؛ لأنه مُنطلَق المؤمن فى كُلِّ ما يأتى وفى كُلِّ ما يدع ؛ لينال بعمله سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

أمّا مَنْ يعمل الصالح لذات الصلاح ومن منطلق الإنسانية

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٥) كتاب الإيمان ، وابن ماجة فى سننه (٣٩٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والمروءة ، ولا يخلو هذا كله فى النهاية عن أهـواء وأغراض ، فليأخذ نصيبه فى الدنيـا ، ويحظى فيها بالتكريم والسيـادة والسُّمْعة ، وليس له نصيب فى ثواب الآخرة ؛ لأنه فَعَل الخير وليس فى باله الله .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لذلك فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

يعنى : فـوجئ بوجود إله يحـاسبه ويـجازيه ، وهذه مسـألة لم تكُنْ على باله ، فيقـول له : عملتَ ليقال وقد قيل . وانتـهت المسألة ؛ لذلك يقـول تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ .. (٢٠)﴾ [الشورى] أى : نعطيه أجره فى عالم آخر لا نهاية له ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

لأنه عَمِلَ للناس ، فليأخذ أجره مـنهم ، يُخلِّدون ذكراه ، ويُقيمون له المعارضَ والتماثيل .. الخ .

وقوله تـعالى : ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ .. (٩٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : لا نبخسـه حَقَّه ولا نجحد سَـعْيه أبداً ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)﴾ [الأنبياء] نسجِّل له أعمـاله ونحفظها ، والمفـروض أن الإنسان هو الذى يُسجِّل لنفـسه ، فـإنْ سجَّل لك عـملَك ربُّك الذى يُثيـبك عليه ، وسـجَّله على نفسه ، فلا شكَّ أنه تسجيل دقيق لا يبخسك مثقال ذرة من عملك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥)﴾

﴿ حَرَامٌ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : ممتنع ، لا يجب أن يكون ، والقرية : أى قرية أهلكناها ؛ لأنها كذَّبَتْ الرسل ، ووقفتْ منهم موقف اللَّدَد والعناد والمعارضة ، فأهلكها الله بذنوبها فى الدنيا ، أيُعقَلُ بعد هذا أن نتركها فى الآخرة من غير أنْ نأخذها بذنوبها ؟

لا بُدَّ - إذن - أن ترجع إلينا فى الآخرة لنحاسبها الحساب الدائم الخالد ، فلا نكتفى بحساب الدنيا المنتهى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ(١) يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وردتْ قصة يأجوج ومأجوج فى آخر سورة الكهف ، حينما سُئِلَ النبى ﷺ عن الرجل الجوَّال الذى طاف الأرض ، فنزلت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الكهف]

وقد تكلم العلماء فى ذى القرنين ، منهم مَنْ قال : هو قورش ومنهم مَنْ قال هو : الإسكندر الأكبر . والقرآن لا يعنيه الشخص وإلاَّ لَذكره باسمه ، فالقرآن لا يُؤرِّخ له ، ولا يقيم له تمثالاً ، إنما يريد التركيز على الأوصاف التى تعنى الحق وتعنى الخَلْق .

فيكفى أن نعلم أنه إنسان مكَّنَه الله فى الأرض . يعنى : أعطاه من أسباب القوة وأسباب المهابة والسيطرة ، وأعطاه من كُلِّ مُقوِّمات

---

(١) الحدب : ما ارتفع من الأرض . أى أنهم يحضرون من كل جانب ، ولو كان مرتفعاً شاقاً لا يعوقهم شىء لأنهم فى غير المرتفع أسرع والسير فيه أيسر ، فهم يأتون من كل جهة ولو شقت . [القاموس القويم ١/١٤٤] .

القوة : أعطاه المال والعلم والجيوش ، فلم يكتف بذلك كله ، بل ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : أخذ بالأسباب التى تؤدِّى إلى الخير .

وسبق أنْ تحدثنا عن تشخيص البطل فى قصص القرآن ؛ لأن القرآن لا يُؤرِّخ للشخصية ، ولا يُعطى لها خصوصية ، وإنما يريدها عامة لتكون مثلاً يُحتذَى ، ويتم بها الاعتبار ، وتُحدِث الأثر المراد من القصة .

فما يعنينا فى قصة ذى القرنين أنه رجل مُكِّن فى الأرض ، وكان من صفاته كذا وكذا ، وما يعنينا من أهل الكهف أنهم فتية آمنوا بربهم وتمسَّكوا بدينهم وعقيدتهم وضَحَّوْا فى سبيلها ، لا يهمنا الأشخاص ولا الزمان ولا المكان ولا العدد .

لذلك ؛ أبهم القرآن كل هذه المسائل ، فأىّ فتية ، فى أىّ زمان ، وفى أىٍّ مكان ، وبأىٍّ أسماء يمكن أن يقفوا هذا الموقف الإيمانى ، ولو شخَّصناهم وعيَّناهم لَقالَ الناس : إنها حادثة خاصة بهؤلاء ، أو أنهم نماذج لا تتكرر ؛ لذلك أبهمهم القرآن ليكونوا عبرة وأُسْوة تسير فى الزمان كله .

كذلك ، لما أراد القرآن أنْ يضرب مثلاً للذين كفروا ذكر امرأة نوح وامرأة لوط ولم يُعيِّنهما ، وكذلك ضرب مثلاً للذين آمنوا بامرأة فرعون ولم يذكر مَنْ هى[1] ، فالغرض من ضَرْب هذه الأمثال ليس الأشخاص ، إنما لنعلم أن للمرأة حريةَ العقيدة واستقلاليةَ الرأى ، فليست هى تابعة لأحد ، بدليل أن نوحاً ولوطاً لم يتمكَّن كل منهما من هداية امرأته .

---

(١) قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم] .

وفرعون الكافر الذى ادَّعَى الألوهية ، لم يستطع أن يمنع زوجته من الإيمان ، وهى التى قالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾ [التحريم]

إذن : ما يعنينا فى قصة « ذى القرنين » أن الله مكَّن له فى الأرض وأعطاه كُلَّ أسباب القوة والسيطرة ؛ لذلك ائتمنه أنْ يكونَ ميزاناً للخير وللحق ، وفوَّضَهُ أن يقضى فى الخَلْق بما يراه من الحق والعدل .

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾ [الكهف]

لأننا مكَّنَّاه وفوَّضناه ، فاستعمل التمكين فى موضعه ، وأخذ الأمانة بحقِّها ، فقال : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧)﴾ [الكهف] أى : نُعذِّبه على قَدْر مقدرتنا ، ثم يُرَدُّ إلى ربه فيُعذِّبه على قَدْر قدرته تعالى .

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف]

وهكذا يكون دستور الحياة من الحاكم الممكَّن فى الخَلْق ، دستور الثواب والعقاب الذى تستقيم به أمور البلاد والعباد ، فحين يرى تقصيراً لا بُدَّ أنْ يأخذ على يد صاحبه مهما تكُنْ منزلته ، لا يخافه ولا ينافقه ولا يخشى فى الله لومة لائم ، وإنْ رأى المحسن المجتهد يُثيبه ويكافئه .

وهذا القانون نراه فى مجتمعنا يكاد يكون مُعطّلاً بين العاملين ، فاختلط الحابل بالنابل ، وتدهورتْ الأمور ، ودخلت بيننا مقاييس

أخرى للثواب وللعقاب ما أنزل الله بها من سلطان ، فانقلبت الموازين ، حيث تبجح الكسالى ، وأُحْبط المجدُّون المحسنون .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) ﴾ [الكهف]

هذا كُلُّ ما أخبر الله به ، ويبدو أنه وصل فى تجواله العام إلى بلاد تظل الشمس بها مشرقة ثلاثة أو ستةَ أشهر لا تغرب ؛ لذلك لم يجد لهم من دون الشمس سِتْراً يسترها أىْ ظلمة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) ﴾ [الكهف]

ومع ذلك احتال أن يفهم منهم ، ويخاطبهم ؛ لحرصه على نفعهم وما يصلحهم ، وهذه صفة الحاكم المؤمن حين يُمكَّن فى الأرض ، وتُعطَى له أسباب القيادة ، ويُفوَّض فى خَلْق الله ، ولو لم يكُنْ حريصاً على نفعهم لوجد العذر فى كونه لا يفهم منهم ولا يفهمون منه .

فلما توصلوا إلى لغة مشتركة ، ربما هى لغة الإشارة التى نتفاهم بها مع الأخرس مثلاً :

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[1] عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾ [الكهف]

ثم أمرهم أن يأتوا بقطَع الحديد ، فأشعل فيها النار حتى احمرَّت فقال ﴿ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) ﴾ [الكهف] وهكذا صنع لهم السدَّ الذى يحميهم من هؤلاء القوم ، فلم يَقْصُر نفعه لهم على هذه القضية ذاتها ، إنما نفعهم نَفْعاً يعطيهم الخير والقوة فى ألاَّ يتعرضوا لمثلها

(١) الخَرْج والخراج : ما يخرجه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله . أو ما يُخرجه من الزكاة للإمام . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

بعد ذلك ، عملاً بالحكمة التى تقول : لا تعطنى سمكة ، ولكن علمنى كيف أصطاد .

ذلك لأنه أشركهم فى العمل ؛ ليشعروا بأهميته ويتمسكوا بالمحافظة عليه وصيانته ، وإذا ما تعرضوا لمثل هذا الموقف لا ينتظرون مَنْ يصنع لهم .

هذا هو النموذج الذى تُقدِّمه قصة « ذى القرنين » وهو نموذج صالح لكل الزمان ولكل المكان ولكل حاكم مكَّنه الله فى الأرض ، وألقى بين يديه أزمّة الأمور ، وفى حديث أفضل العمل يقول ﷺ : « تعين صانعاً ، أو تصنع لأخرق »[1] .

وقد تضاربتْ الأقوال حول : مَنْ هم يأجوج ومأجوج ، فمنْ قائل : هم التتار . وآخر قال : المغول . وآخر قال : هم الحتيت ، أو السرديال ، أو قبائل الهُونْ .

ولو كان فى تحديدهم فائدة لعيَّنهم القرآن ، إنما المهم من قصتهم أنهم قومٌ مفسدون فى الأرض لا يتركون الصالح على صلاحه ، فإذا ما تصدَّى لهم الممكَّن فى الأرض فعليه أن يحول بينهم وبين هذا الإفساد فى غيرهم ، وعلينا نحن ألاَّ نُفسد الصالح كهؤلاء ، إنما نترك الصالح على صلاحه ، بل ونزيده صلاحاً .

وفى بناء ذى القرنين للسد دروس يجب أنْ يعيها أولو الأمر الذين يتولّوْن مصالح الخَلْق ، من هذه الدروس أنه لم يقف عند طلبهم

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله والجهاد فى سبيله . قال قلت : أىّ الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسُها عند أهلها وأكثرها ثمناً . قال قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : « تعين صانعاً أو تصنع لأخرق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٤) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٢٥١٨) بلفظ : « تعين ضائعاً » .

فى بناء سدٍّ يمنع عنهم أذى عـدوهم ، إنما اجتـهد وترقَّى بالمـسألة إلى ما هو أفضل لهم ، فالسدُّ الأصـمّ المتـماسك كقطعة واحدة يسهل هَدْمه أو النفـاذ منه ؛ لذلك قال : ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف]

لقد طلبـوا سداً وهو يقول : رَدْمـاً ، لقد رقّى لهم الفكرة ، وأراد أنْ يصنع لهم سداً على هيئة خـاصة تمتصّ الصدمات ، ولا تؤثر فى بنائه ؛ لأنه جعل بين الجـانبين رَدْماً كـأنه سوستة تُعطى السـدّ نوعاً من المـرونة . وهـكذا يجب أن يكون المـؤمن عنـد تحـمُّل مسـئوليـة الخَلْق .

ولما عرضـوا عليه المال نظير عـمله أبى ، وقال : ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ .. ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف] أى : عندى المال الكثـير من عطاء الله لكن أعينونى بما لديكم من قـوة . إذن : زكاة القوة أنْ تمنع الفساد من الغير .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ .. ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبـياء] فلها عـلاقة بقـوله تعالى : ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ .. ﴿٩٣﴾﴾ [الأنبياء] فتقطّـع أهل الخير وتفرُّقهـم يُجرِّىء عليهم أصحـاب الفساد ، وأقلّ ما يقـولونه فى حقِّهم أنهم لو كانوا على خـير لنفعوا أنفسـهم ، فدعُـوكم من كلامهـم ، وهكذا يفُتُّ أهل الباطل فى عَضُد أهل الحق ، ويصرفون الناس عنهم .

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ .. ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : جاءت عناصر الفسـاد والفتنة فى الكون ، وعناصر الفسـاد والفتنة لا تتمكن ولا تجد الفـرصة والسلطة الزمنية إلا إذا غفل أهل الحق وتفـرقوا فلم يردوهم ، ويأخذوا على أيديهم .

ويأجوج ومأجوج هم أهل الفساد فى كل زمان ومكان ، فجنكيزخان الذى هدم أول ولاية إسلامية فى خوارزم ، وكان عليها الملك قطب أرسلان ، ثم جاء من ذريته الثالثة هولاكو الذى دخل بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وخرَّبها وقتل أهلها حتى سالتْ الدماء ، وألقى بالكتب الإسلامية فى النهر حتى كانت قنطرة يعبرون عليها . هؤلاء الذين نُسمِّيهم التتار .

إذن : فالقرآن قَصَّ علينا من التاريخ القديم قصة يأجوج ومأجوج أيام ذى القرنين ، ثم رأيناهم فى حياتنا الإسلامية ، وشاء الله أن يستفيد المسلمون من هجمات هؤلاء البرابرة ، وأن تتجمع ولاياتهم ويصدُّوا هجمات التتار على أرض مصر بقيادة قطز والظاهر بيبرس ، وهما مثالان للممكَّنين فى الأرض ، مع أنهما من المماليك .

هذه الهجمات التترية للمفسدين فى الأرض كانت هجمات همجية وحشية ، وقد تجمَّع أحفاد هؤلاء من يأجوج ومأجوج العصر الحديث فى هجمات مدنية تغزونا بحضارتها ، إنهم الصليبيون الذين انهزموا أمام وحدة المسلمين بقيادة صلاح الدين .

وهكذا على مرِّ التاريخ ننتصر إذا كنا أمة واحدة ، ونُهزَم إذا تفرّقنا وتقطّعنا أمماً وأحزاباً ، وهذه حقائق تُثبِت صدْق القرآن فيما وجَّهنا إليه من الوحدة وعدم التفرق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء]

الحدب : المكان المرتفع ، نقول : فلان أحدب الظهر يعنى : فى ظهره منطقة مرتفعة ، وكذلك هؤلاء المفسدون أتوْا من أماكن مرتفعة فى هضبة شمال الصين . ومعنى ﴿يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : يسرعون ، ومنه نقول : انسلَّ القماش ؛ لأن القماش مُكوَّن من سُدى

ولُحمة ، يعنى خيوط طولية وخيوط عرضية ، تتداخل فتكوِّن القماش ، فنسل القماش أن تنزع خيوط العرض وتفكّ تداخلها مع خيوط الطول ، ولا تُنزع خيوط الطول لأنها دائماً مُحكَمة بثَنْى السُّدَى على اللحمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ[1] أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

فكونُ أهل الفساد يأتون مُسْرعين من كل حَدَب وصَوْب إلا أن فسادهم لن يطول ، فقد اقتربت القيامة ، قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① ﴾ [القمر]

وقال : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ① ﴾ [النحل]

وهذا تنبيه للغافل ، وتحذير للباغى من أهل الفساد ، وتطمين ورجاء للمظلومين المستضعفين المعتدَى عليهم : اطمئنوا فقد قرب وقت الجزاء .

﴿ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء] والوعد الحق أى : الصادق الذى يملك صاحبه أن يُنفّذه ، فقد تَعد وعداً ولا تملك تنفيذه فهو وَعْد ، لكنه وَعْد باطل ، فالوعد يختلف حَسْب مروءة الواعد وإمكانياته وقدرته على إنفاذ ما وعد به .

---

(١) شخص بصره : انفتحت عيناه فلا تطرف ، من الخوف والفزع والحيرة ، وهو كناية عن شدة الهول والفزع يوم القيامة . [القاموس القويم ١/٣٤٣] .

لكن مهما كانت عندك من إمكانيات ، ومهما ملكتَ من أسباب التنفيذ ، أتضمن أن تُمكِّنك الظروف والأحوال من التنفيذ ؟ ولا يملك هذا كله إلا الله عز وجل ، فإذا وعد حقق ما وعد به ، فالوعد الحق - إذن - هو وعد الله .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. (٩٧)﴾ [الأنبياء] فتنبه ولا تَقِسْ الدنيا بعمرها الأساسى ، إنما قِسْ الدنيا بعمرك فيها ، فهذه هى الدنيا بالنسبة لك ، ولا دَخْلَ لك بدنيا غيرك ، فإذا كنتَ لا تعلم متى تفارق دنياك فلا شَكَّ أن عمرك قريب ، واقترب الوعد الحق بالنسبة لك .

وكذلك مدة مُكْثك فى قبرك إلى أن تقوم الساعة ستمر عليك كساعة من نهار ، كما قال سبحانه : ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ .. (٤٥)﴾ [يونس]

ولو تنبَّه كل منّا إلى إخفاء الله لأجله ، لعلم أن فى هذا الإخفاء أعظمَ البيان ، فحين أخفاه ترقبناه فى كل طَرْفة عَيْن ، وتنفُّس نَفَس ؛ لذلك يقولون : « مَن مات قامت قيامته »[1] ، لأن القيامة تعنى الحساب والجزاء على الأعمال ، ومَنْ مات انقطع عمله ، وطُوِيَتْ صحيفته .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧)﴾ [الأنبياء]

وَعْد الله هنا هو القيامة ، وهى تفاجئنا وتأتينا بغتة ؛ لذلك نقول فى (فَإِذَا) أنها الفجائية ، كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ،

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنىً كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة » .

يعنى : فوجئت به ، وهكذا ساعةَ تقوم الساعة سوف تُفَاجِىء الجميع ، لا يدرى أحد ماذا يفعل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء] وشخوص البصر يأتى حين ترى شيئاً لا تتوقعه ، ولم تحسب حسابه ، فتنظر مُنْدهشاً يجمد جفنُك الأعلى الذى يتحرك على العين ، فلا تستطيع حتى أنْ ترمش أو تطرف .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

وإذا أردتَ أن ترى شُخوص البصر فانظر إلى شخص يُفَاجأ بشىء لم يكُنْ فى باله ، فتراه - بلا شعور وبغريزته التكوينية - شاخصَ البصر ، لا ينزل جفنه .

ثم يقولون : ﴿ يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

فلم يقتصر الموقف على شخوص البصر إنما تتحرك أيضاً أدوات الإدراك فيقول اللسان : (يَا وَيْلَنَا) وهذا نداء للويل أى : جاء وقتُك فلم يَعُدْ أمامهم إلا أنْ يقولوا : يا عذاب هذا أوانك فاحضر .

والويل : هو الهلاك السريع ينادونه ، فهل يطلب الإنسان الهلاكَ ، ويدعو به لنفسه ؟ نقول : نعم ، حين يفعل الإنسان الفعلَ ويجد عواقبه السيئة ، وتواجهه الحقيقة المرّة يميل إلى تعذيب نفسه ، ألاَ تسمع مثل هؤلاء يقولون : أنا أستحق .. أنا أستاهل الضرب ..؟ إنه لَوْم النفس وتأنيبها على ما كان منها ، فهى التى أوقعتْه فى هذه الورطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

فلماذا لا يُؤنِّب نفسه ، ويطلب لها العذاب ، وهى التى أردته فى التهلكة ، ففى هذا الموقف تنقلب موازينهم التى اعتادوها فى الدنيا ، فالأصدقاء فى الشر وفى المعصية هم الآن الأعداء .

﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء] لم يكن هذا الموقف فى بالنا ، ولم نعمل له حساباً ، والغفلة : أنْ تدرأ عن بالك ما يجب أن يكون على بالك دائماً .

لكن ، أىّ غفلة هذه والله ـ عز وجل ـ يُذكِّرنا بهذا الموقف فى كل وقت من ليل أو نهار ، ألاَ ترى أنه سبحانه سَمَّى القرآن ذكْراً ليزيح عنّا هذه الغفلة ، فكلما غفلتَ ذكّرك ، وهزَّ مواجدك ، وأثار عواطفك .

إذن : المسألة ليست غفلة ؛ لذلك نراهم يستدركون على كلامهم ، فيقولون : ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) ﴾ [الأنبياء] لأنهم تذكَّروا أن الله تعالى طالما هَزَّ عواطفهم ، وحرَّك مواجيدهم ناحية الإيمان ، فلم يستجيبوا .

لذلك اعترفوا هنا بظلمهم ، ولم يستطيعوا إنكاره فى مثل هذا الموقف ، فلم يعُدْ الكذب مُجْدياً ، ولعلّهم يلتمسون بصدقهم هذا نوعاً من الرحمة ، ويظنون أن الصدق نافعهم ، لكن هيهات .

وكأن الحق سبحانه يحكى عنهم هذه المواجهة حين تفاجئهم القيامة بأهوالها ، فتشخص لها أبصارهم ، ويقول بعضهم ﴿ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء] فيردّ عليهم إخوانهم : أىّ غفلة هذه ، وقد كان الله يُذكِّرنا بالقيامة وبهذا الموقف فى كل وقت ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

و (بَلْ) حرف إضراب عن الكلام السابق ، وإثبات للكلام اللاحق ، وهكذا يُراجِعون أنفسهم ، ويُواجِه بعضهم بعضاً ، لكن بعد فوات الأوان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾

فالذين اتخذتموهم آلهة من دون الله من الأصنام والأوثان والشمس والقمر والأشجار سيسبقونكم إلى جهنم لنقطع عليكم أيَّ أمل فى النجاة ؛ لأنهم حين يروْنَ العذاب ربما تذكّروا هؤلاء ، وفكَّروا فى اللجوء إليهم والاستنجاد بهم ، لعلّهم يُخرجونهم من هذا المأزق ، وقد سبق أنْ قالوا عنهم : ﴿ هَـٰؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ .. (١٨) ﴾ [يونس]

وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر]

لذلك ، يجمعهم الله جميعاً فى جهنم ليقطع عنهم الآمال ، ويبدو خجل المعبود وخيبة العابد ؛ لأنه جاء النارَ فوجد معبوده قد سبقه إليها ..

لكن ، هل هذا الكلام على إطلاقه فقد عبد الكفارُ الأصنامَ ، ومنهم مَنْ عبدوا عيسى عليه السلام ، ومنهم مَنْ عبدوا عُزَيْراً ، ومنهم مَنْ عبدوا الملائكة ، فهل سيُجمع هؤلاء أيضاً مع عابديهم فى النار ؟

لو قُلْنا بهذا الرأى فدخولهم النار مثلما دخلها إبراهيم ، فجمع الله له النار والسلامة فى وقت واحد ، ويكون وجودهم لمجرد أنْ يراهم

---

(١) قُرِيءَ هذا اللفظ فى القرآن ثلاث قراءات :

١ - حصب جهنم : قراءة الجمهور .

٢ - حطب جهنم : قراءة على بن أبى طالب وعائشة .

٣ - حضب جهنم : قراءة ابن عباس . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٢٤] .

عابدوهم ، ويعلموا أنهم لا ينفعونهم[(١)] .

ومعنى ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨)﴾ [الأنبياء] الحصب مثل : الحطب ، وهو كل ما تُوقَد به النار أياً كان خشباً أو قشاً أو بترولاً أو كهرباء ، وفى آية أخرى : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٦)﴾ [التحريم] لذلك فإن النار نفسها تشتاق للكفار ، وتنتظرهم ، وتتلهّف عليهم كما يقول تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

ويقول تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ .. (٨)﴾ [الملك]

وقوله تعالى : ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء] الورود هنا بمعنى : الدخول والمباشرة ، لا كالورود[(٢)] فى الآية الأخرى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١)﴾ [مريم]

---

(١) عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء] . فقال ابن الزبعرى : ألست تزعم يا محمد أن عيسى عبد صالح ، وأن عزيراً عبد صالح ، وأن الملائكة صالحون ؟ قال : بلى . قال : فهذه النصارى تعبد عيسى ، وهذه اليهود تعبد عزيراً ، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة ، فضج أهل مكة وفرحوا ، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾ [الأنبياء] عزير وعيسى والملائكة . أخرجه أبو داود فى ناسخه وابن المنذر وابن مردويه والطبرانى ، قاله السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٧٩) .

(٢) اختلف العلماء فى معنى الورود فى قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١)﴾ [مريم] على أقوال عدة منها :

- الورود : الدخول ، قاله ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهما .
- هو ورود إشراف واطلاع وقرب ، وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب ثم ينجى الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويُصار بهم إلى الجنة .
- الورود : النظر إليها فى القبر ، فينجى منها الفائز ، ويصلاها مَنْ قُدِّر عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله . قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣١٠) بعد إيراد هذه الأقوال : « ظاهر الورود الدخول إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالمين » . ثم قال : « هذا القول يجمع شتات الأقوال ، فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونجى منها » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

لأنهم سيدخلون فيجدون آلهتهم أمامهم ؛ ليَنْقطع أملهم في شفاعتهم التي يظنونها ، كما قال تعالى في شأن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود] فرئيسهم وفُتوتهم يتقدمهم ، ويسبقهم إلى النار ، فلو لم يكُنْ أمامهم لظنوا أنه ينقذهم من هذا المأزق . ولو كان هؤلاء آلهة - كما تدَّعون - ما وردوا النار .

ومعنى : ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنبياء] لأن المعروف عن النار أنها تأكل ما فيها ، ثم تنتهي ، أما هذه النار فلا نهايةَ لها ، فكلما نضجَتْ جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، وهكذا تظل النار مُتوقِّدة لا تنطفيء . ومعنى ﴿ كُلٌّ .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : العابد والمعبود .

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

معلوم أن الزفير هو الخارج من عملية التنفس ، فالإنسان يأخذ في الشهيق الأكسجين ، ويُخرِج في الزفير ثاني أكسيد الكربون ، فنلحظ أن التعبير هنا اقتصر على الزفير دون الشهيق ؛ لأن الزفير هو الهواء الساخن الخارج ، وليس في النار هواء للشهيق ، فكأنه لا شهيقَ لهم ، أعاذنا الله من العذاب .

﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

وهذه من الآيات التي توقف عندها المستشرقون ، لأن هناك آيات أخرى تُثبت لهم في النار سَمْعاً وكلاماً . كما في قوله سبحانه :

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾ [الأعراف]

نعم ، هم يسمعون ، لكن لا يسمعون كلاماً يَسُرُّ ، إنما يسمعون تبكيتاً وتأنيباً ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠)﴾ [الأعراف]

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾

بعد أن ذكر سبحانه جزاء الكافرين فى النار ذكر المقابل ، وذِكْر المقابل يوضح المعنى ، اقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

ويقول : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢)﴾ [التوبة] ؛ لذلك تظل المقارنة حيَّة فى الذِّهْن .

ومعنى : ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠١)﴾ [الأنبياء] الحُسْنى : مؤنث الأحسن ، تقول : هذا حَسَن وهذه حسنة ، فإنْ أردتَ المبالغة تقول : هذا أحسن ، وهذه حُسْنى . مثل : أكبر وكُبْرى . ومعنى : ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠١)﴾ [الأنبياء] أنهم من أهل الطاعة ، ومن أهل الجنة ، فهكذا حُكْم الله لهم ، وقد أخذ الله تعالى جزءاً من خَلْقه

وقال : « هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى »[١]

ولا تقُلْ : ما ذنب هؤلاء ؟ لأنه سبحانه حكم بسابق علْمه بطاعة هؤلاء ، ومعصية هؤلاء .

وقوله : ﴿ أُولَـٰئِكَ[٢] عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾ [الأنبياء] أى : مبعدون عن النار .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) ﴾

حسيس النار : أزيزها ، وما ينبعث منها من أصوات أول ما تشتعل ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهمْ خَالِدُونَ (١٠٢) ﴾ [الأنبياء] فلم يقُلْ مثلاً : وهم بما اشتهتْ أنفسهم ، إنما ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ .. (١٠٢) ﴾ [الأنبياء] كأنهم غارقون فى النعيم ممَّا اشتهتْ أنفسهم ، كأن شهوات أنفسهم ظرف يحتويهم ويشملهم . وهذا يُشوِّق أهل الخير والصلاح للجنة ونعيمها ، حتى نعمل لها ، ونُعد العُدَّة لهذا النعيم .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان يتعب فى أول حياته ، ويتعلم صنعة ، أو يأخذ شهادة لينتفع بها فيما بعد ويرتاح فى مستقبل حياته ، وعلى قَدْر تعبك ومجهودك تكون راحتك ، فكل ثمرة لا بُدَّ لها

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالى . وقال للذى فى كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالى » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٤٤١) .

(٢) قال ابن عباس : أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً ، هو أسرع من البرق ، ويبقى الكفار فيها جثياً وقال آخرون : بل نزلت استثناء من المعبودين وخرج منهم عزير والمسيح كما قال حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/١٩٨) .

من حَرْث ومجهود ، والله عز وجل لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسن عملاً .

وكنا نرى بعض الفلاحين يقضى يومه فى حقله ، مهملَ الثياب ، رثَّ الهيئة ، لا يشغله إلا العمل فى زرعه ، وآخر تراه مُهندماً نظيفاً يجلس على المقهى سعيداً بهذه الراحة ، وربما يتندر على صاحبه الذى يُشقِى نفسه فى العمل ، حتى إذا ما جاء وقت الحصاد وجد العامل ثمرة تعبه ، ولم يجد الكسول غير الحسرة والندم .

إذن : ربك - عز وجل - أعطاك الطاقة والجوارح ، ويريد منك الحركة ، وفى الحركة بركة ، فلو أن الفلاح جلس يُقلِّب فى أرضه ويُثير تربتها دون أنْ يزرعها لَعوَّضه الله وأثمر تعبه ، ولو أن يجد شيئاً فى الأرض ينتفع به مثل خاتم ذهب أو غيره .

وترف الإنسان وراحته بحسب تَعبه فى بداية حياته ، فالذى يتعب ويعرق مثلاً عَشْر سنين يرتاح طوال عمره ، فإنْ تعب عشرين سنة يرتاح ويرتاح أولاده من بعده ، وإنْ تعب ثلاثين سنة يرتاح أحفاده وهكذا .

وترَف المتعلم يكون بحسب شهادته : فهذا شهادة متوسطة ، وهذا عُلْيا ، وهذا أخذ الدكتوراة ، ليكون له مركز ومكانة فى مجتمعه .

لكن مهما أعدَّ الإنسان لنفسه من نعيم الحياة وترفها فإنه نعيم بقَدْر إمكانياته وطاقاته ؛ لذلك ذكرنا أننا حين سافرنا إلى سان فرانسيسكو رأينا أحد الفنادق الفخمة وقالوا : إن الملك فيصل - رحمه الله - كان ينزل فيه ، فأردنا أنْ نتجوّل فيه ، وفعلاً أخذنا بما فيه من مظاهر الترف والأبهة وروعة الهندسة ، وكان معى ناس من علْية القوم فقلتُ لهم : هذا ما أعدّه العباد للعباد ، فما بالكم بما أعدَّه رب العباد للعباد ؟

فإذا ما رأيتَ أهل النعيم والترف فى الدنيا فلا تحقد عليهم ؛ لأن نعيمهم يُذكِّرك ويُشوِّقك لنعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ[1] هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) ﴾

ذلك لأنهم فى نعيم دائم لا ينقطع ، وعطاء غير مجذوذ ، لا يفوتك بالفقر ولا تفوته بالموت ؛ لذلك ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ .. (١٠٣)﴾ [الأنبياء] وأىُّ فزع مع هذه النعمة الباقية ؟ أو : لا يحزنهم فزع القيامة وأهوالها .

وقوله : ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾ [الأنبياء] فقد صدَقكم الله وَعْده ، وأنجزَ لكم ما وعدكم به من نعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾

أى : ما يحدث من عذاب الكفار وتنعيم المؤمنين سيكون ﴿يَوْمَ

(١) قال مجاهد : تتلقاهم الملائكة الذين كانوا قرناءهم فى الدنيا يوم القيامة فيقولون : نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة . أخرجه ابن أبى حاتم وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٨٣) .

نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] و (يوم) : زمن وظَرْف للأحداث ، فكأن ما يحدث للكافرين من العذاب والتنكيل ، وما يحدث للمؤمنين من الخلود فى النعيم يتم فى هذا اليوم .

والسجل : هو القرطاس ، والورق الذى نكتب فيه يُسمَّى سجلاً ؛ ولذلك الناس يقولون : نسجل كذا ، أى : نكتبه فى ورقة حتى يكون محفوظاً ، والكتاب : هو المكتوب .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] يطويها بقدرته ؛ لأن اليمين عندنا هى الفاعلة فى الأشياء ، ولكن لا نأخذ الطى أنه الطى المعروف ، بل نأخذه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] يدلنا على أن الحق سبحانه يتكلم عن الخَلْق الأول و ﴿ نُّعِيدُهُ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] تدل على وجود خَلْق ثَان .

إذن : فقوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ[1] الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] دليل على أن الخَلْق الأول خَلْقٌ فيه الأسباب وفيه المسبِّب ، فالحق سبحانه أعطاك فى الدنيا مُقوِّمات الحياة من : الشمس والقمر والمطر والأرض والماء .... الخ ، وهذه أمور لا دَخْل لك فيها ، وكل ما عليك أنْ تستخدمَ عقلك الذى خلقه الله فى الترقى بهذه الأشياء والترف بها .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٢١) : « رُوى مرفوعاً من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « تُبدَّل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظى ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم فى الثانية فى مثل مواضعهم من الأولى ، مَنْ كان فى بطنها ففى بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها » ذكره الغزنوى .

أما فى الخلق الثانى فأنت فقط تستقبل النعيم من الله دون أَخْذ بالأسباب التى تعرفها فى الدنيا ؛ لأن الآخرة لا تقوم بالأسباب إنما بالمسبِّب سبحانه ، وحين ترى فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر تعلم أن فِعْل ربك لك أعظم من فِعْلك لنفسك .

ومهما ارتقتْ أسباب الترف فى الدنيا ، ومهما تفنَّن الخَلْق فى أسباب الراحة والخدمة الراقية ، فقصارى ما عندهم أن تضغط على زرٍّ يفتح لك الباب ، أو يُحضر لك الطعام أو القهوة ، لكن أتحدَّى العالم بما لديه من تقدُّم وتكنولوجيا أنْ يُقدم لى ما يخطر ببالى من طعام أو شراب ، فأراه أمامى دون أنْ أتكلم ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

فقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] فالمعنى ليستْ مجرد إعادته كما كان ، إنما نعيده على أَرْقى وأفضل مما كان بحيث يصل بك النعيم أنْ يخطرَ الشىء ببالك فتجده بين يديك ، بل إنَّ المؤمن فى الجنة يتناول الصنف من الفاكهة فيقول : لقد أكلتُ مثل هذا من قبل[1] فيُقال له : ليس كذلك بل هو أفضل مما أكلْتَ ، وأهنأ مما تذوقتَ . فلو تناولتَ مثلاً تفاح الدنيا تراه خاضعاً لنوعية التُّرْبة والماء والجو المحيط به والمبيدات التى لا يستغنى عنها الزرع هذه الأيام ... إلخ . أمّا تفاح الآخرة فهو شىء آخر تماماً ، إنه صَنْعة ربانية وإعداد إلهىّ .

وكأن الحق سبحانه يلفت عباده إلى أن عنايته بهم أفضل من

---

(١) هذا قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] .

عنايتهم بأنفسهم ؛ لأنه سبحانه أَوْلَى بنا من أنفسنا ، ولكى نعلم الفرق بين الشيء فى أيدينا والشيء فى يده عز وجل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء] أى : لا يُخرِجنا شيء عمًّا وعدنا به ، ولا يخالفنا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ[(١)] مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾

والكَتْب : التسجيل ، لكن علم الله أزليٌّ لا يحتاج إلى تسجيل ، إنما التسجيل من أجلنا نحن حتى نطمئن ، كما لو أخذتَ من صاحبك قَرْضاً وبينكما ثقة ، ويأمن بعضكم بعضاً ، لكن مع هذا نكتب القَرْض ونُسجِّله حتى تطمئن النفس .

ومعنى : ﴿كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] الزبور : الكتاب الذى أُنزل على نبى الله داود ، ومعنى الزبور : الشيء المكتوب ، فإنْ أطلقتَها على عمومها تُطلَق على كل كتاب أنزله الله ، ومعنى : ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] الذِكْر : يُطلَق مرة على القرآن ، ومرة على الكتب السابقة . وما دام الزبور يُطلَق على كل كتاب أنزله الله فلا بُدَّ أن للذكر معنى أوسع ؛ لذلك يُطلَق الذكر على اللوح المحفوظ ، لأنه ذكْر الذكْر ، وفيه كل شيء .

فمعنى : ﴿كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أى : فى الكتب التى

---

(١) الزبور والكتاب واحد ، ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . وقال سعيد بن جبير : الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن . (تفسير القرطبى ٦/٤٥٢٩) .

أُنزلَتْ على الأنبياء ما كتبناه فى اللوح المحفوظ ، أو ما كتبناه فى الزبور ، لا أنّ سيدنا داود أعطاه الله فوق ما أعطى الآخرين .

ومعنى : ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] هذه تدل على أن واحداً أسبق من الآخر ، نقول : القرآن هو كلام الله القديم ، ليس فى الكتب السماوية أقدم منه ، والمراد هنا ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] بعدية ذِكْرية ، لا بعدية زمنية .

فما الذى كتبه الله لداود فى الزبور ؟ كتب له ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾ [الأنبياء] كلمة الأرض إذا أُطلقَتْ عموماً يُراد بها الكرة الأرضية كلها .

وقد تُقيَّد بوصف معين.كما فى : ﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ..(٢١)﴾ [المائدة]

وفى : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ .. (٨٠)﴾ [يوسف] أى : التى كان بها .

وهنا يقول تعالى : ﴿أَنَّ الأَرْضَ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أى : الأرض عموماً ﴿يَرِثُهَا .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أى : تكون حقاً رسمياً لعبادى الصالحين . فأىُّ أرض هذه ؟ أهى الأرض التى نحن عليها الآن ؟ أم الأرض المبدلة ؟

ما دُمْنَا نتكلّم عن بَدْء الخَلْق وإعادته ، فيكون المراد الأرض المبدلَة المعادة فى الآخرة[1] ، والتى يرثها عباد الله الصالحون ، والإرْث هنا كما فى قوله تعالى : ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأعراف]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٥٣٠) : « أحسن ما قيل فيه أنه يُراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

فعن مَنْ ورثوا هذه الأرض ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق أعدَّ الجنة لتسعَ كلَّ بنى آدم إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتسع كُلَّ بنى آدم إنْ كفروا ، فليس فى المسألة زحام على أىِّ حال . فإذا ما دخل أهلُ الجنة الجنةَ ، ودخل أهلُ النارِ النارَ ظلَّتْ أماكن أهل النار فى الجنة خالية فيُورثها الله لأهل الجنة ويُقسِّمها بينهم ، ويُفسح لهم أماكنهم التى حُرِم منها أهل الكفر .

أو نقول : الأرض يُراد بها أرض الدنيا[1] . ويكون المعنى أن الله يُمكِّن الصالح من الأرض ، الصالح الذى يَعْمُرها ولو كان كافراً ؛ لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله ، حتى وإنْ كان كافراً ، يقول تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

لكن عمارة الكفار للأرض وتكوينهم للحضارة سَرْعان ما تنزل بهم النكبات ، وتنقلب عليهم حضارتهم ، وها نحن نرى نكبات الأمم المرتقية والمتقدمة وما تعانيه من أمراض اجتماعية مستعصية ، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً . ففى السويد - مثلاً - وهى من أعلى دول العالم دَخْلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار ، وأعلى نسبة شذوذ ، وهذه هى المعيشة الضَّنْك التى تحدَّث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

فالضَّنْك لا يعنى فقط الفقر والحاجة ، إنما له صور أخرى كثيرة .

---

(١) عن ابن عباس : إنها أرض الأمم الكافرة ، ترثها أمة محمد ﷺ بالفتوح [تفسير القرطبى ٦ / ٤٥٣٠] .

إذن : لا تَقِسْ مستوى التحضُّر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ فى حُسْبانك كُلَّ النواحى الأخرى ، فمَنْ أتقن النواحى المادية الدنيوية أخذها وترف بها فى الدنيا ، أمّا الصلاح الدينى والخُلقى والقِيَمى فهو سبيل لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهكذا تشمل الآية : ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء] الصلاح المادى الدنيوى ، والصلاح المعنوى الأخروى ، فإنْ أخذتَ الصلاح مُطلقاً بلا إيمان ، فإنك ستجد ثمرته إلى حين ، ثم ينقلب عليك ، فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة ؟

إن كُلَّ هذه الحضارات مع ما وصلتْ إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدوام ، فزالتْ وبادتْ .

يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر]

إنها حضارات راقية دُفِنَتْ تحت أطباق التراب ، لا نعرف حتى أماكنها . أمّا إنْ أخذت الصلاح المعنوى ، الصلاح المنهجى من الله عز وجل فسوف تحوز به الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظِّمها : افعل كذا ولا تفعل كذا . وهذا لا يقوم به البشر أمّا ربُّ البشر فهو الذى يعلم ما يُصلحهم ويُشرِّع لهم ما يُسعدهم .

إن منهج الله وحده هو الذى يأمرنا وينهانا ، ويخبرنا بالحلال والحرام ، وعلينا نحن التنفيذ ، وعلى الحكام وأولياء الأمر الممسكين بميزان العدل أنْ يراقبوا مسألة التنفيذ هذه ، فيُولُّوا مَنْ يصلُح للمهمة ، ويقوم بها على أكمل وجه ، وإلا فسد حال المجتمع ، الحاكم

يُشرف ويُراقب ، يُشجِّع العامل ويُعاقب الخامل ، ويضع الرجل المناسب فى مكانه المناسب .

فعناصر الصلاح فى المجتمع : علماء يُخططون ، وحكام يُنفِّذون ، ويديرون الأمور ، وكلمة حاكم مأخوذة من الحكَمة (بالفتح) وهى : اللجام الذى يكبح الفرَس ويُوجِّهها .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « مَنْ ولَّى أحداً على جماعة ، وفى الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة »[(١)] .

لماذا ؟ لأن ذلك يُشيع الفساد فى الأرض ، ويُثبِّط العزائم العالية والهمم القوية حين ترى مَنْ هو أقلّ منك كفاءة يتولّى الأمر ، وتُستبعد أنت . أما حين تعتدل كِفّة الميزان فسوف يجتهد كُلٌّ مِنّا ليصل إلى مكانه المناسب .

إذن : مهمة الحكام وولاة الأمر ترقية المجتمع ، فلا نقول لحاكم مثلاً يُعِدُّ لنا طعاماً ، أو يصنع لنا آلة ، فليستْ هذه مهمته ، ولقد رأينا أحد الأمراء وكان له أرض يزرعها ، يتولاها أحد الموظفين يقولون له (الخُولى) ومهمة الخولى الإشراف والمراقبة .

وفى يوم جاء الأمير ليباشر أرضه ويتفقد أحوالها فى صُحْبة الخولى ، وفى أثناء جولتهما بالأرض رأى الخولى قناةً ينسابُ منها الماء حتى أغرق الزرع فنزل وسَدَّ القناة بنفسه .

وعندها غضب الأمير وفصله من عمله ؛ لأنه عمل بيده فى حين أن مهمته الإشراف ولديه من العمال مَنْ يقوم بمثل هذا العمل .

---

(١) عن أبى بكر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » أخرجه أحمد فى مسنده (١/٦) .

لكن ، لماذا هذه النظرة في إدارة الأعمال ؟ قالوا : لأنك إنْ عملتَ بيدك فأنت واحد ، لكن إنْ أشرفتَ فيمكن أنْ تُشرف على آلاف من العمال . ومن هنا جاءت مسألة التخصُّص في الأعمال .

وعلى الحاكم وولىِّ الأمر أنْ يحافظ على منهج الله ، ويتابع تطبيق الناس له ، فيقف أمام أى فساد ، ويأخذ على يد صاحبه ، ويثيب المجتهد العامل ، كما جاء فى قوله تعالى فى قصة ذى القرنين :

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف]

ذلك ، لأن الله تعالى يزَعُ بالسلطان مَا لا يزع بالقرآن ، ولو تركنا أهل الفساد والمنحرفين لجزاء القيامة لفسد المجتمع ، لا بُدَّ من قوة تصون صلاح المجتمع ، وتضرب على أيدى المفسدين ، لا بُدَّ من قوة تمنع مَنْ يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامى .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنفال] لا بُدَّ أن يعلم العدو أن لديك الرادعَ الذى يَردعه إنِ اعتدى عليك أو حاول إفساد صلاح المجتمع .

لذلك ، فالنبى ﷺ يقول فى الحديث[1] إن السهم الذى يُرمى فى سبيل الله ، لكل مَنْ شارك فى إعداده ورميه جزء من الثواب ، فالذى قطعه من الشجرة والذى براه ، والذى وضعه فى القوس ورمى به ؛ لأن فى ذلك صيانةً للحق وصيانة للصلاح حتى يدوم ، ولا يفسده أحد .

---

(١) عن عقبة بن عامر قال قال ﷺ : « إن الله عز وجل يُدخل الثلاثة بالسهم الواحد الجنة : صانعه يحتسب فى صنعه الخير ، والممد به ، والرامى به » أخرجه الدارمى فى سننه (٢/٢٠٤) والترمذى فى سننه (١٦٣٧) ، وابن ماجه فى سننه (٢٨١١) .

والمسئولية هنا لا تقتصر على الحكام وولاة الأمر ، إنما هى مسئولية كل فرد فيمن ولى أمراً من أمور المسلمين ، كما جاء فى الحديث : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بَعْلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته »(١) .

وعلى العامل ألاّ ينظرَ إلى مراقبة صاحب العمل ، وليكُنْ هو رقيباً على نفسه ، والله عز وجل يراقب الجميع ، وقد جاء فى الحديث القدسى « إن كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم فالخَلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّى أراكم فلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ » .

والمتأمل فى حركة الحياة يجدها متداخلة ، فمثلاً لو أردتَ بناء بيت ، فالهندسة حركة ، والبناء حركة ، والكهرباء حركة ، والنجارة حركة ، وهكذا .. ، فلو قلنا : إن هذا العمل يتكون من مائة حركة مثلاً ، فإنك لا تملك منها إلا حركة واحدة هى عملك الذى تتقنه ، والباقى حركات لغيرك ، فإنْ أخلصتَ فيما للناس عندك ألهمهم الله أنْ يخلصوا لك ولو عن غير قصد ، فأنت أخلصتَ وأتقنتَ حركة واحدة ، وأخلص الناس لك فى تسع وتسعين حركة .

واعلم أن الخواطر والأفكار بيد الله سبحانه ، فإنْ راقبتَ الله فيما للناس عندك راقبهم الله لك فيما لك عندهم ، وكفاك مُؤْنة المراقبة ، فقد يصنع لك الصانع شيئاً ، ويريد أنْ يغشَّك فيه فيحول الله بينه وبين

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، وأحمد فى مسنده (٢/٥٤ ، ١١١) ، والبخارى فى صحيحه (٢٤٠٩) .

هذا ؛ ربما يجلس معه أحد معارفه فيستحى أن يغش أمامه ، أو لا يجد الشىء الذى يغشك به ، أو غير ذلك من الأسباب التى يُسخِّرها الله لك ، فيتقن لك الصانع صَنْعته ، ولو رَغْماً عن إرادته .

إذن : إن أردتَ صلاحَ أمرك فأصلح أمور الآخرين .

ومن الأساسيات التى نُصلح بها ونرث الأرض أن ننظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس فينا مَنْ هو ابن لله عز وجل ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣) ﴾ [الحجرات]

والإسلام لا يعرف الطبقية إلا فى إتقان العمل ، فقيمة كل امرىء ما يُحسنه ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ، وما نزال نذكره مع أنه لرجل غير مسلم ، إنه رجل فرنسى كان نقيباً للعمال ، وكان يدافع عن حقوقهم ، ويطلب لهم زيادة الدَّخْل من ميزانية الوزارة ، فلما تولى منصب الوزارة وتولى المسئولية عدلَ عمَّا كان يطالب به ، فضجَّ العمال ، وأراد أحدهم أنْ يغيظه فقال له : اذكر يا معالى الوزير أنك كنت فى يوم من الأيام ماسح أحذية ، فما كان من الرجل إلا أن قال : نعم .. لكنى كنت أجيدها .

وسبق أن ذكرنا أن الله تعالى وزَّعَ المواهب والقدرات بين خَلْقه ، فساعة ترى نفسك مُميزاً على غيرك فى شىء فلا تغتر به ، وابحثْ فيما مُيِّز به عنك غيرُك ؛ لأننا جميعاً عند الله سواء ، لا يحابى منا أحداً على أحد ، فأنت مُميز بعلمك أو قوتك ، وغيرك أيضاً مُميز فى سعادته مع أهله أو فى أمانته وثقة الناس به ، أو فى رضاه بما قسم له أو فى مقدرته على نفسه ورضاه بالقليل ، وقد يُميَّز الواحد مِنَّا بالولد الصالح الذى يكون مِطْواعاً لأبيه ، وقُرة عَيْن له .

إذن : هذه مسألة مُقدّرة محسوبة ؛ لأن ربك سبحانه قيُّوم عليك ، لا تخفى عليه منك خافية ، وحين يُميّز بعضنا على بعض إنما ليدكّ فينا الغرور والكبرياء ، وينزع من قلوبنا الحقْد والغلَّ ، وهكذا يتوازن المجتمع، ولا يكون التميز مثار حقدٍ ؛ لأنَ تميزَ غيرك لصالحك ، وسيعود عليك .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُحدِّثنا عن يوم القيامة ، وكيف أن الشمس ستدنو من الرؤوس ، ويشتدّ بالناس الكرب ، إلا هؤلاء الذين يُظلُّهم الله فى ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله ، ذلك لأنهم كانوا مظلة أمان فى الدنيا ، فأظلهم الله فى الآخرة .

كما جاء فى الحديث الشريف : « سبعة يُظلهم الله فى ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلَّقَ فى المَساجد ، ورجلان تحابًّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[1] .

نعم ، لقد صنع هؤلاء بسلوكهم القويم مظلَّة أمانٍ فى الكون ، فاستحقوا مظلَّة الله فى الآخرة . وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويَرْقَى إلى القمة ، هذا المجتمع الذى نريده هو مجتمع غنيّه متواضع ، وفقيره كريم شريف ، وشابُّه طائع .

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثة وحُبِّى لثلاثة أشدُّ ـ فهؤلاء ستة نقسمهم إلى قسمين ـ أحب الفقير

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

المتواضع ، وحُبِّى للغنى المتواضع أشد ـ لأن عنده أسبابَ الكبر ومع ذلك يتواضع ـ وأحب الغنيَّ الكريم وحُبِّى للفقير الكريم أشدّ ، وأحب الشيخ الطائع وحبى للشاب الطائع أشدُّ » .

« وأكره ثلاثة وكُرْهى لثلاثة أشد : أكره الغنى المتكبر ، وكُرْهى للفقير المتكبر أشدّ ، وأكره الفقير البخيل ، وكُرْهى للغنى البخيل أشد ، وأكره الشاب العاصى وكرهى للشيخ العاصى أشد » .

هؤلاء اثنا عشر نوعاً : ستة فى المحبوبية ، وستة فى المكروهية ، وكلما التزمنا بتطبيق هذا المنهج وجدنا مجتمعاً راقياً من الدرجة الأولى .

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

البلاغ : الشىء المهم الذى يجب أن يعلمه الناس ؛ لذلك حين ينشغل الناس بالحرب ، وينتظرون أخبارها تأتيهم على صورة بلاغات ، يقولون : بلاغ رقم واحد ، لأنه أمر مهم .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبلاغًا .. ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء] أى : أن ما جاء به القرآن هو البلاغ الحق ، والبلاغ الأعلى الذى لم يترك لكم عذراً ، ولا لغفلتكم مجالاً ، ولا لمستدرك أنْ يستدرك عليه فى شىء . فهو مُنْتهى ما يمكن أنْ أخبركم به .

وهو بلاغ لمن ؟ ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء] أى : يتلقفون مُرادَ الله لينفذوه ، سواء أكان أمراً أمْ نَهياً .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

وما دام ﷺ خاتَم الرسل ، وبعثتُه للناس كافة ، وللزمن كله إلى أنْ تقوم الساعة . وقد جاء الرسل السابقون عليه لفترة زمنية

محددة ، ولقوم بعينهم ، أما رسالة محمد ﷺ فجاءتْ رحمةً للعالمين جميعاً ؛ لذلك لا بُدَّ لها أنْ تتسعَ لكل أقضية الحياة التى تعاصرها أنت ، والتى يعاصرها خَلَفُك ، وإلى يوم القيامة .

ومعنى : العالمين ، كُلُّ ما سوى الله عز وجل : عالم الملائكة ، وعالِم الجن ، وعالم الإنس ، وعالم الجماد ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات . لكن كيف تكون رسالة محمد ﷺ رحمةً لهم جميعاً ؟

قالوا : نعم ، رحمة للملائكة ، فجبريل ـ عليه السلام ـ كان يخشى العاقبة حتى نزل على محمد قوله تعالى : ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)﴾ [التكوير] فاطمأن جبريل عليه السلام وأَمِن .

ورسول الله ﷺ رحمة للجماد ؛ لأنه أمرنا بإماطة الأذى عن الطريق . وهو رحمة بالحيوان . وفى الحديث الشريف : « ما من مسلم يزرع زَرْعاً ، أو يغرس غَرْساً فيأكلَ منه طيْرٌ أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة »[1] .

وحديث المرأة التى دخلتْ النار فى هرَّة حبستْها ، فلا هى أطعمتْها وسقتْها ، ولا هى تركتها تأكل من خَشَاش الأرض[2] .

وحديث الرجل الذى دخل الجنة ؛ لأنه سقى كلباً كان يلهث يأكل الثرى من شدة العطش ، فنزل الرجل البئر وملأ خُفَّه فسقى الكلب ، فشكر الله له وغفر له ، لأنه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٥٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣/٨) قال ابن حجر فى الفتح (٣٥٧/٦) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فارة ونحوها » .

فاحتال للأمر ، واجتهد ليسقى الكلب[(١)] .

وهكذا نالتْ رحمة الإسلام الحيوان والطير والإنسان ، ففى الدين مبدأ ومنهج يُنظِّم كل شىء ولا يترك صغيرة ولا كبيرة فى حياة الناس ؛ لذلك فهو رحمة للعالمين .

فقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] يعنى أن كل ما يجىء به الإسلام داخل فى عناصر الرحمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨)﴾

فالوحدانية هى أول رحمة بنا ، أن نكون كلنا سواء ، ليس لنا إلا إله واحد ، هذه من أعظم رحمات الله أن نعبده وحده لا شريكَ له ، فعبادته تُغنينا عن عبادة غيره ، ولو كانت آلهةٌ متعددة لأصابتنا الحيرة بين إله يأمر ، وإله ينهى .

لذلك ؛ فالحق - سبحانه وتعالى - يطلب منا أنْ نعتزّ وأنْ نفخَر بهذه الوحدانية ، وبهذه الألوهية ، وفى هذا يقول الشاعر الإسلامى محمد إقبال :

والسُّجود الذى تَجْتويه   منْ أُلوفِ السُّجود فيه نَجَاةُ

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

فسجودك لله وتعفير وجهك له سبحانه يحميك من السجود لغيره ، ولولا سجودك لله لَسجدت لكل مَنْ هو أقوى منك ، فعليك - إذن - أن تعتز بعبوديتك لله ؛ لأنها تحميك من العبودية لغيرك من البشر ، وحتى لا يقول لك شخص أنت عبد ، نعم أنا عبد لكن لستُ عبداً لك ، فعبد غيرك حُرٌّ مثلك .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً في هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر]

فهل يستوى عبد لعدة أسياد يتجاذبونه فى وقت واحد ، وهم مع ذلك مختلفون بعضهم مع بعض ، وعبد سَلَماً لسيد واحد ؟

وهكذا ، نحن جميعاً عبيد لله - عز وجل - حين نخضع لا نخضع إلا له سبحانه ، فلا أخضع لك ولا تخضع أنت لى ؛ لذلك يقولون « اللى الشرع يقطع صباعه ميخرش دم » لأنه أمر من أعلى ، من السماء ، لا دَخْلَ لأحد فيه .

لذلك ؛ فالعبودية تُكره حين تكون عبوديةً للبشر ، لأن عبودية البشر للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

والشاعر[(١)] يقول :

حَسْبُ نفسى عزّاً بأنِّى عَبْدٌ ... يحتفى بى بلاَ مواعيدَ رَبٌّ

هُوَ فى قُدْسه الأعزِّ ولكنْ ... أنا أَلْقَى متى وأيْنَ أُحِبٌّ

ولك أنْ تقارن بين مقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، ومقابلة ربك عزّ وجل . فإنْ أردتَ الدخولَ على أحد هؤلاء لا بُدَّ أن تطلب المقابلة ،

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

ويا ترى تقبل أم ترفض ، وإنْ قبلت فلا تملك من عناصرها شيئاً ، فالزمان ، والمكان ، وموضوع الكلام . كلها أمور يحددها غيرك .

أما إن أردتَ مقابلة ربك ـ عز وجل ـ فما عليك إلا أنْ تتوضأ وترفع يديك قائلاً : الله أكبر بعدها ستكون فى معية الله ، وقد اخترتَ أنت الزمان ، والمكان ، وموضوع الحديث ، وإنهاء اللقاء .

ألاَ ترى كيف امتنَّ الله تعالى على رسوله فى رحلة « الإسراء والمعراج » بأنْ وصفه بالعبودية له سبحانه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] إذن : جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (١٠٨) ﴾ [الأنبياء] بعد قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء] ليدلنا : أن دعوة الله لنا إلى عبادة إله واحد ترحمنا من عبوديتنا بعضنا لبعض .

ثم يُرغِّبنا الحق سبحانه فى هذه العبودية ، فيقول : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) ﴾ [الأنبياء] كما تحث ولدك المتكاسل أن يكون مثلَ زميله الذى تفوَّق ، وأخذ المركز الأول ، فتقول له : ألاَ تذاكر وتجتهد حتى تكون مثله ؟

وهكذا فى ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) ﴾ [الأنبياء] أى : مسلمون لله ؛ لأن مصلحتكم فى الإسلام وعزّكم فى عبوديتكم لله .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ[1] عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) ﴾

(١) آذنه الأمر ، وآذنه به : أعلمه ، وآذنتك بالشىء : أعلمتُكه . [لسان العرب ـ مادة : أذن] .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] يعنى : أعرضوا وانصرفوا ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] مادة : أذن ومنها الأذان تعنى الإعلام بالشيء ، والأصل فى الإعلام كان فى الأُذُن بالكلام ، حيث لم يكُنْ عندهم قراءة وكتابة ، فاعتمد الإعلام على الكلام والسماع بالأذن ، فمعنى : ﴿آذَنتُكُمْ .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] أعلمتُكم وأخبرتُكم .

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] يعنى : جاء الإعلام لكم جميعاً لم أخصّ أحداً دون الآخر ، فأنتم فى الإعلام سواء ، لا يتميز منكم أحد على أحد ؛ لذلك كان النبى ﷺ يحرص على إبلاغ الجميع ، فيقول :

« نضَّر الله امْرأً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع »[1] وهكذا يشيع الخيْر ويتداول بين الجميع .

﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] فلم أُعْلِم قوماً دون قوم ، ولم أُسْمِع أذناً دون أُذن ، وجعلت من كمال الإيمان أن يخبر السامع مَنْ لم يسمع ؛ لأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ثم يُنبِّههم إلى أمر الساعة : ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩)﴾ [الأنبياء] فانتبهوا وخُذوا بالكم ، واحتاطوا ، فلا أدرى لعلَّ الساعةَ تكون قريباً ، ولعلها تفاجئكم قبل أنْ أُنهى كلامى معكم .

لذلك ؛ لما سألوا أحد الصالحين : فِيمَ أفنيتَ عمرك ؟ قال :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

« أفنيتُ عمرى فى أربعة أشياء : علمت أنى لا أخلو من نظر الله طَرْفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لى رزْقاً لا يتجاوزنى قد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ دَيْناً لا يؤديه عنى غيرى فاشتَغلتُ به ، وعلمتُ أن لى أَجَلاً يبادرنى فبادرتُه » .

إذن : فالمراد : استعدوا لهذه المسألة قبل أن تفاجئكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

وما دام ربك - عز وجل - يعلم الجهر ويعلم السرَّ وأخْفى ، فإياك أنْ تنافق ؛ لأننا ننهاك عن النفاق مع البشر ، فمن باب أَوْلَى أن ننهاك عن نفاق ربك سبحانه الذى يعلم سرَّك كما يعلم علانيتك ، وقصارى أمر البشر أنْ يُراقبوا علانيتك . لَذلك ، فإن كل احتياطات أهل الإجرام التخفِّى عن أعين الدولة ، والهرب من مراقبة الشرطة ، لكن كيف التخفى عن نظر الله وعلمه ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنبياء] يُعلّمنا الأدب حتى فيما نكتم ، فالأدب فى الجهر من باب أَوْلَى ، ونحن مؤمنون بأن الله سبحانه غَيْب غير مشهد ، وهَبْ أنك فى بيتك تعلم كل شىء فيه ؛ لأنه مشهد لك ، أمّا ما كان خارج البيت فهو غَيْب عنك لا تعلمه ، أمّا الحق سبحانه فهو غَيْب يعلم كل مَشْهد وكل غيب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾

أى : لعل الإمهال وبقاءكم دون عذاب وتباطؤ الساعة عنكم فتنةٌ واختبار ، يا ترى أتُوفَّقون وتفوزون فى هذا الاختبار ، كما قال سبحانه فى موضع آخر :

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

وقال تعالى : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) ﴾ [الأنبياء] أى : لن يدوم هذا النعيم وهذا المتاع ؛ لأن له مدة موقوتة .

ثم يقول الحق سبحانه فى ختام سورة الأنبياء :

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ(١) وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] كما دعا بذلك الرسل السابقون : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ(٢) بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف]

---

(١) قال قتادة : كانت الأنبياء تقول ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. (٨٩) ﴾ [الأعراف] فأمر النبى ﷺ أن يقول : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] فكان إذا لقى العدو يقول ـ وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل ـ ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] أى : اقض به . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٥٣٢/٦) والسيوطى فى الدر المنثور (٦٨٩/٥) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) أى : انصرنا عليهم ، ويجوز أن يكون المعنى : ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التفاهم والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عنادهم . [القاموس القويم ٧٠/٢] .

وهل يحكم الله سبحـانه إلا بالحق ؟ قالوا[1] : الحق سبحانه يُبيِّن لنا ؛ لأننا عشْنا فى الدنيـا ورأينا كثيراً من البـاطل ، فكأننا لأول مرة نسمع الحكمَ بالحق .

ثم يقـول سبحـانه : ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَـٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : المستـعان على ما تُجرمون فيـه من نسبتنا إلى الجنون ، أو إلى السحر .. الخ .

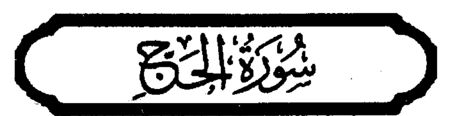
وتلاحظ أن الحق سبحانه فى آيات سورة الأنبياء تكلم عن طَيِّ السماء كطيِّ السجل للكتب ، ثم قال ﴿ لعلَّه فتنَةٌ لَّكُمْ .. ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنبياء] ﴿ ومَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنبياء] ، ثم قال : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء]

هذا كله ليُقرِّب لنا مسـألة السـاعـة وقيامـها ، ويُعِدُّنا لاسـتقـبال « سورة الحج » .

---

(١) قاله ابن عباس فيما أخـرجه عنه ابن جرير الطبرى وابن المنذر ، أورده السيوطى فى الدر المنثـور (٥/٦٨٩) قال : لا يحكم الله إلا بـالحق ، ولكن إنما يسـتـعجل بذلك فى الدنيـا يسأل ربه على قومه .




سُورَةُ الحَجِّ

سورة الحج(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ ﴾

الخطاب هنا عام للناس جميعاً ، وعادةً ما يأتى الخطاب الذى يطلب الإيمان عاماً لكل الناس ، إنما ساعة يطلب تنفيذ حكم شرعى يقول : يا أيها الذين آمنوا .

لذلك يقول هنا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ۝١ ﴾ [الحج] يريد أنْ يلفتهم إلى قوة الإيمان . وكلمة ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ۝١ ﴾ [الحج] التقوى : أنْ تجعل بينك وبين ما أحدِّثك عنه وقاية ، أى : شيئاً يقيك العذاب الذى لا طاقةَ لك به .

---

(١) سورة الحج هى السورة رقم (٢٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٧٨ آية ، وهى سورة مختلطة فيها آيات مدنية ، وآيات مكية ، وهو قول جمهور العلماء . قاله ابن الغرس فى أحكام القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن ١/٣٢) ورجحه القرطبى أيضاً فى تفسيره (٦/٤٥٣٣) وقال : « وهذا هو الأصح » .
قال الغزنوى : « هى من أعاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهاراً ، وسفراً وحضراً ، مكياً ومدنياً ، سلمياً وحربياً ، ناسخاً ومنسوخاً ، محكماً ومتشابهاً ، مختلف العدد » . نقله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٣٣) .

ونلحظ أن الله تعالى يقول مرة : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. ١٩٤ ﴾ [البقرة] ومرة يقول : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. ٢٤ ﴾ [البقرة] نعم ، لأن المعنى ينتهى إلى شىء واحد . معنى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. ٢٤ ﴾ [البقرة] أى : اجعل بينك وبينها وقاية تحميك منها ، ويكون هذا بفعْل الأمر وترْك النهى .

وقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. ١٩٤ ﴾ [البقرة] لأن لله تعالى صفات جمال ، وصفات جلال ، صفات الجمال كالرحمن ، والرحيم ، والباسط والستار ، وصفات الجلال كالقهار والجبار وغيرها مما نخاف منه .

فاجعل بينك وبين صفات الجلال وقايةً ، فليستْ بك طاقة لقاهريته ، وبطشه سبحانه ، والنار من جنود الله ، ومن مظاهر قَهْره . فكما نقول : اتقِّ الله نقول : اتقِّ النار .

واختار فى هذا الأمر صفة الربوبية ، فقال : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ١ ﴾ [الحج] ولم يقُلْ : اتقوا الله ؛ لأن الرب هو المتولِّى للرعاية وللتربية ، فالذى يُحذّرك هو الذى يُحبك ويُعطيك ، وهو الذى خلقك وربَّاك ورعاك .

فالربوبية عطاء : إيجاد من عَدم وإمداد من عُدم ، فأوْلَى بك أن تتقيه ، لأنه قدَّم لك الجميل .

أما صفة الألوهية فتعنى التكاليف والعبادة بافْعل ولا تفعل ، الله معبود ومُطَاع فيما أمر وفيما نَهَى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١ ﴾ [الحج] الزلزلة : هى الحركة العنيفة الشديدة التى تُخرِج الأشياء عن ثباتها ، كما لو أردتَ أنْ تخلعَ وتداً من الأرض ، فعليك أولاً أنْ تهزّه وتخلخله من مكانه ، حتى تجعل له مجالاً فى الأرض يخرج منه ،

إنما لو حاولت جذْبه بدايةً فسوف تجد مجهوداً ومشقة فى خَلْعه ، وكذلك يفعل الطبيب فى خلع الضِّرس .

فمعنى الزلزلة : الحركة الشديدة التى تزيل الأشياء عن أماكنها ، والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحركة كثيراً فقال : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ[1] الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا (٦) ﴾ [الواقعة]

ويقول : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذى نراه من هزّات أرضية تهدم بعض البيوت ، أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد آيات كونية تثبت صدْق البلاغ عن الله ، وتنبهك إلى الزلزال الكبير فى الآخرة ، إنه صورة مصغرة لما سيحدث فى الآخرة ، حتى لا نغتر بسيادتنا فى الدنيا فإن السيادة هبة لنا من الله .

وعندما حدث زلزال « أغادير » لاحظوا أن الحيوانات ثارتْ وهاجتْ قبل الزلزال بدقائق ، ومنها ما خرج إلى الخلاء ، فأىُّ إعلام هذا ؟ وأىُّ استشعار لديها وهى بهائم فى نظرنا لا تفهم ولا تعى ؟

إن فى ذلك إشارة للإنسان الذى يعتبر نفسه سيد هذا الكون : تنبّه ، فلولا أن الله سَيَّدَك لوكزتْكَ هذه البهائم فقضت عليك .

نقول : ليس هذا زلزالاً عاماً ، إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحى من الله ، وبأمر منه سبحانه أن تتزلزل .

---

(١) بسّه : فتَّه وجعله أجزاء دقيقة . أى : فُتِّتَتْ تفتيتاً شديداً . [القاموس القويم ١/٦٦] .

لذلك وُصف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①﴾ [الحج] فحين تقول أنت أيها الإنسان : هذا شيء عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلكَ أن تتصوَّر فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

لقد افتُتحَتْ هذه السورة بزلزلة القيامة ؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. ⑨⑦﴾ [الأنبياء] فلا بُدَّ أنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد ، ونُبْذة عما سيحدث فيه ، وصورة مُصغَّرة تدل على قدرته تعالى على زلزال الآخرة ، وأن الأرض ليس لها قوام بذاتها ، إنما قوامها بأمر الله وقدرته ، فإذا أراد لها أنْ تزول زالتْ .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ②﴾ [الزلزلة]

فَمَا نراه من البراكين ومن الثروات في باطن الأرض وعجائب يقع تحت هذه الآية ؛ لذلك قال تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ⑥﴾ [طه]

وما دام الحق سبحانه يمتنُّ بملكية ما تحت الثَّرى فلا بُدَّ أن تحت الثرى ثروات وأشياءَ نفيسة ، ونحن الآن نُخرِج معظم الثروات من باطن الأرض ، ومعظم الأمم الغنية تعتمد على الثروات المدفونة من بترول ومعادن ومناجم وذهب .. إلخ .

وسبق أن ذكرنا أن الحق - سبحانه وتعالى - بعثَر الخيرات في كونه ، وجعل لكل منها وقته المناسب ، فالرزق له ميلاد يظهر فيه : ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ②①﴾ [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ[1] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾

والرؤية : قلنا قد تكون رؤية علمية أو رؤية بصرية ، والشيء الذى نعلمه إما : علمَ اليقين ، وإما عين اليقين ، وإما حقيقة اليقين . علم اليقين : أنْ يخبر مَنْ تثق به بشيء ، كما تواترت الأخبار عن الرحالة بوجود قارة أسموها فيما بعد أمريكا ، وبها كذا وكذا ، فهذا نسميه « علم يقين » ، فإذا ركبت الطائرة إلى أمريكا فرأيتها وشاهدت ما بها فهذا « عين اليقين » فإذا نزلتَ بها وتجولتَ بين شوارعها ومبانيها فهذا نسميه « حقيقة اليقين » .

لذلك ؛ حين يخبر الله تعالى الكافرين بأن هناك عذاباً فى النار فهذا الإخبار صادق من الله فعلْمنا به « علم يقين » ، فإذا رأيناها فهذا « عين اليقين » كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ﴾ [التكاثر]

فإذا ما باشرها أهلها ، وذاقوا حرّها ولظاها ـ وهذا مقصور على أهل النار ـ فقد علموها حَقَّ اليقين ، لذلك يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣

---

(١) أى : تشتغل . قاله قطرب . وقيل : تنسى ، وقيل : تلهو ، وقيل : تسلو والمعنى متقارب . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٣٦] .

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة]

ومعنى : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الحج] الذهول : هو انصراف جارحة عن مهمتها الحقيقية لهولٍ رأتْه فتنشغل بما رأته عن تأديةِ وظيفتها ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً ، فيسقط ما بيده مثلاً ، فالذهول ـ إذن ـ سلوك لا إرادى قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة ، أو عن شيء تفرضه الغريزة .

العاطفة كالأم التى تذهَلُ عن ولدها ، وعاطفة الأمومة تتناسب مع حاجة الولد ، ففى مرحلة الحمل مثلاً تجد الأم تحتاط فى مشيتها ، وفى حركاتها ، خوفاً على الجنين فى بطنها ، وهذه العاطفة من الله جعلها فى قلب الأم للحفاظ على الوليد ، وإلاَّ تعرض لما يؤذيه أو يُودِى بحياته .

لذلك ، لما سألوا المرأة العربية عن أحب أبنائها ، قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يُشْفَى ، فحسب الحاجة يعطى الله العاطفة ، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قوية ، وهى كذلك فى مرحلة الرضاعة .

فانظر إلى المرضعة ، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأىُّ هول هذا الذى يشغلها ، ويُعطِّل عندها عاطفة الأمومة والحنان ويُعطِّل حتى الغريزة .

وقد أعطانا القرآن صورة أخرى فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [عبس]

ومن عظمة الأسلوب القرآنى أن يذكر هنا الأخ قبل الأب والأم ، قالوا : لأن الوالدين قد يُوجدان فى وقت لا يرى أنهما فى حاجة إليه ، ولا هو فى حاجة إليهما لأنه كبر ، أمَّا الأخ ففيه طمع المعونة والمساعدة .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ .. (٢)﴾ [الحج]

والمرضعة تأتى بفتح الضاد وكَسْرها : مُرضَعَة بالفتح هى التى من شأنها أن ترضع وصالحة لهذه العملية ، أما مُرضِعة بالكسر فهى التى تُرضِع فعلاً ، وتضع الآن ثديها فى فَم ولدها ، فهى مرضِعة . فانظر - إذن - إلى مدى الذهول والانشغال فى مثل هذه الحالة .

وقوله تعالى : ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا .. (٢)﴾ [الحج] بعد أنْ تكلَّم عن المرضع رقَّى المسألة إلى الحامل ، ومعلوم أن الاستمساك بالحمل غريزة قوية لدى الأم حتى فى تكوينها الجسمانى ، فالرحم بمجرد أنْ تصل إليه البويضة المخصبة ينغلق عليها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٥)﴾ [الحج]

فإذا ما جاء وقت الميلاد انفتح له بقدرة الله ، فهذه - إذن - مسألة غريزية فوق قدرة الأم ودون إرادتها . إذن : وَضْعُ هذا الحمل دليل هَوْل كبير وأمر عظيم يحدث .

والحَمْل نوعان : ثقَل تحمله وهو غيرك ، وثقل تحمله فى ذاتك ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١)﴾ [طه] والحِمْل (بكسر الحاء) : هو الشىء الثقيل الذى لا يُطيقه ظهرك ، أمَّا الحَمْل بالفتح فهو : الشىء اليسير تحمله فى نفسك . وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا أَطَاقَ الظَّهْرُ مَا الحِمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

أى : أن الشىء الذى تطيق حَمْله ويَقْوى عليه ظهرك ليس بحمل ، إنما الحمل هو الهمّ الذى يحتويه الصدر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج]

سكارى : أى يتمايلون مضطربين ، مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر ، (وتطوحهم) يميناً وشمالاً ، وتُلقى بهم على الأرض ، وكلما زاد سُكْرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً !!

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة لا من سُكْر ولكن من خوف وهَوْل وفزع ﴿ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج]

لكن ، من أين يأتى اضطراب الحركة هذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى خلق الجوارح ، وخلق فى كل جارحة غريزة الانضباط والتوازن ، وعلماء التشريح يُحدِّدون فى الجسم أعضاء ومناطق معينة مسئولة عن حفْظ التوازن للجسم ، فإذا ما تأثرتْ هذه الغدد والأعضاء يشعر الإنسانَ بالدُّوار ، ويفقد توازنه ، كأنْ تنظر من مكان مرتفع ، أو تسافر فى البحر مثلاً .

فهذا الاضطراب لا من سُكْر ، ولكن من هَوْل ما يرونه ، فيُحدث لديهم تغييراً فى الغُدد والخلايا المسئولة عن التوازن ، فيتمايلون ، كمن اغتالتْه الخمر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج] إنهم لم يَرَوْا العذاب بَعْد ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم ؛

لأن الذى يَصْدُق فى أن القيامة تقوم بهذه الصورة يَصْدُق فى أن بعدها عذاباً فى جهنم ، إذن : انتهت المسألة وما كنا نكذب به ، ها هو ماثل أمام أعيننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾[1]

الجدل : هو المحاورة بين اثنين ، يريد كل منهما أنْ يؤيد رأيه ويدحضَ رأىَ الآخر ، ومنه : جَدْل الخوص أو الحبل أى : فَتْله واحدة على الأخرى .

ولو تأملتَ عملية غَزْل الصوف أو القطن لوجدته عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات ، ومع ذلك يصنعون منه حَبْلاً طويلاً ، لأنهم يداخلون هذه الشعيرات بعضها فى بعض ، بحيث يكون طرف الشعرة فى منتصف الأخرى ، وهكذا يتم فَتْله وغَزْله ، فإذا أردتَ تقوية هذه الفَتْلة تجدلُها مع فتلة أخرى ، وهكذا يكون الجدل فى الأفكار ، فكل صاحب فكرة يحاول أنْ يُقوِّى رأيه وحجته ؛ ليدحض حجة الآخرين .

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحج] فكيف يكون الجدل فى الله تعالى ؟

يكون الجدل فى الله وجوداً ، كالملحد الذى لا يعترف بوجود إله ،

---

(١) قال أبو مالك فيما أخرجه ابن أبى حاتم : نزلت فى النضر بن الحارث [الدر المنثور للسيوطى ٦/٨] . قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٣٧) : « قال أى : النضر بن الحارث : إن الله غير قادر على إحياء من قد بلى وعاد تراباً » .

أو يكون الجدل فى الوحدانية ، كمن يشرك بالله إلهاً آخر ، أو يكون الجدل فى إعلام الله بشىء غيبى ، كأمر الساعة الذى ينكره البعض ولا يُصدِّقون به ، هذا كله جدل فى الله .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ③ ﴾ [الحج] إذن : فالجدل فى ذاته مُبَاح مشروع ، شريطة أن يصدر عن علم وفقه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.. ١٢٥ ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه لا يمنع الجدل ، لكن يريده بالطريقة الحسنة والأسلوب اللين ، وكما يقولون : النصح ثقيل ، فلا تجعله جَدَلاً ، ولا ترسله جبلاً ، ولا تُخرج الإنسان مما يألف بما يكره ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.. ١٢٥ ﴾[النحل]

وقال سبحانه : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ٤٦ ﴾ [العنكبوت]

لذلك ؛ فالقرآن الكريم يعلم الرسول ﷺ لَوْناً من الجدل فى قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٢٥ ﴾ [سبأ]

فانظر إلى هذا الجدَل الراقى والأسلوب العالى : ففى خطابهم يقول : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. ٢٥ ﴾ [سبأ] وينسب الإجرام إلى نفسه ، وحين يتكلم عن نفسه يقول : ﴿ وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٢٥ ﴾ [سبأ] ولم يقُلْ هنا : تجرمون لتكون مقابلة بين الحالين . وفى هذا الأسلوب ما فيه من جذب القلوب وتحنينها لتقبُّل الحق .

ولما اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون ردَّ عليهم القرآن بالعقل وبالمنطق ، فسألهم : ما الجنون ؟ الجنون أنْ تصدر الأفعال الحركية عن غير بدائل اختيارية من المخ ، فهل جرَّبْتُم على محمد شيئاً من

هذا ؟ وما هو الخُلق ؟ الخُلق : استقامة المنهج والسلوك على طريق الكمال والخير ، فهل رأيتُم على محمد خلاف هذا ؟

لذلك يقول تعالى فى الرد عليهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا[1] مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ]

وكيف يكون صاحب هذا الخلُق القويم والسلوك المنضبط فى الخير مجنوناً ؟

ولما قالوا : كذاب ، جادلهم القرآن : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

لقد أتتْه الرسالة بعد الأربعين ، فهل سمعتم عنه خطيباً أو شاعراً ؟ فهل قال خطبة أو قصيدة تحتفظون بها كما تحتفظون بقصائد شعرائكم ؟

وقالوا : إنها عبقرية كانت عند محمد ، فأىُّ عبقرية هذه التى تتفجَّر بعد الأربعين ، ولو تأملْتَ العبقريات لوجدتها فى العقد الثانى أو الثالث من عمر صاحبها ، فكيف يُؤجِّل محمد عبقريته إلى الأربعين ، ومَنْ يضمن له الحياة وهو يرى الناس يتساقطون من حوله : أبوه مات قبل أنْ يُولد ، وأمه ماتت وهو رضيع ، وجدُّه مات وهو ما يزال صغيراً .

وهكذا ، يعطينا القرآن مثالاً للجدل بالحكمة والموعظة الحسنة ، للجدل الصادر عن علْم بما تقول ، وإدراك لحقائق الأمور .

---

(١) أى : تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضاً ، فينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر فى ذلك . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٥٤٣] .

لذلك ؛ لما ذهب الشَّعْبى[1] لملك الروم قال له الملك : عندكم فى الإسلام أمور لا يُصدِّقها العقل ، فقال الشَّعْبىّ : ما الذى فى الإسلام يخالف العقل ؟ قال : تقولون إن فى الجنة طعاماً لا ينفد أبداً ، ونحن نعلم أن كل ما أُخذ منه مرة بعد مرة لابُدَّ أنْ ينفد . انظر إلى الجدل فى هذه المسألة كيف يكون .

قال الشَّعْبى : أرأيتَ لو أن عندك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها فقبستْ من ضوئه ، أينقص من ضوء المصباح شىء ؟ هذا - إذن - جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى .

ويستمر ملك الروم فيقول : كيف نأكل فى الجنة كُلَّ ما نشتهى دون أنْ نتغوّط أو تكون لنا فضلات ؟ نقول : أرأيتم الجنين فى بطن الأم : أينمو أم لا ؟ إنه ينمو يوماً بعد يوم ، وهذا دليل على أنه يتغذَّى ، فهل له فضلات ؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغوَّط فى مشيمته لمات ، إذن : يتغذى الجنين غذاءً علَى قَدْر حاجة نموه ، بحيث لا يتبقى من غذائه شىء .

ثم قال : أين تذهب الأرواح بعد أنْ تفارق الأجساد ؟ أجاب الرجل إجمالاً : تذهب حيث كانت قبل أنْ تحلَّ فيك ، وأمامك المصباح وفيه ضوء ، ثم نفخ المصباح فانطفأ ، فقال له : أين ذهب الضوء ؟

ومن الجدل الذى جاء عن علْم ودراية ما حدث من الإمام على رضى الله عنه ، حيث قتلَ أصحابُ معاوية عمارَ بن ياسر ، فغضب الصحابة فى صفوف معاوية وتذكَّروا قول رسول الله ﷺ عن عمار :

(١) هو : عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى ، أبو عمرو ، راوية من التابعين ، يُضرب المثل بحفظه ، ولد عام ١٩ هـ ، ونشأ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٣ هـ عن ٨٤ عاماً اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم ، كان ضئيلاً نحيفاً ، وهو من رجال الحديث الثقات ، وفقيهاً وشاعراً . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥١] .

« تقتله الفئة الباغية »[1] وأخذوا يتركون جيش معاوية واحداً بعد الآخر ، فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : لقد فشَتْ فى الجيش فاشية ، إنْ هى استمرتْ فلن يبقى معنا رجل واحد ، فقال معاوية : وما هى ؟ قال : يقولون : إننا قتلنا عماراً والنبى ﷺ قال عنه : « تقتله الفئة الباغية » .

فاحتار معاوية ثم قال : قُلْ لهم قتله مَنْ أخرجه للقتال[2] ـ يعنى : على بن أبى طالب ، فلما بلغ الكلامُ سيدنا علياً ، قال : قولوا لهم : فمَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟ أى : إن كان الأمر كما تقولون فالنبى ﷺ هو قاتل حمزة ؛ لأنه هو الذى أخرجه للقتال .

هذا هو الجدل عن علم ، والعلم قد يكون علماً بدهياً وهو العلم الذى تؤمن به ولا تستطيع أن تدلل عليه . أو علماً عقلياً استدلالياً ، وقد يكون العلم بالوحى من الله لا دَخْلَ لأحد فيه ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً للبدهيات بالولد الصغير حينما يرى أخاه يجلس بجوار أبيه على المقعد مثلاً ، فيأتى الصغير يريد أنْ يجلس هو بجوار الأب ، فيحاول أولاً أنْ يقيم أخاه من المكان فيشدُّه ويجذبه ليخلى له المكان .

وهنا نتساءل : كيف عرف الطفل الصغير أن الحيِّز لا يسع اثنين ؟ ولا يمكن أنْ يحلَّ بالمكان شىء إلا إذا خرج ما فيه أولاً ؟

---

(١) عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩١٦) كتاب الفتن ، والبخارى فى صحيحه (٤٤٧) .

(٢) عن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو ابن العاص فقال : قُتل عمار . وقد قال رسول الله ﷺ : تقتله الفئة الباغية ، فقام عمرو بن العاص فزعاً يرجع حتى دخل على معاوية فقال له معاوية : ما شأنك ؟ قال : قتل عمار . فقال معاوية : قد قتل عمار ، فماذا ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية . فقال له معاوية : دحضت فى بولك أو نحن قتلناه إنما قتله على وأصحابه ، جاءوا به حتى القوه بين رماحنا ـ أو قال : بين سيوفنا . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٩٩) .

هذه أمور لم نعلمها إلا فى دراستنا الثانوية ، فعرفنا معنى الحيِّز وعدم تداخل الأشياء ، هذه المسألة يعرفها الطفل بديهة .

ولو تأملتَ النظريات الهندسية لوجدتَ أن كل نظرية تُبنَى على نظرية سابقة ، فلو أردت أنْ تبرهن على النظرية المائة تستخدم النظرية تسعين مثلاً ، وهكذا إلى أنْ تصلَ إلى نظرية بدهية لا برهانَ عليها .

وهكذا تستطيع أن تقول : إن كل شىء علمى فى الكون مبنىٌّ على البدهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، ولا تستطيع أن تضع لها تعريفاً ، فالسماء مثلاً ، يقولون : هى كل ما علاك فأظلَّك ، فالسقف سماء ، والغيم سماء ، والسحاب سماء ، والسماء سماء ، مع أن السماء لا تحتاج إلى مثل هذا التعريف ؛ لأنك حين تسمع هذه الكلمة (السماء) تعرف معناها بديهة دون تعريف .

وهذه الأمور البدهية لا جدلَ فيها ؛ لأنها واضحة ، فلو قلتَ لهذا الطفل : اجلس على أخيك ، فهذا ليس جدلاً ؛ لأنه لا يصح .

أما العلم الاستدلالى فأنْ تستدل بشىء على شىء ، كأنْ تدخل بيتك فتجد (عقب سيجارة) مثلاً فى (طفاية السجائر) فتسأل : مَنْ جاءكم اليوم ؟ ومثل الرجل العربى حين سار فى الصحراء ، فوجد على الأرض آثاراً لخفِّ البعير وبَعْره ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .

أما عِلْم الوحى فيأتى من أعلى ، يلقيه الله سبحانه على مَنْ يشاء من عباده .

فعلى المجادل أن يستخدم واحداً من هذه الثلاثة ليجادل به ، فإن جادل بغير علم فهى سفسطة لا طائل من ورائها .

وقد نزلت هذه الآية : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ۝٣﴾ [الحج] في النضر بن الحارث ، وكان يجادل عن غير علم في الوجود ، وفي الوحدانية ، وفي البعث .. إلخ .

والآية لا تخص النضر وحده ، وإنما تخص كل مَنْ فعل فعْله ، ولَفَّ لفَّه من الجدل .

ثم يقول تعالى : ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [الحج] أي : أن هذا الجدل قد يكون ذاتياً من عنده ، أو بوسوسة الشيطان له بما يخالف منهج الله ، سواء أكان شيطانَ الإنس أو شيطانَ الجن .

إذن : فالسيئات والانحرافات والخروج عن منهج الله لا يكون بوسوسة ؛ إما من النفس التي لا تنتهي عن مخالفة ، وإما من الشيطان الذي يُلِحُّ عليك إلى أنْ يُوقِع بك في شرَاكه .

لكن ، لا نجعل الشيطان (شماعة) نعلق عليها كل سيئاتنا وخطايانا ، فليست كل الذنوب من الشيطان ، فمن الذنوب ما يكون من النفس ذاتها ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا كان الشيطان هو الذي يوسوس بالشر ، فمَنِ الذي وسوس له أولاً ؟ وكما قال الشاعر :

* إبْلِيسُ لَمَّا غَوَى مَنْ كَانَ إبليسُه ؟ *

وفَرْق بين المعصية من طريق النفس ، والمعصية من طريق الشيطان ، الشيطان يريدك عاصياً على أيِّ وجه من الوجوه ، أمّا النفس فتريدك عاصياً من وجه واحد لا تحيد عنه ، فإذا صرفتَها إلى غيره لا تنصرف وتأبى عليك ، إلاَّ أنْ تُوقعك في هذا الشيء بالذات .

وهذا بخلاف الشيطان إذا تأبيْتَ عليه ولم تُطعْهُ فى معصية صرفكَ إلى معصية أخرى ، أياً كانت ، المهم أن تعصى ، وهكذا يمكنك أنْ تُفرِّق بين المعصية من نفسك ، أو من الشيطان .

ولما سُئل أحد العلماء : كيف أعرف : أأنا من أهل الدنيا أمْ من أهل الآخرة ؟ قال : هذه مسألة ليستْ عند العلماء إنما عندك أنت ، قال : كيف ؟ قال : انظر فى نفسك ، فإنْ كان الذى يأخذ منك الصدقة أحبّ إليك ممَّنْ يعطيك هدية ، فاعلم أنك من أهل الآخرة ، وإنْ كانت الهدية أحبَّ إليك من الصدقة فأنت من أهل الدنيا .

ذلك لأن الإنسان يحب من عمَّر له ما يحب ، فالذى يعطيك يعمر لك الدنيا التى تحبها فأنت تحبه ، وكذلك الذى يأخذ منك يعمر لك الآخرة التى تحبها فأنت تحبه . فهذه مسألة لا دَخْل للشيطان فيها .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠)﴾ [لقمان]

فهذه الآية تُجمل أنواع العلم الثلاثة التى تحدثنا عنها : فالعلم يُرَاد به البدهيات ، والهدى أى : الاستدلال ، والكتاب المنير يُراد به ما جاء وَحْياً من الله ، وبهذه الثلاثة يجب أن يكون الجدال وبالتى هى أحسن .

ومعنى : ﴿مَّرِيدٍ (٣)﴾ [الحج] من مَرَدَ أو مَرُدَ يمرد كنثر ينثُر ، والمرود : العُتوُّ وبلوغ الغاية من الفساد ، ومنها مارد ومريد ومتمرد ، والمارد : هو المستعلى أعلى منك .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ④ ﴾

أى : كتب الله على هذا الشيطان المريد ، وحكم عليه حُكماً ظاهراً ، هكذا (عينى عينك) كما يقال ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ .. ④﴾ [الحج] أى : تابعه وسار خلفه ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ④﴾ [الحج] يضله ويهديه ضدّان ، فكيف نجمع بينهما ؟

المراد : يُضلُّه عن طريق الحق والخير ، ويهديه أى : للشر ؛ لأن معنى الهداية : الدلالة مُطْلقاً ، فإن دللْتَ على خير فهى هداية ، وإن دللتَ على شر فهى أيضاً هداية .

واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ㉒ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ㉓﴾ [الصافات]

أى : دُلُّوهم وخُذوا بأيديهم إلى جهنم .

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ⑯⑧ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. ⑯⑨﴾ [النساء]

والسَّعير : هى النار المتوهّجة التى لا تخمد ولا تنطفىء .

---

(١) قال النعمان بن بشير : يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم . قال عمر : يجىء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . [تفسير ابن كثير ٣/٤] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ(١) وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ(٢) لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ﴾

قوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ .. ۝٥ ﴾ [الحج]

الريب : الشك . فالمعنى : إنْ كنتم شاكِّين فى مسألة البعث ، فإليكم الدليل على صدْقه ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ .. ۝٥ ﴾ [الحج] أى : الخلْق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، أما جمهرة الناس بعد آدم فخُلِقوا من (نطفة) حية من إنسان حى .

---

(١) **النطفة** : الماء الصافي ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة الذى يُخْلق منه الولد . **العلقة** : الدم الجامد الغليظ الذى يَعْلق بما يمسُّه . **والمضغة** : القطعة من اللحم تُمضَغ لتماسكها . **ومخلقة** : أى مضغة مشكلة ومصورة على هيئة طفل . **وغير مخلقة** : أى غير مشكَّلة ، أى غير تامة التصوير [القاموس القويم للقرآن الكريم] .

(٢) **هو** : الهرم والخرف حتى لا يعقل . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٤٤] .

والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول مرة فى خَلْق الإنسان : ﴿مِّن تُرَابٍ ..﴾ (٥) [الحج] ، ومرة ﴿من مَّاءٍ ..﴾ (٦) [الطارق] ، و ﴿مِّن طِينٍ ..﴾ (٢) [الأنعام] ، و ﴿مِّنْ حَمَإٍ[1] مَّسْنُونٍ﴾ (٢٦) [الحجر] ، و ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (١٤) [الرحمن] وهذه التى دعتْ المستشرقين إلى الاعتراض على أسلوب القرآن ، يقولون : من أىِّ هذه الأشياء خُلِقْتم ؟

وهذا الاعتراض ناشىء من عدم فَهْم لغة القرآن ، فالتراب والماء والطين والحمأ المسنون والصلصال ، كلها مراحل متعددة للشىء الواحد ، فإذا وضعتَ الماء على التراب صار طيناً ، فإنْ تركتَ الطين حتى يتخمَّر ، ويتداخل بعضه فى بعض حتى لا تستطيع أنْ تُميِّز عنصراً فيه عن الآخر . وهذا عندما يعطَنُ وتتغير رائحته يكون هو الحمأ المسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، ومنه خلق اللهُ الإنسان وصوَّره ، ونفخ فيه من روحه ، إذن : هذه مراحل للشىء الواحد ، ومرور الشىء بمراحل مختلفة لا يُغيِّره .

ثم تكلم سبحانه عن الخَلْق الثانى بعد آدم عليه السلام ، وهم ذريته ، فقال : ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ..﴾ (٥) [الحج] والنطفة فى الأصل هى قطرة الماء العَذْب ، كما جاء فى قول الشاعر :

بَقَايَا نِطَافٍ أودَعَ الغيمُ صَفْوَهَا   مُثقَّلَةُ الأرجَاء زُرْقُ الجَوانبِ

ولا تظهر زُرْقة الماء إلا إذا كان صافياً لا يشوبه شىء ، وكذلك النطفة هى خلاصة الخلاصة ، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية

(١) الحمأ والحَمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصور بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

الاحتراق ، وعملية الأيض أى : الهدم والبناء بصفة مستمرة ينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم : فالبول ، والغائط ، والعرق ، والدموع ، وصَمْغ الأذن ، كلها فضلات ناتجة عن احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسم خلاصة الغذاء ، وينقلها إلى الدم .

ومن هذه الخلاصة يُستخلص منىٌّ الإنسان الذى تؤخذ منه النطفة ، فهو ـ إذن ـ خلاصة الخلاصة فى الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ، ويتكوَّن الجنين ، وكأن الخالق ـ عز وجل ـ قد صفَّاها هذه التصفية ونقَّاها كل هذا النقاء ؛ لأنها ستكون أصْلاً لأكرم مخلوقاته ، وهو الإنسان .

وهذه النطفة لا تنزل من الإنسان إلا فى عملية الجماع ، وهى ألذُّ متعة فى وجود الإنسان الحىِّ ، لماذا ؟ لو تأملتَ متعة الإنسان ولذاته الأخرى مثل : لذة الذَّوْق ، أو الشم ، أو الملمس ، فهى لذَّاتٌ معروفة محددة بحاسَّة معينة من حواس الإنسان ، أمّا هذه اللذة المصاحبة لنزول المنىِّ أثناء هذه العملية الجنسية فهى لذة شاملة يهتز لها الجسم كله ، ولا تستطيع أنْ تُحدِّد فيها منطقة الإحساس ، بل كل ذرة من ذرات الجسم تحسها .

لذلك أمرنا ربنا ـ عز وجل ـ أن نغتسل بعد هذه العملية ؛ لأنها شغلتْ كل ذرة من ذرات تكوينك ، وربما ـ عند العارفين بالله ـ لا تغفل عن الله تعالى إلا فى هذه اللحظة ؛ لذلك كان الأمر بالاغتسال بعدها ، هذا قول العلماء .

أما أهل المعرفة عن الله وأهل الشطح وأهل الفيوضات فيقولون :

إن الله خلق آدم من طين ، وجعل نَسْله من هذه النطفة الحية التى وضعها فى حواء ، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده ، فكأن فى كل واحد منا ذرة من أبيه آدم ؛ لأنه لو طرأ على هذه الذرة موت ما كان نَسْلٌ بعد آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك فى النطفة التى تلقيها ويأتى منها ولدك ، وهى أَصْفَى شىء فيك ؛ لأنها الذرة التى شهدتْ الخَلْق الأول خَلْق أبيك آدم عليه السلام .

وقد قرّبنا هذه المسألة وقلنا : لو أنك أخذت سنتيمتراً من مادة ملونة ، ووضعته فى قارورة ماء ، ثم أخذتَ ترجُّ القارورة حتى اختلط الماء بالمادة الملونة فإن كل قطرة من الماء بها ذرة من هذه المادة ، وهكذا لو ألقيتَ القارورة فى برميل .. الخ .

إذن : فكل إنسان منّا فيه ذرة من أبيه آدم عليه السلام ، هذه الذرة شهدتْ خَلْق آدم ، وشهدتْ العهد الأول الذى أخذه الله على عباده فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

لذلك ؛ يُسمِّى الله تعالى إرسال الرسل بَعْثاً فيقول : ﴿ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) ﴾ [الفرقان] بعثه : كأنه كان موجوداً وله أَصْل فى رسالة مباشرة من الله حين أخذ العهد على عباده ، وهم فى ظَهْر آدم عليه السلام ، كما يخاطب الرسول بقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية] أى : مُذَكِّر بالعهد القديم الذى أخذناه على أنفسنا .

لذلك اقرأ الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

هذا فى مرحلة الذَّرِّ قبل أنْ يأتى الهوى فى النفوس ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

إذن : بعث الله الرسل لتُذكِّر بالعهد الأول ، حتى لا تحدث الغفلة ، وحتى تقيم على الناس الحجة .

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..(٥)﴾ [الحج] سمِّيت النطفة علقة ؛ لأنها تعلَقُ بالرحم ، يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨)﴾ [القيامة]

فالمنيُّ هو السائل الذى يحمل النطفة ، وهى الخلاصة التى يتكوَّن منها الجنين ، والعلَقة هنا هى البُويْضَة المخصَّبة ، فبعد أنْ كان للبويضة تعلُّق بالأم ، وللحيوان المنوى (النطفة) تعلُّق بالأب ، اجتمعا فى تعلُّق جديد والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرحم ، وكأن فيها ذاتية تجعلها تعلَق بنفسها ، يُسمُّونها (زيجوت) .

ومنها قولهم : فلان هذا مثل العلقة إذا كان ملازماً لك .

بعد ذلك تتحول العلقة إلى مضغة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] والمضغة : هى قطعة لحم صغيرة قَدْر ما يُمضغ من الطعام ، وهو خليط من عِدَّة أشياء ، كما لو أكلتَ مثلاً قطعة لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوّل هذا إلى خليط ، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكوَّن من عنصر واحد ، بل من ستة عشر عنصراً .

هذه المضغة ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] معنى مخلقة يعنى : يظهر عليها هيكل الجسم ، وتتشكَّل على صورته ، فهذه

للرأس ، وهذه للذراع ، وهذه للرِّجْل وهكذا ، يعنى تخلَّقَتْ على هيئة الإنسان .

أما غير المخلَّقة ، فقد عرفنا مؤخراً أنها الخلايا التى تُعوِّض الجسم وتُرقِّعه إذا أصابه عَطَب فهى بمثابة (احتياطى) لإعادة تركيب ما تلف من أنسجة الجسم وترميمها ، كما يحدث مثلاً فى حالة الجُرْح فإنْ تركتَه لطبيعة الجسم يندمل شيئاً فشيئاً ، دون أنْ يتركَ أثراً .

نرى هذا فى أولاد الفلاحين ، حين يُجرح الواحد منهم ، أو تظهر عنده بعض الدمامل ، فيتركونها لمقاومة الجسم الطبيعية ، وبعد فترة تتلاشى هذه الدمامل دون أنْ تتركَ أثراً على الإطلاق ؛ لأنهم تركوا الجسم للصيدلية الربانية .

أما إذا تدخَّلنا فى الجُرْح بمواد كيماوية أو خياطة أو خلافه فلا بُدَّ أن يترك أثراً ، فترى مكانه لامعاً ؛ لأن هذه المواد أتلفت مسام الجسم ؛ لذلك نجد مثل هذه الأماكن من الجسم قد تغيرتْ ، ويميل الإنسان إلى حكِّها (وهرشها) ؛ لأن هذه المسام كانت تُخرِج بعض فضلات الجسم على هيئة عرق ، فلما انسدت هذه المسام سببت هذه الظاهرة . هذا كله لأننا تدخَّلْنا فى الطبيعة التى خلقها الله .

إذن : فمعنى ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ۝٥ ﴾ [الحج] هى الصيدلية التى تُعوِّض وتُعيد بناء ما تلف من جسم الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝٥ ﴾ [الحج] أى : نُوضِّح لكم كل ما يتعلَّق بهذه المسألة ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ .. ۝٥ ﴾ [الحج] وهى المضْغة التى قُدِّر لها أنْ تكون جنيناً يكتمل إلى أنْ يولد ؛ لذلك قال : ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝٥ ﴾ [الحج] أو نسقطه ميتاً قبل ولادته .

فإنْ قلتَ : وما الحكمة من خَلْقه وتصويره ، إنْ كان قد قُدِّر له أنْ يموت جنيناً ؟ نقول : لنعرف أن الموت أمر مُطْلق لا رابطَ له ولا سنّ ، فالموت يكون للشيخ كما يكون للجنين فى بطن أمه ، ففى أيِّ وقت ينتهى الأجل .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. ۝٥﴾ [الحج] قال : ﴿نُخْرِجُكُمْ .. ۝٥﴾ [الحج] بصيغة الجمع ولم يقُلْ : أطفالاً إنما ﴿طِفْلاً .. ۝٥﴾ [الحج] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا : فى اللغة ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، فطفل هنا بمعنى أطفال ، وقد وردتْ أطفال فى موضع آخر فى قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ[1] .. ۝٥٩﴾ [النور]

وكما تقول : هذا رجل عَدْل ، ورجال عَدْل . وفى قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يتكلم عن الأصنام فيقول : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ۝٧٧﴾ [الشعراء] ولم يقُلْ : أعداء . وحينما تكلم عن ضَيْفه قال : ﴿هَٰؤُلاءِ ضَيْفِي .. ۝٦٨﴾ [الحجر] ولم يقل : ضيوفى ، إذن : المفرد هنا يُؤدِّى معنى الجمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .. ۝٥﴾ [الحج] وهكذا ، ينقلنا السياق من الطفولة إلى المرحلة النهائية من عمر الإنسان ، وسبق أنْ تحدَّثنا عن مراحل عمر الإنسان ، وأنه يمر بمرحلة الرُّشْد : رُشْد البنية حين يصبح قادراً على إنجاب مثله ، ورُشْد العقل حين يصبح قادراً على التصرّف السليم ، ويُحسن الاختيار بين البدائل .

ثم تأتى مرحلة الأشد : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ۝١٥﴾ [الأحقاف] يعنى : نضج نُضْجاً من حوادث الحياة أيضاً .

---

(١) حلم الصبى يحلم حُلماً : بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١/١٦٩] .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. ۝٥ ﴾ [الحج] وأرذل العمر يعنى رديئه ، حين تظهر على الإنسان علامات الخَوَر والضعف ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. ۝٥ ﴾ [الحج] لأنه ينسى ، وعندها يعرف أن صحته وقوته وسلطانه ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله .

وإذا بلغ الرجل أرذلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة تدريجياً ، فيحتاج لمَنْ يأخذ بيده ليقوم أو ليمشى ، كما تأخذ بيد الطفل الصغير ، فإذا تكلّم يتهته ويتلعثم كالطفل الذى يتعلم الكلام .. وهكذا فى جميع شئونه .

لذلك يقولون : الزواج المبكر أقرب طريق لإنجاب (والد) يعولُك فى طفولة شيخوختك ، ولم يقُلْ : ولداً ؛ لأنه سيقوم معك فيما بعد بدوْر الوالد ، يقولون : لحق والده يعنى سِنُّهما متقارب .

لكن ، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أرذل العمر دون بعض ؟ الحق سبحانه جعلها نماذج حتى لا نقول : يا ليت أعمارنا تطول ؛ لأن أعمار الجميع لو طالتْ إلى أرذَلِ العمر لأصبح الأمر صعباً علينا ، فمن رحمة الله بنا أنْ خلق الموت .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ﴾ [الحج]

أى : كما كان خَلْق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مُضْغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، ثم أخرجه طفلاً ، وبلغ أَشُدَّهُ ، ومنهم مَنْ مات ، ومنهم مَنْ يُرَدُّ إلى أرذَل العمر ، كذلك الحال فى الأرض : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً .. ۝٥ ﴾ [الحج]

هامدة : ساكنة ، ومنه قولنا للولد كثير الحركة : اهمد ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ..(٥)﴾ [الحج] أى : تحركتْ ذراتُها بالنبات بعد سكونها .

والاهتزاز : تحرُّك ما كنت تظنه ثابتاً ، وليس ما كان ثابتاً فى الواقع ؛ لأن لكل كائن حركة فى ذاته ، حتى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذراتها ، لكن ليس لديْك من وسائل الإدراك ما تدرك به هذه الحركة . ولو تأملت المغناطيس لأدركتَ هذه الحركة بين ذراته ، فحين تُدلِّك القضيب الممغنط وتُمرِّره على قضيب آخر غير مُمغنط فى اتجاه واحد ، فإنه يكتسب منه المغناطيسية ، وتمرير المغناطيس فى اتجاه واحد معناه تعديل للذرات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة ، فإنِ اختلف اتجاه الدَّلْك فإن الذرات أيضاً تختلف .

إذن : فى الحديد ـ رمز الصلابة والجمود ـ حركة وحياة تناسبه ، وإنْ خُيِّل إليك أنه أصمٌّ جامد فى ظاهره .

لذلك نقول ﴿هَامِدَةً .. (٥)﴾ [الحج] يعنى : ساكنة فى رأى العلم ، حيث لا نباتَ فيها ثم ﴿اهْتَزَّتْ .. (٥)﴾ [الحج] يعنى : زادتْ وربَتْ وتحركتْ لإخراج النبات ، إنما هى فى الحقيقة لم تكُنْ ساكنة مُطْلقاً ؛ لأن فيها حركة ذاتية بين ذراتها .

ومعنى : ﴿وَرَبَتْ .. (٥)﴾ [الحج] أى : زادت عن حجمها ، كما تزيد حبة الفول مثلاً حينَ تُوضَع فى الماء ، وتأخذ حظها من الرطوبة ، وكذلك فى جميع البقول ، وهذه الزيادة فى حجم الحبة هى التى تفلقها إلى فلقتين فى عملية الإنبات ، ويخرج منها زبان يتجه إلى أعلى فيكون الساق الذى يبحث عن الهواء ، وإلى أسفل فيكون الجذر الذى يبحث عن الماء . وتظل هاتان الفلقتان مصدرَ غذاءٍ للنبتة حتى

تقوى ، وتستطيع أنْ تمتصَّ غذاءها من التربة ، فإذا أدَّتْ هاتان الفلقتان مهمتهما فى تغذية النبتة تحوَّلتا إلى ورقتين ، وهما أول ورقتين فى تكوين النبتة .

كذلك ، نلاحظ فى تغذية النبات أنه لا يأخذ كُلَّ غذائه من التربة ، إنما يتغذى بنسبة ربما ٩٠ بالمائة من غذائه من الهواء ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة إذا نظرتَ إلى إصيص به زرع ، فسوف تجد ما نقص من التربة كمية لا تُذكَر بالنسبة لحجم النبات الذى خرج منها .

وحين تتأمل جذر النبات تجد فيه آية من آيات الله ، فالجذر يمتد إلى أن يصل إلى الرطوبة أو الماء ، حتى إذا وصل إلى مصدر غذائه توقَّف ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (كوز الحلبة) فسوف تجد الجذور غير متساوية فى الطول ، بحسب بُعد الحبة عن مصدر الرطوبة .

﴿ وَرَبَتْ .. ۝٥ ﴾ [الحج] أى : زادت وانتفشتْ ، كما يحدث فى العجين حين تضع فيه الخميرة ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ﴾[الحج]

هذه صورة حيَّة واقعية نلاحظها جميعاً عياناً : الأرض تكون جرداء ساكنة ، لا حركةَ فيها ، فإذا ما نزل عليها الماء تغيرتْ وتحركتْ ذراتها وتشققتْ عن النبات ، ولو حتى بالمطر الصناعى ، كما كنا نرى فى عرفة مثلاً ينزل عليها المطر الصناعى فيخضرُّ الوادى ، لكن حينما ينقطع الماء يعود كما كان لعدم موالاة الماء ، ولو واليتَ عليها بالماء لصارت غابات وأحراشاً وبساتين كالتى نراها فى أوروبا .

والمطر لا يحتاج أنْ تُسوَّى له الأرض ؛ لأنه يسْقِى المرتفع

والمنخفض على السواء ، على خلاف الأرض التى تسقيها أنت لا بُدَّ أن تُسوِّيها للماء حتى يصل إليها جميعاً .

فإذا أنزل الله تعالى المطر على الأرض الجدباء الجرداء تراها تتفتق بالنبات ، فمن أين جاءت هذه البذور ؟ وكيف لم يُصبْها العطب ، وهى فى الأرض طوال هذه الفترات ؟ الأرض هى التى تحفظها من العطب إلى أن تجد البيئة المناسبة للإنبات ، وهذا النبات الذى يخرج من الأرض دون تدخُّل الإنسان يسمونه (عِذْى) .

أما عن نَقْل هذه البذور فى الصحراء وفى الوديان ، فهى تنتقل بواسطة الريح ، أو فى رَوْث الحيوانات .

ومعنى : ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج] الزوج : البعض يظن الزوج يعنى الاثنين ، إنما الزوج كلمة مفردة تدل على واحد مفرد معه مثْله من جنسه ، ففى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النجم] فكل منهما زوج ، وكما نقول : زوج أحذية يعنى فردة حذاء معها فردة أخرى مثلها ، ومثلها كلمة توأم يعنى مولود معه مثله فكل واحد منهما يسمى (توأم) وهما معاً (توأمان) ولا نقول : هما توأم .

وهنا مظهر من مظاهر دقَّة الأداء القرآنى : ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ .. ۝٥﴾ [الحج] لأن كل المخلوقات ، سواء أكانت جماداً أو نباتاً أو حيواناً ، لا بُدَّ فيه من ذكر وأنثى ، هذه الزوجية قال الله فيها : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ۝٤٩﴾ [الذاريات] حتى فى الجماد الذى نظنه جماداً لا حركةَ فيه ، يتكوَّن من زوجين : سالب وموجب فى الكهرباء ، وفى الذرة ، وفى المغناطيس ، فكلُّ شىء يعطى أعلى منه ، فلا بُدَّ فيه من زوجيْن .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى حينما عالج هذه المسألة عالجها برصيد احتياطي في القرآن ، يقول سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس]

فقوله سبحانه : ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] رصيد عال لما سيأتى به العلم من اكتشافات تثبت صدْق القرآن على مَرِّ الأيام ، ففى الماضى عرفنا الكهرباء ، وأنها سالب وموجب فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وفى الماضى القريب عرفنا الذرة فقلنا : هذه مما لا نعلم ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

إذن : خُذْها قضية عامة : كل شىء يتكاثر إلى أعلى منه ، فلا بُدَّ أن فيه زوجية .

فقوله تعالى : ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج] فالزوج من النبات مفرد معه مثله ، وهذا واضح فى لقاح الذكر والأنثى ، هذا اللقاح قد يكون فى الذكر وحده ، أو فى الأنثى وحدها كما فى النخل مثلاً ، وقد يكون العنصران معاً فى النبات الواحد كما فى سنبلة القمح أو فى كوز الذرة .

ولو تأملت نبات الذرة لوجدتَ له فى أعلاه (شوشة) بها حبيبات دقيقة تحمل لقاح الذكورة ، وفى منتصف العود يخرج الكوز ، وبه شعيرات تصل كل شعرة منها إلى حبة من حبات الذرة المصطفة على الكوز ، وهذه تحمل لقاح الأنوثة ، فإذا هبَّتْ الريح هزَّتْ أعلى العود فتساقطت لقاحات الذكورة على هذه الشعيرات فلقحتها ؛ لذلك نرى الحبة التى لا يخرج منها شعرة إلى خارج الغلاف تضمر وتموت ؛ لأنها لم تأخذ حظها من اللقاح .

ومعنى : ﴿بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج] من البهجة ، فالمراد : الشىء حسن المنظر والجميل الذى يجذب الأنظار إليه ، وبهجة النظر إلى

النبات شائعة لا تقتصر على مَنْ يملكه بخلاف الأكل منه ، فحين تمر ببستان أو حديقة تتمتع بمنظرها وجمال ألوانها وتُسَرُّ برائحتها .

وفى النفس الإنسانية ملكات تتغذى على هذه الخضرة ، وعلى هذه الألوان وتنبسط لهذا الجمال ، ولو لم تكُنْ تمتلكه .

لذلك الحق - سبحانه وتعالى - ينبهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] أى : أن النظر مشاع للجميع ، ثم بعد ذلك اتركوا الخصوصيات لأصحابها ، تمتَّعوا بما خلق الله ، ففى النفس ملكَات أخرى غير الطعام .

واقرأ أيضاً قوله تعالى فى الخيل : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل] فليست الخيل لحمل الأثقال وفقط ، وإنما فيها جمال وأُبَّهة ، تُرضِى شيئاً فى نفوسكم ، وتُشْبِع ملكَة من ملكاتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٦) ﴾

أى : أن ما حدث فى خَلْق الإنسان تكويناً ، وما حدث فى إنبات الزرع تكويناً ونماءً ، يردُّ هذا كله إلى أن الله تعالى ﴿ هُوَ الْحَقُّ .. (٦) ﴾ [الحج] فلماذا أتى بالحق ولم يقُلْ الخالق ؟ قالوا : لأن الخالق قد يخلق شيئاً ثم يتخلى عنه ، أمّا الله - سبحانه وتعالى - فهو الخالق الحق ، ومعنى الحق أى : الثابت الذى لا يتغير ، كذلك عطاؤه لا يتغير ، فسوف يظل سبحانه خالقاً يعطيك كل يوم ؛ لأن عطاءه سبحانه دائم لا ينفد .

---

(١) ينع الثمر : أدرك ونضج ، واليَنْع : النضج . واليانع : الناضج . [لسان العرب - مادة : ينع] .

وإذا نظرتَ إلى الوجود كله لوجدته دورة مكررة ، فالله عز وجل قد خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها ، فمثلاً كمية الماء التى خلقها الله فى الكون هى هى لم تَزِدْ ولم تنقص ؛ لأن للماء دورة فى الحياة ، فالماء الذى تشربه طوال حياتك لا يُنقص فى كمية الماء الموجودة ؛ لأنه سيخرج منك على صورة فضلات ليعود فى دورة الماء فى الكون من جديد .

وهكذا فى الطعام الذى نأكله ، وفى الوردة الجميلة الطرية التى نقطفها ، كل ما فى الوجود له دورة يدور فيها ، وهذا معنى : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ۝١٠﴾ [فصلت]

فمعنى : ﴿الْحَقُّ .. ۝٦﴾ [الحج] هنا الثابت الذى لا يتغير فى الخَلْق وفى العطاء . فلا تظن أن عطاء الله لك شىء جديد ، إنما هو عطاء قديم يتكرر لك ولغيرك .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ .. ۝٦﴾ [الحج] كما قُلْنا فى الآية السابقة : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً .. ۝٥﴾ [الحج] أى : ساكنة لا حياةَ فيها ، والله وحده القادر على إحيائها ؛ لذلك نجد علماء الفقه يُسمُّون الأرض التى نصلحها للزراعة (إحياء الموات)[1] فالله تعالى

---

(١) إحياء الموات معْناه : إعداد الأرض الميتة التى لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة للانتفاع بها فى السكنى والزرع ونحو ذلك . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة عن العمران ، حتى لا تكون مرفقاً من مرافقه ، ولا يتوقع أن تكون من مرافقه ، ويرجع إلى العرف فى معرفة مدى البعد عن العمران . واتفق الفقهاء على أن الإحياء سبب للملكية لحديث رسول الله ﷺ : « من أحيا أرضاً ميتة فهى له » . واختلفوا فى اشتراط إذن الحاكم فى الإحياء فأكثر العلماء على عدم اشتراط إذن الحاكم . وذهب أبو حنيفة إلى اشتراط إذن الإمام وإقراره ، وفرَّق مالك بين الأراضى المجاورة للعمران والأراضى البعيدة عنه . ويجوز للحاكم العادل أن يُقطع بعض الأفراد من الأرض الميتة والمعادن والمياه ما دامت هناك مصلحة ، فإذا لم تتحقق المصلحة بأن لم يعمرها من أقطع له ولم يستثمرها فإنها تنزع منه » [فقه السنة ـ الشيخ سيد سابق ٣/٢٠١ ـ ٢٠٤ بتصرف] .

هو القادر وحده على إحيـاء كل ميت ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⦗٦⦘﴾ [الحج]

وما دام الأمـر كذلك ومـا دُمْتم تشـاهدون آية إحيـاء الموات فى الأرض الميتة فلا تنكروا البعث وإعادتكم بعد الموت . فيقول تعالى :

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ⦗٧⦘﴾

وقد سـبق أن أنكروا البعـث بعد المـوت وقالوا : ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ⦗١٦⦘ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ⦗١٧⦘﴾ [الصافات]

فيردُّ عليـهم الحق سبحانه : نعم ، سنعيـدكم بعد الموتَ ، والذى خلقكم مـن لا شـىءَ قـادرٌ على إعـادتكم من باب أَوْلَـى ؛ لذلك يقـول تعـالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْـدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِـيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْـهِ .. ⦗٢٧⦘﴾ [الروم] والحق سبـحانه هنا يخاطبنـا على قَدْر عقـولنا ؛ لأننا نفهم أن الخَلْق من موجود أهون من الخَلْق من عدم ، أما بالنسبة للخالق - عز وجل - فليس هناك سَهْل وأسهل ، ولا هَيِّن وأهْون .

فقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا .. ⦗٧⦘﴾ [الحج] كأن عمليـة إحياء المـوتى ليست مُنْتـهى قدرة الله ، إنما فى قـدرته تعالى كثير من الآيات والعـجائب ، ومعنى : ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهَا .. ⦗٧⦘﴾ [الحج] أى : لا شكَّ فيها . والساعة : أى زمن القيامة وموعدها ، لكن القيامة ستكون للحساب وللفَصْل بين الناس ، فـلا بُدَّ من بَعْثهم من القبور ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ⦗٧⦘﴾ [الحج]

فكُلٌّ ما تقدَّم ناشىء من أنه سبحانه هو الحق ؛ ولأنه سبحانه الحق ، فهو يُحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير ، والساعة آتية لا رَيْبَ فيها ، وهو سبحانه يبعث مَنْ فى القبور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

تكلمنا فى أول السورة عن الجدل بالعلم والموعظة الحسنة وقلنا : العلم إما علم بَدْهى أو علم استدلالى عقلىّ ، أو علم بالوحى من الله سبحانه ، أما هؤلاء الذين يجادلون فى الله بغير علم بدهى ﴿وَلا هُدًى.. ﴿٨﴾﴾ [الحج] يعنى : علم استدلالى عقلى ، ﴿وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴿٨﴾﴾ [الحج] يعنى : وحى من الله ، فهؤلاء أهل سفسطة وجدل عقيم لا فائدة منه ، وعلى العاقل حين يصادف مثل هذا النوع من الجدال أن لا يجاريه فى سفسطته ؛ لأنه لن يصل معه إلى مفيد ، إنما عليه أنْ ينقله إلى مجال لا يحتمل السفسطة .

ولنا فى هذه المسألة مثَلٌ وقُدْوة بسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ حينما جادل النمرود ، اقرأ قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة]

لقد اتبع النمرودُ أسلوب السَّفْسَطة حين قال ﴿أَنَا أُحْيِى

وأُميتُ..(٢٥٨)﴾ [البقرة] لأنه ما فعل حقيقةَ الموت ، ولا حقيقة الحياة[1] ، فأراد إبراهيم أن يُلجئه إلى مجال لا سفسطة فيه ؛ لينهى هذا الموقف ويسدّ على خَصْمه باب اللدد والتهريج ، فقال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] وكانت النتيجة أنْ حَارَ عدو الله جواباً ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] أى : دُهش وتحيَّر .

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ[2] لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٩)﴾

﴿ثَانِيَ .. (٩)﴾ [الحج] ثَنَى الشيء يعنى : لَواه ، وعطْفه : يعنى جَنْبه ، والإنسان فى تكوينه العام له رأس ورقبة وكتفان ، وله جانبان وظَهْر ، وهذه الأعضاء تُؤدِّى دَوْراً فى حياته وحركته ، وتدلّ على تصرفاته ، فالذى يجادل فى الله عن غير علم ولا هدى ولا كتاب منير يَثْنى عنك جانبه ، ويلْوى رأسه ؛ لأن الكلام لا يعجبه ؛ ليس لأن كلامك باطل ، إنما لا يعجبه لأنه أفلس وليست لديه الحجة التى يواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة .

---

(١) وذلك أن النمرود قال : « إنى أُوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل ، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل » قاله قتادة ومحمد بن إسحاق والسدى وغير واحد . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣١٣/١) . ثم قال ابن كثير : « والظاهر والله أعلم أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا فى معناه ، لأنه مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه فاعل لذلك وأنه هو الذى يحيى ويميت » .

(٢) العطف : الجانب . عطفَا الإنسان : جانباه . ويقال : ثنى عطفه : أى : أعرض وابتعد بجانبه . وقوله : ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ .. (٩)﴾ [الحج] . كناية عن الإعراض كبراً وغروراً . [القاموس القويم ٢٥/٢] .

لذلك يُسمَّى هذا الجدل « مراءً » ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [النجم] يعنى : أتجادلون رسول الله فى أمر رآه ؟ والمراء : هو الجَدل العنيف ، مأخوذ من (مَرْى[1] الضرع) يعنى : حَلْب ما فيه من لبن إلى آخر قطرة فيه ، وأهل الريف يقولون عن هذه العملية (قرقر البقرة) يعنى : أخذ كل لبنها ولم يَبْقَ فى ضرعها شىء .

كذلك المجادل بالباطل ، أو المجادل بلا علم ولا حجة تراه يكابر ليأخذ آخر ما عند خَصْمه ، ولو كان عنده علم وحجة لأنهَى الموقف دون لجج أو مكابرة .

والقرآن الكريم يعطينا صورة لهذا الجدل والإعراض عن الحق ، فيقول سبحانه : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [المنافقون]

والقرآن يعطينا التدرج الطبيعى للإعراض عن الحق الذى يبدأ بلَىِّ الرأس ، ثم الجانب ، ثم يعطيك دُبُره وعَرْض أكتافه ، هذه كلها ملاحظ للفرار من الجدل ، حين لا يقوى على الإقناع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٩﴾﴾ [الحج] هذه علَّة ثَنْى جانبه ، لأنه يريد أنْ يُضل مَن اهتدى ، فلو وقف يستمع لخَصْمه وما يلقيه من حجج ودلائل لانهزم ولم يتمكّن من إضلال الناس ؛ لذلك يَثْنى عِطْفه هَرَباً من هذا الموقف الذى لا يَقْدر على مواجهته والتصدى له .

فما جزاء هذا الصنف ؟ يقول تعالى : ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ .. ﴿٩﴾﴾ [الحج] والخِزْى : الهوان والذِّلَّة ، هذا جزاء الدنيا قبل جزاء الآخرة ،

---

(١) المَرْى : مَسْح ضرع الناقة لتدر . وناقة مَرِىٌّ : غزيرة اللبن . [لسان العرب - مادة : مرى] .

ألم يحدث للكفار هذا الخزى يوم بدر ؟ ألم يُمسك رسول الله ﷺ بقضيب فى يده قبل المعركة ويشير به : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »[١] ويسمى صناديد الكفر ورؤوس الضلال فى قريش ؟ وبعد انتهاء المعركة كان الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ ، وصُرِع كلُّ هؤلاء الصناديد فى نفس الأماكن التى أشار إليها رسول الله .

ولما قُتل فى هذه المعركة أبو جهل عَلاَهُ سيدنا عبد الله بن مسعود ، سبحان الله ، عبد الله بن مسعود راعى الغنم يعتلى ظهر سيد قريش ، عندها قال أبو جهل ـ وكان فيه رَمَق حياة : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صَعْباً يا رُوَيْعىَّ الغنم[٢] ، يعنى : ركبتنى يا ابن الإيه !! فأىُّ خِزْى بعد هذا ؟!

وأبو سفيان بعد أن شفع له العباس رضى الله عنه عند رسول الله ﷺ ، ورأى موكب النبى يوم الفتح ، وحوله رايات الأنصار فى موكب رهيب مهيب ، لم يملك نفسه ولم يستطع أنْ يُخفى ما فى صدره ، فقال للعباس رضى الله عنه : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك قوياً ، فقال له : إنها النبوة يا أبا سفيان[٣] يعنى : المسألة ليست مُلْكاً ، إنما هى النبوة المؤيَّدة من الله .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) من حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا ، قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

(٢) قال عبد الله بن مسعود : وجدته بآخر رمق فعرفته ، فوضعت رجْلى على عنقه . فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مُرْتقى صعباً يا رُوَيْعى الغنم . قال : ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله . هذا رأس عدو الله أبى جهل » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٣٦) .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٤) : « قال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً . قال : قلت : يا أبَا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن » .

وسيدنا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حينما استأذن عليه القوم فى الدخول ، فأذنَ للسابقين إلى الإسلام من العبيد والموالى ، وترك بعض صناديد قريش على الباب ، (فورمَتْ) أنوفهم من هذا الأمر واغتاظوا ، وكان فيهم أبو سيدنا أبى بكر فقال له : أتأذن لهؤلاء وتتركنا ؟ فقال له : إنه الإسلام الذى قدَّمهم عليكم . وقد شاهد عمر هذا الموقف فقال لهم : ما لكم ورِمَتْ[1] أنوفكم ؟ وما بالكم إذا أُذِن لهم على ربهم وتأخرتم أنتم .

فالغضب الحقيقى سيكون فى الآخرة حين يُنَادى بهؤلاء إلى الجنة ، وتتأخرون أنتم فى هَوْل الموقف .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١)﴾ [الواقعة]

ثم يقول تعالى : ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)﴾ [الحج] فهذا الخزْىُ الذى رأَوْه فى الدنيا لن يُفلتهم من خِزْى وعذاب الآخرة ، ومعنى ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)﴾ [الحج] الحريق : هو الذى يحرق غيره من شِدّته ، كالنار التى أوقدوها لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانت تشوى الطير الذى يمرُّ بها فى السماء فيقع مشوياً[2] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠)﴾

---

(١) ورم أنفه . أى : غضب . أى : امتلأ وانتفخ من ذلك غضباً ، وخَصَّ الأنف بالذكر لأنه موضع الأنفة والكبر . وورَّم فلان بأنفه توريماً : إذا شمخ بأنفه وتجبَّر . [لسان العرب ـ مادة : ورم] .

(٢) قال ابن إسحاق : جمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها ، واشتعلت واشتدت حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها . [ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٤٨١/٦)] .

﴿ذَٰلِكَ .. ⑩﴾ [الحج] يعنى خزى الدنيا وعذاب الحريق فى الآخرة بما قدَّمتْ ، وبما اقترفت يداك ، لا ظُلْماً منّا ولا اعتداء ، فأنت الذى ظلمتَ نفسك ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ⑪⑱﴾ [النحل]

وهل أخذناهم دون إنذار ، ودون أن نُجرِّم هذا الفعل ؟ لأنك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنتَ قد نبَّهته إليه ، وعرَّفته بعقوبته ، فإنْ عاقبته دون علمه بأن هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمتَه ؛ لذلك فأهل القانون يقولون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ .

وقد جاءكم النص الذى يُبيِّن لكم ويُجرِّم هذا الفعل ، وقد أبلغتْكم الرسل ، وسبق إليكم الإنذار ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ⑮﴾ [الإسراء]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ .. ⑩﴾ [الحج] فهل الذنوب كلها تقديمُ اليد فقط ؟

الذنوب : إما أقوال ، وإما أفعال ، وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق .. إلخ لكن فى الغالب ما تُزَاول الذنوب بالأيدى[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ⑩﴾ [الحج] ظلاَّم : صيغة مبالغة من الظلم ، تقول : ظالم . فإنْ أردتَ المبالغة تقول : ظلاَّم ، كما تقول : فلان آكل وفلان أَكُول ، فالفعل واحد ، لكن ما ينشأ عنه مختلف ، والمبالغة فى الفعل قد تكون فى الفعل نفسه أو فى تكراره ، فمثلاً قد تأكل فى الوجبة الواحدة رغيفاً واحداً ، وقد

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٤٨) : « عبر باليد عن الجملة ؛ لأن اليد التى تفعل وتبطش للجملة » .

تأكل خمسة أرغفة هذه مبالغة فى الوجبة الواحدة ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، لكن تبالغ فى الوجبة الواحدة ، وقد تكون المبالغة فى عدد الوجبات فتأكل فى الوجبة رغيفاً واحداً ، لكن تأكل خمس وجبات بدلاً من ثلاث . فهذه مبالغة بتكرار الحدث .

وصيغة المبالغة لها معنى فى الإثبات ولها معنى فى النفى : إذا قُلْتَ : فلان أكول وأثبتَّ له المبالغة فقد أثبتَّ له أصل الفعل من باب أَوْلَى فهو آكل ، وإذا نفيتَ المبالغة فنَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، تقول : فلان ليس أكولاً ، فهذا لا ينفى أنه آكل .

فإذا طبَّقنا هذه القاعدة على قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ⟨١٠⟩﴾ [الحج] فهذا يعنى أنه سبحانه وتعالى (ظالم) حاشا لله ، وهنا نقول : هناك آيات أخرى تنفى الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ⟨٤٩⟩﴾ [الكهف] وقوله تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ⟨٧٦⟩﴾ [الزخرف]

كما أن صيغة المبالغة هنا جاءت مضافة للعبيد ، فعلى فرض المبالغة تكون مبالغة فى تكرار الحدث ﴿بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ⟨١٠⟩﴾ [الحج] ظلم هذا ، وظلم هذا ، وظلم هذا ، فالمظلوم عبيد ، وليس عبداً واحداً .

والظلم فى حقيقته أن يأخذ القوىُّ حَقَّ الضعيف ، ويكون الظلم على قَدْر قوة الظالم وقدرته ، وعلى هذا إنْ جاء الظلم من الله تعالى وعلى قَدْر قوته وقدرته فلا شكَّ أنه سيكون ظُلْماً شديداً لا يتحمله أحد ، فلا نقول - إذن - ظالم بل ظلام ، وهكذا يتمشى المعنى مع صيغة المبالغة .

فالحق سبحانه ليس بظلام للعبيد ؛ لأنه بيَّن الحلال والحرام ، وبيَّن الجريمة ووضع لها العقوبة ، وقد بلَّغَتْ الرسل من بداية الأمر فلا حُجَّةَ لأحد .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. (١١) ﴾ [الحج] العبادة : أنْ تطيع الله فيما أمر فتنفذه ، وتطيعه فيما نهى فتجتنبه ، بعض الناس يعبد الله هذه العبادة طالما هو فى خير دائم وسرور مستمر ، فإذا أصابه شَرٌّ أو وقع به مكروه ينقلب على وجهه ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١) ﴾ [الحج]

والحق سبحانه يريد من عبده أنْ يُقبل على عبادته فى ثبات إيمان ، لا تزعزعه الأحداث ، ولا تهز إيمانه فيتراجع ، ربك يريدك عبداً له فى الخير وفى الشر ، فى السراء وفى الضراء ، فكلاهما فتنة واختبار ، وما آمنتَ بالله إلا لأنك علمتَ أنه إله حكيم عادل

---

(١) سبب النزول : روى فيها عدة روايات ، منها :

- عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به ، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا : ما فى ديننا هذا خير ، فأنزل الله على نبيه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ .. (١١) ﴾ [الحج] . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٠٩) ، والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٥) .
- عن أبى سعيد الخدرى قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده وتشاءم بالإسلام ، فأتى النبى ﷺ فقال : أقلنى فقال : إن الإسلام لا يقال ، فقال : إنى لم أصب فى دينى هذا خيراً ، أذهب بصرى ومالى وولدى ، فقال : يا يهودى إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب ، قال : ونزلت : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. (١١) ﴾ [الحج] .

قادر ، ولا بد أنْ تـأخذ ما يجـرى عليك من أحـداث الحيـاة فى ضوء هذه الصفات .

فـإنْ أثقلتْـك الحـيـاة فـاعلم أن وراء هذه حكمـــة إنْ لم تكن لك فلأولادك من بعـدك ، فلعلهم إنْ وجدوك فى سعـة وفى خير طَمـعُوا وفسـدوا وطَغَوْا ، ولعل حـياة الضيـق وقلَّة الرزق وتعبك لتـوفر لهم متطلبات الحياة يكون دافعاً لهم .

واقــرأ قــوله تعــالى : ﴿ كَــلاَّ إِنَّ الإِنسَــانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق] وقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥ ﴾ [الأنبياء]

لا بُدَّ أنْ تعـرف هذه الحـقـائق ، وأنْ تؤمن بحكمـة ربك فى كل مـا يُجريه عليك ، سـواء أكان نعـيمـاً أو بُؤْساً ، فـإنْ أصابك مـرض أقـعدك فى بـيتك فَـقُلْ : مـاذا حدث خـارج البـيت ، أبعـدنى الله عنه وعافانى منه ؟ فلعل الخير فيما تظنه شراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ۝٢١٦ ﴾ [البقرة]

وقد أجرى علماء الإحصاء إحـصاءات على بعض بيوتنا ، فوجدوا الإخوة فى البيت الواحد ، وفى ظروف بيـئية واحدة وأب واحد ، وأم واحدة ، حتى التعليم فى المدارس على مستوى واحد ، ومع ذلك تجد أحد الأبناء مستـقيماً ملتزماً ، وتجد الآخر على النقـيض ، فلمَّا بحثوا فى سبب هذه الظاهرة وجـدوا أن الولد المستقـيم كانت فترة تربـيته وطفولته فى وقت كان والده مريضـاً ويلازم بيته لمدة ست سنوات ، فأخـذ هذا الولد أكبر قـسْط من الرعاية والتـربية ، ولم يجد الفـرصة للخروج من البيت أو الاختلاط برفاق السوء .

وفى نموذج آخر لأحد الأبناء المنحرفـين وجدوا أن سبب انحرافه

أن والده فى فترة تربيته وتنشئته كان تاجراً ، وكان كثير الأسفار ، ومع ذلك كان يُغْدِق على أسرته ، فتربَّى الولد فى سَعَة من العيش ، بدون مراقبة الأب .

وفى نموذج آخر وجدوا أخوين : أحدهما متفوق ، والآخر فاشل ، ولما بحثوا أسباب ذلك رغم أنهما يعيشان ظروفاً واحدة وجدوا أن الابن المتفوق صحته ضعيفة ، فمال إلى البيت والقراءة والاطلاع ، وكان الآخر صحيحاً وسيماً ، فمال إلى حياة الترف ، وقضى معظم وقته خارج البيت . والأمثلة فى هذا المجال كثيرة .

إذن : فالابتلاءات لها مغانم ، ومن ورائها حكَم ؛ لأنها ناشئة وجارية عليك بحكمة ربك وخالقك ، وليست من سَعْيك ولا من عمل يدك ، وما دامت كذلك فارْضَ بها ، واعبد الله بإخلاص وإيمان ثابت فى الخير وفى الشر.

ومعنى : ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. ⑪﴾ [الحج] والحرف : هو طرف الشىء ، كأن تدخل فتجد الغرفة ممتلئة فتجلس على طرف فى آخر الجالسين ، وهذا عادةً لا يكون معه تمكُّن واطمئنان ، كذلك مَنْ يعبد الله على حرف يعنى : لم يتمكَّن الإيمان من قلبه ، وسرعان ما يُخرجه الابتلاء عن الإيمان ، لأنه عبد الله عبادةً غير متمكنة باليقين الذى يصدر عن المؤمن بإله حكيم فيما يُجريه على عبده .

والآية لم تترك شيئاً من هواجس النفس البشرية سواء فى الخير أو فى الشر .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ .. ⑪﴾ [الحج] وكذلك : ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. ⑪﴾ [الحج] فأنت لا تقول : أصبتُ الخيرَ ، إنما الخير هو الذى أصابك وأتاك إلى بابك ، فأنت لا تبحث عن رزقك

بقدر ما يبحث هو عنك ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ .. ۝ ﴾ [الطلاق]

ويقول أهل المعرفة : رِزْقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعنى يعرف عنوانك أما أنت فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق فى مكان فلا تُرزَق منه بشىء ، وقد ترى الزرع فى الحقول زاهياً تأملِ فيه المحصول الوفير ، وتبنى عليه الآمال ، فإذا بعاصفة أو آفة تأتى عليه ، فلا تُرزَق منه حتى بما يسدُّ الرَّمَق .

ولنا عبرة ومثَلٌ فى ابن أُذَيْنة[1] حين ضاقت به الحال فى المدينة ، فقالوا له : إن لك صحبة بهشام بن عبد الملك الخليفة الأموى فاذهب إليه ينالك من خير الخلافة ، وفعلاً سافر ابن أذينة إلى صديقه ، وضرب إليه أكباد الإبل حتى الشام ، واستأذن فأذن له ، واستقبله صاحبه ، وسأله عن حاله فقال : فى ضيق وفى شدة . وكان فى مجلس الخليفة علماء فقال له : يا عروة ألست القائل ـ وكان ابن أُذَيْنَة شاعراً :

لَقَد علِمت ومَا الإسْرَافُ مِنْ خُلُقِى أَنَّ الذى هُوَ رِزْقِى سَوْفَ يأْتِينِى؟[2]

وهنا أحسَّ عروة أن الخليفة كسر خاطره ، وخَيَّب أمله فيه ، فقال له : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، لقد ذكَّرت منى ناسياً ، ونبَّهْتَ منى غافلاً ، ثم انصرف .

فلما خرج ابن أُذيْنة من مجلس الخليفة ، وفكَّر الخليفة فى

---

(١) هو : عروة بن يحى (ولقبه أذينة) بن مالك بن الحارث الليثى : شاعر غزل مقدم ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً ، ولكن الشعر أغلب عليه . توفى نحو ١٣٠ هـ [الأعلام للزركلى ٤/ ٢٢٧] .

(٢) ذكر هذا البيت والذى بعده خير الدين الزركلى فى كتابه الأعلام (٤/ ٢٢٧) من شعر عروة بن أذينة . وانظر : الشعر والشعراء ٢٢٥ ، فوات الوفيات ٢/ ٣٤ .

الموقف وأنَّب نفسه على تصرُّفه مع صاحبه الذى قصد خَيْره ، وكيف أنه رَدَّه بهذه الصورة ، فأراد أنْ يُصلح هذا الخطأ ، فأرسل إليه رسولاً يحمل الهدايا الكثيرة ، إلا أن رسول الخليفة كلما تبع ابن أُذَيْنة فى مكان وجده قد غادره إلى مكان آخر ، إلى أنْ وصل إلى بيته ، فطرق الباب ، وأخبره أن أمير المؤمنين قد ندم على ما كان منه ، وهذه عطاياه وهداياه .

وهنا أكمل ابن أُذَيْنة بيته الأول ، فقال :

أَسْعَى لَهُ فَيُعَنِّينى تطلُّبه ... وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانى لاَ يُعنِّينى

كذلك نلحظ فى هذه الآية : ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ .. (١١)﴾ [الحج] ولم يقابل الخير بالشر ، إنما سماها (فِتْنَة) أى : اختبار وابتلاء ؛ لأنه قد ينجح فى هذا الاختبار فلا يكون شراً فى حقِّه .

ومعنى : ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ .. (١١)﴾ [الحج] يعنى : عكس الأمر ، فبعد أنْ كان عابداً طائعاً انقلب إلى الضِّدِّ فصار عاصياً ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ .. (١١)﴾ [الحج] وخسْران الإنسان لعبادته خسران كبيرٌ لا يُجْبَر ولا يُعوِّضه شىء ؛ لذلك يقول بعدها : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾ [الحج] فهل هناك خُسْران مبين ، وخسران غير مبين ؟

نعم : الخسران هو الخسارة التى تُعوَّض ، أما الخسارة التى لا عوضَ لها فهذه هى الخسران المبين الذى يلازم الإنسان ولا يَنفكُّ عنه ، وهو خُسْران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تُعوِّضه أو تصبر عليه ، إنما يمتد للآخرة حيث لا عوضَ لخسارتها ولا صَبْر على شِدَّتها . فالخسران المبين أى : المحيط الذى يُطوِّق صاحبه .

لذلك نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التى فقدت وحيدها مثلاً : إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله ، وإنْ كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإنْ لطَمْنا الخدود وشَقَقْنَا الجيوب ، واعترضنا على قَدَر الله فيه فقد خسرنَا به الدنيا والآخرة .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن »[1] .

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين فى نفس المؤمن ، وهى بداية وعَتَبة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ ، حَسْب قوة الإيمان .

اسمع إلى هذا الحوار الذى دار بين أهل المعرفة من الزُّهَّاد ، وكيف كانوا يتباروْنَ فى الوصول إلى هذه المراقى الإيمانية ، ويتنافسون فيها ، لا عن مُبَاهاة ومفاخرة ، إنما عن نية خالصة فى الرُّقى الإيمانى .

يسأل أحد هؤلاء المتمكِّنين صاحبه : كيف حال الزهاد فى بلادكم ؟ فقال : إن أصابنا خير شكرنا ، وإن أصابنا شَرٌّ صبرنا ، فضحك الشيخ وقال : وما فى ذلك ؟! إنه حال الكلاب فى بَلْخ . أما عندنا : فإنْ أصابنا خير آثرنا ، وإنْ أصابنا شَرٌّ شكرنا .

وهذه ليست مباهاة إنما تنافس ، فكلاَ الرجلين زاهد سالك لطريق الله ، يرى نفسه محسوباً على هذا الطَريق ، فيحاول أنْ يرتقىَ فيه

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٩٩) كتاب الزهد ، وأحمد فى مسنده (٥/ ٢٤) ، والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه .

إلى أعلى مراتبه ، فإياك أنْ تظن أن الغاية عند الصبر على البلاء والشُّكْر على العطاء ، فهذه البداية وبعدها منازل أَعْلَى ومَراقٍ أسمى لِمن طلبَ العُلاَ ، وشمَّر عن ساعد الجد فى عبادة ربه .

انظر إلى أحد هؤلاء الزُّهَّاد يقول لصاحبه : ألاَ تشتاق إلى الله ؟ قال : لا ، قال مُتعجباً : وكيف ذلك ؟ قال : إنما يُشتاق لغائب ، ومتى غاب عِنى حتى أشتاق إليه ؟ وهكذا تكون درجات الإيمان وشفافية العلاقة بين العبد وربه عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه عن هذا الذى يعبد الله على حرف :

﴿ يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾

معنى : ﴿ مَا لا يَضُرُّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] هل الصنم الذى يعبده الكافر من دون الله يمكن أن يضره ؟ لا ، الصنم لا يضر ، إنما الذى يضره حقيقة مَنْ عانده وانصرف عن عبادته ، تضره الربوبية التى يعاندها والمجَازِى الذى يجازيه بعمله ، إذن : فما معنى : ﴿ يَضُرُّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] هنا ؟

المعنى : لا يضره إن انصرف عنه ولم يعبده ، ولا ينفعه إنْ عبده : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحج] نعم ضلال : لأن الإنسان يعبد ويطيع مَنْ يرجو نفعه فى أيٍّ شىء ، أو يخشى ضره فى أيٍّ شىء .

وقد ذكرنا سابقاً قول بعض العارفين : (واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه) ، ولو قلنا هذه المقولة لأبنائنا فى الكتب الدراسية ،

واهتمَّ بها القائمون على التربية لما أغرى الأولاد بعضهم بعضاً بالفساد ، ولوقفَ الولد يفكر مرة وألف مرة فى توجيهات ربه ، ونصائح أبيه وأمه ، وكيف أنه سيترك توجيهات مَنْ يحبونه ويخافون عليه ويرجُون له الخير إلى إغراء صديق لا يعرف عنه وعن أخلاقه شيئاً .

لا بُدَّ أنْ نُطعِّم أبناءنا مبادىء الإسلام ، ليعرف الولد منذ صِغَره مَنْ يحبه ومَنْ يكرهه ، ومَنْ هو أوْلَى بطاعته .

وتلحظ فى الآية أن الضر سابق للنفع : ﴿ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ .. (١٢) ﴾ [الحج] لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ؛ لأن المفسدة خروج الشىء عن استقامة تكوينه ، والنفع يزيدك ويضيف إليك ، أما الضر فينقصك ، لذلك خَيْر لك أنْ تظل كما أنت لا تنقص ولا تزيد ، فإذا وقفتَ أمام أمرين : أحدهما يجلب خيراً ، والآخر يدفع شراً ، فلا شَكَّ أنك ستختار دَفْع الشر أولاً ، وتشتغل بدَرْء المفسدة قبل جَلْب المصلحة .

وضربنا لذلك مثلاً : هَبْ أن إنساناً سيرمى لك بتفاحة ، وآخر سيرميك بحجر فى نفس الوقت ، فماذا تفعل ؟ تأخذ التفاحة ، أو تتقى أذَى الحجر ؟ هذا هو معنى « دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة » .

﴿ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) ﴾

الآية السابقة تثبت أنه يدعو مَا لا يضُرُّه ومَا لا ينفعه ، وهذه الآية تُثبت أنه يدعو مَنْ ضَرُّه أقرب من نَفْعه .

صيغة أفعل التفضيل (أقرب) تدل على أن شيئين اشتركا فى صفة واحدة ، إلا أن أحدهما زاد عن الآخر فى هذه الصفة ، فلو قُلْتَ : فلان أحسن من فلان . فهذا يعنى أن كلاهما حَسَن ، لكن زاد أحدهما عن الآخر فى الحُسْن .

فقوله تعالى : ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ .. (١٣)﴾ [الحج] إذن : هناك نَفْع وهو قريب ، لكن الضر أقرب منه ، فهذه الآية فى ظاهرها تُناقض الآية السابقة ، والحقيقة ليس هناك تناقض ، ولا بُدَّ أنْ نفهمَ هذه المسألة في ضوء قوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]

فالأوثان التى كانوا يعبدونها كان لها سَدَنة يتحكَّمون فيها وفى عابديها ، فإذا أرادوا من الآلهة شيئاً قالوا للسدنة : ادعوا الآلهة لنا بكذا وكذا ، إذن : كان لهم نفوذ وسُلْطة زمنية ، وكانوا هم الواسطة بين الأوثان وعُبَّادها ، هذه الواسطة كانت تُدرُّ عليهم كثيراً من الخيرات وتعطيهم كثيراً من المنافع ، فكانوا يأخذون كل ما يُهْدَى للأوثان .

فالأوثان - إذن - سبب فى نَفْع سدنتها ، لكن هذا النفع قصاراه فى الدنيا ، ثم يتركونه بالموت ، فمدة النفع قصيرة ، وربما أتاه الموت قبل أنْ يستفيد بما أخذه ، وإنْ جاء الموت فلا إيمانَ ولا عملَ ولا توبةَ ، وهذا معنى ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ .. (١٣)﴾ [الحج]

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾ [الحج] كلمة (بئس) تُقَال للذم وهى بمعنى : ساء وقَبُح ، والمولَى : الذى يليك ويقرُب منك ، ويُراد به النافع لك ؛ لأنك لا تقرِّب إلا النافع لك ، إما لأنه يعينك وقت الشدة ، ويساعدك وقت الضيق ، وينصرك إذا احتجتَ لِنُصْرته ، وهذا هو الوليُّ .

وإما أنْ تُقرِّبه منك ؛ لأنه يُسليك ويجالسك وتأنس به ، لكنه ضعيف لا يقوى على نُصْرتك ، وهذا هو العشير .

والأصنام التى يعبدونها بئست المولى ؛ لأنها لا تنصرهم وقت الشدة ، وبئست العشير ؛ لأنها لا تُسليهم ، ولا يأنسون بها فى غير الشدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

بعد أن تكلَّم الحق - سبحانه وتعالى - عن الكفار وأهل النار ومَنْ يعبدون الله على حَرْف ، كان لا بُدَّ أنْ يأتىَ بالمقابل ؛ لأن النفس عندها استعداد للمقارنة والتأمل فى أسباب دخول النار ، وفى أسباب دخول الجنة ، وهذا أَجْدَى فى إيقاع الحجة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار] وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة]

فذكْر النعمة وحدها دون أنْ تقابلها النِّقْمة لا تُؤتى الأثر المطلوبَ ، لكن حينما تقابل النعمة بالنقمة وَسلْب الضّر بإيجاب النفع فإنَّ كلاهما يُظهر الآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران] فإنْ آمنتَ لا تُزَحْزح عن النار فقط - مع أن هذه فى حَدِّ ذاتها نعمة - لكن تُزَحْزح عن النار وتدخل الجنة .

والإيمان : عمل قلبى ومواجيد تطمئن بها النفس ، لكن الإيمان له مطلوب : فأنت آمنتَ بالله ، واطمأنَّ قلبك إلى أن الله هو الخالق الرازق واجب الوجود .. إلخ ، فما مطلوب هذا الإيمان ؟

مطلوب الإيمان أنْ تستمع لأوامره ، لأنه حكيم ، وتثق فى قدرته لأنه قادر ، وتخاف من بطشه لأنه جبار ، ولا تيأس من بَسْطه لأنه باسط ، ولا تأمن قبضه لأنه قابض .

لقد آمنتَ بكل هذه القضايا ، فحين يأمرك بأمر فعليك أنْ تستحضر حيثيات هذا الأمر ، وأنت واثق أن ربك عز وجل لم يأمرك ولم يَنْهكَ من فراغ ، إنما من خلال صفات الكمال فيه سبحانه ، أو صفات الجلال والجبروت ، فاستحضر فى كُلِّ أعمالك وفى كُلِّ ما تأتى أو تدع هذه الصفات .

لذلك ، جمعت الآية بين الإيمان والعمل الصالح : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ .. (١٤)﴾ [الحج]

وفى سورة العصر : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.. (٣)﴾ [العصر] ليس ذلك وفقط إنما أيضاً : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

فالتواصى بالحق والصبر على الشدائد من الاستجابة لداعى الإيمان وثمرة من ثماره ؛ لأن المؤمن سيتعرَّض فى رحلة الحياة لفتَن كثيرة قد تزلزله ، وسيواجه سُخْرية واستهزاءً ، وربما تعرَّض لألوان العذاب .

فعليه - إذن - أنْ يتمسَّك بالحق ويتواصى به مع أخيه ، وعليه أن يصبر ، وأنْ يتواصى بالصبر مع إخوانه ، ذلك لأن الإنسان قد

تعرض له فترات ضَعْف وخَوَر ، فعلى القوى فى وقت الفتنة أنْ ينصحَ الضعيف .

وربما تبدَّل هذا الحال فى موقف آخر وأمام فتنة أخرى ، فَمنْ أوصيْتَه اليوم بالصبر ربما يوصيك غداً ، وهكذا يُثمِر فى المجتمع الإيمانى التواصى بالحق والتواصى بالصبر .

إذن : تواصَوْا ؛ لأنكم ستتعرضون لهزَّات ليست هزَّات شاملة جامعة ، إنما هزَّات يتعرض لها البعض دون الآخر ، فإنْ ضعُفْتَ وجدتَ من إخوانك مَنْ يُواسيك : اصبر ، تجلَّد ، احتسب . وإياك أنْ تُزحزحك الفتنة عن الحق ، أو تخرج عن الصبر ، وهذه عناصر النجاة التى ينبغى للمؤمنين التمسك بها : إيمان ، وعمل صالح ، وتواصٍ بالحق ، وتواصٍ بالصبر .

وقوله سبحانه : ﴿ **جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..** (١٤) ﴾ [الحج] الجنات : هى الحدائق والبساتين المليئة بأنواع المتَع : الزرع ، والخضرة ، والنضارة ، والزهور ، والرائحة الطيبة ، وهذه كلها بنت الماء ؛ لذلك قال : ﴿ **تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..** (١٤) ﴾ [الحج] ومعنى : ﴿ **مِن تَحْتِهَا ..** (١٤) ﴾ [الحج] أن الماء ذاتىٌّ فيها ، لا يأتيها من مكان آخر ربما ينقطع عنها ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿ **تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ..** (١٠٠) ﴾ [التوبة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**[1] (١٤) ﴾ [الحج] لأنه سبحانه لا يُعْجزه شىء ، ولا يعالج أفعاله كما يعالج البشر أفعالهم ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٨٢) ﴾ [يس]

---

(١) أى : يثيب من يشاء ويعذب من يشاء ، فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله . [قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٥٢)] .

ولو تأملتَ هذه الآية لوجدتَ الشيء الذى يريده الله ويأمر بكونه موجوداً فى الحقيقة ، بدليل أن الله تعالى يخاطبه ﴿يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] فهو - إذن - كائن فعلاً ، وموجود حقيقةً ، والأمر هنا إنما هو لإظهاره فى عالم المشاهدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ[1] فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

(يظنّ) تفيد علْماً غير يقينى وغير مُتأكد ، وسبق أنْ تكلَّمنا فى نسبة القضايا ، فهناك حكم محكوم به ومحكوم عليه ، تقول : زيد مجتهد ، فأنت تعتقد فى نسْبة الاجتهاد لزيد ، فإنْ كان اعتقادك صحيحاً فتستطيع أنْ تُقدِّم الدَليل على صحته فتقول : بدليل أنه ينجح كل عام بتفوق .

أما إذا اعتقد هذه القضية ولم يُقدِّم عليها دليلاً كأنْ سمع الناسَ يقولون : زيد مجتهد . فقال مثلهم ، لكن لا دليلَ عنده على صدْق

---

(١) ورد فى هذه الآية تأويلان لها :
١ - من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب أى بحبل إلى السماء - أى : سماء بيته - ثم ليقطع . أى : ثم ليختنق به . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم .
٢ - من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه ، فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه فإن أصله فى السماء (ثم ليقطع) أى : عن النبى الوحىَ الذى يأتيه من الله إن قدر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .
قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢١٠) : « قول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى وأبلغ فى التهكم » . وانظر الدر المنثور للسيوطى (٦/١٥ ، ١٦) وقد قال الشيخ الشعراوى - رحمة الله عليه - بكلا القولين ، فكلاهما صحيح محتمل والله أعلم .

هذه المقولة ، كالطفل الذي نُلقّنه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص] هذه قضية واقعية يعتقدها الولد ، لكن لا يستطيع أنْ يُقدِّم الدليل عليها إلا عندما يكبُر ويستوى تفكيره .

فمن أين أخذ الطفل هذه القضية واعتقدها ؟ أخذها من المأمون عليه : من أبيه أو من أستاذه ثم قلَّده . إذن : إنْ كانت القضية واقعة ، لكنْ لا تستطيع أنْ تقيم الدليل عليها فهى تقليد ، فإنِ اعتقدتَ قضية واقعة ، وأقمْتَ الدليل عليها ، فهذا أسْمى مراتب العلم ، فإنِ اعتقدتَ قضيةً غير واقعيةٍ ، فهذا جهل .

فالجاهل : مَنْ يعتقد شيئاً غير واقع ، وهذا الذى يُتعب الدنيا كلها ، ويُشْقى مَن حوله ، لأن الجاهل الأميَّ الذى لا يعلم شيئاً ، وليست لديه فكرة يعتقدها صفحة بيضاء ، تستطيع أنْ تقنعه بالحقيقة ويقبلها منك ؛ لأنه خالى الذهن ولا يعارضك .

أما الجاهل صاحب الفكرة الخاطئة فيحتاج منك أولاً أنْ تُقنعه بخطأ فكرته حتى يتنازل عنها ، ثم تُلقِى إليه بالفكرة الصواب .

فإنْ تشككْتَ فى النسبة بحيث استوت عندك نسبة الخطأ مع نسبة الصواب ، فهذا هو الشَّكُّ ، فلا تستطيع أنْ تجزم باجتهاد زيد ، ولا بعدم اجتهاده ، فإنْ غلب الاجتهاد فهو ظَنٌّ ، فإنْ غلب عدم الاجتهاد فهو وَهْم .

إذن : نسبة القضايا إما **علم** تعتقده : وهو واقع وتستطيع أنْ تقيمَ الدليل عليه ، أو **تقليد** : وهو ما تعتقده وهو واقع ، لكن لا تقدر على إقامة الدليل عليه ، أو **جهل** : حين تعتقد شيئا غير واقع ، أو **شك** : حين لا تجزم بالشىء ويستوى عندك النفى والإثبات ، أو **ظن** : حين تُرجِّح الإثبات ، أو **وهم** : حين تُرجِّح النفى .

فالظن فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ .. (١٥)﴾ [الحج] أى : يمرُّ بخاطره مجرد مرور أن الله لن ينصر محمداً ، أو يتوهّم ذلك - ولا يتوهم ذلك إلا الكفار - لأنهم يأملون ذلك فى معركة الإيمان والكفر - مَنْ ظَنَّ هذا الظنَّ فعليه أنْ ينتهىَ عنه ؛ لأنه أمر بعيد ، لن يحدث ولن يكون .

وقد ظَنَّ الكفار هذا الظن حين رَأَوْا بوادر نصر الإيمان وعلامات فوزه ، فاغتاظوا لذلك ، ولم يجدوا شيئاً يريح خاطرهم إلا هذا الظن .

لذلك ؛ يردُّ الله غيظهم عليهم ، فيقول لهم : ستظلون بغيظكم ؛ لأن النصر للإيمان ولجنوده مستمر ، فليس أمامك إلا أنْ تجعل حبلاً فى السماء وتربط عنقك به ، تشنق نفسك حتى تقع ، فإنْ كان هذا الكيد لنفسك يُنجيك من الغيظ فافعل :

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج]

لكن ما الغيظ ؟ الغيظ : نوع من الغضب مصحوب ومشُوب بحزن وأسَىً وحَسْرة حينما ترى واقعاً يحدث أمام عينيك ولا يرضيك ، وفى الوقت نفسه لا تستطيع أن تفعل شيئاً تمنع به مَا لا يُرضيك .

وهذه المادة (غيظ) موجودة فى مواضع أخرى[1] من كتاب

---

(١) وردتْ هذه المادة فى القرآن الكريم :

- يغيظ . الفعل المضارع . ورد ٣ مرات : (التوبة ١٢٠) ، (الحج ١٥) ، (الفتح ٢٩) .
- الغيظ . الاسم معرف بالـ ورد ٤ مرات : (آل عمران ١١٩ ، ١٣٤) ، (التوبة ١٥) ، (الملك ٨) .
- بغيظكم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير المخاطب للجمع ، ورد مرة واحدة : (آل عمران ١١٩) .
- بغيظهم . الاسم قبله حرف الجر الباء ومضاف إلى ضمير الغيبة للجمع . ورد مرة واحدة : (الأحزاب ٢٥) .
- لغائظون . اسم الفاعل الجمع مؤكد باللام ورد مرة واحدة : (الشعراء ٥٥) .
- تغيظاً : مصدر الفعل تغيَّظ . ورد مرة واحدة : (الفرقان ١٢) .

الله ، وقد استُعْمِلَتْ حتى للجمادات التى لا تُحسُّ ، اقرأ قول الله تعالى عن النار : ﴿ **تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ..** ⟨٨⟩ ﴾ [الملك] وقال : ﴿ **إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا** ⟨١٢⟩ ﴾ [الفرقان] فكأن النار مغتاظة من هؤلاء ، تتأهب لهم وتنتظرهم .

والغَيْظ يقع للمؤمن وللكافر ، فحين نرى عناد الكفار وسُخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ ، لكن يُذهب الله غيْظ قلوبنا ، كما قال سبحانه : ﴿ **وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ..** ⟨١٥⟩ ﴾ [التوبة]

أما غيْظ الكفار من نصْر الإيمان فسوف يَبْقى فى قلوبهم ، فربُّنا ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لهم : ثقُوا تماماً أن الله لم يرسل رسولاً إلا وهو ضامن أنْ ينصره ، فإنْ خطر ببالكم خلافُ ذلك فلن يُريحكم ويَشْفى غيظكم إلاّ أنْ تشنقوا أنفسكم ؛ لذلك خاطبهم الحق سبحانه فى آية أخرى فقال : ﴿ **قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ..** ⟨١١٩⟩ ﴾ [آل عمران]

ومعنى : ﴿ **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ..** ⟨١٥⟩ ﴾ [الحج] ﴿ **فَلْيَمْدُدْ ..** ⟨١٥⟩ ﴾ [الحج] : من مدَّ الشىء يعنى : أطاله بعد أنْ كان مجتمعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ..** ⟨١٩⟩ ﴾ [الحجر] فكلما تسير تجد أرضاً ممتدة ليس لها نهاية ، وليس لها حافَّة .

والسبب : الحبل ، يُخرجون به الماء من البئر ، لكن هل يستطيع أحد أنْ يربط حبلاً فى السماء ؟ إذن : علَّق المسألة على محال ، وكأنه يقول لهم : حتى إنْ أردتم شَنْق أنفسكم فلن تستطيعوا ، وسوف تظلُّون هكذا بغيظكم .

أو : يكون المعنى : ﴿ **إِلَى السَّمَاءِ ..** ⟨١٥⟩ ﴾ [الحج] يعنى : سماء البيت وسقفه ، كمَنْ يشنق نفسه فى سَقْف البيت .

ويمكن أن نفهم (السبب) على أنه أىّ شىء يُوصِّلك إلى السماء ، وأىّ وسيلة للصعود ، فيكون المعنى : خذوا أىَّ طريقة تُوصِّلكم إلى السماء لتمنعوا عن محمد أسباب النصر ؛ لأن نَصْر محمد يأتى من السماء فامنعوه ، وهذه أيضاً لا يقدرون عليها ، وسيظل غيظهم فى قلوبهم .

وتلحظ أننا نتكلم عن محمد ﷺ ، مع أن الآية لم تذكر شيئاً عنه ، وكل ما جاء فى الآية ضمير الغائب المفرد فى قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ.. ﴿١٥﴾﴾ [الحج] والحديث مُوجَّه للكفار المغتاظين من بوادر النصر لركْب الإيمان ، فقوله : ﴿يَنصُرَهُ .. ﴿١٥﴾﴾ [الحج] ينصر مَنْ ؟ لا بُدَّ أنه محمد ، لماذا ؟

قالوا : لأن الأسماء حينما تُطلَق تدلُّ على مَعَانٍ ، فعندما تقول « سماء » نفهم المراد ، وعندما تقول « قلب » نفهم ، « نور » نعرف المراد . والأسماء إما اسم ظاهر مثل : محمد وعلى وعمر وأرض وسماء ، وإما ضمائر تدل على هذه الأسماء الظاهرة مثل : أنا ، أنت ، هو ، هم . والضمير مُبْهم لا يُعيِّنه إلا التكلُّم ، فأنت تقول : أنا وكذلك غيرك يقول أنا أو نحن ، فالذى يُعيِّن الضمير المتكلّم به حال الخطاب ، فعُمْدة الفهم فى الضمائر ذات المتكلم وذات المخاطب . فإنْ لم يكُنْ متكلّماً ولا مخاطباً فهو غائب ، فمن أين تأتى بقرينة التعريف للغائب ؟

حين تقول : هو ، هى ، هم . مَن المراد بهذه الضمائر ؟ كيف تُعيِّنها ؟ إنْ عيَّنْتَ المتكلم بكلامه ، والمخاطب بمخاطبته ، كيف تُعيِّن الغائب ؟ قالوا : لا بُدَّ أنْ يسبقه شىء يدل عليه ، كأن تقول : جاءنى رجل فأكرمتُه ، أكرمت مَنْ ؟ أكرمت الرجل الذى تحدثتُ عنه ، جاءتنى امرأة فأكرمتُها ، جاء قوم فلان فأكرمتهم . إذن : فمرجع الضمير هو الذى يدلُّ عليه .

لكن لم يسبق ذكْر لرسول الله ﷺ قبل الضمير ليُعيِّنه ويدلُّ عليه ، نعم لم يسبق ذكْر لرسول الله ، لكن تأمَّل المعنى : الكلام هنا عن النصر بين فريق الإيمان وعلى رأسه محمد ﷺ ، وفريق الكفر وعلى رأسه هؤلاء المعاندون ، فالمقام مُتعيِّن أنه لا يعود الضمير إلا على رسول الله ﷺ[1] .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ .. ① ﴾ [القدر]

فالضمير هنا مُتعيِّن ، ولا ينصرف إلا إلى القرآن ، ولا يتعين الضمير إلا إذا كان الخاطر لا ينصرف إلى غيره فى مقامه .

اقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① ﴾ [الإخلاص] تلحظ أن الضمير سابق على الاسم الظاهر ، فالمرجع متأخر ، ومع ذلك لا ينصرف الضمير إلا إلى الله ، فإذا قيلَ : هو هكذا على انفراد لا يمكن أن ينصرف إلا إلى الله عز وجل .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ .. ⑥١ ﴾ [النحل] . على ظَهْر أىِّ شىء ؟ الذِّهْن لا ينصرف فى هذا المقام إلا إلى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ①٥ ﴾ [الحج] الاستفهام هنا ممَّنْ يعلم ، فهو استفهام للتقرير ، ليُقروا هم بأنفسهم أن غَيْظهم سيظلُّ كما هو ، لا يشفيه شىء ، وأنهم سيموتون بغيظهم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .. ①①٩ ﴾ [آل عمران]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٥٣) : « الكناية فى ﴿ يَنصُرَهُ اللَّهُ .. ①٥ ﴾ [الحج] . ترجع إلى محمد ﷺ ، وهو وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه ، لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد ﷺ ، والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدين الذى أتى به محمد ﷺ » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحج] أى : القرآن ؛ لأن الضمير هنا كما ذكرنا مرجعه مُتعيِّن ، وما دام مرجعه مُتعيناً فلا يحتاج لذكر سابق . والإنزال يحمل معنى العلو ، فإنْ رأيتَ فى هذا التشريع الذى جاءك فى القرآن ما يشقُّ عليك أو يحولُ بينك وبين ما تشتهيه نفسك ، فاعلم أنه من أَعْلى منك ، من الله ، وليس من مُسَاوٍ لك ، يمكن أنْ تستدرك عليه أو تناقشه : لماذا هذا الأمر ؟ ولماذاً هذا النهى ؟ فطالما أن الأمر يأتيك من الله فلا بُدَّ أن تسمع وتطيع ولا تناقش .

ولنا أُسْوة فى هذا التسليم بسيدنا أبى بكر لما قالوا له : إن صاحبك يقول : إنه أُسْرِى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عُرِج به إلى السماء ، فما كان من الصِّدِّيق إلا أنْ قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] ، هكذا دون مناقشة ، فالأمر من أعلى ، من الله .

وقلنا : إنك لو عُدْتَ مريضاً فوجدتَ بجواره كثيراً من الأدوية فسألته : لماذا كل هذا الدواء ؟ قال : لقد وصفه الطبيب ، فأخذت تعترض على هذا الدواء ، وتذكر من تفاعلاته وأضراره وعناصره ، وأقحمت نفسك فى مسألة لا دَخْلَ لك بها .

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢) وصححه وأقره الذهبى من حديث عائشة رضى الله عنها .

هذا قياس مع الفارق ومع الاعتراف بأخطاء الأطباء فى وصف الدواء ، لكن لتوضيح المسألة ولله المثل الأعلى ، وصدق القائل :

سُبْحانَ مَنْ يَرِثُ الطَّبِيبَ وطِبَّهُ ... ويُرِى المريض مَصَارِعَ الآسِينا

إذن : حجة كل أمر ليس أن نعلم حكمته ، إنما يكفى أنْ نعلم الآمر به .

ومعنى ﴿آيَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] أى : عجائب ﴿بَيِّنَات .. (١٦)﴾ [الحج] واضحات . وسبق أنْ ذكرنا أنَّ كلمة الآيات تُطلَق على معَانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التى تُثْبِت قدرة الله ، وبها يستقر الإيمان فى النفوس ، ومنها الليل والنهار والشمس والقمر ، والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل لإثبات صدْق بلاغهم عن الله ، والآيات التى يتكوَّن منها القرآن ، وتُسمَّى « حاملَة الأحكام » .

فالمعنى هنا ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٦)﴾ [الحج] تحمل كلمة الآيات كُلَّ هذه المعانى ، فآيات القرآن فيها الآيات الكونية ، وفيها المعجزة ، وهى ذاتها آيات الأحكام .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ (١٦)﴾ [الحج] وهذه من المسائل التى وقف الناس حولها طويلاً : ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ .. (٩٣)﴾ [النحل] وأمثالها تمسَّك بها مَنْ ليس لهم حَظٌّ من الهداية ، يقولون : لم يُرِد الله لنا الهداية ، فماذا نفعل ؟ وما ذنبنا ؟

وهذه وقفة عقلية خاطئة ؛ لأن الوَقْفة العقلية تقتضى أنْ تذكر الشىء ومقابله ، أما هؤلاء فقد نبَّهوا العقل للتناقض فى واحدة وتركوا الأخرى ، فهى - إذن - وَقْفة تبريرية ، فالضال الذى يقول : لقد كتب الله علىَّ الضلال ، فما ذنبى ؟ لماذا لم يَقُلْ : الطائع الذى كتب الله له الهداية ، لماذا يثيبه ؟!

فلماذا تركتم الخير وناقشتم فى الشر ؟

والمـتأمل فى الآيات التى تتـحدث عن مـشيـئة الله فى الإضـلال والهداية يجد أنـه سبحانه قد بيَّن مَنْ شـاء أنْ يُضلّه ، وبين مَنْ شاء أنْ يهديه ، اقرأ قـوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ [المائدة] إذن : كُفْره سابق لعدم هدايته وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَـاسِـقِـينَ (٦)﴾ [المنافـقـون] وقـوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْـدِى الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾ [القصص]

إنما يهـدى مَنْ آمن به ، أما هؤلاء الذين اختاروا الكفـر واطمأنوا إليه وركنوا ، فإن الله تعالى يخـتم على قلوبهم ، فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منهـا الكفر ، لأنهم أحـبُّوه فـزادهم منه كما زاد المـؤمنين إيماناً : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى .. (١٧)﴾ [محمد]

والهـداية هنا بمعـنى الدلالة على الخيـر ، وسـبق أنْ ضربنا لهـا مـثلاً ، ولله تعـالى المـثَل الأعلى : هَبْ أنك تسلك طريقـاً لا تعرفـه ، فتوقفتَ عند جندى المرور وسألتـه عن وجهتك فدلَّكَ عليها ، ووصف لك الطريق الـمـوصِّل إليـهـا . لكن ، هل دلالتـه لك تُلـزمك أنْ تسلك الطريق الذى وُصف لك ؟

بالطبع أنت حُـرٌّ تسير فـيه أو فى غيـره . فإذا ما حـفظتَ لرجل المـرور جميلَـهُ وشكرته عليه ، ولمس هو فـيك الخيـر ، فإنه يُعـينك بنفسه على عقبات الطريق ، وربما ركب معك ليجتاز بك منطقة خطرة يخـاف عليك منهـا . هذا مـعنى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَـدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

أما لو تعاليتَ على هذا الرجل ، أو اتهـمته بعدم المعرفـة بمسالك الطرق ، فإنه يدعُكَ وشأنك ، ويضِنُّ عليك بمجرد النصيحة .

وهكذا .. الحق - سبحانه وتعالى - دَلَّ المؤمن ودَلَّ الكافر على الخير ، المؤمن رضى بالله وقَبِل أمره ونَهْيه ، وحمد الله على هذه النعمة ، فزاده إيماناً وأعانه على مشقة العبادة ، وجعل له نوراً يسير على هَدْيه ، أما الكافر فقد تركه يتخبّط فى ظلمات كفره ، ويتردد فى متاهات العمى والضلال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ[1] وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) ﴾

هذه فئات ست أخبر الله عنها بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (١٧) ﴾ [الحج] ومعنى الفصل بينهم أن بينهم خلافاً ومعركة ، ولو تتبعتَ الآيات التى ذكرت هذه الفئات تجد أن هناك آيتين فى البقرة وفى المائدة .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [البقرة]

وفى المائدة يُقدِّم الصابئين على النصارى ، وفى هذا الموضع تأتى بالرفع بالواو ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا

---

(١) صبأ يصبأ : خرج من دين إلى دين . والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقيل : هم عباد الملائكة . وقيل : عباد الكواكب والنجوم وقيل : عُبَّاد النار . [القاموس القويم ١/٣٦٥] .

وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ [المائدة]

﴿الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١٧﴾﴾ [الحج] أى : بمحمد ﷺ ، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا .. ﴿١٧﴾﴾ [الحج] أى : اليهود ، ثم النصارى وهما قبل الإسلام ، أما الصابئون : فهؤلاء جماعة كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، ثم عبدوا الكواكب فَسُمُّوا الصابئة لخروجهم عن الدين الحق . أما المجوس : فهم عبدة النار ، والذين أشركوا : هم المشركون عَبَدَة الأصنام والأوثان .

أما التقديم والتأخير بين النصارى والصابئين ، قالوا : لأن النصارى فرقة كبيرة معروفة ولهم نبى ، أما الصابئة فكانوا جماعة خرجوا على نبيهم وخالفوه وأتَوْا بعقيدة غير عقيدته ، فهم قلَّة ، لكن سبقوا النصارى فى الترتيب الزمنى ؛ لذلك حين يراعى السَّبْق الزمنى يقول : ﴿الصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ.. ﴿١٧﴾﴾ [الحج] ، وحين يراعى الكثرة والشهرة ، يقول : ﴿النَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ .. ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة] فكلٌّ من التقديم أو التأخير مُراد لمعنى مُعيَّن .

أما قوله : ﴿وَالصَّابِئُونَ .. ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة] بالرفع على خلاف القاعدة فى العطف ، حيث عطفت على منصوب ، والمعطوف تابع للمعطوف عليه فى إعرابه ، فلماذا وسَّط مرفوعاً بين منصوبات ؟

قالوا : لا يتم الرفع بين المنصوبات إلا بعد تمام الجملة ، فكأنه قال : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى ، والصابئون كذلك ، فعطف هنا جملة تامة ، فهى مُؤخَّرة فى المعنى ، مُقدَّمة فى اللفظ ، وهكذا تشمل الآية التقديم والتأخير السابق .

لكن ، كيف ينشأ الخلاف بين الأديان ؟

ينشأ الخلاف من أن قوماً يؤمنون بإله ويؤمنون بالنبى المبلِّغ عن هذا الإله ، لكنهم يختلفون على أشياء فيما بينهم ، كما نرى الخلاف مثلاً بين المعتزلة وأهل السنة ، أو الجبرية والقدرية ، فجماعة تثبت الصفات ، وآخرون يُنكرونها ، جماعة يقولون : الإنسان مُجْبَر فى تصرفاته ، وآخرون يقولون : بل هو مختار .

وقد ينشأ الخلاف بين الأديان للاختلاف فى النبوات ، فأهل الديانات يؤمنون بالإله الفاعل المختار ، لكن يختلفون فى الأنبياء موسى وعيسى ومحمد مع أنهم جميعاً حَقٌّ . وقد ينشأ الخلاف من الادعاء ، كالذين يدَّعُون النبوة كهؤلاء الذين يعبدون النار ، أو يعبدون بوذا مثلاً .

فهذه ست طوائف مختلفة ذكرتهم الآية ، فما حكم هؤلاء جميعاً بعد بعثة محمد ﷺ ؟

نقول : أما المشركون الذين عبدوا الأصنام ، وكذلك الذين عبدوا النبوة المدَّعاة ، فهؤلاء كفار ضائعون . أما اليهود والنصارى الذين يؤمنون بإله فاعل مختار ، ويؤمنون بنبوة صادقة ، فشأنهم بعد ظهور الإسلام ، أن الله تعالى أقام لنا تصفية آخر الأمر لهذه الديانات ، فمَنْ كان يهودياً قبل الإسلام ، ومَنْ كان نصرانياً قبل الإسلام ، فإن الله أجْرى لهم تصفية عقدية هى الإسلام ، فإنْ كانوا مؤمنين الإيمان الأول بالله تعالى فعليهم أنْ يبدأوا من جديد مؤمنين مسلمين .

لذلك قال بعدها : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ [البقرة]

فبعد ظهور الإسلام بدأت لهؤلاء جميعاً ـ اليهود والنصارى

والمجوس والمشركين - حياة جديدة ، وفُتحَتْ لهم صفحة جديدة هم فيها أولاد اليوم ، حيث لزمهم جميعاً الإيمان بالله تعالى والإيمان بنبيه محمد ﷺ ، وكأن الإسلام تصفية (وأوكازيون إيمانى) يجُبُّ ما قبله ، وعفا الله عما سلف .

والحق - سبحانه - حينما تكلم عن الأجيال السابقة لنبوة محمد ﷺ . قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران]

لذلك نبَّه كُلٌّ من موسى وعيسى - عليهما السلام - بوجود محمد ﷺ وبشَّروا به ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة] والمراد اليهود والنصارى .

وقد جاء محمد ﷺ رحمة للعالمين ، وجامعاً للأديان كلها فى الإسلام الذى زاد عليها ما زاد مما تقتضيه أمور الحياة وتطورات العصر ، إلى أن تقوم الساعة .

جاء الإسلام تصفيةً لهؤلاء ، استأنفوها بإيمان ، واستأنفوها بعمل صالح ، فكان لهم أجرهم كاملاً عند ربهم لا يطعن فيهم دينهم السابق ، ولا عقائدهم الفاسدة الكافرة .

أما إنْ حدث خلاف حول النبوات كما تذكر الآية التى نحن بصددها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج] والفَصْلُ أن نعرف مَنِ المحقُّ ومَنِ المبطل ، وهكذا جمعتْ

---

(١) الإصر : العهد والعقد والميثاق . [لسان العرب - مادة : أصر] .

الآيات بين حالة الاتفاق وحالة الاختلاف وبيَّنَتْ جزاء كل منهما .

فالفصل إما فصل أماكن ، وإما فصل جزاءات ، قالوا : بالطبع فالحكم بينهم : هذا مُحِقٌّ وهذا مُبطِل سيؤدى إلى اختلاف الأماكن واختلاف الجزاءات .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج] لأن الله تعالى هو الحكَم الذى يفصل بين عباده ، والحكم يحتاج إما إلى بينة أو شهود ، والشهود لا بُدَّ أن يكونوا عُدولاً ، ولا يتحقق العدل فى الشهادة إلا بدين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا حاجة لبيِّنة ، ولا حاجةَ لشهود ؛ لأنه سبحانه يحيط علمه بكل بشىء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

ومن العجيب أن الحُكْم والفَصْل من الحق سبحانه يشمل كل السلطات : التشريعية والقضائية والتنفيذية ، فحُكْمه سبحانه لا يُؤجَّل ولا يُتحَايل عليه ، ولا تضيع فيه الحقوق كما تضيع فى سراديب وأدراج المحاكم .

أما حُكْم البشر فينفصل فيه التشريع عن القضاء عن التنفيذ ، فربما صدر الحكم وتعطَّل تنفيذه ، أما حكم الله فنافذ لا يُؤجِّله شىء .

إذن : المسألة لن تمرَّ هكذا ، بل هى محسوبة لك أو عليك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (١٨) ﴾ [الحج] يعنى : ألم تعلم ؛ لأن السّجود من هذه الأشياء سجود على حقيقته كما نعلمه فى السجود من أنفسنا ، ولكل جنس من أجناس الكون سجود يناسبه .

وسبق أن تحدثنا عن أجناس الكون وهى أربعة : أدناها الجماد ، ثم يليه النبات ، حيث يزيد عليه خاصية النمو وخاصية الحركة ، ثم يليه الحيوان الذى يزيد خاصية الإحساس ، ثم يليه الإنسان ويزيد عليه خاصية الفكر والاختيار بين البدائل .

وكل جنس من هذه الأجناس يخدم ما هو أعلى منه ، حيث تنتهى هذه الدائرة بأن كل مَا فى كون الله مُسخَّر لخدمة الإنسان ، وفى الخبر : « يا ابن آدم خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُكَ من أجلى ، فلا تشتغل بما هو لك عَمَّنْ أنت له »[(١)] .

فكان على الإنسان أن يفكر فى هذه الميْزة التى منحه ربه إياها ، ويعلم أن كل شىء فى الوجود مهما صَغُر فله مهمة يؤديها ، ودَوْر يقوم به . فأَوْلَى بك أيها الإنسان وأنت سيد هذا الكون أن يكون لك مهمة ، وأن يكون لك دور فى الحياة فلستَ بأقلَّ من هذه المخلوقات التى سخَّرها الله لك ، وإلاَّ صرْت أقلّ منها وأدنى .

إن كانت مهمة جميع المخلوقات أنْ تخدمك لأنك أعلى منها ، فانظر إلى مهمتك لمَنْ هو أعلى منك ، فإذا جاءك رسول من أعلى منك ليُنبِّهك إلى هذه المهمة كان عليك أن تشكره ؛ لأنه نبَّهك إلى ما ينبغى لك أن تشتغل به ، وإلى مَنْ يجب عليك الاتصال به دائماً ؛ لذلك فالرسول لا يصح أن تنصرف عنه أبداً ؛ لأنه يُوضِّح لك مسائل كثيرة هى مَحَلٌّ للبحث العقلى .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فُتُّك فاتك كل شىء ، وأنا أحبّ إليك من كل شىء » وقد أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٨) عن أبى هريرة رفعه « قال الله : ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غِنًى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأتُ صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك » .

وكان على العقل البشرى أن يفكر فى كل هذه الأجناس التى تخدمه : ألكَ قدرة عليها ؟ لقد خدمتْكَ منذ صغرك قبل أنْ تُوجِّه إليها أمراً ، وقبل أنْ توجدَ عندك القدرة لتأمر أو لَتتناول هذه الأشياء ، كان عليك أنْ تتنبه إلى القوة الأعلى منك ومن هذه المخلوقات ، القوة التى سخَّرَتْ الكون كله لخدمتك ، وهذا بَحْث طبيعى لا بُدَّ أن يكون .

هذه الأشياء فى خدمتها لك لم تتأبَّ عليك ، ولم تتخلف يوماً عن خدمتك ، انظر إلى الشمس والقمر وغيرهما : أقالت الشمس يوماً : إن هؤلاء القوم لا يستحقون المعروف ، فلن أطلع عليهم اليوم ؟!

الأرض : هل ضنَّتْ فى يوم على زارعها ؟ الريح : هل توقفتْ عن الهبوب . وكلها مخلوقات أقوى منك ، ولا قدرةَ لك عليها ، ولا تستطيع تسخيرها ، إنما هى فى قبضة الله - عز وجل - ومُسخَّرة لك بأمره سبحانه ، ولأنها مُسخَّرة فلا تتخلف أبداً عن أداء مهمتها .

أما الإنسان فيأتى منه الفساد ، ويأتى منه الخروج عن الطاعة لما منحه الله من منطقة الاختيار .

البعض يقول عن سجود هذه المخلوقات أنه سجود دلالة ، لا سجوداً على حقيقته ، لكن هذا القول يعارضه قول الله تعالى :
﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور]

فلكل مخلوق مهما صَغُر صلاة وتسبيح وسجود ، يتناسب وطبيعته ، إنك لو تأملت سجود الإنسان بجبهته على الأرض لوجدتَ اختلافاً بين الناس باختلاف الأحوال ، وهم نوع واحد ، فسجود الصحيح غير سجود المريض الذى يسجد وهو على الفراش ، أو جالس على مقعد ، وربما يشير بعينه ، أو أصبعه للدلالة على السجود ، فإن لم يستطع أجرى السجود على خاطره .

فإذا كان السجود يختلف بهذه الصورة فى الجنس الواحد حَسْب حاله وقدرته وطاقته ، فلماذا نستبعد أن يكون لكل جنس سجوده الخاص به ، والذى يتناسب مع طبيعته ؟

وإذا كان هذا حال السجود فى الإنسان ، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشمس أو سجود القمر ؟! ما دام الحق - سبحانه وتعالى - قال إنها تسجد ، فلا بُدَّ أن نؤمن بسجودها ، لكن على هيئة لا يعلمها إلا خالقها عز وجل .

بالله ، لو جلس مريض يصلى على مقعد أو على الفراش ، أتعرف وهو أمامك أنه يسجد ؟ إذن : كيف نطمع فى معرفة كيفية سجود هذه المخلوقات ؟

ومن معانى السجود : الخضوع والطاعة ، فمَنْ يستبعد أن يكون سجود هذه المخلوقات سجوداً على الحقيقة ، فليعتبر السجود هنا للخضوع والانقياد والطاعة ، كما تقول على إنسان متكبر : جاء ساجداً يعنى : خاضعاً ذليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]

إذن : لك أن تفهم السجود على أىِّ هذه المعانى تحب ، فلن تخرج عن مراده سبحانه ، ومن رحمة الله أنْ جعل هذه المخلوقات خاضعة لإرادته ، لا تنحلّ عنها أبداً ولا تتخلف ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

ونحن نتناقل الآن ، ونروى بعض حوارات السالكين وأهل المعرفة وأصحاب الفيوضات الذين فَهموا عن الله وتذوَّقوا لذَّة قُرْبه ، وكانوا يتحاورون

ويتنافسون لا للمباهاة والافتخار ، إنما للترقى فى القرب من الله .

جلس اثنان من هؤلاء العارفين وفى فَمِ أحدهم نَخْمة يريد أنْ يبصقها ، وبدتْ عليه الحيرة ، وهو ينظر هنا وهناك فقال لَه صاحبه: أَلْقِها واسترح ، فقال : كيف وكلما أردتُ أنْ أبصقها سمعت الأرض تُسَبِّح فاستحيْتُ أنْ أُلقيها على مُسبِّح ، فقال الآخر - ويبدو أنه كان فى منزلة أعلى منه - وقد افتعل البَصْق وقال : مُسبِّح فى مُسبِّح .

إذن : فأهل الكشف والعارفون بالله يدركون هذا التسبيح ، ويعترفون به ، وعلى قدر ما لديك من معرفة بالله ، وما لديك من فَهْم وإدراك يكون تلقِّيك وتقبُّلك لمثل هذه الأمور الإيمانية .

والحق - سبحانه وتعالى - حين قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (١٨) ﴾ [الحج] معلوم أن مَنْ فى السموات هم الملائكة ولسْنا منهم ، لكن نحن من أهل الأرض ويشملنا حكم السجود وندخل فى مدلوله ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج] ؟

كلمة : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج] تُبيِّن أن لنا قهريةً وتسخيراً وسجوداً كباقى أجناس الكون ، ولنا أيضاً منطقة اختيار . فالكافر الذى يتعوَّد التمرُّد على خالقه : يأمره بالإيمان فيكفر ، ويأمره بالطاعة فيعصى ، فلماذا لا يتمرد على طول الخط ؟ لماذا لا يرفض المرض إنْ أمرضه الله ؟ ولماذا لا يرفض الموت إنْ حَلَّ به ؟

إذن : الإنسان مُؤتمِر بأمر الله مثل الشجر والحجر والحيوان ، ومنطقة الاختيار هى التى نشأ عنها هذا الانقسام : كثير آمن ، وكثير حَقَّ عليه العذاب .

لكن ، لماذا لم يجعل الله - سبحانه وتعالى - الخَلْق جميعاً مُسخَّرين ؟

قالوا : لأن صفة التسخير وعدم الخروج عن مرادات الله تثبت لله تعالى صفة القدرة على الكل ، إنما لا تُثبت لله المحبوبية ، المحبوبية لا تكون إلا مع الاختيار : أن تكون حُرّاً مختاراً فى أنْ تُؤمنَ أو تكفر فتختار الإيمان ، وأنْ تكون حُرّاً وقادراً على المعصية ، لكنك تطيع .

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - : هَبْ أن عندك عبدين ، تربط أحدهما إليك فى سلسلة مثلاً ، وتترك الآخر حُراً ، فإنْ ناديتَ عليهما أجاباك ، فأيهما يكون أطْوعَ لك : المقهور المجبر ، أم الحر الطليق ؟ .

إذن : التسخير والقهر يُثبت القدرة ، والاختيار يُثبت المحبة .

والخلاف الذى حدث من الناس ، فكثير منهم آمن ، وكثير منهم حَقَّ عليه العذاب ، من أين هذا الاختلاف يا رب ؟ مما خلقتُه فيك من اختيار ، فمَنْ شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فكأن كفر الكافر واختياره ؛ لأن الله سَخَّره للاختيار ، فهو حتى فى اختياره مُسخَّر .

أما قوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ .. ⑱﴾ [الحج] يعنى : باختياراتهم ، وكان المفروض أن يقول فى مقابلها : وقليل ، لكن هؤلاء كثير ، وهؤلاء كثير أيضاً .

ومعنى : ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ⑱﴾ [الحج] حقَّ : يعنى ثبتَ ، فهذا أمر لا بُدَّ منه ، حتى لا يستوى المؤمن والكافر : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ [القلم] إذن : لا بُدَّ أنْ يعاقب هؤلاء ، والحق يقتضى ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يَشَاءُ (١٨)﴾ [الحج] لأن أحقيَّة العـذاب من مُساوٍ لك . قد يأتى مَنْ هو أقوى منه فيمنعه ، أو يأتى شافـع يشفع له ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُيئِّسُ هؤلاء من النجاة من عذابه ، فلن يمنعهم أحد .

فمَنْ أراد الله إهانتـه فلن يُكرمه أحـد ، لا بنُصْرته ولا بالشفـاعة له ، فالمعنى : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ .. (١٨)﴾ [الحج] أى : بالعذاب الذى حَقَّ عليه وثبت ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ .. (١٨)﴾ [الحج] يعنى : يكرمه ويُخلِّصه من هذا العذاب ، كذلك لا يوجد مَنْ يُعزه ؛ لأن عزَّته لا تكون إلا قَهْراً عن الله ، وهذا مُحَال ، أو يكون بشـافع يشفع له عند الله ، ولا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه سبحانه .

لذلك ، نقول : إن الحق سبحانه يُجـير على خَلْقه ولا يُجَار عليه ، يعنى : لا أحـد يقـول لله : هذا فى جـوارى ؛ لـذلك ذيَّلَ الآية بقـوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)﴾ [الحج]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى[(١)] :

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩)﴾

كلمة خَصْم من الألفـاظ التى يسـتوى فـيـها الـمفـرد والمـثنى

---

(١) سـبب نزول الآية : عن أبى ذر - رضى الله عنه - أنه كـان يقـسم قسـماً ، إن هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩)﴾ [الحج] نزلت فى الثلاثة والثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر ، وهـم : حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وعلى بن أبى طالب ، وعتبة وشيـبة ابنا ربيـعة ، والوليـد بن عتـبة . قـال على رضى الله عنه : أنا أول من يجـثو فى الخصومة على ركـبتيه بين يدى الله يوم القيامـة . أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٦) ، والدر المنثور للسيوطى (٦/١٨) وعزاه للبخارى ومسلم وغيرهما .

والجمع ، وكذلك المذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١)﴾ [ص]

ويقول تعالى : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٢٢)﴾ [ص]

والمراد بقوله : ﴿خَصْمَانِ .. (١٩)﴾ [الحج] قوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨)﴾ [الحج] والخصومة تحتاج إلى فَصْل بين المتخاصمين ، والفَصْل يحتاج إلى شهود ، لكن إنْ جاء الفَصْل من الله تعالى فلن يحتاج إلى شهود ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء]

وإنْ جاء عليهم بشهود من أنفسهم ، فإنما لإقامة الحجة ولتقريعهم ، يقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

فإنْ قلتَ : كيف تشهد الجوارح على صاحبها يوم القيامة وهى التى فعلت ؟

نقول : هناك فَرْق بين عمل أريده وعمل أؤديه ، وأنا أبغضه وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقائد الذى يأمر جنوده ، وعليهم أنْ يُطيعوه حتى إنْ كانت الأوامر خاطئة ، فإنْ رجعوا إلى القائد الأعلى حكَوْا له مَا كان من قائدهم ؛ ذلك لأن القائد الأعلى جعل له ولاية عليهم ، وألزمهم طاعته والائتمار بأمره .

فالخالق - عز وجل - جعل لإرادة الإنسان ولاية على جوارحه ، فالفعل - إذن - للإرادة ، وما الجوارح إلا أداة للتنفيذ . فحينما تريد مثلاً أنْ تقوم ، مجرد أن تريد ذلك تجد نفسك قائماً دون أنْ تفكر فى حركة القيام أو العضلات التى تحركتْ لتؤدى هذا العمل ، مع أنها

عملية مُعقَّدة تتضافر فيها الإرادة والعقل والأعصاب والأعضاء ، وأنت نفسك لا تشعر بشيء من هذا كله ، وهل في قيامك أمرتَ الجوارح أنْ تتحرَّك فتحركتْ ؟

فإذا كانت جوارحك تنفعل لك وتطاوعك لمجرد الإرادة ، أفلا يكون أوْلى من هذا أنْ ينفعل خَلْق الله لإرادة الله ؟

إذن : العمدة في الأفعال ليستْ الجوارح وإنما الإرادة ، بدليل أن الله تعالى إذا أراد أنْ يُعطِّل جارحة من الجوارح عطَّل الإرادة الآمرة ، وقطعها عن الجارحة ، فإذا هي مشلولة لا حركةَ فيها ، فإنْ أراد الإنسان تحريكها بعد ذلك فلن يستطيع ، لماذا ؟

لأنه لا يعلم الأبعاض التي تُحرِّك هذه الجارحة ، ولو سألتَ أعلم الناس في علم الحركة والذين صنعوا الإنسان الآلي : ما الحركة الآلية التي تتم في جسم الإنسان كي يقوم من نومه أو من جلْسته ؟ ولن يستطيع أحد أنْ يصفَ لك ما يتم بداخل الجسم في هذه المسألة .

أما لو نظرتَ مثلاً إلى الحفَّار ، وهو يُؤدِّي حركات أشبه بحركات الجسم البشري لوجدتَ صبياً يشغله باستخدام بعض الأزرار ، ويستطيع أنْ يصفَ لك كل حركة فيه ، وما الآلات التي تشترك في كل حركة . فَقُلْ لي بالله : ما الزر الذي تضغط عليه لتحرك يدك أو ذراعك ؟ ما الزر الذي تُحرِّك به عينيك ، أو لسانك ، أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة منك فينفعل لك ما تريد ؛ لأن الله تعالى خلقك ، وجعل لإرادتك السيطرة الكاملة على جوارحك ، فلا تستبعد أنْ تنفعل المخلوقات لله - عز وجل - إنْ أراد منها أنْ تفعلَ .

حتى العذاب في الآخرة ليس لهذه الجوارح والأبعاض ، إنما العذاب للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان إذا تعرَّض لألم شديد

لا يستريح منه إلا أنْ ينام ، فإذا استيقظ عاوده الألم ، إذن : فالنفس هى التى تألم وتتعذَّب لا الجوارح .

والحق سبحانه هو الذى يفصل بين هذيْن الخصميْن ، كما قال سبحانه فى آية أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (١٧)﴾ [الحج]

لذلك يقول الإمام على رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه[1]: أنا أول مَنْ يجثو بين يدى الله يوم القيامة للفصل ومعى عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب . هؤلاء فى جانب وفى الجانب المقابل : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة .

لماذا ؟لأن بين هؤلاء كانت أول معركة فى الإسلام ، وهذه أول خصومة وقعتْ فيه ، ذلك لأنهم فى معركة بدر أخرج رسول الله ﷺ قوماً للمبارزة ، وكانت عادتهم فى الحروب أنْ يخرج أقوياء القوم وأبطالهم للمبارزة بدل أنْ يُعذِّبوا القوم ويشركوا الجميع فى القتال ، ويُعرِّضوا أرواح الناس جميعاً للخطر .

ومن ذلك ما حدث بين على ومعاوية - رضى الله عنهما - فى موقعة صفِّين حيث قال على لمعاوية : ابرز إلىَّ يا معاويةُ ، فإنْ غلبتنى فالأمر لك ، وإنْ غلبتُك فاجعل الأمر لى ، فقال عمرو بن العاص وكان فى صفوف معاوية : والله ، يا معاوية لقد أنصفك الرجل ، وفى هذا حَقْنٌ لدماء المسلمين فى الجانبين .

فنظر معاوية إلى عمرو وقال : والله يا عمرو ما أردْتَ إلا أن أبرز

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٤٤) قال : « أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة » قال قيس بن عباد : وفيهم نزلت ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩)﴾ [الحج] قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : على وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .

له فيقتلنى ، ويكون لك الأمر من بعدى ، وما دُمْتَ قد قلتَ ما قلتَ فلا يبارزه غيرك فاخرج إليه .

فقام عمرو لمبارزة على ، لكن أين عمرو من شجاعة على وقوته ؟ وحمل عليٌّ على عمرو حملة قوية ، فلما أحسَّ عمرو أن علياً سيضربه ضربة تميته لجأ إلى حيلة ، واستعمل دهاءه في صَرْف عليٍّ عنه ، فكشف عمرو عن عورته ، وهو يعلم تماماً أن علياً يتورع عن النظر إلى العورة ، وفعلاً تركه على وانصرف عنه ، ونجا عمرو بحيلته هذه[1] .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا الموقف فقال :

وَلاَ خَيْرَ فى رَدِّ الرَّدَى بِدَنِيَّةٍ كَما رَدَّهَا يَوْماً بِسَوْأَتِه عَمْرُو

ويقول الشريف[2] الرضى - وهو من آل البيت - فى القصيدة التى مطلعها :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْر أَمَا لِلْهَوَى أَمْر عليْكَ ولاَ نَهْىُ

---

(١) ذكر ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » (٤/٢٧٤) أن علياً رضى الله عنه نادى : ويحك يا معاوية ، ابرز إلىَّ ولا تفنى العرب بينى وبينك ، فقال له عمرو بن العاص : اغتنمه فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة ، فقال له معاوية : والله لقد علمت أن علياً لم يقهر قط ، وإنما أردت قتلى لتصيب الخلافة من بعدى ، اذهب إليه ، فليس مثلى يُخدع . وذكروا أن علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً فضربه بالرمح فألقاه إلى الأرض فبدت سوءته فرجع عنه ؛ فقال له أصحابه : مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه ؟ فقال : اتدرون ما هو ؟ قالوا : لا قال : هذا عمرو بن العاص تلقانى بسوءته فذكرنى بالرحم فرجعت عنه ، فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له : احمد الله واحمد إستك .

(٢) هو : محمد بن الحسين أبو الحسن الرضى العلوى الحسينى ، أشعر الطالبيين ، مولده ٣٥٩ هـ ووفاته (٤٠٦ هـ) فى بغداد ، انتهت إليه نقابة الأشراف فى حياة والده . له « المجازات النبوية » ، « مجاز القرآن » ، « خصائص أمير المؤمنين على بن أبى طالب » [الأعلام للزركلى ٦ / ٩٩] .

بَلَى أنَا مُشْتَاقٌ وعِنْدِى لَوْعَةٌ وَلكِنْ مِثْلِى لاَ يُذَاعُ لَهُ سِرُّ

* وفيها يقول :

وَإنَّا أُنَاسٌ لاَ تَوسُّطَ بَيْنَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُون العَالَمِينَ أو القَبْرُ

نعود إلى بدر ، حيث اعترض الكفار حينما أخرج لهم رسول الله بعض رجال الأنصار فقالوا : هؤلاء نكرات من الأنصار ، نريد أن تُخرِج لنا أكْفَاءنا من رجال قريش ، فأخرج لهم رسول الله ﷺ علياً وحمزة وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، وأخرجوا هم عتبة وشيبة والوليد ، وكان ما كان من نُصْرة المسلمين وهزيمة المشركين[1] .

وهذا هو اليوم الذى قال الله فيه : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾ [آل عمران]

إذن : فبدر كانت فَصْلاً دنيوياً بين هذيْن الخصْمين ، ويبقى فَصْل الآخرة الذى قال فيه الإمام على : « أنا أول مَنْ يجثو بين يدى الله يوم القيامة للفصل » .

ومعنى : ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩)﴾ [الحج] أى : بسبب اختلافهم فى ربهم ، ففريقٌ يؤمن بوجود إله ، وفريقٌ يُنكره ، فريق يُثبت له الصفات ، وفريق ينفى عنه هذه الصفات ، يعنى : انقسموا بين إيمان وكفر .

---

(١) ذكر ابن هشام فى « السيرة النبوية » (٢/٦٢٥) أن عتبة بن ربيعة خرج بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم : عوف ، ومُعوذ ، ابنا الحارث ـ وأمهما عَفْراء ـ ورجل آخر يقال : هو عبد الله بن رواحة ـ فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : قُمْ يا عبيدة بن الحارث ، وقُمْ يا حمزة وقُمْ يا على ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ قالوا : نعم ، أكفاء كرام ، فبارز عبيدة ، وكان أسنَّ القوم ، عتبة ابن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز علىٌّ الوليدَ بن عتبة » .

ثم يُفصِّل القول : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج]

﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج] كأن النار تفصيل على قَدْر جسومهم إحكاماً للعذاب ، ومبالغةً فيه ، فليس فيها اتساع يمكن أنْ يُقلِّل من شدَّتها ، وليست فضفاضة عليهم .

ثم ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج] والحميم : الماء الذى بلغ منتهى الحرارة ، حتى صار هو نفسه مُحْرِقاً من شدَّة حَرِّه ، ولكَ أنْ تتصور ماءً يَغْليه ربنا عز وجل !!

وهكذا يجمع الله عليهم ألوان العذاب ؛ لأن الثياب يرتديها الإنسان لتستر عورته ، وتقيه الحر والبرد ، ففيها شمول لمنفعة الجسم ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

فالإذاقة ليستْ فى اللباس ، إنما بشىء آخر ، واللباس يعطى الإحاطة والشمول ، لتعم الإذاقة كُلَّ أطراف البدن ، وتحكم عليه مبالغةً فى العذاب .

﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾

قلنا : إن هذا الماء بلغ من الحرارة منتهاها ، فلم يغْلِ عند درجة الحرارة التى نعرفها ، إنما يُغليه ربه الذى لا يُطيق عذابَه أحدٌ . وأنت إذا صببتَ الماء المغلى على جسم إنسان فإنه يشوى جسمه من الخارج ، إنما لا يصل إلى داخله ، أمّا هذا الماء حين يُصَبُّ عليهم

فإنه يصهر ما فى بطونهم أولاً ، ثم جلودهم بعد ذلك ، فاللهم قِنَا عذابك يوم تبعث عبادك .

﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾

المقامع : هى السياط التى تقمع بها الدابة ، وتَرْدعها لتطاوعك ، أو الإنسان حين تعاقبه ، لكنها سياط من حديد ، ففيها دلالة على الذِّلَّة والانكسار ، فضلاً عن العذاب .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه مهمة هذه المقامع ، فيقول :

﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يُصوِّر حال أهل النار وما هم فيه من العذاب ومن اليأس فى أن يُخفف عنهم ، فإذا ما حاولوا الخروج من غَمٍّ العذاب جاءتهم هذه السياط فأعادتهم حيث كانوا ، والإنسان قد يتعود على نوع من العذاب فيهون عليه الأمر ، كالمسجون مثلاً الذى يُضْرب بالسياط على ظهره ، فبعد عدة ضربات يفقد الإحساس ولا يؤثر فيه ضَرْب بعد ذلك .

وقد أجاد المتنبى[1] فى وصف هذا المعنى حين قال :

رَمَانى الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ حتّى ... كَأنِّـى فِى غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

---

(١) المتنبى : هو أحمد بن الحسين أبو الطيب الكندى ، ولد (٣٠٣ هـ) بالكوفة فى محلة تسمى كندة ، نشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية ، قال الشعر صبياً ، تنبأ فى بادية السماوة ، أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه ، توفى ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

فكنتُ إذَا أَصَابتْنى سِهَامٌ   تكسَّرتْ النِّصَالُ علَى النِّصَال

لكن أنَّى يُخفَّف عن أهل النار ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

ففى إعادتهم تيئيس لهم بعد أنْ طمعوا فى النجاة ، وما أشدّ اليأس بعد الطمع على النفس ؛ لذلك يقولون : لا أفجعَ من يأس مقمع ، بعد أمل مُقْمِع . كما يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا .. (٢٩) ﴾ [الكهف] ساعة يسمعون الإغاثة يأملون ويستبشرون ، فيأتيهم اليأس فى ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) ﴾ [الحج] الحريق : الشىء الذى يحرق غيره لشدته .

● ● ●

وبعد أن تحدثتْ الآياتُ عن الكافرين ، وما حاق بهم من العذاب كان لا بُدَّ أنْ تتحدَّث عن المقابل ، عن المؤمنين ليُجرى العقلُ مقارنةً بين هذا وذاك ، فيزداد المؤمن تشبُّثاً بالإيمان ونُفْرةً من الكفر ، وكذلك الكافر ينتبه لعاقبة كُفْره فيزهد فيه ويرجع إلى الإيمان ، وهكذا ينتفع الجميع بهذه المقابلة ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يعطينا فى آيات القرآن وفى هذه المقابلات وسائل النجاة والرحمة .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) ﴾

يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى ما أعدّه لعباده المؤمنين حيث السكن : ﴿ جَنَّات تَجْرِى من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. ۝ ﴾ [الحج] والزينة : ﴿ يُحَلَّوْنَ فيهَا مِنْ أَسَاوِرَ من ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا .. ۝ ﴾ [الحج] واللباس : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ ﴾ [الحج] فجمع لهم نعيم السَّكَن والزينة واللباس .

وفى الآخرة يُنعَّم الرجال بالحرير وبالذهب الذى حُرِّم عليهم فى الدنيا ، وهنا قد يعترض النساء ، وما النعيم فى شىء تنعّمنا به فى الدنيا وهو الحرير والذهب ؟

نعم تتمتعْن بالحرير والذهب فى الدنيا ، أمّا فى الآخرة فهو نوع آخر ومتعة كاملة لا يُنغِّصها شىء ، فالحلى للمرأة خالصٌ من المكدِّرات ، وباقٍ معها لا يأخذه أحد ، ولا تحتاج إلى تغييره أو بيعه ؛ لأنه يتجدد فى يدها كل يوم ، فتراه على صياغة جديدة وشكل جديد غير الذى كان عليه[1]. كما قلنا سابقاً فى قوله تعالى عن أهل الجنة : ﴿ قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ .. ۝ ﴾ [البقرة]

فحسبوا أن طعام الجنة وفاكهتها كفاكهة الدنيا التى أكلوها من قبل ، فيُبيِّن لهم ربهم أنها ليستْ كفاكهة الدنيا ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. ۝ ﴾ [البقرة] يعنى : أنواعاً مختلفة للصنف الواحد .

ثم يقول الحق :

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ۝٢٤ ﴾

---

(١) أورد ابن القيم (فى حادى الأرواح ص ١٨٩) عن كعب الأحبار فيما أخرجه ابن أبى الدنيا : « إن لله عز وجل ملكاً منذ يوم خلق يصوغ حلى أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة ، لو أن قلباً من حلى أهل الجنة أخرج لذهب بضوء شعاع الشمس ، فلا تسألوا بعد هذا عن حلى أهل الجنة » .

(هُدُوا) هداهم الله ، فالذى دلّهم على وسائل دخول الجنة والتمتّع فيها بالسكن والزينة واللباس كذلك يهديهم الآن فى الجنة ويدلّهم على كيفية شُكر المنعم على هذه النعمة ، هذا معنى : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ..(٢٤)﴾ [الحج] هذا القول الطيب لخّصته آيات أخرى ، ومنها قوله تعالى :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ .. (٣٥)﴾[فاطر]

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ .. (٣٤)﴾ [فاطر]

فحين يدخل أهل الجنة الجنةَ ، ويباشرون النعيم المقيم لا يملكون إلا أنْ يقولوا : الحمد لله ، كما يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

وقالوا[1] : ﴿الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ..(٢٤)﴾ [الحج] هو كلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، فهذه الكلمة هى المعشوقة التى أتتْ بنا إلى الجنة ، والمعنى يسَع كل كلام طيب ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤)﴾ [إبراهيم]

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾ [الحج] أى : هداهم الله إلى طريق الجنة ، أو إلى الجنة ذاتها ، كما قال فى آية أخرى عن الكافرين :

---

(١) قاله ابن عباس ، قال : يريد لا إله إلا الله والحمد لله . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٦٢] . وقال أبو العالية : قولهم الله مولانا ولا مولى لكم . أى : فى الخصومة . وقال إسماعيل بن أبى خالد : القرآن . وقال الضحاك : الإخلاص وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . [الدر المنثور ٦/٢٤] .

﴿ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ[1] فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ[2] بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) ﴾

انتقلتْ بنا الآيات إلى موضوع جديد : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٢٥) ﴾ [الحج] بصيغة الماضى ، لأن الكفر وقع منهم فعلاً ﴿ وَيَصُدُّونَ .. (٢٥) ﴾ [الحج] بصيغة المضارع ، والقياس أن نقول : كفروا وصدُّوا ، لكن المسألة ليست قاعدة ولا هى عملية آلية ؛ لأن الصدَّ عن سبيل الله ناشىء عن الكفر وما يزال صدُّهم مستمراً .

ومعنى ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] أى : عن الجهاد ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] لأنهم منعوا المسلمين من دخوله ، وكان فى قبضتهم وتحت سيطرتهم ، وهذا ما حدث فعلاً فى الحديبية حينما اشتاق صحابة رسول الله إلى أداء العمرة والطواف بالبيت الذى طالت مدة حرمانهم منه ، فلما ذهبوا منعهم كفار مكة ، وصدُّوهم عن دخوله .

﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. (٢٥) ﴾ [الحج] كلمة حرام يُستفاد منها أنه

---

(١) العاكف فيه والباد . أى : المقيم بالحرم وحوله . والباد : غير المقيم عنده من سكان البادية ، أو البلاد البعيدة عن الحرم . [القاموس القويم ٢/٣١] .

(٢) الإلحاد : العدول عن الحق . أى : من يرد فى المسجد عملاً لا يرضى الله متلبساً بميل عن الحق ومتلبساً بظلم . [القاموس القويم ٢/١٩٠] .

مُحرَّم أنْ تفعل فيه خطأ ، أو تهينه ، أو تعتدى فيه . وكلمة (الحَرَام) وصف بها بعض المكان وبعض الزمان ، وهى خمسة أشياء : نقول : البيت الحرام وهو الكعبة ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، ثم المشعر الحرام . وهذه عبارة عن دوائر مركز الكعبة ، هذه أماكن ، ثم الخامس وهو زمن : الشهر الحرام الذى قال الله فيه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ .. (٢١٧) ﴾ [البقرة]

وحُرْمة الزمان والمكان هنا لحكمة أرادها الخالق سبحانه ؛ لأنه رَبٌّ رحيم بخَلْقه يريد أن يجعل لهم فرصة لستْر كبريائهم ، والحدّ من غرورهم ، وكانت تنتشر بين القوم الحروب والصراعات التى كانت تُذْكى نارها عادات قبلية وسعار الحرب ، حتى أن كلاً الفريقين يريد أنْ يُفنى الآخر ، وربما استمروا فى الحرب وهم كارهون لها ، لكن يمنعهم كبرياؤهم من التراجع والانسحاب .

لذلك جعل الله سبحانه لهذه الأماكن والأزمنة حُرْمة لتكون ستاراً لهذا الكبرياء الزائف ، ولهذه العزة البغيضة . وكل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فحرَّم الله القتال فى الأشهر الحرم ، حتى إذا ما استعرت بينهم حرب جاء شهر حرام ، فأنقذ الضعيف من قبضة القوى دون أنْ يجرح كبرياءه ، وربما هَزّ رأسه قائلاً : لولا الشهر الحرام كنت فعلتُ بهم كذا وكذا .

فهذه - إذن - رحمة من الله بعباده ، وستار يحميهم من شرور أنفسهم ونزواتها ويَحْقن دماءهم .

وما أشبه كبرياءَ العرب فى هذه المسألة بكبرياء زوجيْن تخاصما على مَضَض ، ويريد كل منهم أنْ يأتى صاحبه ، لكن يمنعه كبرياؤه أن يتنازل ، فجلس الرجل فى غرفته ، وأغلق الباب على نفسه ، فنظرتْ الزوجة ، فإذا به يرفع يديه يدعو الله أنْ تُصالحه زوجته ،

فذهبتْ وتزيَّنَتْ له ، ثم دفعت الباب عليه وقالت - وكأن أحداً يُجبرها على الدخول - (مُوديَّانى فين يا أم هاشم)

وكذلك ، جعل فى المكان محرماً ؛ لأن الزمن الحرام الذى حرم فيه قتال أربعة أشهر : ثلاثة سرد وواحد فرد ، الفرد هو رجب ، والسرد هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

فحرَّم أيضاً القتال فى هذه الأماكن ليعصم دماء الخَلْق أنْ تُراقَ بسبب تناحر القبائل بالغِلِّ والحِقْد والكبرياء والغرور .

يقول تعالى فى تحريم القتال فى البيت الحرام : ﴿ **وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)** ﴾ [البقرة]

فلعلَّهم حين تأتى شهور التحريم ، أو يأتى مكانه يستريحون من الحرب ، فيدركون لذة السلام وأهمية الصلح ، فيقضون على أسباب النزاع بينهم دون حرب ، فسُعَار الحرب يجُرُّ حرباً ، ولذة السلام وراحة الأمن والشعور بهدوء الحياة يَجرُّ مَيْلاً للتصالح وفضّ مثل هذه المنازعات بالطرق السلمية .

والمتأمل فى هذه الأماكن التى حرَّمها الله يجدها على مراتب ، وكأنها دوائر مركزها بيت الله الحرام وهو الكعبة ، ثم المسجد الحرام حولها ، ثم البلد الحرام وهى مكة ، ثم المشعر الحرام الذى يأخذ جزءاً من الزمن فقط فى أيام الحج .

أما الكعبة فليست كما يظنُّ البعض أنها هذا البناء الذى نراه ، الكعبة هى المكان ، أما هذا البناء فهو المكين ، فلو نقضْتَ هذا البناء القائم الآن فمكان البناء هو البيت ، هذا مكانه إنْ نزلْتَ فى أعماق الأرض أو صعدْتَ فى طبقات السماء .

إذن : فبيت الله الحرام هو هذه البقعة من الأرض حتى السماء ، ألاَ ترى الناس يُصَلُّون فى الأدوار العليا ، وهم أعلى من هذا البناء بكثير ؟ إنهم يواجهون جَوَّ الكعبة ، لا يواجهون الكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن الكعبة ممتدة فى الجو إلى ما شاء الله .

ثم يلى البيت المسجد ، وهو قطعة أرض حُكرت على المسجدية ، لكن هناك مسجد بالمكان حين تقيمه أنت ، وتجعل له بناء مثل هذا البناء الذى نتحدث فيه الآن يسمى « مسجد » بالمكان ، أو مسجد بالمكين حين يضيق علينا هذا المسجد فنخرج نصلى فى الشارع فهو فى هذه الحالة مسجد ، قالوا : ولو امتد إلى صنعاء وتواصلتْ الصفوف فكلُّه مسجد .

نعود إلى ما دار بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية ، فقد صدَّ الكفار المسلمين عن بيت الله الحرام وهم على مَرْمى البصر منه ، فاغتاظ المسلمون لذلك ، ورأى بعضهم أن يدخل مكة عُنْوة ورَغْماً عنهم .

لكن كان لرسول الله ﷺ سرٌّ بينه وبين ربه عز وجل ، فنزل على شروطهم ، وعقد معهم صُلْحاً هو « صلح الحديبية » الذى أثار حفيظة الصحابة ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله : يا رسول الله ، ألسنا على الحق ؟ قال ﷺ : « بلى » قال : أليسوا هم على باطل ؟ قال : « بلى » قال : فلِمَ نُعْطِى الدنيّة فى ديننا؟[1] .

وكان من بنود هذا الصلح : إذا أسلم كافر ودخل فى صفوف

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/١٤٨) ، والبخارى فى صحيحه (كتاب الجزية - باب ١٨) وكذا مسلم فى صحيحه (كتاب الجهاد - باب ٣٤) وفيه « أن رسول الله ﷺ قال بعد مراجعة عمر بن الخطاب له : يا بن الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله . وقال له أبو بكر : يا بن الخطاب ، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً » .

المسلمين يرده محمد ﷺ ، وإذا ذهب مسلم إليهم لا يردونه إلى المسلمين[١] .

وكان للسيدة أم المؤمنين أم سلمة - رضوان الله عليها - موقف عظيم فى هذه الشدة ، ورأى سديد ردَّ آراء الرجال إلى الرُّشْد وإلى الصواب ، وهذا مما نفخر به للمرأة فى الإسلام ، ونردّ به على المتشدِّقين بحقوق المرأة .

فلما عاد رسول الله ﷺ إلى فُسْطاطه مُغْضباً فقال لأم سلمة : « هلك المسلمون يا أم سلمة ، لقد أمرتهم فلم يمتثلوا » يعنى : أمرهم بالعودة دون أداء العمرة هذا العام .

فقالت السيدة أم المؤمنين : يا رسول الله ، إنهم مكروبون ، فقد مُنعُوا عن بيت الله وهم على مَرْأىً منه ، لكن اذهب يا رسول الله إلى ما أمرك به ربك ، فافعل فإذا رأوْك فعلْتَهُ علموا أن الأمر عزيمة - يعنى لا رجعةَ فيه - وفعلاً أخذ رسول الله بهذه النصيحة ، فذهب فحلق ، وذبح هديه وفعل الناس مثله ، وانتهت هذه المسألة[٢] .

لكن قبل أنْ يعودوا إلى المدينة شاءتْ إرادة الله أنْ يخبرهم بالحكمة فى قبول رسولِ الله لشروط المشركين مع أنها شروط ظالمة مُجْحفة :

أولاً : فى هذا الصلح وهذه المعاهدة اعتراف منهم بمحمد ومكانته ومنزلته ، وأنه أصبح مساوياً لهم ، وهذا مكسب فى حَدِّ ذاته .

ثانياً : اتفق الطرفان على وقف القتال بينهم لعدة سنوات ، وهذه

---

(١) كان رأى رسول الله ﷺ فى هذا الشرط الذى اشترطته قريش ما قاله : « من أتاهم منا فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه عليهم ، جعل الله له فرجاً ومخرجاً » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١٤٧/٤) ، ومسلم فى صحيحه (كتاب الجهاد - باب ٣٤) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٥٣/٧) بشرح فتح البارى - كتاب المغازى من حديث المسور بن مخرمة . والبيهقى فى دلائل النبوة (١٥٠/٤) .

الفترة أعطتْ المسلمين فرصة كى يتفرغوا لاستقبال الوفود ونَشْر دين الله .

ثالثاً : كان فى إمكـان رسـول الله ﷺ أنْ يدخلهم مكة رَغْـماً عن أهلها ، وكان فى مقدوره أن يقتلهم جـميعاً ، لكن ماذا سيكون موقف المؤمنين من أهل مكة والذين يسترون إيمانهم ولا يعرفهم أحد ؟ إنهم وسط هؤلاء الكفار ، وسـينالهم ما ينال الكفار ، ولو تميَّـز المؤمنون من الكفار أو خرجوا فى جانب لأمكن تفاديهم .

اقرأ قوله تعالى : ﴿ **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا**[1] **لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** (٢٥) ﴾ [الفتح]

ثم يقـول تعالى عن الـمسـجد الحـرام : ﴿ **الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ** .. (٢٥) ﴾ [الحج] أى : جميـعاً ﴿ **سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ** .. (٢٥) ﴾ [الحج] العـاكف فيـه يعنى : المـقيم ، والبـاد : القـادم إليه من خـارج مكة ، ومعـنى ﴿ **سَوَاءً** .. (٢٥) ﴾ [الحج] يعـنى : هـذان النوعـان متـساويان تماماً .

لذلك نقول للذين يحـجزون الأماكن لحسـابهم فى بيت الله الحرام خاصة ، وفى بيوت الله عامة : أريحوا أنفسكم ، فالمكان محجوز عند الله لمن سبق ، لا لمن وضع سجادته ، وشغل بها المكان .

وقد دَعَتْ هذه الآية : ﴿ **سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ** .. (٢٥) ﴾ [الحج]

---

(١) لو تزيلوا : لو تفـرقوا . قاله عـبد الرحمن بـن زيد بن أسلم فيمـا أخرجه عـنه ابن جرير الطبرى . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٧/ ٥٣٤] .

البعض لأنْ يقول : لا يجوز تأجير البيوت في مكة ، فمَنْ أراد أن ينزل في بيت ينزل فيه دون أجرة حتى يستوي المقيم والغريب[١] .

وهذا الرأي مردود عليه بأن البيوت مكان ومكين ، وأرض مكة كانت للجميع حين كان المكان حُراً يبني فيه من أراد ، أمَّا بعد أن بنى بيتاً ، وسكنه أصبح مكيناً فيه ، لا يجوز لأحد دخوله إلا بإذنه وإرادته .

وقد دار حول هذه المسألة[٢] نقاش بين الحنظلي[٣] في مكة والإمام الشافعي[٤] ، حيث يرى الحنظلي أنه لا يجوز تأجير البيوت في مكة ؛ لأنها حسب هذه الآية للجميع ، فردَّ عليه الشافعي رضي الله عنه : لو كان الأمر كذلك لما قال سبحانه في المهاجرين : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ .. ⑧﴾ [الحشر]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٥٦٤) : « كانت دُورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة ، فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر وقال : أتغلق باباً في وجه حاج بيت الله ؟ قال الرجل : إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة ، فتركه ، فاتخذ الناس الأبواب ، وروى عن مالك أن الدور ليست كالمسجد ، ولأهلها الامتناع منها والاستبداد ، وهذا هو العمل اليوم وقال بهذا جمهور من الأئمة » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٢١٤) : « هذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق ابن راهويه بمسجد الخيف وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً » وذكر احتجاج كل منهما .

(٣) هو إسحاق بن راهويه أبو يعقوب الحنظلي نزيل نيسابور وعالمها ولد عام ١٦١ هـ ، وهو أحد كبار الحفاظ ، أخذ عنه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ، اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والزهد . [الأعلام للزركلي ١/٢٩٢] وتذكرة الحفاظ للذهبي (٢/٤٣٣) .

(٤) هو : محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه نسبة الشافعية كافة ، ولد عام ١٥٠ هـ في غزة بفلسطين ، وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين ، وزار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفي بها وقبره معروف في القاهرة . له مصنفات أشهرها كتاب « الأم » ، « أحكام القرآن » [الأعلام للزركلي ٦/٢٦] .

فنسب الديار إليهم . ولَمَّا قال رسول الله ﷺ لما نزل مكة : « وهل ترك لنا عقيل من دار أو من ربع ؟»[١] وكونُ عقيل يبيع دُورهم بعد أن هاجروا ، فهذا دليل على ملكيتهم لها . لذلك رجع الحنظلى إلى رأى الشافعى .

هذا مع أن الآية تعنى البيت فقط ، لا مكة كلها ، فما كان الخلاف ليصل إلى مكة كلها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾ [الحج]

الإلحاد قد يكون فى الحق الأعلى ، وهو الإلحاد فى الله عز وجل ، أما هنا فيُراد بالإلحاد : المَيْل عن طريق الحقِّ ، وقوله : ﴿بِظُلْمٍ .. (٢٥)﴾ [الحج] الظلم فى شىء لا يسمو إلى درجة الكفر ، والإلحاد بظلم إنْ حدث فى بيت الله فهو أمر عظيم ؛ لأنك فى بيت ربك (الكعبة) .

وكان يجب عليك أن تستحى من مجرد حديث النفس بمعصية ، مجرد الإرادة هنا تُعَدُّ ذنباً ؛ لأنك فى مقام يجب أنْ تستشعر فيه الجلال والمهابة ، فكما أعطى الله لبيته مَيْزة فى مضاعفة الحسنات ، كذلك عظَّم أمر المعصية وأنت فى رحاب بيته ، فتنبَّه لهذه المسألة[٢] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٥٨٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٣٥١) وتمامه « أن أسامة بن زيد قال : يا رسول الله ، أين تنزل ؟ فى دارك بمكة ؟ قال : وهل ترك عقيل من رباع أو دور ؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب ، ولم يرثه جعفر ولا على رضى الله عنهما شيئاً . لأنهما كانا مسلمين ، وكان عقيل وطالب كافرين » .

(٢) قال ابن مسعود : من هم بخطيئة فلم يعملها - فى سوى البيت - لم تكتب عليه حتى يعملها ، ومن هم بخطيئة فى البيت لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم . أخرجه سعيد بن منصور والطبرانى فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٦) .

حتى فى أمثال أهل الريف يقولون : (تيجى فى بيت العالم وتسكر) يعنى : السُّكْر يُتصوَّر فى بيت أحد العصاة ، فى بيت فاسق ، فى خمارة ، لكن فى بيت عالم ، فهذا شىء كبير ، وجرأة عظيمة . لماذا ؟

فللمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، فإذا كان للمكان حُرْمة بحُرْمة صاحبه ، والبيت منسوب إلى الله ، فأنت تعصى ربك فى عُقْر داره ، وأىّ جرأة أعظم من الجرأة على الله ؟

وهذه خاصية للمسجد الحرام ، فكُلُّ المساجد فى أى مكان بيوت الله ، لكن هناك فَرْق بين بيت الله باختيار الله ، وبيت الله باختيار عباد الله ؛ لذلك جُعل بيتُ الله باختيار الله (البيت الحرام) هو القِبْلة التى تتجه إليها كل بيوت الله فى الأرض .

فما عاقبة الإلحاد فى بيت الله ؟ ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحج] إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، وذلك هو العذاب المهين ، والذوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدى كل مُحسٍّ به ، ولو لم يكن مطعوماً أو مشروباً ، ويقول ربنا عز وجل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]

أى : ذق الإهانة والمذلة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس ، فالإذاقة تتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق . وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة فى الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله .

وعذاب الآخرة سيكون مهولاً ، والعذاب هو إيلام الحس . إذا أحببت أن تديم ألمه ، فأبْقِ فيه آلة الإحساس بالألم .

﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

ما دام الكلام السابق كان حول البيت الحرام ، فمن المناسب أنْ يتكلم عن تاريخه وبنائه ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ بوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج] معنى بوَّأه : أى : جعله مَبَاءةً يعنى : يذهب لعمله ومصالحه ، ثم يبوء إليه ويعود ، كالبيت للإنسان يرجع إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة]

وإذ : ظرف زمان لحدث يأتى بعده الإخبار بهذا الحدث ، والمعنى خطاب لرسول الله ﷺ : اذكر يا محمد الوقت الذى قيل فيه لإبراهيم كذا وكذا . وهكذا فى كل آيات القرآن تأتى (إذ) فى خطاب لرسول الله ﷺ بحدث وقع فى ذلك الظرف .

لكن ، ما علاقة المباءة أو المكان المتبوأ بمسألة البيت ؟ قالوا : لأن المكان المتبوأ بقعة من الأرض يختارها الإنسان ؛ ليرجع إليها من متاعب حياته ، ولا يختار الإنسان مثل هذا المكان إلا توفرتْ فيه كل مُقوِّمات الحياة .

لذلك يقول تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف]

وقال فى شأن بنى إسرائيل : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [يونس] فمعنى : ﴿ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج]

أى : جعلناه مباءة له ، يرجع إليه من حركة حياته بعد أنْ أعلمنَاهُ ، ودَلَلْنَاه على مكانه(١) .

وقلنا : إن المكان غير المكين ، المكان هو البقعة التى يقع فيها ويحلُّ بها المكين ، فأرض هذا المسجد مكان ، والبناء القائم على هذه الأرض يُسمَّى « مكين فى هذا المكان » . وعلى هذا فقد دَلَّ الله إبراهيم عليه السلام على المكان الذى سيأمره بإقامة البيت عليه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول هذه المسألة : فبعضهم يذهب إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول مَنْ بنى البيت . ونقول لأصحاب هذا الرأى : الحق ـ تبارك وتعالى ـ بوَّأ لإبراهيم مكان البيت ، يعنى : بيَّنه له ؛ كأن البيت كان موجوداً ، بدليل أن الله تعالى يقول فى القصة على لسان إبراهيم : ﴿ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ .. (١٢٧) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل قد شارك أباه وساعده فى البناء لما شَبَّ ، وأصبح لديه القدرة على معاونة أبيه ، أمّا مسألة السكن فكانت وإسماعيل ما يزال رضيعاً ، وقوله تعالى : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] يدل على أن العِنْدية موجودة قبل أنْ يبلغَ إسماعيل أنْ يساعد أباه فى بناية البيت ، إذن : هذا دليل على أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم .

---

(١) أى : أريناه أصله ليبنيه ، وكان قد درس بالطوفان وغيره ، فلما جاءت مدة إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنيانه ، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثراً ، فبعث الله ريحاً فكشفت عن أساس آدم عليه السلام ، فرتب قواعده عليه . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٦٧] .

وقد أوضح الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]

وحتى نتفق على فَهْم الآية نسأل : مَنْ هُم الناس ؟ الناس هم آدم وذريته إلى أن تقوم الساعة ، إذن : فآدم من الناس ، فلماذا لا يشمله عموم الآية ، فالبيت وُضِع للناس ، وآدم من الناس ، فلا بُدَّ أن يكون وُضِع لآدم أيضاً .

إذن : يمكنك القول بأن البيت وُضِع حتى قبل آدم ؛ لذلك نُصدِّق بالرأى الذى يقول : إن الملائكة هى التى وضعتْ البيت أولاً ، ثم طمسَ الطوفانُ معالم البيت ، فدلَّ الله إبراهيم بوحى منه على مكان البيت ، وأمره أنْ يرفعه من جديد فى هذا الوادى .

ويُقال : إن الله تعالى أرسل إلى إبراهيم سحابة دَلَّتْه على المكان ونطقتْ : يا إبراهيم خُذْ على قدرى ، أى : البناء[1] .

ولو تدبرتَ معنى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ .. ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة] الرَّفْع يعنى : الارتفاع ، وهو البعد الثالث ، فكأن القواعد كان لها طُول وعَرْض موجود فعلاً ، وعلى إبراهيم أنْ يرفعها .

لكن لماذا بوَّأ الله لإبراهيم مكان البيت ؟

لما أسكن إبراهيم ذريته عند البيت قال : ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ .. ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم] كأن المسألة من بدايتها مسألة عبادة وإقامة للصلاة ،

---

(١) أخرج الديلمى عن على عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ .. ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة] قال : « جاءت سحابة على تربيع البيت ، لها رأس تتكلم : ارتفاع البيت على تربيعى ، فرفعاه على تربيعها » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١/٣٠٧] .

الصلاة للإله الحق والربِّ الصِّدْق ؛ لذلك أمره أولاً : ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ [الحج] والمراد : طَهِّر هذا المكان من كل ما يُشعِر بالشرك ، فهذه هى البداية الصحيحة لإقامة بيت الله .

وهل كان يُعقل أنْ يدخل إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى الشرك ؟ بالطبع لا ، وما أبعدَ إبراهيمَ عن الشرك ، لكن حين يُرسل الله رسولاً ، فإنه أول مَنْ يتلقَّى عن الله الأوامر ليُبلِّغ أمته ، فهو أول مَنْ يتلقى ، وأول مَنْ يُنفذ ليكون قدوةً لقومه فيُصدِّقوه ويثقوا به ؛ لأنه أمرهم بأمر هو ليس بنَجْوة عنه .

ألا ترى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] وهل خرج محمد ﷺ عن تقوى الله ؟ إنما الأمر للأمة فى شخص رسولها ، حتى يسهُلَ علينا الأمر حين يأمرنا ربنا بتقواه ، ولا نرى غضاضةً فى هذا الأمر الذى سبقنا إليه رسول الله ؛ لأنك تلحظ أن البعض يأنف أن تقول له : يا فلان اتق الله ، وربما اعتبرها إهانة واتهاماً ، وظن أنها لا تُقال إلا لمَنْ بدر منه ماَ يخالف التقوى .

وهذا فَهْم خاطىء للأمر بالتقوى ، فحين أقول لك : اتق الله . لا يعنى أننى أنفى عنك التقوى ، إنما أُذكِّرك أنْ تبدأ حركة حياتك بتقوى الله .

إذن : قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا .. (٢٦)﴾ [الحج] لا تعنى تصوُّر حدوث الشرك من إبراهيم ، وقال ﴿شَيْئًا .. (٢٦)﴾ [الحج] ليشمل النهىُ كُلَّ ألوان الشرك ، أياً كانت صورته : شجر ، أو حجر ، أو وثن ، أو نجوم ، أو كواكب .

ويؤكد هذا المعنى بقوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ .. (٢٦) ﴾ [الحج] والتطهير يعنى : الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك ، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريكَ له ، وطهارة حسِّية ممّا أصابه بمرور الزمن وحدوث الطوفان ، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً .

ومعنى ﴿ لِلطَّائِفِينَ .. (٢٦) ﴾ [الحج] الذين يطوفون بالبيت : ﴿ وَالْقَائِمِينَ .. (٢٦) ﴾ [الحج] المقيمين المعتكفين فيه للعبادة ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) ﴾ [الحج] الذين يذهبون إليه فى أوقات الصلوات لأداء الصلاة ، عبَّر عن الصلاة بالركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ (١) يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ (٢٧) ﴾

أمر الله نبيه إبراهيم بعد أنْ رفع القواعد من البيت أنْ يُؤذِّن فى الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، والخَلْق جميعاً خَلْق الله ، فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّر له أنْ يمرّ به ، أو يعيش إلى جواره ؟

فأراد الحق - سبحانه وتعالى - أنْ يُشيع هذه الميْزة بين خَلْقه جميعاً ، فيذهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإنْ كانت المساجد كلها بيوت

(١) الضامر : لطيف الجسم قليل اللحم . ومن عادة العرب أن يُضمِّروا الخيل لتكون أقوى وأنشط وأسرع . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ .. (٢٧) ﴾ [الحج] . أى : حصان ضامر متعود على السفر البعيد بنشاط وقوة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٥] .

الله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله ؛ لذلك جعله قبْلة لبيوته التى اختارها الخَلْق .

إن من علامات الولاء بين الناس أنْ نزور قصور العظماء وعِلْية القوم ، ثم يُسجل الزائر اسمه فى سِجلٍّ الزيارات ، ويرى فى ذلك شرفاً ورِفْعة ، فما بالك ببيت الله ، كيف تقتصر زيارته ورؤيته على أهله والمجاورين له أو مَنْ قُدِّر لهم المرور به ؟

ومعنى ﴿أَذِّن .. ﴿٢٧﴾﴾ [الحج] الأذان : العلم ، وأول وسائل العلم السماع بالأذن ، ومن الأذن أُخذ الأذان . أى : الإعلام . ومن هذه المادة قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ .. ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم] أى : أعلم ؛ لأن الأذن وسيلة السماع الأولى ، والخطاب المبدئى الذى نتعلَّم به ؛ لذلك قبل أنْ تتكلَّم لا بُدَّ أنْ تسمع .

وحينما أمر الله إبراهيم بالأذان لم يكُنْ حول البيت غير إبراهيم وولده وزوجته ، فلمَنْ يُؤذِّن ؟ ومَنْ سيستمع فى صحراء واسعة شاسعة وواد غير مسكون ؟ فناداه ربه : « يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا البلاغ »[1] .

مهمتك أنْ ترفَع صوتك بالأذان ، وعلينا إيصال هذا النداء إلى كل الناس ، فى كل الزمان ، وفى كل المكان ، سيسمعه البشر جميعاً ،

(١) عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال : رب ، قد فرغت . فقال : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. ﴿٢٧﴾﴾ [الحج] . قال : رب ، وما يبلغ صوتى ؟ قال : أذِّن وعلىَّ البلاغ . قال : رب ، كيف أقول ؟ قال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق . فسمعه من بين السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيئون من أقصى الأرض يلبون ؟ » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٣٢) وعزاه لابن أبى شيبة فى المصنف وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه .

وهم فى عالم الذَّرِّ وفــى أصلاب آبائهم[١] بقدرة الله تعـالى الذى قال لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ..(١٧) ﴾ [الأنفال]

يعنى : أَدِّ مــا عليك ، واترك مــا فوق قــدرتك لقدرة ربك . فــأَذَّنَ إبراهيم فى الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جـميعاً ، وإلى أن تقوم السـاعة ، فَمَنْ أجـاب ولَبَّى : لبيك اللهم لبـيك كُتِبَتْ له حَـجَّة ، حتى إن من العلمـاء من قال[٢] : مَنْ لبَّى مرة كُـتِبَتْ لَه حـجة ، ومَنْ لبَّى مرتين كتـبت له حجَّتيْن وهكذا ، لأن معنى لبَـيك : إجابةٌ لك بعد إجابة .

فإنْ قُلْتَ : إن مطالب الله وأوامره كثيرة ، فلماذا أخذ الحج بالذات هذه المكانة ؟ نقول : أركـان الإسـلام تبدأ بالشـهادتين : لا إله إلا الله محـمد رسـول الله ، ثم الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الـصوم ، ثم الحج ، لو نظرتَ إلى هذه الأركـان لوجدتَ أن الـحج هو الركن الوحيـد الذى يجتهد المسلم فى أدائه وإنْ لم يكُن مستطيـعاً له فتراه يوفر ويقتصد حتى من قُوته ، وربمـا حرمَ نفسه ليُؤدِّى فـريضة الحج ، ولا يحدث هذا ولا يتكلفه الإنسان إلا فى هذه الفريضة ، لماذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى حكم فى هذه المسألة فقال : أَذِّن ـ يأتُوكَ ، هكذا رَغْـماً عنهم ، ودون اخـتيـارهم ، ألاَ ترى الناس ينجـذبون لأداء هذه الفريضة ، وكأن قوة خارجة عنهم تجذبهم .

---

(١) عن ابن عبـاس فى قوله ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ .. (٢٧) ﴾ [الحج] . قال : قـام إبراهيم عليه السـلام على الحجـر فنادى : يا أيها الناس ، كـتب عليكم الحج ، فـاسمع من فى أصـلاب الرجال وأرحام النسـاء ، فأجاب من آمن ممن سبق فى علم الله أن يحج إلى يوم القـيامة : لبيك اللهم لبيك . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٣) وعزاه لابن جرير الطبرى .

(٢) أخرجه الديلمى فى « الفـردوس بمأثور الخطاب » (رقم ٥٣٠٣) عن على بن أبى طالب ، قال السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٣) : « أخـرجه الديلمى بسند واه عن على رفعه » . وقال الفتنى فى تذكرة الـموضوعات (ص ٧٣) : « الحديث من نسخةً مـحمد بن الأشعث التى عامة أحاديثها مناكير » .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. ㊲ ﴾ [إبراهيم] ومعنى تهوى : تأتى دون اختيار من الْهُوِىّ أى : السقوط ، وهو أمر لا يملكه الإنسان ، كالذى يسقط من مكان عالٍ ، فليس له اختيار فى ألاَّ يسقط .

وهكذا تحنُّ القلوب إلى بيت الله ، وتتحرَّق شَوْقاً إليه ، وكأن شيئاً يجذبها لأداء هذه الفريضة ؛ لأن الله تعالى أمر بهذه الفريضة ، وحكم فيها بقوله ﴿ يَأْتُوكَ .. ㉗ ﴾ [الحج] أما فى الأمور الأخرى فقد أمر بها وتركها لاختيار المكلف ، يطيع أو يعصى ، إذن : هذه المسألة قضية صادقة بنصِّ القرآن .

وبعض أهل الفَهْم يقولون : إن الأمر فى : ﴿ وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ .. ㉗ ﴾ [الحج] ليس لإبراهيم ، وإنما لمحمد ﷺ - الذى نزل عليه القرآن ، وخاطبه بهذه الآية ، فالمعنى ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ㉖ ﴾ [الحج] يعنى : اذكر يا مَنْ أُنْزل عليه كتابى إذْ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ، اذكر هذه القضية ﴿ وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ .. ㉗ ﴾ [الحج] فكأن الأمر هنا لمحمد ﷺ[1] .

لذلك لا نشاهد هذا النسك فى الأمم الأخرى كاليهود والنصارى ، فهم لا يحجون ولا يذهبون إلى بيت الله أبداً ، وقد ثبت أن موسى - عليه السلام - حج بيت الله[2] ، لكن لم يثبت أن عيسى عليه السلام

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦ / ٤٥٦٩) : « قيل : إن الخطاب لإبراهيم عليه السلام تم عند قوله ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ㉖ ﴾ [الحج] ثم خاطب الله عز وجل محمداً ﷺ فقال : ﴿ وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ .. ㉗ ﴾ [الحج] أى : أعلمهم أن عليهم الحج » .

(٢) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ فقالوا : هذا وادى الأزرق . قال : كأنى أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثنية وله جؤار إلى الله بالتلبية ، ثم أتى على ثنية هرشى ، فقال : أى ثنية هذه ؟ قالوا : ثنية هرشى : قال : كأنى أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة عليه جبة من صوف ، خطام ناقته خُلْبة ، وهو يُلبِّى » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٦) ، وأحمد فى مسنده (١/ ٢١٥) .

حَجَّ ، بدليل أن رسـول الله ﷺ قـال « يُوشك أنْ ينزل ابـن مـريم ، ويأتى حاجاً ، ويزور قبرى ، ويُدفن هناك »[(١)] .

فقـال رسول الله : « ويأتى حاجـاً » لأنه لم يمت ، وسوف يدرك عهد التكلـيف من رسول الله حين ينزل من السماء ، وسـيصلى خلف إمام من أمة محمد صلى الله على جميع أنبياء الله ورُسُله .

ومن المسائل التى نحتجُّ بها عليهم قولهم : إن الذبيح إسحق ، فلو أن الذبيح إسحق كما يدَّعُون لكانت مناسك الذبح والفداء ورَمْى الجمار عندكم فى الشام ، أمّا هذه المناسك فهى هنا فى مكة ، حيث كان إسماعيل .

ثم تذكَّروا جيداً ما قاله كتابكم المقدس[(٢)] فى الأصحاح ٢٣ ، ٢٤

---

(١) أورد القرطبى فى التذكرة (ص ٧٧٣) طبعة مكتبة دار التـراث من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده قال : غزونا مع النبى ﷺ الحديث ، وفيه : « لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى بن مريم عبد الله ورسوله حاجاً أو معـتمراً أو ليجمعن الله ذلك له » وقال محمـد بن كعب القرظى : أن رجلاً قال : إنى أشهد أنه لمكتوب فى التـوراة والإنجيل أنه يمر بالروحاء حاجاً أو معـتمراً أو يجمع الله له ذلك ، فيجعل الله حواريّه أصحاب الكهف والرقيم ، فيمرون حجاجاً فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا » .

أما دفن المسيح عليه السلام فقد ذكر القرطبى فى التذكرة (ص ٧٦٢) عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ : « ويمكث خمـساً وأربعين سنة ويدفن معى فى قبرى فـأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبى بكر وعمر » ذكره الميانشى أبو حفص .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يمكث عيـسى فى الأرض بعدما ينزل أربعين سنة ، ثم يموت ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه » ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده (حديث ٢٥٤١) .

(٢) تحقيق هذه المـسألة أن إبراهيم عليه السلام كـان عمره ٨٦ سنة عندما وُلد له إسـماعيل ، وذلك بنص الكتـاب المقـدس « كان أبرام ابن ست وثمـانين سنة لمـا ولدت هاجر إسـماعـيل لأبرام » [التكوين ١٦ : ١٦] . أما عـمره عندما وُلد له إسـحاق ، فكان عمـره ١٠٠ سنة ، بنص الكتاب : « وكان إبراهيم ابن مئـة سنة حين ولد له إسحاق ابنه » [تكوين ٢١ : ٥] أى أن عمـر إسماعيل كان ١٤ سنة حينما ولد أخوه إسحاق ، فكيف يكون وحيده هو إسحاق؟

وهاجر زوجة لإبراهيـم بنص التوراة « فأخذت ساراى امـرأة أبرام هاجر المصرية جـاريتها من بعد عـشر سنين لإقامـة أبرام فى أرض كنعان وأعطتـها لأبرام رجلها زوجـة له . فدخل على هاجر فحبلت » [تكوين : ١٦:٣ ، ٤] .

فكيف يقولون بعد هذا : « وحـدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهـيم فقال له يا إبراهيم . فقال هأنذا . فقـال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحـاق واذهب إلى أرض المريّا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » [تكوين ٢٢ : ٢] وانظر [تكوين ٢٢ : ٩ – ١٦] .

من أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أوحى إلى إبراهيم أن يصعد على جبل فاران ، ويأخذ ولده الوحيد ويذبحه ، فالوحيد إسماعيل لا إسحق ؛ لأن الله فدى إسماعيل ، ثم بشَّر إبراهيم بإسحق .

ومن حكمة الله ـ عز وجل ـ أنْ جعل فى كذب الكاذب مَنْفَذاً للحق ، وثغرات نصل منها إلى الحقيقة ؛ لذلك يقول رجال القضاء : ليست هناك جريمة كاملة أبداً ، لا بُدَّ أنْ يترك المجرم قرينة تدلُّ عليه مهما احتاط لجريمته ، كأن يسقط منه شيء ولو أزرار من ملابسه ، أو ورقة صغيرة بها رقم تليفون .. إلخ ، لذلك نقول : الجريمة لا تفيد ؛ لأن المجرم سيقع لا محالة فى يد مَنْ يقتصُّ منه .

ولرجال القضاء ووكلاء النيابة مقدرة كبيرة على استخلاص الحقيقة من أفواه المجرمين أنفسهم ، فيظل القاضى يحاوره إلى أنْ يجد فى كلامه ثغرةً أو تضارباً يصل منه إلى الحقيقة .

ذلك لأن للصدق وجهاً واحداً لا يمكن أنْ يتلجلج صاحبه أو يتردد ، أمّا الكذب فله أكثر من وجه ، والكاذب نفسه لو حاورتَهُ أكثر من مرة لوجدتَ تغييراً وتضارباً فى كلامه ؛ لذلك العرب يقولون : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً . يعنى : تذكَّر ما قُلْته أولاً ، حتى لا تُغيِّره بعد ذلك .

ومن أمثلة الكذب الذى يفضح صاحبه قَوْلُ أحدهم للآخر : هل تذكر يوم كنا فى مكان كذا ليلة العيد الصغير ، وكان القمر ظهراً !! فقال : كيف ، يكون القمر مثل الظهر فى آخر الشهر ؟

وقد يلجأ القاضى إلى بعض الحِيَل ، ولا بُدَّ أنْ يستخدم ذكاءه لاستجلاء وجه الحق ، كالقاضى الذى احتكم إليه رجلان يتهم أحدهما الآخر بأنه أخذ ماله أمانة ، ثم أخذها لنفسه ودفنها فى موضع كذا

وكذا ، فلما حاور القاضى المتهم أنكر فانصرف عنه ، وتوجَّه إلى صاحب الأمانة ، وقال له : اذهب إلى هذا المكان ، وابحثْ لعلَّك تكون قد نسيتَه هنا أو هناك .

أو لعلّ آخر أخذه منك ، فذهب صاحب المال ، وفجأة سأل القاضى المتهم : لماذا تأخر فلان طوالَ هذا الوقت ؟ فردَّ المتهم : لأن المكان بعيدٌ يا سيادة القاضى . فخانتْه ذاكرته ، ونطق بالحق دون أن يشعر .

ثم يقول تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً .. (٢٧) ﴾ [الحج] ورجالاً هنا ليست جَمْعاً لرجل ، إنما جمع لراجل ، وهو الذى يسير على رِجْلَيْه ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ .. (٢٧) ﴾ [الحج] الضامر : الفَرَس أو البعير المهزول من طول السفر .

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهى ﴿ يَأْتُوكَ .. (٢٧) ﴾ [الحج] فالجميع حريص على أداء الفريضة حتى إنْ حَجَّ ماشياً .

وقوله : ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] أى : من كل طريق واسع ﴿ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] يعنى : بعيد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾

كلمة ﴿ مَنَافِعَ .. (٢٨) ﴾ [الحج] كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع النفع : مادية دنيوية ، أو دينية أُخروية ، ولا ينبغى أنْ نُضيِّق

ما وسَّعه الله ، فكُلٌّ ما يتصل بالحج من حركات الحياة يُعَد من المنافع ، فاستعدادك للحج ، وتدبير نفقاته وأدواته وراحلته فيها منافع لك ولغيرك حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود .

ما يتم من حركة بيع وشراء فى مناطق الحج ، كلها منافع متبادلة بين الناس ، التاجر الذى يبيع لك ، وصاحب البيت الذى يُؤجِّره لك ، وصاحب السيارة التى تنقلك .

إذن : المنافع المادية فى الحج كثيرة ومتشابكة ، متداخلة مع المنافع الدينية الأخروية ، فحين تشترى الهَدْى[1] مثلاً تؤدى نُسُكاً وتنفع التاجر الذى باع لك ، والمربِّى الذى ربَّى هذا الهَدْى ، والجزار الذى ذبحه ، والفقير الذى أكل منه .

إذن : لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسعة ، فيها نَفْع لك وللناس من حيث لا تدرى ، ولك أنْ تنظرَ فى الهدايا التى يجلبها الحجاج معهم لأهليهم وذويهم ، خاصة المصريين منهم ، فترى بعضهم ينشغل بجَمْع هذه الأشياء قبل أنْ يُؤدِّى نُسُكه ويقضى معظم وقته فى الأسواق ، وكأنه لن يكون حاجاً إلا إذا عاد مُحمّلاً بهذه الهدايا .

لذلك كان يأتى إلينا بعض هؤلاء يسألون : أنا علىَّ دَم مُتْعة[2]

---

(١) الهَدْى : الذبيحة تُهْدى إلى الحرم فى الحج [القاموس القويم ٢/٣٠١] وهو مستحب للحاج المفرد ، والمعتمر المفرد . وواجب على القارن والمتمتع ، وكذلك على من ترك واجباً من واجبات الحج كرمى الجمار أو طواف الوداع . وكذلك واجب على من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام ، غير الوطء ، كالتطيب والحلق . [انظر تفصيل هذا وشروط الهدى فى كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/٥٣١] .

(٢) التمتع : هو الاعتمار فى أشهر الحج ، ثم يحج من عامه الذى اعتمر فيه ، وسمى تمتعاً للانتفاع بأداء النسكين فى أشهر الحج فى عام واحد ، من غير أن يرجع إلى بلده . وصفة التمتع أنْ يُحرِم من الميقات بالعمرة وحدها ، ويقول عند التلبية « لبيك بعمرة » ويؤدى مناسك العمرة ، ثم يتحلل من إحرامه ويتمتع بكل ما كان مُحرماً عليه إلى أن يجىء يوم التروية ، فيحرم من مكة بالحج . وهذا يجب عليه الهَدْى [فقه السنة ١/٤٦٥ ، ٤٦٦] .

وليس معى نقود ، فماذا أفعل ؟ يريد أن يصوم . صحيح : كيف سيُؤدى ما عليه وقد أنفق كُلَّ ما معه ؟ فكنت أقول له : اعْطنى حقيبة سفرك ، وسأبيع ما بها ، ولن أُبقى لك إلا ما يكفيك من نفَقات حتى تعود .

أليست هذه كلها من المنافع ؟

ومن منافع الحج أن الحاجَّ منذ أنْ ينوى أداء هذه الفريضة ويُعد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أنْ يُعيد حساباته من جديد ، ويُصلح من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهى عَمَّا كان يقع فيه من معصية الله ، ويُصلح ما بينه وبين الناس ، إذن : يجرى عملية صَقْل خاصة تُحوِّله إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون أَهْلاً لرؤية بيت الله والطواف به .

ومن الإعداد للحج أنْ يتعلّم الحاجُّ ما له وما عليه ، ويتأدب بآداب الحج فيعرف محظوراته وما يحرُم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هنْدامه وملابسه التى يزهو بها ، ومكانته التى يفتخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يُسوِّى بين الجميع .

يتعلم كيف يتأدَّب مع نفسه ، ومع كل أجناس الكون من حوله[(١)] ، مع نفسه فلا يُفكّر فى معصية ، ولا تمتدّ يده حتى على شعرة من شعره ، أو ظُفْر من أظافره ولا يقْربُ طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة .

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل فى الإحرام يحرص كل الحرص

---

(١) يقصد صيد المحرم بالحج أو العمرة ، يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ .. ۝ ﴾ [المائدة] ، ويقول أيضاً : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا .. ۝ ﴾ [المائدة] .

على هذه الأحكام ، وأتحدى أىَّ إنسان ينوى الحج ويأخذ فى الإحرام به ، ثم يفكر فى معصية ؛ لأنه يُعِدُّ نفسه لمرحلة جديدة يتطهر فيها من الذنوب ، فكيف يكتسب المزيد منها وقد أتى من بلاد بعيدة ليتطهر منها ؟

وفى الحجِّ يتأدب الحاج مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع النبات فلا يقطع شجراً . يتأدب حتى مع الجماد الذى يعتبره أَدْنى أجناس الكون ، فيحرص على تقبيل الحجر الأسود ، ويجتهد فى الوصول إليه ، فإنْ لم يستطع أشار إليه بيده .

إن الحج التزام وانضباط يفوق أىَّ انضباط يعرفه أهل الدنيا فى حركة حياتهم ، ففى الجج ترى هذا الإنسان السيد الأعلى لكل المخلوقات كَمْ هو منكسر خاضع مهما كانت منزلته ، وكم هى طمأنينة النفس البشرية حين تُقبِّل حجراً وهى راضية خاضعة ، بل ويحزن الإنسان إذا لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج]

يذكروا اسم الله ؛ لأن كل أعمال الحج مصحوبة بذكر الله وتلبيته ، فَمَا من عمل يُؤدِّيه الحاجّ إلا ويقول : لبيك اللهم لبيك . وتظل التلبية شاغله ودَيْدنه إلى أنْ يرمى جمرة العقبة ، ومعنى « لبيك اللهم لبيك » أن مشاغل الدنيا تطلبنى ، وأنت طلبتنى لأداء فَرْضك علىَّ ، فأنا أُلبِّيك أنت أولاً ؛ لأنك خالقى وخالق كل ما يشغلنى ويأخذنى منك .

والأيام المعلومات هى : أيام التشريق[١] .

ومعنى : ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. ﴿٢٨﴾﴾ [الحج] أى : يشكرون الله على هذا الرزق الوقتى الذى يأكلون منه ويشربون ، ويبيعون ويشترون فى أوقات الحج . أو يشكرون الله على أنْ خلقَ لهم هذه الأنعام ، وإنْ لم يحجُّوا ، ففى خَلْق الأنعام - وهى الإبل والبقر والغنم والماعز - وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة ، ففضلاً عن الانتفاع بلحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أنْ سخَّرها لكم ، فلولا تسخير الله لها لَمَا استطعتُم أنْ تنتفعوا بها ، فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضخم يقوده الطفل الصغير ، ويُنيخه ويحمله فى حين لم يستطع الإنسان تسخير الثعبان مثلاً أو الذئب .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ .. ﴿٧٢﴾﴾ [يس]

لذلك نذكر الله ونشكره على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أَكْلاً ، أو استمتاعاً بها بَيْعاً أو زينة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٢١٧) أربعة أقوال فى تأويل الأيام المعلومات :
- أيام العشر الأُوَل من شهر ذى الحجة . قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعرى ومجاهد وغيرهم وهو مذهب الشافعى والمشهور عن أحمد بن حنبل .
- يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وهو أيام ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ من شهر ذى الحجة وهى المسماة بأيام التشريق . قاله ابن عباس وابن عمر وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه .
- يوم النحر ويومان بعده . قاله ابن عمر والسدى وهو مذهب مالك .
- يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق . قاله زيد بن أسلم أى أيام ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ من شهر ذى الحجة .

ولولا أن الله تعالى ذَلَّلها لخِدمتك ما استطعْتَ أنت تذليلها والانتفاع بها ؛ لذلك من حكمة الله أنْ يترك بعض خَلْقه غير مُسْتأنس ، ولا يمكن لك بحال أن تستأنسه أو تُذلّله لتظل على ذِكْر لهذه النعمة ، وتشكر الله عليها .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالبرغوث ، وهو من أَدْنى هذه المخلوقات ، ولا تكاد تراه ، ومع ذلك لا تقدر عليه ، وربما أقضَّ مَضْجعك ، وأقلق نومك طوال الليل . وتلمس هذه النعمة فى الجمل الذى يقوده الصبى الصغير ، إذا حرن[1] منك فلا تستطيع أن تجعله يسير رغماً عنه ، أو صَالَ فلا يقدر عليه أحد ، وقد يقتل صاحبه ويبطش بمَنْ حوله .

إذن : لا قدرة لك عليه بذاتك ، إنما بتذليل الله يمكن الانتفاع به ، فتسوقه إلى نَحْره ، فيقف ساكناً مُسْتسلماً لك .

والمتأمل فى حال الحيوانات التى أحلها الله لنا يجد أمرها عجيباً ، فالحيوان الذى أحلَّه الله لك تظل تنتفع به طوال عمره ، فإذا ما تعرّض لما يُزهِق روحه ، ماذا يفعل ؟ يرفع رأسه إلى أعلى ، ويعطيك مكان ذَبْحه ، وكأنه يقول لك : أنا فى اللحظات الأخيرة فاجتهد فى أنْ تنتفع بلحمى ، وأهل الريف إذا شاهدوا مثل هذه الحالة يقولون : طلب الحلال يعنى الذبح . أما الحيوان الذى لا يُذبح ولا يُحله الله فيموت مُنكَّس الرأس ؛ لأنه لا فائدة منه .

هذا الحيوان الذى نتهمه بالغباء ونقول أنه بهيم .. الخ لو فكرتَ

---

(١) حرنت الناقة : قامت فلم تبرح . [أى : رفضت السير] . لا تنقاد ، إذا استُدِر [طُلِب منها] جريها وقفت . [لسان العرب ـ مادة : حرن] .

فيه لَتغيَّر رأيُك ، فالحمار الذى نتخذه رَمْزاً للغباء وعدم الفَهْم تسوقه أمامك وتُحمِّله القاذورات وتضربه فلا يعترض عليك ولا يخالفك ، فإنْ نظفْته وزيَّنْتَه بلجام فضة ، وبردعة قطيفة تتخذه رُكُوبة وزينة ويسير بك ويحملُك ، وأنت على ظهره ، فإنْ غضبتَ عليه واستخدمْته فى الأحمال وفى القاذورات تحمَّل راضياً مطيعاً..

وانظر إلى هذا الحمار الذى نتخذه مثالاً للغباء ، إذا أردتَ منه أن يقفز قناة أوسع من مقدرته وإمكانياته ، فإنه يتراجع ، ومهما ضربتَه وقسوْتَ عليه لا يُقدم عليها أبداً ؛ لأنه يعلم مدى قفزته ، ويعلم مقدرته ، ولا يُقدِم على شىء فوق ما يطيق - وبعد ذلك نقول عنه : حمار !!

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَكُلُوا[1] مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾ [الحج]

البائس : هو الذى يبدو على سحْنته وشكله وزيِّه أنه فقير محتاج ، أما الفقير فهو محتاج الباطن ، وإنْ كانَ ظاهره اليُسْر والغِنَى ، وهؤلاء الفقراء لا يلتفت الناس إليهم ، وربما لا يعلمون حالهم وحاجتهم ، وقد قال الله فيهم : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا.. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

والمعنى : كُلُوا مما يُبَاح لكم الأكل منه ، وهى الصدقة المحضة ، أو الهدية للبيت غير المشروطة بشىء ، يعنى : لا هى دم قِران أو

(١) قال أبو بكر الجصاص (ت ٣٧٠ هـ) فى كتابه « أحكام القرآن » ط . دار الكتب العلمية (٣٠٧/٣) : « ظاهره يقتضى إيجاب الأكل ، إلا أن السلف متفقون على أن الأكل منها ليس على الوجوب ، وقد رُوى عن عطاء والحسن وإبراهيم ومجاهد قالوا : « إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل » .

تمتُّع ، ولا هـى فدية لمخـالفة أمـر من أمور الإحـرام ، أو كانت نذراً فهذه كلها لا يؤكَل منها[1] .

إذن : كلوا من الصدقة والتطوع ، وأطعموا كذلك البائس والفقير ، ومن رحمة الله بالفقراء أنْ جعل الأغنياء والمـياسير هم الذين يبحثون عن الذبائح ويشتـرونها ويذهبون لمكان الذبح ويـتحمَّلون مشـقة هذا كله ، ثم يبحثون عن الفقير ليـعطوه وهو جالس فى مكانه مستريحاً ، يأتيه رِزْقه من فَضْل الله سهلاً مُيسَّراً .

لذلك يقـولون : من شـرف الفقـير أنْ جـعله الله ركناً من أركـان إسلام الـغنىّ ، أى : فى فريضـة الزكاة ، ولم يجـعل الغنى ركناً من أركان إسلام الفقير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ[2] وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾

---

(١) قال الجصـاص فى « أحكام القرآن » (٣/ ٣٠٧) : « الناس فى دم القران والمـتعة على قـولين : منهم مَنْ لا يـجيـز الأكل منـه . ومنهم من يبـيح الأكل منه ولا يوجـبـه » وقـال الشافعى فى كتـاب الأم (٢/٣٤٠) : « الهدى هديان : واجب وتطوع ، فكل ما كان أصله واجبـاً على إنسان ليس له حبسه ، فلا يأكل منه شيـئاً وذلك مثل : هدى الفـساد والطيب وجزاء الصيد والنذور والمتعة ، وإن أكل من الهدى الواجب تصدق بقيمة ما أكل منه . وكل ما كان أصله تطوعاً مثل الضحـايا والهدايا تطوعاً أكل منه وأطعم وأهدى وادخر وتصدق ، وأحبّ إلىّ أن لا يأكل ولا يحبس إلا ثلثاً ويهدى ثلثاً ويتصدق بثلث » .

(٢) قال الزجاج : لا يعـرف أهل اللغة التفث إلا من التفسـير . وقال أبو عبيـدة : لم يجىء فيه شعـر يحتج به . وقـال ابن الأعرابى : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الحج] . قال : قـضاء حوائجهم من الحلق والتنظيف . [لسان العرب ـ مادة : تفث] .

﴿لْيَقْضُوا .. (٢٩)﴾ [الحج] كلمة قضاء تُقال ، إما لقضاء الله الذى يقضيه على الإنسان مثلاً ، وهو أمر لازم محكوم به ، وإما قضاء من إنسان بين متخاصمين ، وأول شىء فى مهمة القضاء أن يقطع الخصومة ، كأن المعنى ﴿لْيَقْضُوا .. (٢٩)﴾ [الحج] أى : يقطعوا .

ومعنى ﴿تَفَثَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الحج] لما نزل القرآن بهذه الكلمة لم تكن مستعملة فى لسان قريش ، ولم تكن دائرة على ألسنتهم ، فسألوا عنها أهل البادية ، فقالوا : التفثُ يعنى : الأدران والأوساخ التى تعلَقُ بالجسم ، فقالوا : والله لم نعرفها إلا ساعةَ نزل القرآن بها .

فالمراد - إذن - ليقطعوا تفثهم أى الأدران التى لحقتهم بسبب التزامهم بأمور الإحرام ، حيث يمكث الحاجُّ أيام الحج مُحْرِماً لا يتطيب ، ولا يأخذ شيئاً من شعره أو أظافره ، فإذا ما أنهى أعمال الحج وذبح هَدْيه يجوز له أنْ يقطع هذا التفث ، ويزيل هذه الأدران بالتحلُّل من الإحرام ، وفعْل ما كان محظوراً عليه .

وقوله تعالى : ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الحج] إن كان قد نذر لله شيئاً فعليه الوفاء به .

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾ [الحج] يعنى : طواف الإفاضة ، والطواف : أنْ تدور حول شىء بحيث تبدأ وتنتهى ، وتبدأ وتنتهى ، وهكذا ، وقد وصف البيت بأنه عتيق ، وكلمة عتيق استعملت فى اللغة استعمالات واسعة ، منها : القديم ، وما دام هو أول بيت وُضِع للناس فهو إذن قديم ، والقدَم هنا صفة مدح ؛ لأنها تعنى الشىء الثمين الذى يُحافظ عليه ويُهتَم به .

كما نرى عند بعض الناس أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها

ويتوارثونها يسمونها « العاديات » مثل : التحف وغيرها ، وكلما مَرَّ عليها الزمن زادتْ قيمتها ، وغلا ثمنها .

والعتيق : الشيء الجميل الحسن ، والعتيق : المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق ؟

وَصْف البيت بالقِدَم يشمل كُلَّ هذه المعانى : فهو قديم ؛ لأنه أول بيت وُضِع للناس ، وهو غالٍ ونفيس ونادر حيث نرى فيه مَا لا نراه فى غيره من آيات ، ويكفى أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذى لا مثيلَ له .

وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير ؛ لأن الله حفظه من اعتداء الجبابرة ، ألاَ ترى قصة الفيل ، وما فعله الله بأبرهة حين أراد هَدْمه ؟ حتى الفيل الذى كان يتقدَّم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداءٌ على بيت الله ، فتراجع عن البيت ، وأخذ يتوجَّه أى وجهة أرادوا إلا ناحية الكعبة .

ويُقال : إن رجلاً[1] تقدّم إلى الفيل . وقال فى أذنه : ابْرُك محمود - اسم الفيل - وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام . وقد عبَّر الشاعر[2] عن هذا الموقف ، فقال :

حُبِسَ الفيل بالمُغَمَّسِ حتَّى ظَلَّ يعوى كأنه مَعْقُور[3]

ثم ينزل الله عليهم الطير الأبابيل التى ترميهم بالحجارة حتى الموت .

---

(١) هو : نفيل بن حبيب الخثعمى . فيما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٥٢) .

(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى .

(٣) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ /٦٠) هذا البيت ضمن أبيات أخرى لأمية بن أبى الصلت .

لذلك لما ذهب عبد المطلب جَدُّ الرسول ﷺ ليُكلِّم أبرهة فى الإبل المائة التى أخذها من إبله ، قال أبرهة : لقد كنتُ أهابك[1] حين رأيتُك ، لكنك سقطت من نظرى لما كلَّمتنى فى مائة بعير أصبْتها لك ، وتركتَ البيت الذى فيه مجدُكم وعزكم .

فماذا قال عبد المطلب ؟ قال : أما الإبل فإنها لى ، أما البيت فله رَبٌّ يحميه .

البعض يتهم عبد المطلب لمقالته هذه بالسلبية ، وليست هذه سلبية من كبير قريش ، إنما ثقةٌ منه فى حماية الله لبيته ؛ لذلك رَدَّه إلى أقوى منه ، وكأنه قال : إنْ كنتُ أحميه أنا ، فسأحميه بقوتى وقدرتى وحيلتى ، لكننى أريد أنْ أرعبه بقدرة الله وقوته ، وما سلَّمتُ البيت إلاَّ وأنا واثق أن ربَّ البيت سيحميه ، وهذه تُزلزل العدو وتُربكه .

وما أشبه موقف عبد المطلب بموقف موسى عليه السلام ، لما قال له قومه : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء] فقال فى يقين وثقة : ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء]

إذن : لم يَكُنْ عبد المطلب سلبياً كما يتهمه البعض ، بل كان إيجابياً من النوع الراقى ، فلو كان إيجابياً بالمعنى الذى تريدون لأعطتْه هذه الإيجابية منعةً بقوته هو ، إنما تصرُّفه وما تعتبرونه سلبية أعطاه منعةً بقدرة الله وقُوَّته سبحانه ؛ لذلك تدخَّلتْ فوراً جنود السماء .

---

(١) ويذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٤٩) أن « عبد المطلب كان أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه وأكرمه عن أن يُجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير مُلكه فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه إلى جنبه » .

لكن ، لماذا الطواف والدوران حول الكعبة ؟

قالوا : لأن المسلم وهو غائب عن الكعبة يُصلِّى لجهتها ، كلّ حسب موقعه منها ، فتجد المسلمين فى كل أنحاء العالم يتجهون نحوها ، كل من ناحية ، هذا من الشمال ، وهذا من الجنوب ، وهذا من الشرق ، وهذا من الغرب ، يعنى بكل الجهات الأصلية والفرعية .

فإذا ما ذهبتَ إلى الكعبة ذاتها ، وتشرفتَ برؤيتها ، فهل تستقبلها من نفس المكان الذى كنتَ تتجه إليه فى صلاتك وغيرك وغيرك ؟ إذن : فكل اتجاهات الكعبة سواء لك ولغيرك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. (١١٥) ﴾ [البقرة] فليس هناك مكان أَوْلَى من مكان ؛ لذلك نطوف حول البيت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ[1] وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿ ذَلِكَ .. (٣٠) ﴾ [الحج] إشارة إلى الكلام السابق بأنه أمْر واضح ، لكن استمع إلى أمر جديد سيأتى ، فهنا استئناف كلام على كلام سابق ، فبعد الكلام عن البيت وما يتعلّق به من مناسك الحج يستأنف السياق :

---

(١) الأوثان : جمع وثن ، وهو التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها وكانت العرب تنصبها وتعبدها ، والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضاً . وقال عدى ابن حاتم : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب فقال : « ألق هذا الوثن عنك » أى : الصليب وأصله من وثن الشىء أى : أقام فى مقامه . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٨٥] .

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ [illegible] خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ .. (٣٠) ﴾ [الحج] فالحق ـ سبحانه ـ يريد لعبده أنْ يلتـزمَ أوامره بفعل الأمر واجتناب النهى ، فكُلُّ أمر لله يَحـرُم عليك أن تتركه ، وكلّ نَهْى يحـرم عليك أنْ تأتيه ، فهذه هى حرمـات الله التى ينبغى عليك تعظيمها بطاعـة الأمر واجتناب النهى .

وحين تُعظِّم هذه الحرمات لا تُعظمها لذاتها ، فليس هناك شىء له حُرْمـة فى ذاته ، إنمـا تُعظِّمهـا لأنها حـرمات الله وأوامره ؛ لذلـك قد يجعـل الالتزام بها مُـتغـيّراً ، وقـد يطرأ عليك ما يبـدو متناقـضاً فى الظاهر .

فالوضوء مـثلاً ، البعض يرى فيه نظافة للبـدن ، فإذا انقطع الماء وعُدِم وجـوده حَلَّ محلّه التيمُم بالـتراب الطاهر الذى نُغبِّر به أعـضاء التـيـمم ، إذن : ليس فى الأمـر نظافـة ، إنما هـو الالتزام والانقـيـاد واستـحضار أنك مُـقْبل على أمر غـير عادى يجب علـيك أنْ تتطَّهر له بالوضـوء ، فإنْ أمـرتُكَ بالتيمم فعليك الالتزام دون البـحث فى أسباب الأمر وعلّته .

وهكذا يكون الأدب مع الأوامر وتـعظيمهـا ؛ لأنها من الله ، ولِمَ لا ونحن نرى مـثـل هذا الالتـزام أو رياضـة التـأديـب فى الالتـزام فى تعامـلاتنا الطبيـعية الـحياتيـة ، فمثـلاً الجندى حين يُجنَّـد يتعلم أول ما يتـعلم الانضباط قبل أنْ يُمـسك سلاحاً أوْ يتدرب عليـه ، يتعلم أن كلمـة « ثابت » معناها عـدم الحـركة مـهمـا كانت الظروف فلو لَدغـه عقرب لا يتحرك .

ويدخل المدرب على الجنود فى صالة الطعام فـيقول : ثابت فينفذ الجمـيع .. الملعقة التى فى الطبق تظل فى الطبق ، والملعـقة التى فى

فم الجندى تظل فى فمه ، فلا ترى فى الصالة الواسعة حركة واحدة . وهذا الانضباط الحركى السلوكى مقدمة للانضباط فى الأمور العسكرية الهامة والخطيرة بعد ذلك .

إذن : فربُّك - عز وجل - أَوْلَى بهذا الانضباط ؛ لأن العبادة ما هى إلا انضباط عابد لأوامر معبود وطاعة مطلقة لا تقبل المناقشة ؛ لأنك لا تؤديها لذاتها وإنما انقياداً لأمر الله ، ففى الطواف تُقبِّل الحجر الأسود ، وفى رمى الجمار ترمى حجراً ، وهذا حجر وذاك حجر ، هذا ندوسه وهذا نُقبِّله فَحَجر يُقَبَّل وحَجر يُقَنْبل ؛ لأن المسألة مسألة طاعة والتزام ، هذا كله من تعظيم حرمات الله .

لذلك الإمام على - رضى الله عنه - يلفتنا إلى هذه المسألة فيقول فى التيمم : لو أن الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أَوْلَى من ظاهرها[1] ؛ لأن الأوساخ تعلق بباطن القدم أولاً .

وقد ذكرنا فى الآيات السابقة أن الحرمات خمس : البيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والمشعر الحرام ، والشهر الحرام ، وحرمات الله هى الأشياء المحرمة التى يجب ألاَّ تفعلها .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه جزاء هذا الالتزام : ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الحج] الخيرية هنا ليست فى ظاهر الأمر وعند الناس أو فى ذاته ، إنما الخيرية للعبد عند الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الحج] قد تقول : كيف وهى حلال من البداية وفى الأصل ،

---

(١) روى أبو داود فى سننه (١٦٢) عن على بن أبى طالب أنه قال : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أَوْلَى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه ، وفى رواية أخرى (١٦٤) : لو كان الدين بالرأى لكان باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما .

قالوا : لأنه لما حرَّم الصيد قد يظن البعض أنه حرام دائماً فلا ينتفعون بها ، فبيَّن سبحانه أنها حلال إلا ما ذُكر تحريمه ، ونصَّ القرآن عليه فى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ[1] وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ .. (٣) ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

ومعنى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ .. (٣٠) ﴾ [الحج] الرجْس : النجاسة الغليظة المتغلغلة فى ذات الشىء . يعنى : ليست سطحية فيه يمكن إزالتها ، وإنما هى فى نفس الشىء لا يمكن أنْ تفصلها عنه .

﴿ وَاجْتَنِبُوا .. (٣٠) ﴾ [الحج] لا تدل على الامتناع فقط ، إنما على مجرد الاقتراب من دواعى هذه المعصية ؛ لأنك حين تقترب من دواعى المعصية وأسبابها لا بُدَّ أن تداعبك وتشغل خاطرك ، ومَنْ حام حول الشىء يوشك أنْ يقع فيه ، لذلك لم يقُل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ امتنعوا إنما قال : اجتنبوا ، ونعجب من بعض الذين أسرفوا على أنفسهم ويقولون : إن الأمر فى اجتنبوا لا يعنى تحريم الخمر ، فلم يَقُلْ : حُرِّمَتْ عليكم الخمر .

نقول : اجتنبوا أبلغ فى النهى والتحريم وأوسع من حُرِّمَتْ عليكم ، لو قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ حُرِّمت عليكم الخمر ، فهذا يعنى أنك لا تشربها ، ولكن لك أن تشهد مجلسها وتعصرها وتحملها

(١) المنخنقة : البهيمة التى التف حبلها حول عنقها فخنقها فماتت . والموقوذة : هى الحيوان الذى وُقذ (ضُرب) بعصاً أو حجر حتى مات قبل أن يُذكَّى ذكاة شرعية . والمتردية : هى التى ماتَت بسببَ سقوطها فى حفرة . والنطيحة : ما ماتت بسبب النطح . [القاموس القويم] .

وتبيعها ، أما اجتنبوا فتعنى : احذروا مجرد الاقتراب منها على أىٍّ وجه من هذه الوجوه .

لذلك ، تجد الأداء القرآنى للمطلوبات المنهجية فى الأوامر والنواهى من الله يُفرِّق بين حدود ما أحلَّ الله وحدود ما حرَّم ، ففى الأوامر يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

وفى النواهى يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾[البقرة]

ففى الأوامر وما أحلَّ الله لك قفْ عند ما أحلَّ ، ولا تتعداه إلى غيره ، أمَّا المحرمات فلا تقترب منها مجردَ اقتراب ، فلما أراد الله نَهْى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة قال لهما : ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

وبعد أن أمر الحق سبحانه باجتناب الرجْس فى عبادة الأصنام قال : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] فقرن عبادة الأوثان بقول الزُّور ، كأنهما فى الإثم سواء ؛ لذلك النبى ﷺ سلَّم يوماً من صلاة الصبح ، ثم وقف وقال : « ألا وإن شهادة الزور جعلها الله بعد الأوثان »(١) .

لماذا ؟ لأن فى شهادة الزور جماع لكل حيثيات الظلم ، فساعةَ يقول : ليس للكون إله ، فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، ساعة يقول : الإله له شريك فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، كذلك حين يظلم أو يُغير فى الحقيقة ، أو يذمُّ الآخرين ، كلها داخلة تحت شهادة الزور .

---

(١) عن خريم بن فاتك الأسدى قال : « صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، فلما انصرف قائماً قال : عدلت شهادة الزور الإشراك بالله (ثلاثاً) ، ثم تلا هذه الآية ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٢١) ، والترمذى فى سننه (٢٣٠٠) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٩٩) .

ولما عدَّد النبى ﷺ الكبائر ، قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال : ألا وقول الزور ألا وقول الزور ، قال الراوى : فما زال يكررها حتى قلنا (ليته سكت) أو حتى ظننا أنه لا يسكت»[1] .

ويقولون فى شاهد الزور : يا شاهد الزور أنت شر منظور ، ضلَّلتَ القُضاة ، وحلفت كاذباً بالله .

ومن العجيب فى شاهد الزور أنه أول ما يسقط من نظر الناس يسقط من نظر مَنْ شهد لصالحه ، فرغم أنه شَهد لصالحك ، ورفع رأسك على خَصْمك لكن داستْ قدمك على كرامتَه وحقَّرته ، ولو تعرَّض للشهادة فى قضية أخرى فأنت أول مَنْ تفضحه بأنه شهد زوراً لصالحك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

اكتفتْ الآية بذكر صفتين فقط من صفات كثيرة على وجه الإجمال ، وهما حنفاء لله ، غير مشركين به . وحنفاء : جمع حنيف ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٧) من حديث أبى بكرة . قال ابن دقيق العيد : « اهتمامه ﷺ بشهادة الزور يحتمل أن يكون لأنها أسهل وقوعاً على الناس ، والتهاون بها أكثر ، ومفسدتها أيسر وقوعاً ؛ لأن الشرك ينبو عنه المسلم ، والعقوق ينبو عنه الطبع ، وأما قول الزور فإن الحوامل عليه كثيرة فحسُنَ الاهتمام بها ، وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها » .

مأخوذة من حنف الرِّجل يعنى : تقوُّسها وعدم استقامتها ، فيقال : فيه حَنَف أى : ميْل عن الاستقامة ، وليس الوصف هنا بأنهم مُعْوجون ، إنما المراد أن الاعوجاج عن الاعوجاج استقامة .

لذلك وُصف إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه ﴿كَانَ حَنِيفًا .. (٦٧)﴾ [آل عمران] يعنى : مائلاً عن عبادة الأصنام .

وقلنا : إن السماء لا تتدخَّل برسالة جديدة إلا حين يَعمُّ الفسادُ القومَ ، ويستشرى بينهم الضلال ، وتنعدم أسباب الهداية ، حيث لا واعظَ للإنسان لا من نفسه وضميره ، ولا من دينه ، ولا من مجتمعه وبيئته ؛ ذلك لأن فى النفس البشرية مناعةً للحق طبيعية ، لكن تطمسها الشهوات ، فإذا عُدم هذا الواعظ وهذه المناعة فى المجتمع تدخَّلَتْ السماء بنبى جديد ، ورسالة جديدة ، وإنذار جديد ؛ لأن الفساد عَمَّ الجميع ، ولم يَعُدْ أحد يعظُ الآخر ويهديه .

وهذا المعنى الذى قال الله فيه : ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾ [المائدة]

ومن هنا شهد الله لأمة محمد ﷺ أنها خير أمة أُخرجَتْ للناس ؛ لأن المناعة للحق فيها قائمة ، ولها واعظ من نفسها يأمر بالخير ، ويأخذ على يد المنحرف حتى يستقيم ؛ لذلك قال فيها النبى ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

والمعنى : الخير فىَّ حصراً وفى أمتى نَثْراً ، فرسول الله ﷺ جمع خصال الخير كله ، وخَصَّه الله بالكمال ، لكن مَنْ يُطيق الكمال

---

(١) أورده السيوطى فى « الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة » (حديث ٢٢٠) وقال : « قال الحافظ ابن حجر : لا أعرفه » وقال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : « لم يرد بهذا اللفظ ، وإنما يدل على معناه الخبر المشهور : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق » نقله العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

المحمدى من أمته ؟ لذلك نثر الله خصال الخير فى جميع أمة محمد ، فأخذ كلّ واحد منهم صفةً من صفاته ، فكماله ﷺ منثور فى أمته : هذا كريم ، وهذا شجاع ، وهذا حليم .. إلخ .

ولما كان لأمة محمد هذا الدور كان هو خاتم الأنبياء ؛ لأن أمته ستؤدى رسالته من بعده ، فلا حاجة - إذن - لتدخل السماء برسالة جديدة إلى أن تقوم الساعة .

إذن نقول : الرسل لا تأتى إلا عند الاعوجاج ، يأتون هم ليُقوِّموا هذا الاعوجاج ، ويميلون عنه إلى الاستقامة ، هذا معنى الحنيف أو ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. (٣١) ﴾ [الحج]

وهذه الصفة هى مقياس الاستقامة على أوامر الله لا على أوامر البشر ، فنحن لا نضع لأنفسنا أسبابَ الكمال ثم نقول : ينبغى أن يكون كذا وكذا ، لا إنما الذى يضع أسباب الكمال للمخلوق هو الخالق .

والحق - سبحانه وتعالى - ليس مراده من الفعل أنْ يُفعل لذاته ولمجرد الفعل ، إنما مراده من الفعل أنْ يُفعل لأنه أمر به ، وقد أوضحنا هذه المسألة بالكافر الذى يفعل الخير وينفع الناس والمجتمع ، لكن ليس من منطلق الدين وأمر الله ، إنما من منطلق الإنسانية والمكانة الاجتماعية والمهابة والمنزلة بين الناس ، ومثل هذا لا يجحفه الله حَقه ، ولا يبخسه ثواب عمله ، يعطيه لكن فى الدنيا عملاً بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) ﴾ [الكهف]

لكن لا حَظَّ لهؤلاء فى ثواب الآخرة ؛ لأنهم عملوا للمجتمع وللناس وللمنزلة ، وقد أخذوا المقابل فى الدنيا شُهْرة وصيتاً ذائعاً ، ومكانة وتخليداً .

وفى الحديث القدسى يقول الحق سبحانه لهم : « لقد فعلْتَ ليُقال وقد قيل »(١) وانتهت المسألة .

والحق - تبارك وتعالى - ضرب لنا عدة أمثلة لهؤلاء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

فعمل الكافر كالسراب يتراءى له من بعيد ، يظن من ورائه الخير ، وهو ليس كذلك ، حتى إذا ما عاين الأمر لم يجد شيئاً ، وفُوجِئ بوجود إله عادل لم يكُنْ فى باله يوم عمل ما عمل .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

وقال : ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ(٢) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

وهل ينبت المطر شيئاً إذا نزل على الحجر الصَّلْد الأملس ؟ هكذا

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقْضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأنْ يقال جرىء فقد قيل » ثم أمر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقى فى النار » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) والنسائى فى سننه (٦/٢٣ ، ٢٤) وذكر مثلين آخرين : رجل تعلم العلم وعلّمه . ورجل وسَّع الله عليه . وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى تفصيلاً فى « الأحاديث القدسية ١/١٣٥ - ١٥١ » .

(٢) الصفوان : الحجر الأملس الذى لا يصلح للزرع . ومثله الصلد . والوابل : المطر الغزير . [القاموس القويم] .

عمل الكافر ، فمن أراد ثواب الآخرة فليحقق معنى ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. (٣١)﴾ [الحج] ويعمل من منطلق أن الله أمر .

إذن : العمل لا يُفعَل ؛ لأنه حسن فى ذاته ، إنما لأن الله أمرك به ، بدليل أن الشارع سيأمرك بأمور لا تجد فيها حُسْناً ، ومع ذلك عليك أنْ تلتزم بها لتحقق الانضباط الذى أراده منك الشارع الحكيم ، وبعد ذلك سينكشف لك وجه الحُسْن فى هذا العمل ، وتعلم الحكمة منه .

خذ مثلاً موقف الإسلام من اليتيم ، وقد حث رسول الله ﷺ على رعايته وإكرامه وكفالته حتى أنه قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة ، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى »[1] فكافل اليتيم قرين لرسول الله فى الجنة .

ففى هذا الموقف حِكَم كثيرة ، قد لا يعلمها كثير من الناس ؛ لأن اليتيم فقد أباه وهو صغير ، ونظر فلم يَجِدْ له أباً ، فى حين يتمتع رفاقه بأحضان آبائهم ، فإذا لم يجد هذا الصغير حناناً من كل الناس كأنهم آباؤه لتربّى عنده شعور بالسُّخْط على الله والاعتراض على القدر الذى حرمه دون غيره من حنان الأب ورعايته .

لذلك يريد الإسلام أن ينشأ اليتيم نشأة سويّة فى المجتمع ، لا يسخط على الله ، ولا يسخط على الناس ؛ لأنهم جميعاً عاملوه كأنه ولد لهم .

وهناك ملحظ آخر : حين ترى مكانة اليتيم ، وكيف يرعاه المجتمع وينهض به يطمئن قلبك إنْ فاجأك الموت وأولادك صغار ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٣٠٤ ، ٦٠٠٥) ، وأبو داود فى سننه (٥١٥٠) من حديث سهل بن سعد الساعدى .

هذه مناعات يجعلها الإسلام فى المجتمع : مناعة فى نفس اليتيم ، ومناعة فيمَنْ يرعاه ويكفله .

وكفالة اليتيم وإكرامه لا بُدَّ أنْ تتم فى إطار ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ .. (٣١)﴾ [الحج] فيكون عملك لله خالصاً ، دون نظر إلى شىء آخر من متاع الدنيا ، كالذى يسعى للوصاية على اليتيم لينتفع بماله ، أو أن له مطمعاً فى أمه .. إلخ فهذا عمله كالذى قُلْنا : (كسراب بقيعة) أو كرماد اشتدت به الريح أو كحجر أملس صلْد لا ينبت شيئاً .

فإنْ حاول الإنسان إخلاص النية لله فى مثل هذا العمل فإنه لا يأمن أنْ يخالطه شىء ، كما جاء فى الحديث الشريف : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[(١)] .

الصفة الثانية التى وصف الله بها عباده المؤمنين : ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ .. (٣١)﴾ [الحج] فالشرك أمر عظيم ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - كما قال فى الحديث القدسى - أغنى الشركاء عن الشرك ، فكيف تلجأ إلى غير الله والله موجود ؟

لذلك يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشرْكه »[(٢)] .

ويعطينا الحق سبحانه بعدها صورة توضيحية لعاقبة الشرك : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١)﴾ [الحج]

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجة فى سننه (٤٢٠٢) واللفظ لمسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

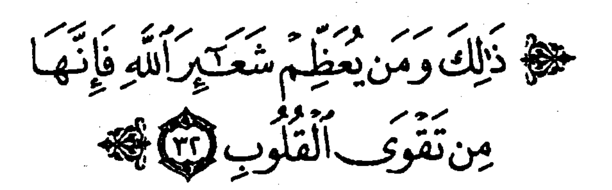
خرَّ : يعنى سقط من السماء لا يُمسكه شىء ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)﴾ [النحل]

وفى الإنسان جمادية ؛ لأن قانون الجاذبية يتحكم فيه ، فإنْ صَعد إلى أعلى لا بُدَّ أنْ يعود إلى الأرض بفعل هذه الجاذبية ، لا يملك أنْ يُمسك نفسه مُعلَّقاً فى الهواء ، فهذا أمر لا يملكه وخارج استطاعته ، وفى الإنسان نباتية تتمثل فى النمو ، وفيه حيوانية تتمثل فى الغرائز ، وفيه إنسانية تتمثل فى العقل والتفكير والاختيار بين البدائل ، وبهذه كُرِّم عن سائر الأجناس .

وتلحظ أن (خرَّ) ترتبط بارتفاع بعيد ﴿خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ .. (٣١)﴾ [الحج] بحيث لا تستطيع قوة أنْ تحميه ، أو تمنعه لا بذاته ولا بغيره ، وقبل أنْ يصل إلى الأرض تتخطفه الطير ، فإنْ لم تتخطفه تهوى به الريح فى مكان بعيد وتتلاعب به ، فهو هالك هالك لا محالةَ ، ولو كانت واحدة من هذه الثلاث لكانت كافية .

وعلى العاقل أنْ يتأمل مغزى هذا التصوير القرآنى فيحذر هذا المصير ، فهذه حال مَنْ أشرك بالله ، فإنْ أخذتَ الصورة على أنها تشبيه حالة بحالة ، فها هى الصورة أمامك واضحة ، وإنْ أردتَ تفسيراً آخر يُوضِّح أجزاءها : فالسماء هى الإسلام ، والطير هى الشهوات ، والريح هى ريح الشيطان ، يتلاعب به هنا وهناك . فأىٌّ ضياع بعد هذا ؟ ومَنْ ذا الذى ينقذه من هذا المصير ؟

ثم يقول الحق سبحانه :



﴿ذَٰلِكَ .. ﴿٣٢﴾﴾ [الحج] كما قلنا فى السابقة : إشارة إلى الكلام السابق الذى أصبح واضحاً معروفاً ، ونستأنف بعدها كلاماً جديداً تَنبَّه له .

﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ .. ﴿٣٢﴾﴾ [الحج] الشعائر : جمع شعيرة ، وهى المعالم التى جعلها الله لعباده لينالوا ثوابه بتعظيمها ، فالإحرام شعيرة ، والتكبير شعيرة ، والطواف شعيرة ، والسَّعْى شعيرة ، ورمْى الجمار شعيرة .. إلخ . وهذه أمور عظّمها الله ، وأمرنا بتعظيمها(١) .

وتعظيم الشىء أبلغ وأشمل من فعْله ، أو أدائه ، أو عمله ، عَظَّم الشعائر يعنى : أدَّاها بحبٍّ وعشْق وإخلاص ، وجاء بها على الوجه الأكمل ، وربما زاد على ما طُلِب منه .

ومثالنا فى ذلك : خليل الله إبراهيم ، عندما أمره الله أنْ يرفع قواعد البيت : كان يكفيه أنْ يبنى على قَدْر ما تطوله يده ، وبذلك يكون قد أدّى ما أُمر به ، لكنه عشق هذا التكليف وأحبَّه فاحتال للأمر ووضع حجراً على حجر ليقف عليه ، ويرفع البناء بقدر ما ارتفع إليه .

فمحبة أمر الله مَرْقى من مراقى الإيمان ، يجب أن نسموَ إليه ، حتى فى العمل الدنيوى : هَبْ أنك نُقلْتَ إلى ديوان جديد ، ووصل إلى علْمك أن مدير هذا الديوان رجل جَادّ وصعب ، ويُحاسب على كل صَغيرة وكبيرة ، فيمنع التأخير أو التسيّب أثناء الدوام الرسمى ، فإذا

---

(١) هناك قول آخر فى تفسير هذه الآية ، فالمقصود بشعائر الله هنا : البُدْن والهدى الذى يُهدى إلى الكعبة . وتعظيم شعائر الله هنا معناه : استعظام البُدْن واستسمانها واستحسانها . [راجع الآثار التى أوردها السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٦/٤٦) عن ابن عباس ومجاهد] .

بك تلتزم بهذه التعليمات حرفياً ، بل وتزيد عليها ليس حباً فى العمل ، ولكن حتى لا تُسأل أمام هذا المدير فى يوم من الأيام .

إذن : الهدف أنْ نؤدى التكاليف بحُبٍّ وعشْق يُوصِّلنا إلى حب الله عز وجل ؛ لذلك نجد من أهل المعرفة مَنْ يقول : رُبَّ معصية أورثتْ ذلاً وانكساراً خَيْر من طاعة أورثت عِزّاً واستكباراً[(١)] .

فالمهم أن نصل إلى الله ، أن نخضع لله ، أنْ نذلّ لعزته وجلاله ، والمعصية التى تُوصِّلك إلى هذه الغاية خير من الطَاعة التى تُسلِمك للغرور والاستكبار .

هذه المحبة للتكاليف ، وهذا العشق عبَّر عنه رسول الله ﷺ حينما قال : « وجُعلَتْ قُرَّة عينى فى الصلاة »[(٢)] لذلك نَعَى القرآن على أولئك الذين ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢)﴾ [النساء]

وابنته فاطمة[(٣)] ـ رضى الله عنها ـ كانت تجلو الدرهم وتلمعه ، فلما سألها رسول الله عما تفعل ، قالت : لأننى نويتُ أنْ أتصدَّق به ، وأعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير . هذا هو التعظيم لشعائر الله والقيام بها عن رغبة وحب .

وفى عصور الإسلام الأولى كان الناس يتفاضلون بأسبقهم إلى

---

(١) من حكم ابن عطاء الله السكندرى ، ذكره عبد العال كحيل فى كتابه « أبو العينين الدسوقى » ص ٧٦ ـ دار الشعب القاهرة .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمام الحديث « حُبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب » .

(٣) هى : فاطمة بنت رسول الله محمد بن عبد الله ، أمها خديجة بنت خويلد ، ولدت ١٨ ق هـ ، تزوجها أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى الثامنة عشرة من عمرها ، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، عاشت بعد أبيها ستة أشهر . توفيت ١١ هـ عن ٢٩ عاماً . الأعلام للزركلى (٥/١٣٢) .

صلاة الجماعة حين يسمع النداء ، وبآخرهم خروجاً من المسجد بعد أداء الصلاة ، ولك أن تقيس حال هؤلاء بحالنا اليوم . هؤلاء قوم عظَّموا شعائر الله فلم يُقدِّموا عليها شيئاً .

وقد بلغ حُبُّ التكاليف وتعظيم شعائر الله بأحد العارفين إلى أنْ قال : لقد أصبحتُ أخشى ألاَّ يثيبنى الله على طاعته ، فسألوه : ولماذا ؟ قال : لأننى أصبحتُ أشتهيها يعنى : أصبحتْ شهوة عندى ، فكيف يُثاب - يعنى - على شهوة ؟!

لذلك أهل العزم وأهل المعرفة عن الله إذا ورد الأمر من الله وثبت أخذوه على الرَّحْب والسَّعَة دون جدال ولا مناقشة ، وكيف يناقشون أمر الله وهم يُعظِّمونه ؟ ومن هنا نقول للذين يناقشون فى أمور فعلها رسول الله ﷺ مثل تعدُّد زوجاته مثلاً ويعترضون ، بل ومنهم مَنْ يتهم رسول الله ﷺ بما لا يليق .

نقول لهم : ما دُمْتُم آمنتم بأنه رسول الله ، فكيف تضعون له موازين الكمال من عند أنفسكم . وتقولون : كان ينبغى أنْ يفعل كذا ، ولا يفعل كذا ؟ وهل عندكم من الكمال ما تقيسون به فِعْل رسول الله ؟ المفروض أن الكمال منه ﷺ ومن ناحيته ، لا من ناحيتكم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) ﴾ [الحج] ليست من تقوى الجوارح ، بل تقوى قلب لا تقوى قالب ، فالقلب هو محلُّ نظر الله إليك ، ومحلُّ قياس تعظيمك لشعائر الله .

و سبق أنْ ذكرنا أن الله تعالى لا يريد أنْ يُخضِع قوالبنا ، إنما يريد أنْ يُخضِع قلوبنا ، ولو أراد سبحانه أنْ تخضع القوالب لخضعتْ له راغمة ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

وأنت تستطيع أنْ تُرغِم مَنْ هو أضعف منك على أيِّ شيء يكرهه ، إنْ شئتَ سجد لك ، لكن لا تملك أنْ تجعل في قلبه حباً أو احتراماً لك ، لماذا ؟ لأنك تجبر القالب ، أمّا القلب فلا سلطةَ لك عليه بحال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٣٣)﴾

يعني : ما دامت هذه المسائل من شعائر الله ومن تقوى القلوب فاعملوها وعظِّموها ؛ لأن لكم فيها منافع عرفتها أو لم تعرفها ، وربما تعرف بعضها ولا تعرف الباقي ؛ لأنه مستور عنك ولو أنك لا تعلم قيمة الجزاء على هذه الشعائر ، فقيمة الجزاء على العمل بحسب أنفاس الإخلاص في هذا العمل .

ومعنى ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٣٣)﴾ [الحج] ما دام الحق - سبحانه وتعالى - ذَيَّل الآية بقوله ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)﴾ [الحج] إذن : فالمراد هنا شعيرة الذَّبْح ، ولا يخفى ما فيها من منافع حيث ننتفع بصوفها ووبرها ولبنها ولحمها ، ونتخذها زينة وركوبة .

كل هذا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٣٣)﴾ [الحج] يعني : زمن معلوم ، وهو حين تقول وتنوي : هذه هدية للحرم ، ساعة تعقد هذه النية

فليس لك الانتفاع بشىء منها ، لا أنت ولا غيرك[1] ؛ لذلك يُميِّـزونها بعلامة حتى إنْ ضلت من صاحبها يعرفون أنها مُهْداة لبيت الله ، فلا يأخذها أحد[2] .

وما دامت هذه منافع إلى أَجل مسمى ، فلا بُدَّ أنها المنافع الدنيوية ، أما المنافع الأخروية فسوف تجدها فيما بعد فى الآخرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج] أى : بعد هذا الأجل المسمى ينتهى بها المطاف عند الحرم حيث تُذْبَح هناك .

وقد كان للعلماء[3] كلامٌ حول هذه الآية : ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج] حيث قالوا : محل الذَّبْح فى مِنَى ، وليس فى مكة ، والآية تقول : محلها البيت العتيق .

---

(١) قال ابن عباس : ما لم يُسمَّ بدناً ، وقال مجاهد : المنافع الركوب واللبن والولد فإذا سميت بدناً أو هدياً ذهب ذلك كله . وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال آخرون : بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك كما ثبت فى الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال : اركبها . قال : إنها بدنة . قال : « اركبها ويحك » [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٢٢٠] .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْىَ وَلا الْقَلائِدَ .. ﴿٢﴾﴾ [المائدة] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٤) : « يعنى : لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها فى أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هَدْى إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها » .

(٣) هناك قولان فى تفسير هذه الآية ، فى عَوْد الضمير فى (مَحِلّها) :
- البُدْن والهَدْى ، أى : إلى يوم النحر تنحر بمنى . [عن عطاء] . وإذا دخلت الحرم فقد بلغت محلها [عكرمة] . وهذا ما أخذ به فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله .
- شعائر ومناسك الحج . أى : أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى ينتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٨٨) .

نقول : الأصل كما جاء فى الآية أن الذبح فى مكة وفى الحرم ، إلا أنهم لما استقذروا الذَّبْح فى الحرم بسبب ما يُخلفه من قاذورات ودماء وخلافه نتيجة هذه العملية ، فرُؤى أن يجعلوا الذبح بعيداً عن الحرم حتى يظل نظيفاً ، وهذا لا يمنع الأصل ، وهو أنْ يكون الذَّبْح فى الحرم ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ .. (٩٥) ﴾ [المائدة]

وفى الحديث الشريف : « مكّةُ كلُّها مَنْحرٌ »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) ﴾

المنسك : هو العبادة ، كما جاء فى قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام]

ومعنى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا .. (٣٤) ﴾ [الحج] لأن الشعائر والمناسك والعبادات ليس من الضرورى أنْ تتفق عند جميع الأمم ، بل لكل أمة ما يناسبها ، ويناسب ظَرْفها الزمنى والبيئى .

لذلك ، فإن الرسل لا تأتى لتُغير القواعد والأسس التى يقوم عليها

---

(١) عن جابر بن عبد الله أنه قال : نحر رسول الله ﷺ فحلق وجلس للناس ، فما سُئل عن شىء إلا قال : لا حرج لا حرج ، حتى جاءه رجل فقال : حلقت قبل أن أنحر . قال : لا حرج . ثم جاء آخر فقال : يا رسول الله حلقت قبل أن أرمى قال : لا حرج قال رسول الله ﷺ : « عرفة كلها موقف ، والمزدلفة كلها موقف ، ومنى كلها منحر ، وكل فجاج مكة طريق ومنحر » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٣٢٦) والدارمى فى سننه (٢/٥٧) .

الدين ؛ لأن هذه القواعد وهذه الأسس ثابتة فى كل رسالات السماء ، لا تتبدل ولا تتغير بتغيُّر الرسل .

يقول تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣)﴾ [الشورى]

هذا فى الأصول العَقَدية الثابتة ، أما فى الفرعيات فنرى ما يصلح المجتمع ، وما يناسبه من طاعات وعبادات .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه الحكمة من هذه المناسك : ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ .. (٣٤)﴾ [الحج] أى : يذكروا الله فى كل شىء ، ويشكروه على كل نعمة ينالونها من بهيمة الأنعام .

لذلك نذكر الله عند الذبح نقول : بسم الله ، الله أكبر ، لماذا ؟ لأن الذبح إزهاق روح خلقها الله ، وما كان لك أنْ تزهقها بإرادتك ، فمعنى « بسم الله والله أكبر » هنا أننى لا أزهق روحها من عندى ، بل لأن الله أمرنى وأباحها لى ، فالله أكبر فى هذا الموقف من إرادتك ، ومن عواطفك .

ونرى البعض يأنف من مسألة الذَّبْح هذه ، يقول : كيف تذبحون هذا الحيوان أو هذه الدجاجة ؟ يدَّعى الرحمة والشفقة على هذه الحيوانات ، لكنه ليس أرحم بها من خالقها ، وما ذبحناها إلا لأن الله أحلَّها ، وما أكلناها إلا بسم الله ، بدليل أن ما حرمه الله علينا لا نقرب منه أبداً .

وهل أنا أكرم القطة عن الأرنب ، فأذبح الأرنب وأترك القطة ؟ وهل أحترم الكلب عن الخروف ؟ أبداً ، المسألة مسألة تشريع وأمر ثبت عن الله ، فَعَلَىَّ أنْ أُعظِّمه وأُطيعه .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ .. (٣٤) ﴾ [الحج] الرزق يعنى : أنه تعالى أوجدها لك ، وملكك إياها ، وذلَّلها لك فاستأنستْها وسخّرها لك فانتفعتَ بها ، ولولا تسخيره ما انقادتْ لك بقُوتك وقدرتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٣٤) ﴾ [الحج] يعنى : إنِ اختلفت الشرائع من أمة لأمة فإيَّاك أنْ تظنَّ أن هذا من إله ، وهذا من إله آخر ، إنما هو إله واحد يشرِّع لكل أمة ما يناسبها وما يصلحها ؛ لأن التشريعات السماوية تأتى علاجاً لآفات اجتماعية .

والأصل الأصيل هو إيمان بإله واحد فاعل قادر مختار ، يُبلِّغ عنه رسول بمعجزة تُبيِّن صدقه فى التبليغ عن الله . هذا أصل كل الديانات السماوية ، كذلك قواعد الدين وأساسياته واحدة مُتفق عليها ، فالسرقة والزنا وشهادة الزور .. إلخ كلها مُحرَّمة فى كل الأديان .

لكن ، هناك أمور تناسب أمة ، ولا تناسب أخرى ، والمشرِّع للجميع إله واحد ، الناس جميعاً من لَدُن آدم وإلى أنْ تقومَ الساعة عياله ، وهم عنده سواء ، لذلك يختار لكلٍّ ما يُصلحه .

ألاَ ترى ربَّ الأسرة كيف يُنظِّم حياة أولاده ـ ولله المثَل الأعلى ـ فيقول : هذا يفعل كذا ، وهذا يفعل كذا ، وإذا جاء الطعام قال : هذا يأكل كذا وكذا لأنه مريض مثلاً ، لا يناسبه طعام الآخرين ، ويأمر الأم أنْ تُعدَّ لهذا المريض ما يناسبه من الطعام . ذلك لأنه رَاعٍ للجميع مسئول عَن الجميع ، وعليه أنْ يراعىَ مصلحة كل واحد منهم علَى حِدَة[1] .

---

(١) وذلك مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، الا فكلكم راعٍ ، وكلكم مسئول عن رعيته » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) ، والبخارى فى صحيحه (٨٩٣ ، ٢٤٠٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

إذن : اختلاف التشريعات فى هذه المسائل الجزئية بين الأمم لا يعنى تعدُّد الآلهة كلاَّ وحاشا لله ، بل هو إله واحد ، يعطى عباده كُلاً على حسب حاجته ، كى يتوازنَ المجتمع ويستقيم حاله .

نذكر أنه كان عند طبيب الوحدة الصحية دورقان ، فى كل منهما مزيج معين ، وكان يعطى كل المرضى مع اختلاف أمراضهم من هذين النوعين فقط ؛ لذلك كانت عديمة الجدوى ، أما الآن فالطبيب الماهر لا بُدَّ أن يُجرى على مريضه الفحوص والتحاليل اللازمة ليقف على مرضه بالتحديد ، ثم يصف العلاج المناسب لهذه الحالة بمقادير دقيقة تُبرىء المرض ولا تضرُّ المريض من ناحية أخرى .. كذلك الأمر فى اختلاف الشرائع السماوية بين الأمم .

وما دام أن إلهكم إله واحد ، وما دُمْتم عنده سواء ، وليس منكم مَنْ هو ابنٌ الله ، ولا بينه وبين الله قرابة . إذن : ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا .. (٣٤)﴾ [الحج] يعنى : أَسْلِموا كل أموركم لله ، فإنْ أمر فعظِّموا أمره ، وخذوه على الرَّحْب والسَّعَة ، فإنْ ترك مجالاً لاختيارك فاصنع ما تشاء . ولا تنسَ أن الله تعالى أعطاك فرصة للترقِّى الإيمانى ، وللترقِّى الإحسانى ، وفتح لك مجال الإحسان إنْ أردتَ .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)﴾ [الحج] المخبت : فى المعنى العام : يعنى الإنسان الخاشع الخاضع المتواضع لكل أوامر الله ، والمعنى الدقيق للمخبت : هو الذى إذا ظُلم لا ينتصر لنفسه ، عملاً بقول الله تعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى] هكذا بلام التوكيد .

أما فى وصية لقمان لولده : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان] بدون توكيد ، لماذا ؟

قالوا : لأن لقمان يوصى ولده بالصبر على ما أصابه ، والمصائب قسمان : مصيبة تصيب الإنسان ، وله فيها غريم هو الذى أوقع به المصيبة ، وهذه يصاحبها غضب وسعار للانتقام ، ومصيبة تصيب الإنسان وليس له غريم كالمرض مثلاً ، فإنْ كان له غريم فالصبر أشدُّ ، لذلك احتاج إلى التوكيد ، على خلاف المصيبة التى ليس أمامك فيها غريم ، فهى من الله فالصبر عليها أهونُ من الأولى .

ومع ذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - للنفس البشرية منافذ تُنفِّس من خلالها عن نفسها ، حتى لا يختمر بداخلها الغضب ، فيتحول إلى حقد وضغينة ، قد تؤدى إلى أكثر مما وقع بك ؛ لذلك أباح لك الرد لكن حبَّبك فى مَرَاقٍ أخرى ، هى أجدى لك ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

وهذه مراحل ثلاث ، تختار منها بحَسْب فَهْمك عن الله وقُرْبك منه :

الأولى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] يعنى : تكظم غيظك فى نفسك ، دون أنْ تترجم هذا الغيظ إلى عمل نزوعىّ فتنتقم ، فالغيظ - إذن - مسألة وجدانية فى القلب ، وموجود فى مواجيد نفسه ، وهذه مرحلة .

الثانية : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] يعنى : لا ينتقم ، ولا حتى يجعل للغَيْظ مكاناً فى نفسه ، فيُصفِّيها من مشاعر الحَنَق والغيظ راضياً .

الثالثة : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران] وهى أعلى المراتب ، وهى ألاَّ تكتفى بالعفو ، بل وتُحسن إلى مَنْ أساء إليك ،

والبعض يقول : هذا ضد طباع البشر ، نعم هى ضد طباع البشر العاديين ، لكن الذين يعرفون الجزاء ، ويعرفون أنهم بذلك سيكونون فى حضانة ربهم يهون عليهم هذا العمل ، بل ويُحبون الإحسان إلى مَنْ أساء .

لذلك ؛ فالحسن البصرى - رضوان الله عليه - لما بلغه أنَّ شخصاً نال منه فى أحد المجالس - وكان الوقت بواكير الرُّطَب - أرسل خادمه إليه بطبق من الرطب ، وقال له : بلغنى أنك أهديْتَ إلىَّ حسناتك بالأمس[1] .

ومعلوم أن الحسنات أغلى وأثمن بكثير من طبق الرُّطَب . ومن هنا يقولون : ما أعجب من الذى يُسىء إلى مَنْ أساء إليه ، لأنه أعطاه حسناته ، وهى خلاصة عمله ، فكيف يُسىء إليه ؟!

وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُحدث توازناً فى المجتمع ، ويقضى على دواعى الحقد وأسباب الضغائن فى النفس البشرية ، فحين تُحسِن إلى مَنْ يُسىء إليك فإنك تجتثّ جذور الكُرْه والحِقْد من نفسه ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] فقد أخرجتَ خَصْمك من قالب الخصومة ، إلى قالب الولاية والمحبة .

فالمخْبِت المتواضع لله ، أما غير المخبت فتراه متكبراً (يتفرعن) على مَنْ حوله ، ويرى نفسه أعظم من الجميع ، ولو أنه استحضر

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (٣/١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

جلال ربه لخشع له ، وتواضع وانكسر لخَلْقه ، فالتكبر دليل غفلة عن عظمة الله ، كأنه لم يشهد خالقه .

إذن : تستطيع أن تقول أن الإخبات على نوعين : إخبات لله بالخضوع والخشوع والتعظيم لأوامره ، وإخبات لخَلْق الله ، بحيث لا ينتصر لظلمه ولا يظلم ، إنما يتسامح ويعفو ؛ لأنه يعلم جيداً أنه إذا ظُلِم من مخلوق تعصَّب له الخالق .

ولك أن تنظر إلى أولادك إذا ظلم أحدهم الآخر فإلى مَنْ تنحاز ، ومع مَنْ تتعاطف ؟ لا شك أنك ستميل إلى المظلوم ، وتحنو عليه ، وتريد أنْ تُعوِّضه عَمَّا لحقه من الظلم ، حتى إن الظالم ليندم على ظُلْمه ؛ لأنه ميَّز أخاه المظلوم عليه ، وربما تمنى أنْ يكونَ هو المظلوم لا الظالم .

كذلك حال المخبِت يرى أن الخَلْق جميعاً عيال الله ، وأن أحبّهم إليه أرأفهم بعياله ؛ لذلك يعفو عَمَّن ظلمَه ، ويترك أمره لله رب الجميع ، كما أن المظلوم إذا رَدَّ الظلم فإنه يَرُدُّه بقوته ومقدرته هو ، إنما إنْ ترك الردَّ لله جاء الردُّ على مقدار قوته سبحانه .

ملْحظ آخر ينبغى أن يتنبه له المظلوم قبل أن يُفكِّر فى الانتقام ، وهو : مَنْ يدريك لعلك ظلمتَ أنت أيضاً دون أنْ تدرى ، لعل للناس عندك مظالم لا تشعر بها ، وليست فى حُسْبانك ، فالمسألة - إذن - لك وعليك .

لذلك يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم دعوتَ على مَنْ ظلمك » .

وهذا مباح لك بقوله تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ

إِلاَّ مَن ظُلِمَ .. (١٤٨)﴾ [النساء] يعنى : أعطيناك فرصة أنْ تدعو على من ظلمك .

ثم يقول سبحانه : « ودعا عليك مَنْ ظلمتَه ، فإنْ شئتَ أجبناك وأجبنا عليك ، وإنْ شئت أخَّرتكُما للآخرة فيسعكُما عفْوى »(١) .

فالمخبت يستحضر هذا كله ، ويركن إلى العفو والتسامح ؛ ليأخذ ربَّه عز وجل فى صفه ؛ لذلك يقولون : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم من الكرامة لضَنَّ عليه بالظلم .

فحين ترى المظلوم يعفو عنك ويتسامح معك ، فلا تظن أنك أخضعته لك ، إنما هو خضع لله الذى سيرفعه عليك ، ويُعْلى رأسه عليك فى يوم من الأيام .

لذلك من أنماط السلوك السوى إذا تشاجر اثنان يقول أحد العقلاء : لكما أب نرد عليه ، أو لكما كبير نرجع إليه فى هذه الخصومة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾

يُبيِّن لنا الحق سبحانه بعض صفات المخبتين ، فهم ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٣٥)﴾ [الحج] (وَجلت) : يعنى خافت ، واضطربت ، وارتعدت لذكر الله تعظيماً له ، ومهابة منه .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (١٨٣/٣) من قول يزيد بن ميسرة : إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول : إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته ، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]

فمرة يقول ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴿٣٥﴾﴾ [الحج] ومرة ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد] ، لماذا ؟ لأن ذكر الله إنْ جاء بعد المخالفة لا بُدَّ للنفس أنْ تخاف وتَوْجَل وتضطرب هيبةً لله عز وجل ، أما إنْ جاء ذكْر الله بعد المصيبة أو الشدة فإن النفس تطمئنُّ به ، وتأنَسُ لما فيها من رصيد إيمانى ترجع إليه عند الشدة وتركَنُ إليه عند الضيق والبلاء ، فإنْ تعرَّضَت لمصيبة وعزَّتْ أسبابُ دَفْعها عليك تقول : أنا لى رب فتلجأ إليه ، كما كان من موسى - عليه السلام - حين قال : ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء]

﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ .. ﴿٣٥﴾﴾ [الحج] ومعنى أصاب : يعنى جاء بأمر سيء فى عُرْفك أنت ، فتعده مصيبة ؛ لأننا نُقدِّر المصيبة حَسْب سطحية العمل الإيذائى ، إنما لو أخذتَ مع المصيبة فى حسابك الأجر عليها لهانَتْ عليك وما اعتبرتَها كذلك ؛ لذلك فى الحديث الشريف يقول ﷺ : « المصاب من حرم الثواب » .

هذا هو المصاب حقاً الذى لا تُجبَر مصيبته ، أما أنْ تُصاب بشيء فتصبر عليه حتى تنالَ الأجر فليس فى هذا مصيبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ .. ﴿٣٥﴾﴾ [الحج] لأن الصلاة هى الولاء الدائم للعبد المسلم ، والفرض الذى لا يسقط عنه بحال من الأحوال ، فالشهادتان يكفى أنْ تقولها فى العمر مرة ، والزكاة إنْ كان عندك نصاب فهى مرة واحدة فى العام كله ، والصيام كذلك ، شهر فى العام ، والحج إنْ كنتَ مستطيعاً فهو مرة واحدة فى

العمر ، وإنْ لم تكُنْ مستطيعاً فليس عليك حج .

إذن : الصلاة هى الولاء المستمر للحق سبحانه على مَدار اليوم كله ، وربك هو الذى يدعوك إليها ، ثم لك أنْ تُحدِّد أنت موعد ومكان هذا اللقاء فى حَضْرته تعالى ؛ لأنه سبحانه مستعد للقائك فى أىِّ وقت .

وتصور أن رئيس الجمهورية أو الملك مثلاً يدعوك ويُحتِّم عليك أنْ يراك فى اليوم خمس مرات لتكون فى حضرته ، والحق سبحانه حين يدعو عباده للقائه ، لا يدعوهم مرة واحدة إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ؛ لأنه سبحانه لا يتكلف فى هذه العملية تكرار لقاءات ، فهو سبحانه يَلْقَى الجميع فى وقت واحد .

ولما سئل الإمام على - رضى الله عنه - : كيف يُحاسب اللهُ كلَّ هؤلاء الناس فى وقت واحد ؟ قال : كما أنه يرزقهم جميعاً فى وقت واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾ [الحج] لا ينفقون من جيوبهم ، إنما من عطاء الله ورزقه . ومن العجيب أن الله تعالى يعطيك ويهبُكَ ويُغدق عليك تفضُّلاً منه سبحانه ، فإذا أرادك تُعين محتاجاً قال لك : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (١١) ﴾ [الحديد]

وكأن الله تعالى يقول لنا : أنا لا أعود فى هبتى ولا فى عطائى ، فأقول : اعْط ما أخذتَه لفلان ، بل إنْ أعطيتَ الفقير من مالك فهو أيضاً لك مُدَّخر لا يضيع ، فرزْقك الذى وهبك الله إياه ملْكك ، ولا نغبنك فى شىء منه أبداً ، فربّك يحترم ملكيتك ، ويحترم جزاء عملك وجدِّك واجتهادك .

نقول - ولله المثل الأعلى - : كالرجل الذى يحتاج مبلغاً كبيراً لأحد الأبناء فيأخذ من الباقين ما معهم وما ادخروه من مصروفاتهم على وَعْد أنْ يُعوِّضهم بدلاً منها فيما بعد .

لذلك يقول بعدها : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١) ﴾ [الحديد] فيعاملك ربك بالزيادة ؛ لذلك يقول البعض : إن الله تعالى حرَّم علينا الربا وهو يعاملنا به ، نعم يعاملك ربك بالربا ويقول لك : اترك لى أنا هذا التعامل ؛ لأننى حين أزيدك لا أنقص الآخرين ، ولا أُنقِص مما عندى ، ولا أُرهِق ضعيفاً ولا محتاجاً ولا أستغلّ حاجته .

والصدقة فى الإسلام تأمينٌ لصاحبها ضد الفقر إن احتاج ، فأخوَفُ ما يخافه المرءُ الحاجة عند الكبَر ، وعدم القدرة على الكَسْب ، وعند الإعاقة عن العمل ، يخاف أنْ ينفدَ ماله ، ويحتاج إلى الناس حال كبَره .

وعندها يقول له ربه : اطمئن ، فكما أَعطيْتَ حال يُسْرك سيعطيك غيرُك حال عوَزِك وحاجتك .

إذن : أخذ منك ليعطيك ، وليُؤمِّن لك مستقبل حياتك الذى تخاف منه .

الصدقة فى الإسلام صندوق لتكافل المجتمع ، كصندوق التأمين فى شركات التأمين ، فإذا ما ضاقت بك أسباب الرزق وشكوْتَ الكِبَر والعجز نقول لك : لا تحزن فأنت فى مجتمع مؤمن متكافل ، وكما طلبنا منك أنْ تعطى وأنت واجد طلبنا من غيرك أنْ يعطيك وأنت مُعْدم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ(١) فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ(٢) كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى فى النفقة ممَّا رزقكم الله تكلَّم فى النفقة فى البُدْن ، والبُدْن : جمع بَدَنة ، وهى الجَمل أو الناقة ، أو ما يساويهما من البقر ، وسمَّاها بَدَنة إشارة إلى ضرورة أنْ تكون بدينة سمينة وافرة ، ولا بُدَّ أنْ تراعى فيها هذه الصفة عند اختيارك للهَدْى الذى ستُقدمه لله ، واحذر أن تكون من أولئك الذين يجعلون لله ما يكرهون ، إنما كُنْ من الذين قال الله لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ .. (٢٦٧) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ .. (٣٦) ﴾ [الحج] أى : اذكروا الله بالشكر على أنْ وهبها وذلَّلها لكم ، واذكروا اسم الله عليها حين ذَبْحها .

(١) ورد فى هذه الكلمة عدة قراءات منها :
- صَوافَّ : أى : قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى . عن ابن عباس ومجاهد وعلى بن أبى طلحة ، وهى قراءة الجمهور .
- صوَافن : جمع صافنة ، وهى التى قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب عن ابن مسعود وابنَ عباس وابن عمر .
- صوَافىَ : أى : خوالص لله عز وجل ، لا يشركون به فى التسمية على نحرها أحداً . عن الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبى موسى الأشعرى .
- صوَاف : وهى بمعنى التى قبلها . عن الحسن البصرى . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٩٣]

(٢) قال ابن الأثير : القانع فى الأصل السائل . وقال الحسن البصرى فيما رواه عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد : القانع الذى يقنع إليك بما فى يديك . والمعتر الذى يتصدى إليك لتطعمه . ولفظ ابن أبى شيبة : والمعتر الذى يعتريك ، يُريك نفسه ولا يسألك . [الدر المنثور للسيوطى٦/٥٥] .

ومعنى ﴿ صَوَافَّ .. (٣٦) ﴾ [الحج] يعنى : واقفة قائمة على أَرْجُلها ، لا ضعفَ فيها ولا هُزَال ، مصفوفة وكأنها فى معرض أمامك . وهذه صفات البُدْن الجيدة التى تناسب هذه الشعيرة وتليق أنْ تُقدَّمْ هَدْياً لبيت الله .

ومعنى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا .. (٣٦) ﴾ [الحج] وجبَ الشيء وجباً يعنى : سقط سقوطاً قوياً على الأرض ، ومعلوم أن البَدَنة لا تُذبح وهى مُلْقاة على الأرض مثل باقى الأنعام ، وإنما تُنْحر وهى واقفة ، فإذا ما نُحِرَتْ وقعتْ على الأرض وارتمتْ بقوة من بدانتها .

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا .. (٣٦) ﴾ [الحج] وقلنا : إن الأكل لا يكون إلا من الهَدْى المحض والتطوع الخالص الذى لا يرتبط بشىء من مسائل الحج ، فلا يكون هَدْىَ تمتُّع أو قِرَان ، ولا يكون جَبْراً لمخالفة ، ولا يكون نَذْراً .. إلخ .

وعلَّة الأمر بالأكل من الهَدْى ؛ لأنهم كانوا يتأففون أنْ يأكلوا من المذبوحِ للفقراء ، وكأن فى الأمر بالأكل منها إشارةً لوجوب اختيارها مما لا تعافه النفس .

ومعنى : ﴿ الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ .. (٣٦) ﴾ [الحج] القانع : الفقير الذى يتعفَّف أنْ يسأل الناس ، والمعترّ : الفقير الذى يتعرَّض للسؤال .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) ﴾ [الحج] يعنى : سخّرناها لكم ، ولو فى غير هذا الموقف ، لقد سخَّرها الله لكم منذ وُجِد الإنسان ؛ لذلك عليكم أنْ تشكروا الله على أنْ أوجدها وملّككم إياها ، وتشكروه على أنْ سخَّرها وذلَّلها لكم ، وتشكروه على أنْ هداكم للقيام بهذا المنسك ، وأداء هذه الشعيرة وعمل هذا الخير الذى سيعود عليكم بالنفع فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

ذلك لأنهم كانوا قبل الإسلام حين يذبحون للأوثان يُلطِّخون الصنم بدماء الذبيحة[1] ، كأنهم يقولون له : لقد ذبحنا لك ، وها هى دماء الذبيحة ، وفى هذا العمل منهم دليل على غبائهم وحُمْق تصرفهم ، فهم يروْن أنهم إذا لم يُلطِّخوه بالدم ما عرف أنهم ذبحوا من أجله .

وهنا ينبه الحق - سبحانه وتعالى - إلى هذه المسألة : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج] يعنى : لا يأخذ منها شيئاً ، وهو سبحانه قادر أنْ يعطى الفقير الذى أمرك أنْ تعطيه ، ويجعله مثلك تماماً غير محتاج .

إنما أراد سبحانه من تباين الناس فى مسألة الفقر والغنى أن يُحدث توازناً فى المجتمع ، فالمجتمع ليس آلة ميكانيكية تسير على وتيرة واحدة ، إنما هى حياة بشر لا بُدَّ أنْ تقومَ على الحاجة وعلى التكامل ، فلا بُدَّ من هذه التفاوتات بين الناس ، ثم تتدخّل الشرائع السماوية فتأخذ من القوى وتعطى الضعيف ، وتأخذ من الغنى وتعطى

---

(١) قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يُضرِّجون البيت بدماء البُدْن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فنزلت الآية . [تفسير القرطبى ٦ /٤٥٩٦] وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥٦) من قول ابن عباس أيضاً وعزاه لابن المنذر وابن مردويه .

الفقير .. وساعتها ، نقضى على مشاعر الحقد والحسد والبغضاء والأَثَرة .

فحين يعطى القوىُّ الضعيفَ من قوته لا يحسده عليها ، ويتمنى له دوامها ؛ لأن خيرها يعود عليه ، وحين يعطى الغنىّ مما أفاض الله عليه للفقير يُؤلِّف قلبه ، ويجتثّ منه الغِلَّ والحسد ، ويدعو له بدوام النعمة .

لا بد من هذا التفاوت ليتحقق فينا قول الرسول ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ، يشدُّ بعضه بعضاً »[1] .

لذلك ، ترى صاحب النعمة الذى ينثر منها على غيره ، إنْ أصابته فى ماله مصيبة يحزن له الآخرون ويتألمون بألمه ؛ لأن نعمته تفيض عليهم ، وخيرُه ينالهم . وأهل الريف إلى عهد قريب كان الواحد منهم يُربِّى البقرة أو الجاموسة ؛ ليحلب لبنها ، وكان لا ينسى الجيران وأهل الحاجة ، فكانوا يدعُونَ الله له أنْ يبارك له فى ماله ، وإنْ أصابته ضرَّاء فى ماله حَزِنوا من أجله .

إذن : حين تفيض من نعمة الله عليك على مَنْ حُرِم منها تدفع عن نفسك الكثير من الحقد والحسد ، فإنْ لم تفعل فلا أقلَّ من إخفاء هذا الخير عن أعيُن المحتاجين حتى لا تثير حفائظهم ، وربما لو رآك الرجل العاقل يُردعه إيمانه فلا تمتدّ عيناه إلى ما فى يدك ، إنما حين يراك الأطفال الصغار تحمل ما حُرِموا منه ، أو رأوا ولدك يأكل وهم محرومون هنا تكون المشكلة وقوله تعالى :

﴿ وَلَـٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٨٥) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

واتقاء الله هو اتباع منهجه ، فيُطاع الله باتباع المنهج فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر ، وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ « افعل » و « لا تفعل » ، ويُذكر فلا ينسى ؛ لأن العبد قد يطيع الله ويُنفِّذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أنْ تتذكر فى كل نعمة مَنْ أنعم بها ، وإياك أنْ تُنسيك النعمةُ المنعمَ .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج]

تلحظ هنا مسألة المتشابهات فى القرآن الكريم ، ففى الآية السابقة ذَيَّلها الحق سبحانه بقوله : ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج]

هذه المتشابهات يقف عندها العلماء الذين يبحثون فى القرآن ويُقلِّبون فى آياته ؛ لذلك يجمعون مثل هذه الآيات المتشابهة التى تتحدث فى موضوع واحد ويُرتِّبونها فى الذِّهْن ؛ لذلك لا يُؤتمنون على الحفْظ ، ومن هنا قالوا : ينبغى لمَنْ أراد حفْظ القرآن أنْ يدعَ مسألة العلم جانباً أثناء حفْظه ، حتى إذا نسى كلمةً وقف مكانه لا يتزحزح إلى أنْ يعرفها ، أمّا العالم فربما وضع مرادفها مكانها ، واستقام له المعنى .

والمراد بقوله تعالى : ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ .. ﴿٣٧﴾﴾ [الحج] يعنى : تذكرونه وتشكرونه على ما وفّقكم إليه من هذه الطاعات ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج] بشِّر يعنى : أَخْبِرْ بشىء سَارٍّ قبل مَجِىء زمنه ، ليستعد له المبشَّر ويفرح به ، كذلك الإنذار : أن تخبر بشىء سىء قبل حلوله أيضاً ؛ ليستعد له المنذر ، ويجد الفرصة التى

يتلافى فيها خطأه ، ويُجنِّب نفسه ما يُنذَر به ، ويُقبل على ما يُنجيه .

و ﴿ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾ [الحج] : جمع مُحسِن ، والإحسان : أعلى مراتب الإيمان ، وهو أنْ تُلزِم نفسك بشيء من طاعة الله التى فرضها عليك فوق ما فرض ، فربُّك عز وجل فرض عليك خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وفى إمكانك أنْ تزيد من هذه الصلوات ما تشاء ، لكن من جنس ما فرض الله عليك ، لا تخترع أنت عبادة من عندك ، كذلك الأمر فى الصوم ، وفى الزكاة ، وفى الحج ، وفى سائر الطاعات التى ألزمك الله بها ، فإنْ فعلت هذا فقد دخلتَ فى مقام الإحسان .

وفى الإحسان أمران : مُحسن به وهو العبادة أو الطاعة التى تُلزِم نفسك بها فوق ما فرض الله عليك ، ودافعٌ عليه ، وهو أن تؤدى العمل كأن الله يرقبك ، كما جاء فى حديث جبريل : « والإحسان أنْ تعبدَ الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1] .

فمراقبتك لله ومراعاتك لنظره تعالى إليك ، يدفعك إلى هذا الإحسان ، ألاَ ترى العامل الذى تباشره وتُشرِف عليه ، وكيف يُنهى العمل فى موعده ؟ وكيف يُجيده ؟ على خلاف لو تركتَه وانصرفْتَ عنه .

فإنْ لم تَصِل إلى هذه المرتبة التى كأنك ترى الله فيها ، فلا أقلَّ من أنْ تتذكر نظره هو إليك ، ومراقبته سبحانه لحركاتك وسكناتك .

لذلك ، فى سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ثم يُفسِّر سبب هذا الإحسان : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ومَنْ يلزمك بهذه التكاليف ؟ لك أنْ تصلي العشاء ثم تنام إلى الفجر ، كذلك لم يُلزمك بالاستغفار وقت السَّحَر ، ولم يلزمك بصدقة التطوع . إذن : هذه طاعات فوق ما فرض الله وصلَتْ بأصحابها إلى مقام الإحسان ، وأعلى مراتب الإيمان ، فليُشمِّر لها مَنْ أراد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) ﴾

صَدْر الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٣٨) ﴾ [الحج] يُشْعِرنا أن هناك معركة ، والمعركة التي يدافع الله فيها لابُدَّ أنها بين حق أنزله ، وباطل يُواجهه ، وقد تقدَّم قبل ذلك أن قال تبارك وتعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩) ﴾ [الحج]

وما دام أن هناك خصومة فلا بُدَّ أنْ تنشأ عنها معارك ، هذه المعارك قد تأخذ صورة الألفاظ والمجادلة ، وقد تأخذ صورة العنف والقوة والشراسة والالتحام المباشر بأدوات الحرب .

ومعركة النبي ﷺ مع معارضيه من كفار مكة لم تقف عند حَدِّ المعركة الكلامية فحَسْب ، فقد قالوا عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه : ساحر ، وكاهن ، ومجنون ، وشاعر ، ومُفْتر .. إلخ ثم تطوَّر الأمر إلى إيذاء أصحابه وتعذيبهم ، فكانوا يأتون رسول الله مَشْدوخين

ومجـروحين فيـقول لهم ﷺ : « لم أومر بقـتال ، اصبروا اصـبروا ، صبراً صبراً .. » .

إلى أنْ زاد اعـتـداء الكـفـار وطَفَح الكَيْل منـهم أذن الله لرسـوله بالقتـال ، فقال : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج]

فـقـولـه تعـالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٣٨﴾﴾ [الحج] صيغة يدافع : مبالغـة مِنْ يدفع ، معنى يدفع يعنى : شيئاً واحداً ، أو مرة واحـدة ، وتنتهى المـسألة ، أمّـا يدافع فتـدل على مقابلـة الفعل بمثله ، فـالله يدفعـهم وهم يقابلون أيضـاً بالمدافعـة ، فيـحدث تدافع وتفاعل من الجانبين ، وهذا لا يكون إلا فى معركة .

والمعركة تعنى : منتصـر ومنهزم ، لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُطمئن المؤمنين أنه سيدخل المعركة فى صفوفهم ، وسيدافع عنهم .

فقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٣٨﴾﴾ [الحج] أمر طبيـعى ؛ لأن الحق سبـحانه مـا كان ليُـرسل رسولاً ، ويتـركه لأهل الباطل يتغلَّبون عليه ، وإلاّ فـما جَدْوى الرسالة إذن ؛ لذلك يُطمئن الله تعالى رسوله ويُبشِّره ، فيقول :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]

وقال : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]

وقال : ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد]

فـهذه كلهـا آيات تُطمـئِن المؤمنين وتُـبشِّـرهم ، وقد جـاءتْ على

مراحل لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فمنعهم عن القتال فى البداية لحكمة ، ثم جعل القتال فيما بينهم ، وقبْل أنْ يأذنَ لهم فى قتال أعدائهم لحكمة : هى أنْ يَبْلوا المؤمنين ويُمحِّصهم ليُخرِج من صفوفهم أهل الخَوَر والجُبْن ، وضعيفى الإيمان الذين يعبدون الله على حَرْف ، ولا يبقى بعد ذلك إلا قوىُّ الإيمان ثابتُ العقيدة ، الذى يحمل راية هذا الدين وينسَاح بها فى بقاع الأرض ؛ لأنها دعوة عالمية لكل زمان ولكل مكان إلى أنْ تقوم الساعة ، ولما كانت هذه الدعوة بهذه المنزلة كان لا بُدَّ لها من رجال أقوياء يحملونها ، وإلا لو استطاع الأعداءُ القضاءَ عليها فلن تقومَ لدين الله قائمة .

إذن : كان لا بُدَّ أن يُصفِّى الحقُّ سبحانه أهلَ الإيمان كما يُصفِّى الصائغُ الذهبَ ، ويُخرِج خَبَثَه حين يضعه فى النار ، كذلك كانت الفتَن والابتلاءات لتصفية أهل الإيمان وتمييزهم ، لكن بالقتال فى صَفٍّ واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) ﴾ [الحج] فكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أصبح طرفاً فى المعركة ، والخوَّان : صيغة مبالغة من خائن ، وهو كثير الخيانة وكذلك كفور : صيغة مبالغة من كافر .

ومعنى الخيانة يقتضى أن هناك أمانةً خانها . نعم ، هناك الأمانة الأولى ، وهى أمانة التكليف التى قال الله فيها : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] فلقد خانَ هذه الأمانة بعد أنْ رَضِى أنْ يكونَ أهْلاً لها .

وهناك أمانة قبل هذه ، وهى العهد الذى أخذه الله على عباده ، وهم فى مرحلة الذَّرِّ[١] : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ[٢] شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

فإنْ قالوا : نعم هذه أمانة ، لكنها بعيدة ، ومَنْ منّا يذكرها الآن ؟

نقول : ألم تُقرُّوا بأن الله خلقكم ، وأوجدكم من عدم ، وأمدكم من عُدم ؟ كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف] كما أقرُّوا بخَلْق السماوات والأرض وما فيها من خيرات لله عز وجل ، فكان وفاء هذا الإقرار أنْ يؤمنوا ، لكنهم مع هذا كله كفروا ، أليست هذه خيانة للأمانة عاصروها جميعاً وعايشوها وأسهموا فيها ؟

والكفُور : مَنْ كفر نِعَم الله وجَحَدها .

وما دام هناك الخوَّان والكفُور فلا بُدَّ للسماء أنْ تُؤيِّد رسولها ، وأنْ تنصره فى هذه المعركة أولاً ، بأنْ تأذنَ له فى القتال ، ثم تأمره بأخذ العُدة والأسباب المؤدية للنصر ، فإنْ عزَّتْ المسائل عليكم ، فأنا معكم أؤيدكم بجنود من عندى .

(١) الذَّرّ فى اللغة : صغار النمل ، واحدتها ذَرَّة . وذَرَّ الله الخلق فى الأرض : نشرهم . والذرية : فعلية منه ، وهى منسوبة إلى الذر الذى هو النمل الصغار . [لسان العرب - مادة : ذرر] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٦١) : « وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم .. وقد قال قائلون من السلف والخلف أن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد » .

وقد حدث هذا في بَدْء الدعوة ، فأيَّد الله نبيه بجنود من عنده[1] ، بل أيَّده حتى بالكافر المعاند : ألم يكُن دليل[2] رسول الله في الهجرة كافراً ؟ ألم ينصره الله بالحمام وبالعنكبوت وهو في الغار ؟ ألم ينصره بالأرض التي ساخَتْ تحت أقدام فرس « سُرَاقة »[3] الذي خرج في طلبه ؟

هذه جنود لم نَرها ، ولم يُؤيَّد بها رسول الله ﷺ إلا بعد أن استنفد أسبابه ، ولو أراد سبحانه لَطوَّع لرسوله هؤلاء المعاندين ، فما رفع أحد منهم رأسه بعنادٍ لمحمد ، إنما الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يعطيه طواعية ويخضع له القوم ، ألم يقُلْ سبحانه وتعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

وقلنا : إن الله تعالى يريد أنْ يُخضِع قلوب عباده لا قوالبهم ، فلو أخضعهم الله بآية كونية طبيعية كالريح أو الصاعقة أو الخَسْف ، أو غيره من الآيات التي أخذتْ أمثالهم من السابقين لقالوا : إنها آفاتٌ طبيعية جاءتنا ، لكن جعل الله بين الفريقين هذه المواجهة ، ثم يسَّر لحزبه وجنوده أسباب النصر .

---

(١) قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنفال] . وفي آيات أخرى يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران] .

(٢) هو عبد الله بن أرقط ، وهو رجل من بني الدِّئل بن بكر ، وكانت أمه امرأة من بني سهم ابن عمرو ، وكان مشركاً يدلهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما . [سيرة ابن هشام ٢/٤٨٥] .

(٣) هو : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني ، صحابي ، له شعر ، كان ينزل قديداً ، كان في الجاهلية قائفاً (قصاصاً للأثر) أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر الرسول ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبي بكر . أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ . توفي ٢٤ هـ . [الأعلام للزركلي ٣/٨٠] .

قال سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾

ودفاع الحق سبحانه عن الحق يأخذ صوراً متعددة ، فأوَّل هذا الدفاع : أنْ أذن لهم فى أنْ يقاتلوا . ثانياً : أمرهم بإعداد القوة للقتال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

والمراد أنْ يأخذوا بكل أسباب النصر على عدوهم ، وأن يستنفدوا كل ما لديهم من وسائل ، فإنِ استنفدتم وسائلكم ، أتدخَّل أنا بجنود من عندى لا ترونها ، فليس معنى أن الله يدافع عن الذين آمنوا أن تدخُلَ السماء لحمايتهم وهم جالسون فى بيوتهم ، لا إنما يأخذون بأسباب القوة ويسعَوْنَ ويبادرون هم أولاً إلى أسباب النصر .

ومعنى ﴿ أُذِنَ .. (٣٩) ﴾ [الحج] أنهم كانوا ينتظرون الأمر بالقتال ، ويستشرفون للنصر على الأعداء ، لكن لم يُؤذَن لهم فى ذلك ، فلما أراد الله لهم أنْ يقاتلوا أذن لهم فيه ، فقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [الحج]

وعلّة القتال أنهم ظُلموا ، لذلك أمرهم ربهم - تبارك وتعالى - أنْ يقاتلوا ، لكن لا يعتدوا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ .. (١٩١) ﴾ [البقرة]

إذن : أمرهم أولاً بالصبر ، وفى المرحلة الأولى بأنْ يقاتلوا لردِّ العدوان ، وللدفاع عن أنفسهم دون أنْ يعتدوا ، وفى المرحلة الثانية سيقول لهم : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [الحج] بأسباب يُمكِّنهم منها ، أو بغير أسباب فتأتيهم قوة خفية لا يروْنها ، وقد رأوا نماذج من ذلك فعلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ(١) وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾

فلو أنهم أُخْرِجوا بحقٍّ كأنْ فعلوا شيئاً يستدعى إخراجهم من ديارهم ، كأنْ خَدشوا الحياء ، أو هددوا الأمْن ، أو أجرموا ، أو خرجوا على قوانين قبائلهم لكانَ إخراجهُم بحقٍّ .

إنما الواقع أنهم ما فعلوا شيئاً ، وليس لهم ذَنْب ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُوا

(١) البيعة : كنيسة النصارى ، والجمع بِيَع ، قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير . وقال أيضاً : الصوامع : التى تكون فيها الرهبان ، والبيع : مساجد اليهود . وصلوات : كنائس النصارى ، والمساجد : مساجد المسلمين . [الدر المنثور للسيوطى ٦/٥٩] .

رَبُّنَا اللَّهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] هذه المقولة اعتبرها القوم ذَنْباً وجريمة تستحق أنْ يخرجوهم بها من ديارهم .

كما قال سبحانه فى أهل الأخدود : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج]

وفى آية أخرى : ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [المائدة]

وفى قصة لوط عليه السلام : ﴿ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل]

إذن : أخرجوهم ، لا لأنهم أهل نجاسة ومعصية ، إنما لأنهم أناسٌ يتطهَّرون ، فالطهارة والعفة جريمتهم التى يُخْرَجُون من أجلها !! كما تقول : لا عيْبَ فى فلان إلا أنه كريم ، أو تقول : لا كرامةَ فى فلان إلا أنه لصٌّ . فهذه - إذن - صفة لا تمدح ، وتلك صفة لا تذم .

لقد قلب هؤلاء الموازين ، وخالفوا الطبيعة السويّة بهذه الأحكام الفاسدة التى تدل على فساد الطباع ، وأىّ فساد بعد أنْ قلبوا المعايير ، فكرهوا ما يجب أنْ يُحب ، وأحبوا ما يجب أن يكره ؟ ولا أدلَّ على فساد طبائعهم من عبادتهم لحجر ، وترْكهم عبادة خالق السماوات والأرض .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يُبيِّن الحق سبحانه نتيجة انعدام هذا التدافع : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ .. ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة]

والفساد إنْ حدث بين الناس فى حركة الحياة فيمكن أنْ يُعوَّض ويُتدارك ، أمّا إنْ تعدّى الفساد إلى مُقوِّمات اليقين الإيمانى فى الأرض

فكره الناس ما يربطهم بالسماء ، وهدموا أماكن العبادة ، فهذه الطامة والفساد الذى لا صلاحَ بعده ، فكأن الآيتين تصوران نوعاً من الإيغال فى الفساد ، والاتّضاع فى الجرائم .

وتفسد الأرض حين ينعدم هذا التدافع ، كيف ؟ هَبْ أن ظالماً مستْبداً فى بلد ما يستعبد الناس ويمتصّ خيراتهم بل ودماءهم دون أنْ يردَّه أحد ، لا شكَّ أن هذا سيُحدث فى المجتمع تهاوناً وفوضى ، ولن يجتهد أحد فوق طاقته ، ولمن سيعمل وخيره لغيره ؟ وهذا بداية الفساد فى الأرض .

فإنْ قُلْنا : هذا فساد بين الناس فى حركة حياتهم يمكن أنْ يصلح فيما بعد ، فما بالك إن امتدَّ الفساد إلى أماكن الطاعات والعبادات ، وقطع بين الناس الرباط الذى يربطهم بالسماء ؟

إنْ كان الفساد الأول قابلاً للإصلاح ، ففساد الدين لا يصلح ، لأنك خرَّبْتَ الموازين التى كانت تُنظِّم حركة الحياة ، فأصبح المجتمع بلا ميزان وبلا ضوابط يرجع إليها .

ونلْحظُ فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] جاءت قضية عامة لكل الناس ، فلم يخصْ طائفة دون أخرى ، فلم يَقُلْ مثلاً : لولا دَفْع الله الكافرين بالمؤمنين ، إنما قال مُطْلق الناس ؛ لأنها قضية عامة يستوى فيها الجميع فى كل المجتمعات .

كذلك جاءت كلمة (بعض) عامة ؛ لتدل على أن كلاً الطرفين صالح أن يكون مدفوعاً مرة ، ومدفوعاً عنه أخرى ، فَهُمْ لبعض بالمرصاد : مَنْ أفسد يتصدَّى له الآخر ليُوقفه عند حَدِّه ، فليس المراد أن طائفة تدفع طائفة على طول الخط .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] دون أنْ يُحدِّد أيّهما مرفوع ، وأيهما مرفوع عليه ؛ لأن كلاً منهما مرفوع فى شىء ، ومرفوع عليه فى شىء آخر ؛ ذلك لأن العباد كلهم عيال الله ، لا يُحابى منهم أحداً على أحد .

انظر الآن إلى قوة روسيا فى الشرق وقوة أمريكا فى الغرب ، إنهما مثال لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .. (٤٠) ﴾ [الحج] فكلٌّ منهما تقف للأخرى بالمرصاد ، ترقبها وترصُد تحركاتها وتقدّمها العسكرى ، وكأن الله تعالى جعلهما لحماية سلامة الآخرين أنْ تقف كُلٌّ منهما موقفَ الحذَر والخوف من الأخرى .

وهذا الخوف والترقُّب والإعداد هو الذى يمنع اندلاع الحرب بينهما ، فما بالك لو قامت بينهما حرب أسفرت عن منتصر ومهزوم ؟ لا بُدَّ أن المنتصر سيعيثُ فى الأرض فساداً ويستبد بالآخرين ، ويستشرى ظُلْمه لعدم وجود مَنْ يُردعه .

ومن رحمة الله بالمؤمنين أنْ يكيد الظالمين بالظالمين بكل ألوانهم وفنونهم ، ويُؤدِّب الظالم بمَنْ هو أشد منه ظُلْماً ؛ ليظلّ أهلُ الخير بعيدين عن هذه المعركة ، لا يدخلون طَرَفاً فيها ؛ لأن الأخيار لا يصمدون أمام هذه العمليات ، لأنهم قوم رِقَاق القلوب ، لا تناسبهم هذه القسوة وهذه الغِلْظة فى الانتقام .

اقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾ [الأنعام]

وهكذا يُوفِّر الله أهل الخير ، ويحقِن دماءهم ، ويُريح أولياءه من مثل هذه الصراعات الباطلة .

لذلك لما دخل النبى ﷺ مكة دخولَ المنتصر ، بعد أنْ أخرجه

قومه منها ، وبعد أنْ فعلوا به وبأصحابه الأفاعيل ، كيف دخلها وهو القائد المنتصر الذى تمكَّن من رقاب أعدائه ؟

دخل رسول الله ﷺ مكة مُطأطئ الرأس ، حتى لتكاد رأسه تلمس قربوس[1] السرج الذى يجلس عليه ، تواضعاً منه ﷺ ، ومع ذلك قال أبو سفيان لما رأى رسول الله فى هذا الموقف ، قال للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً[2].

وبعد أن تمكَّن رسول الله من كفار مكة ، وكان باستطاعته القضاء عليهم جميعهم ، قال : « يا معشر قريش ، ما تظنُّون أنِّى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء »[3]

فأىُّ رحمة هذه ؟ وأىُّ لين هذا الذى جعله الله فى قلوب المؤمنين ؟ وهل مثْل هذا الدين يُعارَض ويُنْصَرف عنه ؟

إذن : يُسلِّط الحق - تبارك وتعالى - الأشرار بعضهم على بعض ، وهذه آية نراها فى الظالمين فى كل زمان ومكان ، ويجلس الأخيار يرقبون مثل هذه الصراعات التى يُهلِك الله فيها الظالمين بالظالمين .

---

(١) القَرَبُوس : حنْو السَّرْج . وحنْو كل شىء : اعوجاجه . فحنو الرَّحْل والسَّرْج : كل عود مُعوج من عيدانه . [لسان العرب - مادتا : قربس ، حنا] . وقد ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٥) « أن رسول الله ﷺ كان يضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه (طرف لحيته) ليكاد يمسّ واسطة الرَّحْل » .

(٢) قال أبو سفيان حين مرَّت أمامه جيوش المسلمين يوم فتح مكة : ما لأحد بهؤلاء قبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً . قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

(٣) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء » [السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] صوامع جمع صومعة ، وهى مكان خاصٌ للعبادة عند النصارى ، وعندهم مُتعبَّد عام يدخله الجميع هو الكنائس ، أما الصَّومعة فهى مكان خاص لينفرد فيه صاحبه وينقطع للعبادة ، ولا تكون الصَّوْمعة فى حضر ، إنما تكون فى الجبال والأودية ، بعيداً عن العمران لينقطع فيها الراهب عن حركة حياة الناس ، وهى التى يسمونها الأديرة وتوجد فى الأماكن البعيدة .

وقد حرم الإسلام الرهبانية بهذا المعنى ؛ لأنها رهبانية ما شرَّعها الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً[1] ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد]

ومعنى : ﴿ وَبِيَعٌ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] البيَع هى الكنائس .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ مَا نعَى عليهم الانقطاعَ للعبادة ، لكن نعى عليهم انقطاعهم عن حركة الحياة ، وأسباب العيش ؛ لذلك قال : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا[2] حَقَّ رِعَايَتِهَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد]

وقد أباح الإسلام أيضاً الترهُّب والانقطاع للعبادة ، لكن شريطة أن تكون فى جلْوة يعنى : بين الناس ، لا تعتزل حركة الحياة ، إنما تعبَّد الله فى كل حركة من حركات حياتك ، وتجعل الله تعالى دائماً فى بالك ونُصْب عينيك فى كُلِّ ما تأتى ، وفى كل ما تدَع ، إذن :

---

(١) الترهب : التعبُّد ، كانوا يترهبون بالتخلى من أشغال الدنيا ، وترك ملاذها والزهد فيها ، والعزلة عن أهلها وتعهُّد مشاقها ، حتى إن منهم من كان يخصى نفسه ويضع السلسلة فى عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب ، والراهب : هو المتعبِّد فى الصومعة . [لسان العرب ـ مادة : رهب] .

(٢) أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما : الابتداع فى دين الله ما لم يأمر به الله . والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/٣١٥) .

هناك فَرْق بين مَنْ يعبد الله فى خَلْوته ، ومَنْ يعبد الله فى جلْوته .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - قال عن الرجل الذى لازم المسجد للعبادة وعرف أن أخاه يتكفّل به ويُنفق عليه ، قال : أخوه أعبد منه . كيف ؟

قالوا : لأنك تستطيع أنْ تجعل من كل حركة لك فى الحياة عبادة ، حين تُخلص النية فيها لله عز وجل . ولك أن تقارن بين مؤمن وكافر ، كلاهما يعمل ويجتهد ليقُوتَ نفسه وأهل بيته ، ويحيا الحياة الكريمة ، وهذا هدف الجميع من العمل ، لكن لو أن المؤمن اقتصر فى عمله على هذا الهدف لاستوى مع الكافر تماماً .

إنما للمؤمن فوق هذا مقاصد أخرى تكمن فى نيته وضميره ، المؤمن يفعل على قَدْر طاقته ، لا على قَدْر حاجته ، ثم يأخذ ما يحتاج إليه ويُنفق من الباقى ويتصدَّق على مَنْ لا يقدر على الحركة الحياتية .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ [المؤمنون] هل يعنى : مُؤدُّون فقط ؟ لا ، بل إن المؤمن يتحرك ويعمل ويسعى ، وفى نيته مَنْ لا يقدر على السَّعْى والعمل ، فكأنه يُقبل على العمل ويجتهد فيه ، وفى نيته أنْ يعمل شيئاً لله بما يفيض عن حاجته من ناتج عمله وهذا ما يُميِّز المؤمن فى حركة الحياة عن الكافر .

وأذكر مرة أننا جئنا من الريف فى الشتاء فى الثلاثينيات لزيارة سيدنا الشيخ الحافظ التيجانى ، وكان مريضاً - رحمه الله ورضى الله عنه - وكان يسكن فى حارة ، وفضَّلنا أن نأخذ (تاكسى) يُوصِّلنا بدل أن نمشى فى وَحْل الشتاء ، وعند مدخل الحارة رفض سائق

(التاكسى) الدخول وقال : إن أجرة التوصيل لا تكفى لغسيل السيارة وتنظفيها من هذا الوَحْل ، وبعد إلحاح وافق وأوصلنا إلى حيث نريد ، فأعطيناه ضِعْف أجرته ، لكنى قبل أن أنصرف قلتُ له : أنت لماذا تعمل على هذا (التاكسى) ولماذا تتعب ؟ قال : من أجل مصالحى ومصالح أولادى ، فقلت له : وما يُضيرك إنْ زِدْتَ على ذلك وجعلْتَ فى نيتك أنْ تُيسِّر بعملك هذا على الناس ؟ فاهتمّ الرجل ولبسته الكلمة فقال : والله لا أردُّ راكباً أبداً .

ومعنى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [المؤمنون] لم يقل مؤدون ؛ لأن ﴿ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [المؤمنون] تعنى : أن نيتهم فى الفعل أنْ يفعلوا على قَدْر طاقتهم ويجتهدوا لتوفير شىء بعد نفقاتهم يتصدقون منه .

إذن : حرَّم الإسلام الرهبانية التى تَحرِم المجتمع من مشاركة الإنسان فقال ﷺ : « لا رهبانية فى الإسلام »[1] لأنه اعتبر كل حركة مقصودٍ منها صالحُ المجتمع كله حركةً إيمانية عبادية ، ومن هنا كان العمل عبادة .

وقد وضع العلماء شروطاً لمَنْ أراد الانقطاع للعبادة : أولها : ألاَّ يأخذ نفقته من أحد ، بمعنى أن يعمل أولاً ليُوفِّر احتياجاته طوال فترة انقطاعه ، وصدق (إقبال) حين قال :

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (٣١٥٤) : « قال ابن حجر : لم أره بهذا اللفظ ، لكن فى حديث سعد بن أبى وقاص عند البيهقى « إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة » . وقد أخرج أحمد فى مسنده (٦/٢٢٦) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إن الرهبانية لم تكتب علينا » .

لَيْسَ زُهْداً تصوف من تقى فرٌ من غمْرة الحيَاةِ بدين
إنما يُعرَفُ التصوفُ فى السُّوق بمالٍ ومَطْمعٍ وفُتُون

ثم يقول تعالى : ﴿ وَصَلَوَاتٌ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] وهذه لليهود يُسمُّون مكان التعبد : صَالوتاً . لكن ، لماذا لم يرتبها القرآن ترتيباً زمنياً ، فيقول : لهدمت صلوات و صوامع وبيع ؟ قالوا : لأن القرآن يُؤرِّخ للقريب منه فالأبعد .

﴿ وَمَسَاجِدُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] وهذه للمسلمين ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج]

وما دام الحق سبحانه ذكر المساجد بعد الفعل ﴿ لَّهُدِّمَتْ .. ﴿٤٠﴾ ﴾[الحج] فهذا دليل على أنه لا بُدَّ أن يكون للمسلمين مكان يُحكر للعبادة ، وإنْ جُعلَتْ الأرض كلها لهم مسجداً وطَهُوراً ، ومعنى ذلك أنْ تصلى فى أىٍّ بقعة من الأرض ، وإنْ عُدم الماء تتطهر بترابها ، وبذلك تكون الأرض مَحلاً للعبادة ومَحَلاً لحركة الحياة وللعمل وللسَّعْى ، فيمكنك أن تباشر عملك فى مصنعك مثلاً وتُصلِّى فيه ، لكن الحق سبحانه يريد منا أن نُخصِّص بعض أرضه ليكون بيتاً له تنقطع منه حركة الحياة كلها ، ويُوقَف فقط لأمور العبادة .

لذلك قال ﷺ : « مَنْ بنى لله مسجداً ولو كمفْحَصِ قَطَاةٍ[1] بنى الله له بيتاً فى الجنة »[2] .

---

(١) القطا : طائر ، سُمِّى بذلك لثقَل مَشْيه . [لسان العرب ـ مادة : قطا] ومفحص القطاة : حيث تُفرِّخ فيه من الأرض . والأفحوص : مَبيض القطا لأنها تفحص الموضع ثم تبيض فيه ، وكذلك هو للدجاجة [لسان العرب ـ مادة : فحص] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٤١/١) عن ابن عباس ، وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٢١٧/٤) من حديث أبى ذر ، وكذا (٢٤/٥) من حديث أبى بكر الصديق .

فقوله تعالى : ﴿ لَّهُدِّمَتْ .. وَمَسَاجِدُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] تدل على مكان خاص للعبادة وإلاَّ لو اعتُبِرَتْ الأرضُ كلها مسجداً ، فماذا تهدم ؟

وعليه ، فكل مكان تُزاوَل فيه أمورٌ غير العبادة لا يُعتبر مسجداً ، كأماكن الصلاة التى يتخذونها تحت العمارات السكنية ، هذه ليست مساجد ، والصلاة فيها كالصلاة فى الشارع وفى البيت ؛ لأن المسجد (مكان) وما يُبنى عليه (مكين) .

والمسجدية تعنى : المكان من الأرض إلى السماء ، بدليل أننا فى بيت الله الحرام نصلى فوق سطح المسجد ، ونتجه لجوِّ الكعبة ، لا للكعبة ذاتها ، لماذا ؟ لأن جَوَّ الكعبة إلى السماء كعبة ، وكذلك لو كنا فى مخابىء أو فى مناجم تحت الأرض ؛ لأن ما تحت الكعبة من الأرض كعبة . وكذلك فى المسْعَى إذا ضاق الدور الأول يسعى الناس فى الثانى وفى السطح ، لأن جو المسْعَى مَسْعَى .

إذن : المسجد ما حُكِر للعبادة ، وخُصِّص للمسجدية من أرضه إلى سمائه ، وهذا لا يُمارس فيه عمل دنيوى ولا تُعقد فيه صفقة .. إلخ .

أما أنْ نجعل المسجد تحت عمارة سكنية ، وفوق المسجد مباشرة يباشر الناس حياتهم ومعيشتهم بما فيها من هَرَج ولَهْو ، حلال وحرام ، وطهارة ونجاسة ، ومعاشرة زوجية .. إلخ فهذا كله يتنافى مع المسجدية التى جعلها الله حكْراً للعبادة من الأرض إلى السماء . فلنُسَمِّ هذه الأماكن : مُصلّى . ولا نقول : مسجد .

ثم يصف الحق سبحانه المساجد بقوله : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] لأن ذكْر الله فى المساجد دائم لا ينقطع ، ونحن لا نتحدث عن مسجد ، ولا عن مساجد قُطْر من الأقطار ، إنما المراد

مساجد الدنيا كلها من أقصى الشرق لأقصى الغرب ، ومن الشمال للجنوب .

ولو نظرتَ إلى أوقات الصلوات لرأيتَ أنها مرتبطة بحركة الفلك وبالشمس فى الشروق ، وفى الزوال ، وفى الغروب ، وباعتبار فارق التوقيت فى كل بلاد الله تجد أن ذكْر الله دائم لا ينقطع أبداً فى ليل أو نهار ، فأنت تُؤذِّن للصلاة ، وغيرُكَ يقيم ، وغيركما يصلى ، أنت تصلى الظهر ، وغيرك يصلى الصبح أو العصر ، بل أنت فى الركعة الأولى من الصبح ، وغيرك فى الركعة الثانية ، أنت تركع وغيرك يسجد .

إذن : هى منظومة عبادية دائمة فى كل وقت ، ودائرة فى كل مكان من الأرض ، فلا ينفكّ الكون ذاكراً لله . أليس هذا ذكْراً كثيراً ؟ أليستْ كلمة (الله أكبرُ) دائرة على ألسنة الخلق لا تنتهى أبداً ؟

ثم لما كان دَفْع الله الناسَ بعضهم ببعض ينتج عنه معركة تُسْفر عن منتصر ومنهزم ، قال سبحانه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج] فإنْ كان التدافع بين الكفار فإنه لا ينتهى ، وإنْ كان بين حقٍّ لله وباطل حكم الله بأنه باطل لا بُدَّ أن تنتهى بنُصْرة الحق ، وغالباً لا تطول هذه المعركة ؛ لأن الحق دائماً فى حضانة الله ، إنما تطول المعارك بين باطل وباطل ، فليس أحدهما أَوْلَى بنُصْرة الله من الآخر ، فيظل كل منهما يطحن فى الآخر ، وإنْ لم تكن حرباً ساخنة كانت حرباً باردة ، لماذا ؟ لأنه لا يوجد قويٌّ لا هوى له يستطيع أن يفصل فيها ، وطالما تدخّل الهوى تستمر المعركة .

يبقى فى القسمة العقلية المعركة بين حق وحق ، وهذه لا وجودَ لها ؛ لأن الحق واحد فى الوجود ، فلا يمكن أنْ يحدث تصادم أبداً بين أهل الحق .

والحق - تبارك وتعالى - فى نُصْرته لأوليائه يستطيع أن ينصرهم دون حرب ، ويُهلك أعداءهم ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأخذوا هم بأسباب النصر ؛ لذلك يُعلّمهم أصول هذه المسألة ، فيقول سبحانه :

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ[1] فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ .. ④﴾ [محمد]

ومعنى ﴿أَثْخَنتُمُوهُمْ .. ④﴾ [محمد] يعنى : جعلتموهم لا يقدرون على الحركة ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. ④﴾ [محمد] لا تُجهزوا عليهم ، ولا تقتلوهم ، إنما شُدُّوا قيودهم واستأسروهم ، وهذه من رحمة الإسلام وآدابه فى الحروب ، فليس الهدف القتل وإزهاق الأرواح ثم ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً .. ④﴾ [محمد] مَنّاً إنْ كان هناك تبادل للأسرى . فأنت تمنُّ وهو يمنُّ . والفداء أنْ يفدى نفسه .

وكانت هذه المسألة حجة لنا حينما نتحدث عن الرقِّ فى الإسلام ، ونرد على هؤلاء الذين يحلو لهم اتهام الإسلام ، ويستخدمون فى ذلك السفسطة والمراوغة اللغوية لإقناع الناس بأن الإسلام ساهم فى نَشْر الرقِّ والعبودية .

ونقول : لقد جاء الإسلام والرق موجود ومنتشر لم يُشرِّعه الإسلام ، ولم يُوجِدْه بداية ، حيث كانت أسباب الرق كثيرة ، وأسباب

---

(١) أثخنته الجراح : أعجزته عن الحركة أو عن القتال . [القاموس القويم ١٠٦/١] وقال أبو العباس : معناه غلبتموهم وكثر فيهم الجراح . [لسان العرب - مادة : ثخن] .

الاستعباد متعددة : فَمَنْ تحمّل دَيْناً وعجز عن سداده يُسْتعبد لصاحب الدين ، ومَنْ عمل ذنباً وخاف من عقوبته أخذوه عبداً ، ومَنْ اختطفه الأشرار فى الطريق جعلوه عبداً .. إلخ .

فلما جاء الإسلام عمل على سَدِّ منابع الرقِّ هذه ، وجعل الرقَّ مقصوراً على الحرب المشروعة . ثم فتح عدة مصارف شرعية للتخلُّص من الرق القائم ، حيث لم يكُنْ موجوداً من أبواب العتق إلا إرادة السيد فى أنْ يعتق عبده ، فأضاف الإسلام إلى هذا الباب أبواباً أخرى ، فجعل العتق كفارة لبعض الذنوب ، وكفارة لليمين ، وكفارة للظِّهار[1] ، وحثَّ على الصدقة فى سبيل العتق ، ومساعدة المكاتب الذى يريد العتق ويسعى إليه .. إلخ .

فإذا لم تعتق عبدك ، فلا أقل من أن تطعمه من طعامك ، وتُلْبسه من ملبسك ، ولا تُحمِّله ما لا يطيق ، وإنْ حمَّلْته فأعنْه ، وكما يقول النبى ﷺ « إنما هم إخوانكم »[2] .

ونلاحظ على الذين يعيبون على الإسلام مسألة الرقِّ فى الحروب أنهم يقارنون بين الرقِّ والحرية ، لكن المقارنة هنا ليستْ كذلك ،

(١) ظاهر من امرأته ، قال لها أنها عليه كظهر أمه أو أخته أو غيرهما من المحرمات فيحرمها ولا يطلقها ، وكان العرب يفعلون ذلك إيذاءً لهن وإضراراً فلما اشتكت الزوجة التى ظاهرها زوجها للنبى ﷺ نزلت الآيات تنظم الظهار ، فإما طلاق أو كفارة كبرى إذا رغب فى العودة إلى زوجته عقوبة له على الظهار ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ②﴾ [المجادلة] الكفارة الكبرى إما : تحرير رقبة - صيام شهرين متتابعين - إطعام ستين مسكيناً .

(٢) عن أبى ذر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إن إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٤٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٦١) كتاب الإيمان .

المقارنة هنا بين الرق والقتل ؛ لأنه لا يُسترقّ إلا مَنْ قدر المسترقُّ عليه وتمكّن منه فى المعركة ، وكان باستطاعته قَتْله ، لكن رحمة الله بعباده منعتْ قتله ، وأباحت أَخْذه رقيقاً ، فالنفعية للمقاتل المنتصر يقابلها حَقْن دم الآخر ، ثم بعد انتهاء الحرب نحثُّ على عتقه ، ونفتح له أبواب الحرية .

إذن : لا تقارن بين عبد وحر ، إنما قارن بين العبودية والقتل : أيهما أقلّ ضرراً ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ⑭ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑮ ﴾ [التوبة]

هذه نتائج ستٌّ للأمر ﴿ قَاتِلُوهُمْ .. ⑭ ﴾ [التوبة] وجواب الأمر مجزوم بالسكون كما فى (يُعذِّبْهم) ومجزوم بحذف حرف العلة كما فى (وَيُخْزِهم) ، والخزى لأنهم كانوا مغترين بقوتهم ، ولديهم جبروت مفتعل ، يظنون ألاّ يقدر عليهم أحد ، وكذلك فى : ينصركم ، ويشف ، ويذهب .

ثم قطع السياقُ الحكمَ السابق ، واستأنف كلاماً جديداً ، وإنْ كان معطوفاً على ما قبله فى اللفظ ، وهذا مظهر من مظاهر الدقة فى الأداء القرآنى ، وملْحَظ لرحمة الله تعالى حتى بالكفار ، فقال تعالى : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ .. ⑮ ﴾ [التوبة] هكذا بالرفع ، لا بالجزم فقطع الفعل (يتوب) عما قبله ؛ لأن الله تعالى لم يشأ أن يشرِّك بينهم حتى فى جواب الأمر .

وحتى على اعتبار أنهم هُزِمُوا ، وكُسِرت شوكتهم ، وضاعتْ

هيبتهم ، لعلهم يفيقون لأنفسهم ، ويعودون للحق ، وهذه من رحمة اللهِ بالكافرين فى معاركهم مع الإيمان .

لكن ، لماذا يتوب الله على الكفار ويرحمهم وهم أعداء دينه وأعداء نبيه ؟ قالوا : لأنه سبحانه وتعالى ربهم وخالقهم ، وهم عباده وعياله ، وهو أرحم بهم، ومرادات الله فى الخَلْق أن يكونوا جميعاً طائعين .

لذلك ، يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « قالت السماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يا رب ائذن لى أن أخسف بابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لى أن أسقط على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك » .

فالكون كله ناقم على الكافرين ، متمرد على العصاة ، مغتاظ منهم ، فماذا قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهم ؟ قال سبحانه : « دعونى وخَلْقى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإنْ تابوا إلىَّ ، فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ⟨٤٠⟩ ﴾ [الحج] وما دام أن النصر من عند الله فإياكم أنْ تبحثوا فى القوة أو تقيسوا قوتكم بقوة عدوكم ، فلربك عز وجل جنود لا يعلمها إلا هو ، ووسائل النصر وأنت فى حضانة الله كثيرة تأتيك من حيث لا تحتسب وبأهْون الأسباب ، أقلّها أن الله يُريكم أعداءكم قليلاً ويُكثِّر المؤمنين فى أعين الكافرين ليفتَّ ذلك فى عَضُدهم ويُرهبهم ويُزعزع معنوياتهم ، وقد يحدث العكس ، فيرى الكفار المؤمنين قليلاً فيجترئون عليهم ، ويتقدمون ، ثم تفاجئهم الحقيقة .

إذن : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] فلا تُعوِّل فقط على قوتك وتحسب مدى تكافُئك مع عدوك ، دَعْكَ من هذه الحسابات ، وما عليك إلا أنْ تستنفد وسائلك وأسبابك ، ثم تدع المجال لأسباب السماء .

وأقلُّ جنود ربك أنْ يُلقى الرعب فى قلوب أعدائك ، وهذه وحدها كافية ، ويُرْوى أنهم فى إحدى المعارك الإسلامية تغيرت رائحة أفواه المسلمين ، وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال ، فأخرجوا السواك يُنظفِّون أسنانهم ، ويُطيِّبون أفواههم ، عندها قال الكفار : إنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلونا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب من حيث لا يدرون .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج] عزيز : يعنى لا يُغلب ، وما دام أن الله تعالى ينصر مَنْ نصره فلا بُدَّ أن تنتهى المعركة بالنصر مهما خارتْ القوى ومهما ضَعُفتْ ، ألم يكُن المسلمون فى مكة ضعفاء مضطهدين ، لا يستطيع واحد منهم أن يرفع رأسه بين الكفار ؟

ولما نزل قول الله تعالى وهم على هذه الحال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] تعجب عمر[1] بفراسته وعبقريته : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ونحن غير قادرين حتى على حماية أنفسنا ؟ فلما رأى يوم بدر قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فما دام أن الله قوى عزيز فلا بُدَّ أن ينصركم ، وهذه مسألة

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] . قال عمر : أىّ جَمْع هذا ؟ أى أى جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ .

محكوم بها أزلاً : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

فإذا ما تمَّتْ لكم الغَلَبة ، فاعلموا أن لكم دَوْراً ، ألاَ وهو :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ (٤١) ﴾

معنى : ﴿ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٤١) ﴾ [الحج] جعلنا لهم سلطاناً وقوة وغلَبة ، فلا يَجترىء أحد عليهم أو يزحزحهم ، وعليهم أنْ يعلموا أن الله ما مكَّنهم ونصرهم لذاتهم ، وإنما ليقوموا بمهمة الإصلاح وينقوا الخلافة الإنسانية في الأرض من كُلِّ ما يُضعِف صلاحها أو يفسده .

لذلك ، سيدنا سليمان عليه السلام كان يركب بساط الريح يحمله حيث أراد ، فداخله شيء من الزهو ، فمال به البساط وأوشك أنْ يُلقيه ، ثم سمع من البساط مَنْ يقول له : أُمِرْنا أن نطيعك ما أطعتَ الله .

والممكَّن في الأرض الذي أعطاه الله البأس والقوة والسلطان ، يستطيع أنْ يفرض على مجتمعه ما يشاء ، حتى إنْ مُكِّن في الأرض بباطل يستطيع أنْ يفرض باطله ويُخضِع الناس له ، ولو إلى حين .

فماذا يُناط بالمؤمن إنْ مُكِّن في الأرض ؟

يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ .. (٤١) ﴾ [الحج] ليكونوا دائماً على ذِكْر وولاء من ربهم الذي وهبهم هذا

التمكين ؛ ذلك لأنهم يترددون عليه سبحانه خَمْس مرات فى اليوم والليلة .

﴿ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ (٤١) ﴾ [الحج] فهذه أُسس الصلاح فى المجتمع والميزان الذى يسعد به الجميع .

﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج] يعنى : النهاية إلينا ، وآخر المطاف عندنا ، فمَن التزم هذه التوجيهات وأدَّى دوره المنُوط فى مجتمعه ، فبها ونِعْمتْ ، ومَنْ ألقاها وراء ظهره فعاقبته معروفة .

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ حتى لا يهتم بما يفعله قومه من كفر وعناد ومجابهة للدعوة :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾

﴿ يُكَذِّبُوكَ .. (٤٢) ﴾ [الحج] يعنى : فى دعوتك فيواجهونك ، ويقفون فى سبيل دعوتك ليبطلوها ، فاعلم أنك لست فى ذلك بِدْعاً من الرسل ، فقد كُذِّب كثير من الرسل قبلك ، وعليك ألاَّ تلاحظ مسألة التكذيب منفصلةً عن عاقبته ، نعم : كذب القوم لكن كيف كانت العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أَخْذ عزيز مقتدر ؟

فلا تحزن ، فسوف يحلُّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين .

وقلنا : إن الرسول يتحمّل من مشقة الرسالة وعناء الدعوة على قَدْر رسالته ، فكلُّ رسل الله قبل محمد كان الرسول يُرْسَل إلى قومه خاصة ، وفى مدة محدودة ، وزمان محدود ، ومع ذلك تعبوا

كثيراً فـى سبيل دعوتهم ، فما بالك برسـول بُعثَ إلى الناس كافة فى كل زمـان وفى كل مكان ، لا شكَّ أنه سـيتـحـمل من التـعب والعناء أضعاف ما تحمَّله إخوانه من الرسل السابقين .

وكأن الحق ـ تبـارك وتعالى ـ يُعد رسـوله ﷺ ويُوطِّنه على تحمُّل المشـاقِّ من بداية الطريق حتى لا تفـتّ فى عَضُده حـين يواجهـها عند مباشرة أمـر الدعوة ، يقول له : ليست السيادة أمراً سـهلاً ، إنما دونها متاعب وأهوال ومصاعب فاستعد ، كـما تنبه ولدك : انتبه ، فالامتحانات ستأتى هذا العام صعبة ، فالوزارة تريد تقليل عـدد المتقدمين للجامعة ، فاجتهد حتى تحصل على مجموع مرتفع ، وحين يسمع الولد هذا التنبيه يُجمع تماسكه ، ويجمع تركيزه ، فلا يهتز حين يواجه الامتحانات .

ثم يذكر الحق ـ تبارك وتعـالى ـ نماذج للمكذِّبين للرسل : ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج]

ثم يقول تعالى :

﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾

نلحظ هنا أن الحق سبـحانه ذكر المكذبين ، إلا فى قـصة موسى فـذكر المكذَّب ، فلـم يَقُل : وقوم مـوسى بل قـال : وكُذِّب مـوسى ، لماذا ؟ قـالوا : لأن مهمتـه كانت أصعب حيث تعـرَّض فى دعوته لمن ادَّعى الألوهية ذاتها .

وقـوله تعـالى : ﴿ فَـأَمْلَيْتُ لِلْكَافِـرِينَ ثُمَّ أَخَـذْتُـهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الحج] أمليت : أمهلْتُ حتى ظنوه إهمـالاً ، وهو إمهال بأنْ يمدّ الله لهم ، ويطيل

فى مدتهم ، لا إكراماً لهم ، ولكن ليأخذهم بعد هذا أخْذ عزيز مقتدر ، وفى آية أخرى يُوضِّح لنا هذه البرقية المختصرة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا .. (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

وفى هذا المعنى يقول أيضاً : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

إذن : لا تغتر بما فى أيديهم ؛ لأنه فتنة ، حتى إذا أخذهم الله كانت حسرتهم أكبر ، فمن عُدِم هذه النعم لا يتعلق قلبه بها ، ولا يألَم لفقدها .

وقد حدث شىء من هذا فى أيام سعد زغلول ، وكان أحد معارضيه يشتمه ويتطاول عليه ، لكن فوجىء الجميع بأنه يُولِّيه منصباً مرموقاً فى القاهرة ، فتعجّب الناس وسألوه فى ذلك فقال : نعم ، وضعته فى هذا المنصب ليعرف العلو والمنزلة حتى يتحسَّر عليها حين تُسلَب منه ، وتكون أنكى له . يعنى : يرفعه إلى أعلى حتى يهوى على رقبته ، لأنه ما فائدة أن توقعه من على الحصيرة مثلاً ؟!!

ثم يقول تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج] الحق سبحانه يُلقى الخبر فى صورة استفهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به . والمراد : أعاقبناهم بما يستحقون ؟

والنكير : هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة ، كالذى يُكرمك ويُواسيك ويَبَشّ فى وجهك ويُغدق عليك ، ثم يقطع عنك هذا كله ، فتقول : لماذا تنكَّر لى فلان ؟ يعنى : قطع عنى نعمته .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن ينتزع منَّا الإقرار بقدرته تعالى على عقاب أعدائه ومُكذِّبى رسله ، وهذا المعنى جاء أيضاً فى

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين] يعنى : هل جُوزِى الكفار بما عملوا ؟ وهل استطعنا أنْ نعاقبهم بما يستحقون من العذاب ؟

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)﴾ [الحج] أى : إنكارى لموقفهم من عدم أداء حقوق النعمة فبدَّلها الله عليهم نقمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥)﴾

قوله تعالى : ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ .. (٤٥)﴾ [الحج] (كأيِّن) أداة تدل على الكَثْرة مثل : كم الخبرية حين تقول : كَمْ أحسنتُ إليك . تعنى مرات عديدة تفوق الحصر ، فهى تدل على المبالغة فى العدد والكمية ، ومنها قوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ .. (١٤٦)﴾ [آل عمران]

والقرية[1] : اسم للمكان ، وحين يُهلك الله القرية لا يُهلك المكان ، إنما يهلك المكين فيه ، فالمراد بالقرية أهلها ، كما ورد فى قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ[2] الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢)﴾ [يوسف] أى : اسأل أهل القرية .

---

(١) القرية : البلدة الكبيرة تكون أقل من المدينة ، أو هى كل مكان اتصلت به الأبنية . [القاموس القويم ٢ / ١١٥] .

(٢) قال قتادة : المراد بالقرية هنا مصر . نقله ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٨٧) والقرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٥٨٠) وقالا : وقيل قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها . لفظ القرطبى .

ويحتمل أن يكون المعنى : اسأل القرية تُجبك ، لأنك لو سألتَ أهل القرية فلربما يكذبون ، أمَّا القرية فتسجل الأحداث وتُخبر بها كما حدثت .

وقد يتعدى الهلاك إلى القرية ذاتها ، فيغير معالمها بدليل قوله تعالى : ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. (٥٢)﴾ [النمل]

ومعنى : ﴿أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ .. (٤٥)﴾ [الحج] أي : بسبب ظُلْمها ، ولا يُغيِّر الله ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ، وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

فهلاك القُرَى لا بُدَّ أن يكون له سبب ، فلما وقع عليها الهلاك أصبحت ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا .. (٤٥)﴾ [الحج] الشيء الخاوي يعني : الذي سقط وتهدَّم على غيره ، وقوله : ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا .. (٤٥)﴾ [الحج] يدل على عِظَم ما حَلَّ بها من هلاك ، حيث سقط السقف أولاً ، ثم انهارت عليه الجدران ، أو : أن الله تعالى قَلَبها رأساً على عَقِب ، وجعل عاليها سافلها .

وقوله سبحانه : ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ .. (٤٥)﴾ [الحج] البئر : هو الفجوة العميقة في الأرض ، بحيث تصل إلى مستوى الماء الجوفيّ ، ومنه يُخرجون الماء للشُّرْب وللزراعة .. إلخ ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. (٢٣)﴾ [القصص] أي : البئر الذي يشربون منه .

والبئر حين تكون عاملة ومُسْتفاداً منها تلحظ حولها مظاهر

حياة ، حيث ينتشر الناس حولها ، وينمو النبات على بقايا المياه المستخرجة منها ، ويحوم حولها الطير ليرتوى منها ، أما البئر المعطّلة غير المستعملة فتجدها خَربة ليس بها علامات حياة ، وربما تسفو(1) عليها الرياح ، وتطمسها فتُعطَّل وتُهجَر ، فالمراد معطلة عن أداء مهمتها ، ومهمة البئر السُّقيا .

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥)﴾ [الحج] القصر : اسم للمأوى الفَخْم ؛ لأن المأوى قد يكون خيمة ، أو فسطاطاً ، أو عريشة ، أو بيتاً ، أو عمارة ، وعندما يرتقى الإنسان فى المأوى فيبنى لنفسه شيئاً خاصاً به ، لكن لابُدَّ له أنْ يخرج لقضاء لوازم الحياة من طعام وخلافه ، أما القصر فيعنى مكان السكن الذى يتوفر لك بداخله كل ما تحتاج إليه ، بحيث لا تحتاج إلى الخروج منه ، يعنى : بداخله كل مُقوِّمات الحياة . ومنه : سميت الحور مقصورات فى قوله تعالى : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)﴾ [الرحمن] يعنى : لا تتعداها ولا تخرج منها .

و ﴿مَّشِيدٍ (٤٥)﴾ [الحج] من الشيد ، وهو الجير الذى يستعمل كَمُونَة فى بناء الحجر يعنى : مادة للصق الحجارة ، وجَعْلها على مستوىً واحد ، وقديماً كان البناء بالطوب اللَّبن ، والمونة من الطين ، أما فى القصور والمساكن الفخمة الراقية فالبناء بالحجر ، والمشيد أيضاً العالى المرتفع ، ومنه قولهم : أشاد به يعنى : رفعه وأعْلى من مكانته ، والارتفاع من ميْزات القصور ، ومعلوم أن مقاسات الغرف فى العمارات مثلاً غيرها فى القصور ، هذه ضيقة منخفضة ، وهذه واسعة عالية .

---

(1) سفت الريح التراب : ذَرَتْه ، وقيل : حملته . والسافياء : الريح التى تحمل تراباً كثيراً على وجه الأرض تهجمه على الناس . [لسان العرب ـ مادة : سفا] .

وفى قوله تعالى ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج] دليل على أن هؤلاء المهْلَكين كانوا من أصحاب الغِنَى والنعيم ، ومن سكان القصور ومِنْ عِلْية القوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

السَّيْر : قَطْع مسافات من مكان إلى آخر ، ويسمونه السياحة ، والحق سبحانه يدعو عباده إلى السياحة فى أنحاء الأرض ؛ لأن للسياحة فائدتين :

فإما أنْ تكون سياحة استثمارية لاستنباط الرزق إنْ كنتَ فى مكان يضيق بك العيش فيه ، كهؤلاء الذين يسافرون للبلاد الأخرى للعمل وطلب الرزق .

وإما أن تكون سياحة لأَخْذ العبرة والتأمل فى مخلوقات الله فى مُلْكه الواسع ليستدل بخَلْق الله وآياته على قدرته تعالى .

والسياحة فى البلاد المختلفة تتيح لك فرصة ملاحظة الاختلافات من بيئة لأخرى ، فهذه حارة وهذه باردة ، وهذه صحراء جرداء وهذه خضراء لا يوجد بها حبة رمل ، لذلك يخاطبنا ربنا تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأنعام]

فالعطف فى الآية بـ (ثُمَّ) يدل على أن للسياحة مهمة أخرى ، هى الاستثمار وطلب الرزق ، ففى الآية إشارة إلى الجمع بين هاتين المهمتين ، فحين تذهب للعمل إياك أنْ تغفل عن آيات الله فى المكان الذى سافرت إليه ، وخُذْ منه عبرة كونية تفيدك فى دينك .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا (٦٩)﴾ [النمل]

العطف هنا بالفاء التى تفيد الترتيب ، يعنى : سيروا فى الأرض لتنظروا آيات الله ، فهى خاصة بسياحة الاعتبار والتأمل ، لا سياحة الاستثمار وطلب الرزق .

لذلك يقولون فى الأمثال : (اللى يعيش ياما يشوف ، واللى يمشى يشوف أكثر) فكلما تعددتْ الأماكن تعددت الآيات والعجائب الدالة على قدرة الله ، وقد ترى منظراً لا يؤثر فيك ، وترى منظراً آخر يهزُّك ويُحرِّك عواطفك ، وتأملاتك فى الكون .

وقوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا ..(٤٦)﴾ [الحج] تعنى وتؤكد أنهم ساروا فعلاً ، كما تقول : أفلم أُكرمك ؟ ولا تقول هذا إلا إذا أكرمته فعلاً ، وقد حدث أنهم ساروا فعلاً فى البلاد أثناء رحلة الشتاء والصيف ، وكانوا يمرون على ديار القوم المهلكين ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧)﴾ [الصافات]

يعنى : أنتم أهل سَيْر وترحال وأهل نظر فى مصير مَنْ قبلكم ، فكيف يقبل منكم الانصراف عن آيات الله ؟

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ (٤٦)﴾

[الحج] فما داموا قد ساروا وترحَّلوا فى البلاد ، فكيف لا يعقلون آيات الله ؟ وكيف لا تُحرِّك قلوبهم ؟

ولنا وقفة عند قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] وهل يعقِل الإنسانُ بقلبه ؟ معلوم أن العقل فى المخ ، والقلب فى الصدر .

نعم ، للإنسان وسائل إدراك هى الحواس التى تلتقط المحسَّات يُسمُّونها تأدُّباً مع العلم : الحواس الخمس الظاهرة ؛ لأن العلم أثبت للإنسان فى وظائف الأعضاء حواساً أخرى غير ظاهرة ، فحين تُمسك بشيئين مختلفين يمكنك أن تُميِّز أيهما أثقل من الآخر ، فبأىِّ حاسة من الحواس الخمس المعروفة توصلْتَ إلى هذه النتيجة ؟

إنْ قُلْتَ بالعين فدعْها على الأرض وانظر إليها ، وإنْ قُلْتَ باللمس فلك أنْ تلمسها دون أنْ ترفعها من مكانها ، إذن : فأنت لا تدرك الثقل بهذه الحواس ، إنما بشىء آخر وبآلة إدراك أخرى هى حاسة العَضَلِ الذى يُميِّز لك الخفيف من الثقيل .

وحين تذهب لشراء قطعة من القماش تفرك القماش بلطف بين أناملك ، فتستطيع أنْ تُميِّز الثخين من الرقيق ، مع أن الفارق بينهما لا يكاد يُذْكَر ، فبأىِّ حاسة أدركْتَه ؟ إنها حاسة البَيْن . كذلك هناك حاسة البُعْد وغيرها من الحواسّ التى يكتشفها العلم الحديث فى الإنسان .

فلما يدرك الإنسان هذه الأشياء بوسائل الإدراك يتدخَّل العقل ليغربل هذه المدركات ، ويختار من البدائل ما يناسبه ، فإنْ كان سيختار ثوباً يقول : هذا أنعم وأرقّ من هذا ، وإنْ كان سيختار رائحة يقول : هذه ألطف من هذه ، إنْ كان فى الصيف اختار

الخفيف ، وإنْ كان فى الشتاء اختار السميك .

وبعد أن يختار العقل ويوازن بين البدائل يحكم بقضية تستقر فى الذِّهْن وتقتنع بها ، ولا تحتاج لإدراك بعد ذلك ، ولا لاختيار بين البدائل ، وعندها تنفذ ما استقر فى نفسك ، وارتحْتَ إليه بقلبك .

إذن : إدراك بالحواس وتمييز بالعقل ووقوف عند مبدأ بالقلب ، وما دام استقر المبدأ فى قلبك فقد أصبح دستوراً لحياتك ، وكل جوارحك تخدم هذا المبدأ الذى انتهيتَ إليه ، واستقر فى قلبك ووجدانك .

لكن ، لماذا القلب بالذات ؟ قالوا : لأن القلب هو الذى يقوم بعملية ضَخٍّ سائل الحياة ، وهو الدم فى جميع أجزاء الجسم وجوارحه ، وهذه الجوارح هى أداة تنفيذ ما استقر فى الوجدان ؛ لذلك قالوا : الإيمان محلّه القلب ، كيف ؟ قالوا : لأنك غربلْتَ المسائل وصفَّيْت القضايا إلى أن استقرت العقيدة والإيمان فى قلبك ، والإيمان أو العقيدة هى ما انعقد فى القلب واستقرَّ فيه ، ومن القلب تمتد العقيدة إلى جميع الأعضاء والحواس التى تقوم بالعمل بمقتضى هذا الإيمان ، وما دُمْتَ قد انتهيتَ إلى مبدأ وعقيدة ، فإياك أنْ تخالفه إلى غيره ، وإلاَّ فيكون قلبك لم يفهم ولم يفقه .

وكلمة ﴿يَعْقِلُونَ بِهَا (٤٦)﴾ [الحج] تدل على أن للعقل مهام أخرى غير أنه يختار ويفاضل بين البدائل ، فالعقل من مهامه أنْ يعقل صاحبه عن الخطأ ، ويعقله أنْ يشرد فى المتاهات ، والبعض يظن أن معنى عقل يعنى حرية الفكر وأنْ يشطح المرء بعقله فى الأفكار كيف يشاء ، لا ، العقل من عِقَال الناقة الذى يمنعها ، ويحجزها أنْ تشرُدَ منك .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا (٤٦)﴾ [الحج] كيف ولهؤلاء القوم آذان تسمع ؟ نعم ، لهم آذان تسمع ، لكن سماع لا فائدة منه ، فكأن الحاسَّة غير موجودة ، وإلا ما فائدة شيء سمعتَه لكن لم تستفد به ولم تُوظِّفه في حركة حياتك ، إنه سماع كعدمه ، بل إن عدمه أفضل منه ؛ لأن سماعك يقيم عليك الحجة .

﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج] فعمى الأبصار شيء هيِّن ، إذا ما قيسَ بعمى القلوب[1] ؛ لأن الإنسان إذا فقد رؤية البصر يمكنه أنْ يسمع ، وأنْ يُعمل عقله ، وأنْ يهتدي ، ومَا لا يراه بعينه يمكن أنْ يخبره به غيره ، ويَصِفه له وَصْفاً دقيقاً وكأنه يراه ، لكن ما العمل إذا عَميَتْ القلوب ، والأنظار مبصرة ؟

وإذا كان لعمى الأبصار بديل وعوَض ، فما البديل إذا عَمى القلب ؟ الأعمى يحاول أنْ يتحسَّس طريقَه ، فإنْ عجز قال لك : خُذْ بيدي ، أما أعمى القلب فماذا يفعل ؟

لذلك ، نقول لمن يغفل عن الشيء الواضح والمبدأ المستقر : أعمى قَلْب . يعني : طُمس على قلبه فلا يعي شيئاً .

وقوله : ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج] معلوم أن القلوب في الصدور ، فلماذا جاء التعبير هكذا ؟ قالوا : ليؤكد لك على أن المراد القلب الحقيقي ، حتى لا تظن أنه القلب التفكيريّ التعقليّ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم (١٦٧)﴾ [آل عمران]

---

(١) قال قتادة : البصر النافذ جُعل بُلْغة ومنفعة ، والبصر النافع في القلب . وقال مجاهد : لكل عين أربعة أعين ، يعني لكل إنسان أربعة أعين : عينان في رأسه لدنياه ، وعينان في قلبه لآخرته ، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه شيئاً ، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئاً . [تفسير القرطبي ٦/٤٦٠٨]

ومعلوم أن القَوْل من الأفواه ، لكنه أراد أن يؤكد على القول والكلام ؛ لأن القول قد يكون بالإشارة والدلالة ، فالقول بالكلام هو أبلغ أنواع القول وآكده ؛ لذلك قال الشاعر :

جِراحَاتُ السِّنَانِ لَهَا الْتِئَامٌ ... ولاَ يُلْتَامُ مَا جَرَحَ اللسَانُ

ويقولون : احفظ لسانك الذى بين فكَّيْك ، وهل اللسان إلا بين الفكَّيْن ؟ لكن أراد التوكيد على القول والكلام خاصة ، لا على طرق التفاهم والتعبير الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ألم يقولوا فى استعجال العذاب : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

وقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف]

ولا يستعجل الإنسانُ العذابَ إلا إذا كان غَيْرَ مؤمن به ، المؤمن بالعذاب ـ حقيقةً ـ يخاف منه ، ويريد أنْ يبطىء عنه أو أنْ ينجوَ منه . والمعنى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج] أنهم يظنون أنَّهُ إنْ توعّدهم الله بالعذاب فإنه سيقع لتوِّه . لذلك ، الحق سبحانه

---

(١) سبب نزول الآية : قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٠٩) : « نزلت فى النضر بن الحارث ، وهو قوله : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف] . وقيل : نزلت فى أبى جهل بن هشام ، وهو قوله ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال] .

يصحح لهم هذا الفهم ، فيقول : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) ﴾ [الحج] فلا تتعجلوا توعّدكم به ، فهو واقع بكم لا محالة ؛ لأنه وَعْد من الله ، والله لا يُخلف وعده ، لكن اعلموا أن اليوم عند الله ليس كيومكم ، اليوم عندكم أربع وعشرون ساعة ، أما عند الله فهو كألف سنة من حسابكم أنتم للأيام .

واليوم زمن يتسع لبعض الأحداث ، ولا يسع أكثر مما قدِّر أن يُفعل فيه من الأحداث ، أما اليوم عند الله - عزَّ وجلَّ - فيسع أحداثاً كثيرة تملأ من الزمن ألف سنة من أيامكم ؛ ذلك لأنكم تزاولون الأعمال وتعالجونها ، أما الخالق سبحانه فإنه لا يزاول الأفعال بعلاج ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كُنْ فيكون ، ففعْلُك يحتاج إلى وقت ، أما فعْل ربك فبكلمة كُنْ . وقد شاء الحق سبحانه أنْ يعيشَ هؤلاء في عذابَ التفكير في هذا الوعيد طول عمرهم ، فيُعذّبون به قبل حدوثه .

إذن : لا تظن أن العذاب الذى توعّدكم به سيحدث اليوم أو غداً ، لا ؛ لأن حساب الوقت مختلف .

ألم تقرأ قول الله تعالى لنبيه موسى - عليه السلام - لمَّا دعا على قومه : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ[1] وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

قال له ربه : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. (٨٩) ﴾ [يونس]

ويقول المفسرون[2] : حدثتْ هذه الإجابة لموسى بعد أربعين سنة من دعوته عليهم .

---

(١) قال الضحاك : صارت دنانيرهم ودراهمهم ونحاسهم وحديدهم حجارة منقوشة . [الدر المنثور للسيوطى ٤/٣٨٤] وعزاه لابن أبى حاتم وأبى الشيخ .

(٢) قاله مجاهد فيما أخرجه عنه الحكيم الترمذى . وقال ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن المنذر : يزعمون أن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة . أوردهما السيوطى فى (الدر المنثور : ٤/٣٨٥)

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة]

وتزيد هذه المدة فى قوله سبحانه : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج] لماذا ؟ لأن الزمن عندكم فى هذه الحالة مُعطَّل ، فأنتم من هَوْل ما تروْنَ تستطيلون القصير ، ويمر عليكم الوقت ثقيلاً ؛ لذلك تتمنون الانصراف ولو إلى النار .

كما أن صاحب النعيم يستقصر الطويل ، ويمر عليه الوقت كأنه لمح البصر ، ومن ذلك ما تلاحظه من قِصَر الوقت مع الأحبة وطوله مع الأعداء ومَنْ لا يهواه قلبك ، ولهذه المسألة شواهد كثيرة فى شعرنا العربى ، منها قول أحدهم :

حَادِثَاتُ السُّرورِ تُوزَنُ وَزْناً ... وَالبَلايَا تُكَال بالقُفْزَان(١)

وقول الآخر :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِى ولكِنْ لَمْ أَنَمْ ... ونَفَى عَنِّى الكَرَى طَيْفٌ أَلَمّ(٢)

ويقول ابن زيدون :

إنْ يَطُلْ بعدَكَ لَيْلى فلَكَمْ ... بِتُّ أشكُو قِصَرَ الليْلِ مَعَك

---

(١) القفزان : جمع قفيز وهو من المكاييل ، وهو من الأرض قدر مائة وأربع وأربعين ذراعاً . [لسان العرب - مادة : قفز] .

(٢) هذا البيت لبشار بن بُرْد . ذكره أبو على القالى فى الأمالى (١٣٢/١) والكرى : النوم والنعاس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

﴿ وَكَأَيِّن ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] قلنا : تدل على الكثرة يعنى : كثير من القرى ، ﴿ أَمْلَيْتُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] : أمهلتُ ، لكن طول الإمهال لا يعنى الإهمال ؛ لأن الله تعالى يُملى للكافر ويُمهله لأجل ، فإذا جاء الأجل والعقاب أخذه .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] وأخْذُ الشيء يتناسب مع قوة الآخذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم ، فإذا كان الآخذ هو الله عز وجل ، فكيف سيكون أَخْذه ؟

فى آية أخرى يوضح ذلك فيقول : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر] لا يُغَالب ، ولا يمتنع منه أحد ، وكلمة الأَخْذ فيها معنى الشدة والعنف والقَهْر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : المرجع والمآب ، فلن يستطيعوا أنْ يُفلتوا .

إذن : الإملاء : تأخير العذاب إلى أجل معين ، كما قال سبحانه :

﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق]

هذا الأجل قد يكون لمدة ، ثم يقع بهم العذاب ، كما حدث فى الأمم السابقة التى أهلكها الله بالخسْف أو بالغرق .. الخ ، أما فى أمة محمد ﷺ ، فيكون الإملاء بأحداث سطحية فى الدنيا ، كالذى حَلَّ بالكفار من الخِزْى والهوان والهزيمة وانكسار شوكتهم ، أمّا العذاب الحقيقى فينتظرهم فى الآخرة .

لذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه ﷺ : لا تستبطىء عذابهم والانتقام منهم فى الدنيا ، فما لم تَرَهُ فيهم من العذاب فى الدنيا ستراه فى الآخرة : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٩﴾ ﴾

والإنذار نوع من الرحمة ، لأنك تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليحذره المنذَر ، ويحاول أنْ يُنجى نفسه منه ، ويبتعد عن أسبابه ، فحين أُذكِّرك بالله ، وأنه يأخذ أعداءه أَخْذَ عزيز مقتدر ، فعليك أنْ تربأ بنفسك عن هذه النهاية ، وأن تنجوَ من دواعى الهلاك .

ومعنى ﴿ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحج] محيط ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة.

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾ ﴾

وطالما آمنوا وعملوا الصالحات فقد انتفعوا بالنذارة ، وأثمرتْ فيهم ، فآمنوا بالله إلهاً فاعلاً مختاراً له صفات الكمال المطلق ، ثم عملوا على مقتضى أوامره ؛ لذلك يكون لهم مغفرة إنْ كانت أَلَمَّتْ نفوسهم بشىء من المعاصى ، ويكون لهم رزق كريم . والكريم هو البذَّال ، كأن الرزق نفسه وصل إليهم بكرم وزيادة ، كما أن الكريم هو الذى تظل يده مبسوطة دائماً بالعطاء ، على حَدِّ قول الشاعر :

وَإِنِّى امْرؤٌ لاَ تَسْتَقِرُّ دَرَاهِمِى ... عَلَى الكَفِّ إلاَّ عَابِرَات سَبِيل

فالرزق نفسه كريم ؛ لأنه ممدود لا ينقطع ، كما لو أخذت كوب ماء من ماء جارٍ ، فإنه يحلُّ محلَّه غيره على الفور ، وهكذا .

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾

السعى : عمل يذهب إلى غاية ، فإنْ كان قطع مسافة نقول : سِرْنا من كذا إلى كذا ، وإنْ كان فى قضية علمية فكرية ، فيعنى : أن الحدث يعمل من شىء بداية إلى شىء غاية .

والسَّعْىُ لا يُحمد على إطلاقه ، ولا يُذَمُّ على إطلاقه ، فإنْ كان فى خير فهو محمود ممدوح ، كالسعى الذى قال الله فيه : ﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾ [الإسراء] ، وإنْ كان فى شَرٍّ فهو قبيح مذموم ، كالسعى الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥) ﴾ [البقرة]

أما السعاية فعادة تأخذ جانب الشر . وتعنى : الوشاية والسّعى بين الناس بالنميمة ، تقول : فلان سَعَّاء بين الخلق يعنى : بالشر ينقله بين الناس بقصْد الأذى ، وهؤلاء إنْ علِموا الخير أخفَوْه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه ، وإن لم يعلموا كذبوا .

لذلك ، نقول عمَّا ينتج من هذه السعاية من الشر بين الناس : هذا آفة الآخذ ، يعنى : الذى سمع الشرَّ ونقله وسعى به ، وكان عليه أنْ يحبسه ويُخفيَه ، حتى لا تنتشر هذه الرذيلة بين الخَلْق .

وقد وشى واشٍ بـهمام بن عـبد الله السلولى إلى زياد بـن أبيه ، وكان زياد جباراً فقال للواشى : أأجمع بينك وبينه ؟ فلم يجد الواشى بُدّاً من أنْ يقول : نعم ، فكيف ينكر ما قـال ؟! ولعله قال فى نفسه : لعل الله يقضى أمراً يُخرجنى من هذه (الورطة) قبل هذه المواجهة ؟ ثم أرسل زياد إلى ابن همـام فأُتِـى به ، وقد جـعل زياد الواشى فى مجلـسه خلف ستـار ، وأُدخل همام ، فـقال له : يا همـام بلغنى أنك هجوْتنى ، فـقال : كلا ، أصلحك الله مـا فعلتُ ، ولا أنت لذلك بأهْل ، فكشف زياد السـتار وقال : هذا الرجل أخـبرنى أنك هجـوتنى ، فنظر ابن همام ، فإذا هو صديق له يجالسه ، فقال له :

أنتَ امْـرؤٌ إمّـا ائتمنْتكَ خَاليـاً   فَخُنْتَ وَإمّا قُلْتَ قَوْلاً بِلاَ عِلْمِ

فَأَنْتَ مِنَ الأَمْرِ الذِى كَانَ بيننَا   بمنزلةٍ بيْنَ الخِيَانَةِ والإِثْمِ[1]

يعنى : أنت مذموم فى كل الأحوال ؛ لأنك إما خُنْتَ أمانة المجلس والحديث ولم تحـفظ سِراً فضـفضْتُ لك به ، وإمَّا اخـتلقْتَ هذا القوْل كذباً وبلا علم .

وعندها خلع زياد على همـام الخُلَع[2] ، لكنه لم يعـاقب الواشى ، وفى هذا إشارة إلى ارتياحهم لمن يـنقل إليهم ، وأن آذانهم قد أخذتْ على ذلك وتعوَّدَتْ عليه .

---

(١) أورد الغزالى هذه الأبيات فى « إحياء علوم الدين » (١٥٧/٣) ، ولكنـه ذكر قصة غير هذه فى مناسبتـها ، قال : « سعى رجل بزياد الأعجم إلى سليـمان بن عبد الملك فجـمع بينهما للموافقة فأقبل زياد على الرجل وقال .. » وذكر الأبيات .

(٢) الخلْعة من الثياب : ما خلعته فطرحته على آخر أو لم تطرحه . كل ثوب تخلعه عنك خِلْعة . [لسان العرب - مادة : خلع]

ومعنى ﴿فِي آيَاتِنَا ﴿٥١﴾﴾ [الحج] والآيات إما كونية ، كالشمس والقمر ، وإما معجزات ، وإما آيات الأحكام ، وسَعَوْا فيها يعنى : قالوا فيها قَوْلاً باطلاً غير الحق ، كما يسعى الواشى بالباطل بين الناس ، فهؤلاء إنْ نظروا فى آيات الكون قالوا : من صنع الطبيعة . وإنْ شاهدوا معجزة على يد نبىٍّ قالوا : سحر وأساطير الأولين ، وإنْ سمعوا آيات الأحكام تُتْلَى قالوا : شعر . وهم بذلك كله يريدون أنْ يُفسدوا على أهل الإيمان إيمانهم ، ويصدُّوا عن سبيل الله .

ومعنى ﴿مُعَاجِزِينَ﴿٥١﴾﴾ [الحج] جمع لاسم الفاعل معاجز مثل : مقاتل ، وهى من عَاجَزَ غير عجز عن كذا يعنى : لم يقدر عليه ، عَاجَزَ فلانٌ فلاناً يعنى باراه أيُّهما يعجز قبل الآخر ، فعاجزه مثل باراه ليثبتَ أنه الأفضل ، ومثل : سابقه ونافسه .

إذن : فالمعاجزة مفاعلة ومشاركة ، وكلمة نافسه الأصل فيها من النفَس الذى نأخذه فى الشهيق ، ونُخرجه فى الزفير ، والذى به يتأكسد الدم ، وتستمر حركة الإنسان ، فإن امتنع التنفس يموت ؛ لأن الإنسان يصبر على الطعام ويصبر على الماء ، لكنه لا يصبر على الهواء ولو لنفَس واحد .

وقد حدثتْ هذه المعاجزة أو المنافسة بين سيدنا عمر وسيدنا العباس رضى الله عنهما : قال عمر للعباس : أتُنافسنى فى الماء ، يعنى : نغطس تحت الماء وننظر أيهما يُعجز الآخر ، ويتحمل عملية توقُّف النفَس ، ومثل هذه المنافسة قد يحتال عليها الإنسان إنْ كتم نفسَه وهو فى جَوٍّ الهواء ، أما إنْ نزل تحت الماء حيث ينعدم الهواء ، فكيف سيحتال على هذه المسألة ؟ وتحت الماء لا يكون إلا الهواء الذاتى الذى اختزنه كل منهما فى رئته ، ومثل هذه المنافسة توضح أيهما أفسح

صَدْراً من الآخر ، وأيُّهما أكثر تحمُّلاً تحت الماء . هذه هى المعاجزة .

فمعنى ﴿سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ..(٥١)﴾ [الحج] أى : يظنون أنهم قادرون أن يُعجزونا ، فحين نأتى إليهم بكلام بليغ مُعْجز يختلقون كلاماً فارغاً ليعجزونا به ، فأنّى يكون لهم ذلك ؟ وأنّى لهم أنْ يطعنوا بكلامهم على كلام الله ؟

ثم يُبيِّن جزاء هذا الفعل وهذه المكابرة : ﴿أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾ [الحج] فهذا حُكْم الله فيهم قضية واضحة من أقصر الطرق ، فمَنْ ذَا الذى يُعجز الله ؟

ثم يقول الحق سبحانه[(١)] :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾

(١) **سبب نزول الآية :** أورد الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٨) عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠)﴾ [النجم] فالقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترتجى . ففرح بذلك المشركون وقالوا : قد ذكر آلهتنا ، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقال : اعرض علىّ كلام الله ، فلما عرض عليه فقال : أما هذا فلم آتك به ، هذا من الشيطان ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ..(٥٢)﴾ [الحج].

قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٢٩) : « قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم » .

وقال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦١٢) : « الأحاديث المروية فى نزول هذه الآية ، ليس منها شىء يصح » وقال القاضى عياض فى كتاب « الشفا بتعريف حق المصطفى » : « هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم » .

أثارت هذه الآية جدلاً طويلاً بين العلماء ، ودخل فيه كثير من الحشْو والإسرائيليات ، خاصة حول معنى ﴿تَمَنَّىٰ (٥٢)﴾ [الحج] وهى تَرِد فى اللغة بمعنيين ، وما دام اللفظ يحتمل معنيين فليس أحدهما أوْلَى من الآخر إلا بمدى استعماله وشيوعه بين جمهور العربية ، ويأتى التمنى فى اللغة بمعنى القراءة ، كما ورد فى قول حسان بن ثابت فى رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنهما :

تمنَّى كتابَ الله أوَّلَ لَيْلةٍ وآخِرهَا وافَاهُ حَتْم المقَادِرِ[1]

يعنى : قُتل عثمان وهو يقرأ القرآن ، وهذا المعنى غريب فى حَمْل القرآن عليه لعدم شيوعه[2] .

وتأتى تمنى بمعنى : أحب أن يكون الشىء ، وهذا هو القول المشهور فى لغة العرب . أما بمعنى قرأ فهو غير شائع ، ويُردّ هذا القول ، وينقضه نَقْضاً أولياً مبدئياً قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ ..(٥٢)﴾ [الحج]

ومعلوم أن الرسول ينزل عليه كتاب يمكن أن يقرأه ، أمّا النبى فلا ينزل عليه كتاب ، بل يعمل بشرع مَنْ سبقه من الرسل . إذن : فما دام الرسول والنبى مشتركيْن فى إلقاء الشيطان ، فلا بُدَّ أن تكون الأمنية هنا بمعنى : أحب أن يكون الشىء ، لا بمعنى قرأ ، فأىُّ شىء سيقرأ النبى وليس معه كتاب ؟

والذين فهموا التمنى فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ (٥٢)﴾ [الحج] أنه

(١) ذكره ابن منظور فى لسان العرب - مادة : منى ، بلفظ :
تَمنَّى كتَابَ الله أوَّل لَيْله وآخِرَهُ لاَقَى حمَامَ المقَادر

(٢) قال أبو منصور : والتلاوة تسمى أمنية لأن تالى القرآن إذا مرَّ بآية رحمة تمناها ، وإذا مرَّ بآية عذاب تمنى أن يُوقَّاهُ . [لسان العرب - مادة منى] .

بمعنى : قرأ ، سواء أكانوا من العلماء المتعمِّقين أو السطحيين ، قالوا : المعنى إذا قرأ رسولُ الله القرآنَ تدخَّل الشيطان فى القراءة ، حتى يُدخِل فيها ما ليس منها .

وذكروا دليلاً على ذلك فى قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠)﴾ [النجم] ثم أضافوا : والغرانيق[1] العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى . وكأن الشيطان أدخل فى القرآن هذا الكلام ، ثم نسخه الله بعد ذلك ، وأحكم الله آياته .

لكن هذا القول يُشكِّك فى قضية القرآن ، وكيف نقول به بعد أن قال تعالى فى القرآن : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[2] (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة]

إذن : الحق سبحانه وتعالى حفظ قرآنه وكلامه من أمثال هذا العبث ، وكيف نُدخل فى القرآن هذه الكفريات ؟ وكيف تستقيم عبارتهم : والغرانيقَ العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى مع قول الله تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢)﴾ [النجم] كيف ينسجم هذا وذاك ؟

---

(١) الغرانيق : الأصنام ، وهى فى الأصل : الذكور من طير الماء . وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عز وجل وتشفع لهم إليه ، فشبهت بالطيور التى تعلو وترتفع فى السماء . [لسان العرب - مادة غرنق].

(٢) الوتين : عرق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

فهذا الفهم في تفسير الآية لا يستقيم ، ولا يمكن للشيطان أنْ يُدخِل في القرآن ما ليس منه ، لكن يحتمل تدخُّل الشيطان على وجه آخر : فحين يقرأ رسول الله القرآن ، وفيه هداية للناس ، وفيه مواعظ وأحكام ومعجزات ، أتنتظر من عدو الله أنْ يُخلي الجو للناس حتى يسمعوا هذا الكلام دون أنْ يُشوِّش عليهم ، ويُبلبل أفكارهم ، ويَحُول بينهم وبين سماعه ؟

فإذا تمنَّى الرسول يعني : قرأ ألقى الشيطان في أُمنيته ، وسلَّط أتباعه من البشر يقولون في القرآن : سحْر وشعْر وإفْك وأساطير الأولين . فدَوْر الشيطان - إذن - لا أنْ يُدخِلَ في كلام الله ما ليس منه ، فهذا أمر لا يقدر عليه ولا يُمكِّنه الله من كتابه أبداً ، إنما يمكن أنْ يُلقي في طريق القرآن وفَهْمه والتأثر به العقبات والعراقيل التي تصدُّ الناس عن فَهْمه والتأثر به ، وتُفسِد القرآن في نظر مَنْ يريد أن يؤمن به .

لكن ، هل محاولة تشويه القرآن هذه وصَدّ الناس عنه جاءت بنتيجة ، وصرفتْ الناس فعلاً عن كتاب الله ؟

لقد خيَّبَ الله سَعْيه ، ولم تقف محاولاته عقبة في سبيل الإيمان بالقرآن والتأثر به ؛ لأن القرآن وجد قلوباً وآذاناً استمعتْ وتأملتْ فآمنتْ وانهارتْ لجلاله وعظمته وخضعتْ لأسلوبه وبلاغته ، فآمنوا به واحداً بعد الآخر .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحج] يعني : ألغى وأبطل ما ألقاه الشيطان من الأباطيل والعقبات التي أراد بها أنْ يصدَّ الناس عن القرآن ، وأحكمَ اللهُ آياته ، وأوضح أنها منه سبحانه ، وأنه كلام الله المعْجز

الذى لو اجتمعتْ الإنس والجنُّ على أنْ يأتوا بمثله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

هذا على قول مَنِ اعتبر أن ﴿تَمَنَّىٰ (٥٢)﴾ [الحج] بمعنى : قرأ .

أما على معنى أنها الشيء المحبوب الذى نتمناه ، فنقول : الرسول الذى أرسله الله تعالى بمنهج الحق إلى الخَلْق ، فإنْ كان قادراً على تطبيق المنهج فى نفسه فإنَّ أُمنتيه أن يُصدَّق وأنْ يُطاع فيما جاء به ، أمنيته أنْ يسودَ منهجه ويُسيطر ويسُوس به حركة الحياة فى الناس .

والنبى أو الرسول هو أَوْلى الناس بقومه ، وهو أحرصهم على نَفْعهم وهدايتهم ، والقرآن خير يحب للناس أن يأخذوا به عملاً بقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(١) .

لكن ، هل يترك الشيطان لرسول الله أنْ تتحقق أُمنيته فى قومه أَمْ يضع فى طريقه العقبات ، ويُحرِّك ضده النفوس ، فيتمرّد عليه قومه حيث يُذكِّرهم الشيطان بما كان لهم من سيادة ومكانة سيفقدونها بالإسلام ؟

وهكذا يُلْقى الشيطان فى أُمنيّة الرسول ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ (٥٢)﴾ [الحج] وما كان الشيطان ليدع القرآن ينفذ إلى قلوب الناس أو حتى آذانهم ، أليس هو صاحب فكرة : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ..(٢٦)﴾ [فصلت]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

إن الشيطان لو لم يُلْق العراقيل فى سبيل سماع القرآن ويُشكِّك فيه لآمن به كل مَنْ سمعه ؛ لأن للقرآن حلاوةً لا تُقَاوم ، وأثراً ينفذ إلى القلوب مباشرة .

ومع ذلك لم يَفُتّ ما ألقى الشيطان فى عَضُد القرآن ، ولا فى عَضُد الدعوة ، فأخذت تزداد يوماً بعد يوم ، ويزداد عدد المؤمنين بالقرآن المصدِّقين به ، المهم أن نتنبه : كيف نستقبل القرآن ، وكيف نتلقاه ، لا بد أن نستقبله استقبالَ الخالى من هوى ، فالذى يفسد الأحكام أنْ تُستقبل وتدخل على هوى سابق .

وسبق أن قلنا : إن الحيز الواحد لا يسع شيئين فى وقت واحد ، لا بُدَّ أنْ تُخرج أحدهما لتُدخل الآخر ، فعليك - إذن - أنْ تُخلى عقلك وفكرك تماماً ، ثم تستقبل كلاَم الله ، وابحث فيه كما شئت ، فسوف تنتهى إلى الإيمان به شريطة أنْ تُصفِّى له قلبك ، فلا تُبق فى ذهْنك ما يُعكِّر صَفْو الفطرة التى خلقها الله فيك ، عندها سيأخذ القرآن طريقه إلى قلبك ، فإذا أُشْرِب قلبُك حُبَّ القرآن ، فلا يزحزحه بعد ذلك شىء .

ولنا فى إسلام سيدنا عمر مثالٌ وعظَة ، فلما سمع القرآن من أخته لأول مرة ، وقد أغلق قلبه على كفره لم يتأثر به ، وضربها حتى أَدْمى وجهها ، وعندها رَقَّ قلبه ، وتحركت عاطفته نحو أخته ، وكأن عاطفة الحب زحزحتْ عاطفة العداوة ، وكشفت عن صفاء طَبْعه ، فلما سمع القرآن بعدها آمن به على الفور[1] .

---

(١) قصة إسلام عمر بن الخطاب ذكرها ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٤٤) وفيها أنه قال : « لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجَّها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى » .

كذلك ، إنْ أردت أنْ تناقشَ قضية الإيمان أو الكفر ، وأنْ تختار بينهما ؛ لأنهما لا يجتمعان أبداً ، ولا بُدَّ أنْ تختار ، فحين تناقش هذه القضية وأنت مُصرٌّ على الكفر فلن تصل إلى الإيمان ؛ لأن الله يطبع على القلب المُصرِّ فلا يخرج منه الكفر ، ولا يدخله الإيمان ، إنما أخرِجْ الكفر أولاً وتحرَّر من أَسْره ، ثم ناقش المسائل كما تحب .

كما قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ..(٤٦)﴾ [سبأ]

أما أنْ تناقش قضية ، وفى ذهْنك فكرة مُسبقة ، فأنت كهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا..(١٦)﴾ [محمد] يعنى : ما الجديد الذى جاء به ؟ وما المعجزة فى هذا الكلام ؟ فيأتى الرد : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه عن القرآن :

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى..(٤٤)﴾ [فصلت]

فالقرآن واحد ، لكن المستقبِل مختلف ، وقد ذكرنا أنك حين تريد أن تبرد كوب الشاى الساخن فإنك تنفخ فيه ، وكذلك إنْ أردتَ أنْ تُدفِىء يديك فى برد الشتاء فإنك أيضاً تنفخ فيها ، كيف ـ إذن ـ والفاعل واحد ؟ نعم ، الفاعل واحد ، لكن المستقبل للفعل مختلف .

وقوله تعالى : ﴿مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ (٥٢)﴾ [الحج]

(من) هنا للدلالة على العموم وشمول كل الأنبياء والرسل السابقين ، فكل نبى أو رسول يتمنى يعنى : يودّ ويحب ويرغب أن ينتشر دينه ويُطبِّق منهجه ، ويؤمن به جميع قومه ، لكن هيهات أنْ يتركه الشيطان وما أحبَّ ، بل لا بُدَّ أنْ يقف له بطريق دعوته ليصدَّ الناس عنه ويصرفهم عن دعوته ومنهجه ، لكن فى النهاية ينصر الله رسُله وأنبياءه ، وينسخ عقبات الشيطان التى ألقاها فى طريق الدعوة ، ثم يُحكِم الله آياته ، ويؤكدها ويظهرها ، فتصير مُحْكَمة لا ينكرها أحد .

وساعةَ تسمع كلمة ﴿ أَلْقَى (٥٢) ﴾ [الحج] فاعلم أن بعدها عقبات وشروراً ، كما يقول تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٦٤) ﴾ [المائدة]

ومما قاله أصحاب الرأى الأول فى تفسير ﴿ تَمَنَّىٰ (٥٢) ﴾ [الحج] وأنها بمعنى قرأ : يقولون : إن الله تعالى يُنزِل على رسوله ﷺ أشياء تُثبت بشريته ، ثم يمحو الله آثار هذه البشرية ليبين أن الله صنعه على عينه ، حتى إنْ همَّتْ بشريته بشىء يعصمه الله منها .

لذلك يقول ﷺ : « يَرِدُ علىَّ فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ منِّى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

إذن : فالرسول بشر إلا أنه يوحى إليه ما يعصمه من زلاَّت البشر .

ومن بشريته ﷺ أنه تعرّض للسحر ، وهذه واقعة لا تُنكر ، وقد ورد فيها أحاديث صحيحة ، وقد كاد الكفار لرسول الله بكل أنواع الكيد : استهزاءً ، وسباباً ، واضطهاداً ، وإهانة ، ثم تآمروا عليه بليل ليقتلوه ، وبيَّتوا له ، فلم يفلحوا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ[١] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ [الأنفال]

وكاد الله لرسوله وأخرجه من بينهم سالماً ، وهكذا فضح الله تبييتهم وخيّب سَعْيهم ، وفشلَتْ محاولاتهم الجهرية والسرية. فلجئوا إلى السحرة ليفعلوا برسول الله ما عجزوا هم عنه ، وعملوا لرسول الله سحراً فى مُشْط ومُشَاطة من شعره ﷺ وطلع نخلة ذكر ففضحهم الله ، وأخبرَ رسوله بذلك فأرسل الإمام علياً فأتى به من بئر ذروان[٢] .

وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُبيِّن لنا بشرية الرسول ، وأنه يجرى عليه ما يجرى على البشر ، لكن ربه لا يترك بشريته وحدها ، وإنما يعصمه بقيوميته .

وهذا المعنى هو ما قصده أصحاب الرأى الأول : أن الرسول يطرأ عليه ما يطرأ على البشر العادى ، لكن تتدخّل السماء لتعصمه . ونحن نختار الرأى الآخر الذى يقول أن تمنى بمعنى ودَّ وأحب .

ثم تختتم الآية بقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج] عليم بكيد الشيطان ، وتدبيره ، حكيم فى علاج هذا الكيد .

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

(١) أى : ليحبسوك ويبقوك فى مكانك بمكة تحت سيطرتهم . وقيل : ليقيّدوك . [القاموس القويم ١/١٠٥] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٨٩) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ولسائل أن يقول : إذا كان الله تعالى ينسخ ما يُلقى الشيطان ، فلماذا كان الإلقاءُ بدايةً ؟

جعل الله الإلقاء فتنةً ليختبر الناس ، وليُميِّز مَنْ ينهض بأعباء الرسالة ، فهى مسئولية لا يقوم بها إلا مَنْ ينفذ من الفتن ، وينجو من إغراءات الشيطان ، ويتخطَّى عقباته وعراقيله ؛ لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (١١٠) ﴾ [آل عمران]

وما تبوأتُم هذه المنزلة إلا لأنكم أهلٌ لحمْل هذه الأمانة ، تمرُّ بكم الفتن فتهزأون بها ولا تزعزعكم ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ (٥٣) ﴾ [الحج] أى : نفاق ، فإنْ تعرَّض لفتنة انقلب على وجهه . يقول كما يقولون : سحر وكذب وأساطير الأولين .

وكذلك فتنة ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ (٥٣) ﴾ [الحج] وهم الذين فقدوا لين القلب ، فلم ينظروا إلى الجميل عليهم فى الكون خَلْقاً وإيجاداً وإمداداً ، ولم يعترفوا بفضل الله عليهم ، ولم يستبشروا به ويأتوا إليه .

ونحن نلحظ الولد الصغير يأنس بأمه وأبيه ، ويركن إليهما ؛ لأنه ذاق حنانهما ، وتربَّى فى رعايتهما ، فإنْ ربَّته مثلاً المربية حتى فى وجود أمه فإنه يميل إليها ، ويألف حضنها ، ولا يلتفت لأمه ، لماذا ؟ لأنه نظر إلى الجميل ، من أين أتاه ، ومَنْ صاحب الفضل عليه فرقَّ له قلبه ، بصرف النظر مَنْ هو صاحب الجميل .

فهؤلاء طرأوا على كَوْن الله ، لا حَوْلَ لهم ولا قوة ، فاستقبلهم بكل ألوان الخير ، ومع ذلك كانت قلوبهم قاسيةً مُتحجِّرة لا تعترف بجميل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾ [الحج] فهم ظالمون أولاً لأنفسهم حين نظروا إلى منفعة عاجلة قليلة ، وتركوا منفعة كبيرة دائمة . والشِّقاق : الخلاف ، ومنه قولنا : هذا فى شِقٍّ ، وهذا فى شِقٍّ ، يعنى : غير ملتئمين ، وليْته شقَاق هَيِّن يكونَ له اجتماع والتئام ، ليته كشقَاق الدنيا بين الناس على عَرَض من أعراض الحياة ، إنما هم فى شقاق بعيد . يعنى : أثره دائم ، وأثره فظيع .

إذن : العلة الأولى لما يُلقى الشيطان أن يكون فتنة . أما العلة الثانية ففى قوله تعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ (٥٤) ﴾ [الحج] يعنى : يتأكدوا تأكيداً واضحاً أن هذا هو الحق ، مهما شوَّشَ عليه المشوِّشُون ، ومهما قالوا عنه : إنه سحر ، أو كذب ، أو أساطير الأولين ؛ لأن الله سيُبطل هذا كله ، وسيقف أهل العلم والنظر على صدْق القرآن بما لديهم من حقائق ومقدمات واستدلالات يعرفون بها أنه الحق .

وما دام هو الحق الذى لم تزعزعه هذه الرياح الكاذبة فلا بُدَّ أن يؤمنوا به ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ (٥٤) ﴾ [الحج] ثم يتبع هذا الإيمان عملٌ وتطبيق ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ (٥٤) ﴾ [الحج] يعنى : تخشع وتخضع وتلين وتستكين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾ [الحج]

فمسألة كيد الشيطان وإلقائه لم تنته بموت الرسول ، بل هو قاعد لأمته من بعده ؛ فالشيطان يقعد لأمة محمد كلها ، ولكل مَنْ حمل عنه الدعوة .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ [الأنعام]

يعنى : دعهم جانباً فالله لهم بالمرصاد ، فلماذا ـ إذن ـ فعلوه ؟ وما الحكمة ؟

يقول تعالى : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ..(١٤١) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ (١١٣) ﴾ [الأنعام]

فمهمة الشيطان أنْ يستغلّ ضعاف الإيمان ، ومَنْ يعبدون الله على حرف من أصحاب الاحتجاجات التبريرية الذين يريدون أنْ يبرروا لأنفسهم الانغماس فى الشهوة والسير فى طريق الشيطان ، وهؤلاء يحلو لهم الطعن فى الدين ، ويتمنون أن يكون الدين والقيامة والرب أوهاماً لا حقيقة لها ، لأنهم يخافون أن تكون حقيقة ، وأن يتورطوا بأعمالهم السيئة ونهايتهم المؤلمة ، فهم ـ إذن ـ يستبعدون القيامة ويقولون : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) ﴾ [الصافات]

لماذا ؟ لأنه يريد أنْ يبرر سلوكه ، إنه يريد أنْ يُخرج نفسه من ورطة ، لا مخرج منها ، وهؤلاء يتبعون كل ناعق ، ويجْرُون وراء كل شبهة فى دين الله يتلقفونها ويرددونها ، ومرادهم أن يهدموا الدين من أساسه .

نسمع من هؤلاء المسرفين على أنفسهم مثلاً مَنْ يعترض على

تحريم الميتة وأكل الذبيحة ، وهذا دليل على خميرة الشرك والكفر فى نفوسهم ، ولهم حجج واهية لا تنطلى إلا على أمثالهم من الكفرة والمنافقين ، وهذه مسألة واضحة ، فالموت غير القتل ، غير الذبح .

الموت : أن تخرج الروح أولاً دون نَقْض بِنْية الجسم ، وبعد خروج الروح ينقض بناء الجسد ، أما القتل فيكون بنقض البنية أولاً ، ويترتب على نَقْض البنية خروج الروح ، كأن يُضرب الإنسان أو الحيوان على رأسه مثلاً ، فيموت بعد أنْ اختلّ مخه وتهشَّم ، فلم يعُدْ صالحاً لبقاء الروح فيه .

يقول تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ..(١٤٤)﴾ [آل عمران] إذن : فالموت غير القتل .

وقد مثَّلْنا لذلك بضوء الكهرباء الذى نراه ، والذى يسرى فى الأسلاك ، ويظهر أثره فى هذه اللمبات ، نحن لا نعرف حتى الآن كُنْه هذه الكهرباء وماهية هذا الضوء ، إنما نراه وننعَم به ، فإذا ما كُسِرت هذه اللمبة ينطفىء النور ؛ لأنها لم تعُدْ صالحة لاستقبال هذا النور ، رغم أنه موجود فى الأسلاك ، إذن : لا يظهر نور الكهرباء إلا فى بنية سليمة لهذا الشكل الزجاجى المفرَّغ من الهواء .

كذلك الروح لا تسكن الجسم ، ولا تبقى فيه إلا إذا كانت له مواصفات معينة ، فإنِ اختلَّتْ هذه المواصفات خرجتْ الروح من الجسد .

أما الذبح فهو أيضاً إزهاق روح ، لكن بأمر الله خالقها وبرخصة منه سبحانه ، كأن يُقتلَ إنسان فى قصاص ، أو فى قتال مشروع ، أو نذبح الحيوان الذى أحلَّه الله لنا وأمرنا بذبحه ، ولولا أَمْر الله بذبحه ما ذبحناه ، ولولا أن الله أحلَّه ما أكلناه ، بدليل أننا لا نأكل ما لم يحِل لنا من الحيوانات الأخرى .

والذين يجادلون فى عملية الذَّبْح الشرعية ، ويُزهقون أرواح الحيوان بالخنق مثلاً غفلوا عن الحكمة من الذبح : الذبح إراقة للدم ، وفى الدم مواد ضارة بالإنسان يجب أن يتخلص منها بتصفية دم ذبيحته ؛ لأن بها كمية من الدم الفاسد الذى لم يمرّ على الكلية لتنقيه.

فالمسلم حريص على أن يحمل منهج رسول الله ﷺ ، وحريص على أن يسود هذا المنهج حركة الحياة ، لكن لن يدعَه الشيطان يُحقِّق هذه الأمنية ، كما لم يدع رسوله ﷺ من قبل ، فكيْده وإلقاؤه لم ينته بموت الرسول ، وإنما هو بَاقٍ ، وإلى أنْ تقومَ الساعة .

لذلك يقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ فِى مِرْيَةٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الحج] يعنى : فى شك من هذا ، لذلك قلنا : إن أتباع رسول الله ﷺ مُكلَّفون من الله بأنْ يكونوا امتداداً لرسالته : ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] شهداء أنكم بلَّغتم كما كان الرسول شهيداً عليكم ، فكلٌّ منَّا كأنه مبعوث من الله ، وكما شهد رسول الله عليه أنه أبلغه ، كذلك هو يشهد أنه بلَّغ من بعد رسول الله ؛ لذلك جاءت هذه الآية للأمرين ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس .

والحق - سبحانه وتعالى - حينما حمَّلنا هذه الرسالة قال : ما دُمْتم امتداداً لرسالة الرسول ، فلا بُدَّ أنْ تتعرَّضوا لما تعرَّض له

الرسول من استهزاء وإيذاء وإلقاء فى أمنياتكم ، فإنْ صمدتم فإن الله تعالى ينسخ ما يُلقِى الشيطان ، وينصر فى النهاية أولياءه ، وسيظل الإسلام إلى أنْ تقوم الساعة ، وسيظل هناك أناس يُعَادُون الدين ويُشكِّكون فيه ، وسيظل الملحدون الذين يُشكِّكون الناس فى وجود الله يخرجون علينا من حين إلى آخر بما يتناقض ودين الله كقولهم : إن هذا الكون خُلِق بالطبيعة ، وترى وتسمع هذا الكلام فى كتاباتهم ومقالاتهم .

ولم يَسْلَم العلم التجريبى من خرافاتهم هذه ، فإنْ رأوا الحيوان منسجماً مع بيئته قالوا : لقد أمدته الطبيعة بلون مناسب وتكوين مناسب لبيئته .

وفي النبات حينما يقفون عند آية من آياته مثلاً : ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ..④﴾ [الرعد] يقولون : إن النبات يتغذى بعملية الانتخاب ، يعنى النبات هو الذى ينتخب ويختار غذاءه ، ففى التربة الواحدة وبالماء الواحد ينمو النبات الحلو والمر والحمضى والحريف ، فبدل أنْ يعترفوا لله تعالى بالفضل والقدرة يقولون : الطبيعة وعملية الانتخاب .

وقد تحدثنا مع بعض هؤلاء فى فرنسا ، وحاولنا الرد عليهم وإبطال حججهم ، وأبسطها أن عملية الانتخاب تحتاج إلى إرادة واعية تُميِّز بين الأشياء المنتخبة ، فهل عند النبات إرادة تُمكِّنه من اختيار الحلو أو الحامض ؟ وهل يُميز بين المرِّ والحريف ؟

إنهم يحاولون إقناع الناس بدور الطبيعة ليبعدوا عن الأذهان قدرة الله فيقولون : إن النبات يتغذَّى بخاصية الأنابيب الشعرية يعنى : أنابيب ضيقة جداً تشبه الشعرة فسميت بها ، ونحن نعرف أن الشعرة

عبارة عن أنبوبة مجوفة . وحين تضع هذه الأنبوبة الضيقة فى الماء ، فإن الماء يرتفع فيها إلى مستوى أعلى ؛ لأن ضغط الهواء داخل هذه الأنبوبة لضيقها أقلّ من الضغط خارجها لذا يرتفع فيها الماء ، أما إنْ كانت هذه الأنبوبة واسعة فإن الضغط بداخلها سيساوى الضغط خارجها ، ولن يرتفع فيها الماء .

فقُلْنا لهم : لو أحضرنا حوضاً به سوائل مختلفة ، مُذَاب بعضها فى بعض ، ثم وضعنا به الأنابيب الشَّعْرية ، هل سنجد فى كل أنبوبة سائلاً معيناً دون غيره من السوائل ، أم سنجد بها السائل المخلوط بكل عناصره ؟

لو قمتَ بهذه التجربة فستجد السائل يرتفع نعم فى الأنابيب بهذه الخاصية ، لكنها لا تُميِّز بين عنصر وآخر ، فالسائل واحد فى كل الأنابيب ، وما أبعد هذا عن نمو النبات وتغذيته .

وصدق الله حين قال : ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③﴾ [الأعلى]

إذن : ما أبعدَ هذه التفسيرات عن الواقع ! وما أجهلَ القائلين بها والمروِّجين لها ! خاصة فى عصر ارتقى فيه العلم ، وتقدَّم البحث ، وتنوَّعت وسائله فى عصر استنارتْ فيه العقول ، واكتُشِفت أسرار الكون الدالة على قدرة خالقه عز وجل ، ومع ذلك لا يزال هناك مبطلون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ..㊺﴾ [الحج]

فهم ـ إذن ـ موجودون فى أمة محمد إلى أنْ تقومَ الساعة ،

وسنُواجههم نحن كما واجههم رسول الله ، وسيظل الشيطان يُلقى فى نفوس هؤلاء ، ويوسوس لهم ، ويوحى إلى أوليائه من الإنس والجن ، ويضع العقبات والعراقيل ليصدَّ الناس عن دين الله . هذا نموذج من إلقاء الشيطان فى مسألة القمة ، وهى الإيمان بالله .

كما يُلقى الشيطان فى مسألة الرسول ، فنجد منهم مَنْ يهاجم شخصية رسول الله ﷺ ، وكيف وهو الأمىّ البدوىّ يقود أمة ويتهمونه ويخوضون فى حقِّه ، وفى مسألة تعدُّد زوجاته ﷺ .. الخ ممّا يُمثِّل عقبة فى سبيل الإيمان به ﷺ .

ونعجب لهجوم هؤلاء على رسول الله طالما هم كافرون به ، إن هذا الهجوم يحمل فى طياته إيماناً بأنه رسول الله ، وإلا لَمَا استكثروا عليه ولَمَا انتقدوه ، فلو كان شخصاً عادياً ما تعرَّض لهذه الانتقادات.

لذلك لا تناقش مثل هؤلاء فى مسألة الرسول ، إنما فى مسألة القمة ، ووجود الإله ، ثم الرسول المبلِّغ عن هذا الإله ، أمّا أنْ تخوض معهم فى قضية الرسول بدايةً فلن تصلَ معهم إلى حَلٍّ ؛ لأنهم يضعون مقاييس الكمال من عندهم ، ثم يقيسون عليها سلوكيات رسول الله ، وهذا وَضْع مقلوب ، فالكمال نأخذه من الرسول ومن فعْله ، لا نضع له نحن مقاييس الكمال .

ثم يُشكِّكون بعد ذلك فى الأحكام ، فيعترضون مثلاً على الطلاق فى الإسلام ، وكيف نفرق بين زوجين ؟ وهذا أمر عجيب منهم ، فكيف نجبر زوجين كارهين على معاشرة لا يَبْغُونها ، وكأنهما مقترنان فى سلسلة من حديد ؟ كيف وأنت لا تستطيع أنْ تربط صديقاً بصديق لا يريده ، وهو لا يراه إلا مرة واحدة فى اليوم مثلاً ؟ فهل تستطيع أن تربط زوجين فى مكان واحد ، وهما مأمونان على بعض فى حال الكراهية ؟

ويُخيِّب الله سَعْيهم ، ويُظهـر بطلان هذه الأفكار ، وتُلجئهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى تشريع الطلاق ، حيث لا بديلَ عنه لحلِّ مثل هذه المشاكل .

وقد ناقش هؤلاء كثيراً فى قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة]

وفى قوله : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف] ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف]

يقولون : ومع ذلك لم يتم الدين ، ولا يزال الجمهرة العالمية فى الدنيا غَيْر مؤمنين بالإسلام ، يريدون أنْ يُشكِّكوا فى كتاب الله . وهذا القول منهم ناشىء عن عدم فَهْم للآية ، ولمعنى ﴿لِيُظْهِرَهُ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة] فهى لا تعنى أن ينتصر الإسلام على كل ما عداه انتصاراً يمحو المخالفين له .

إنما يُظهره يعنى : يكتب له الغلبة بصدق حُجَجه وقضاياه على كُرْه من الكافرين والمشركين ، فهم - إذن - موجودون ، لكن يظهر عليهم ، ويعلو دين الإسلام ، ويضطرون هم للأخذ بقوانينه وتشريعاته حَلاً لمشاكلهم ، وكَوْنهم يتخذون منه حلاً لمشاكلهم وهم كافرون به أبلغ فى الردِّ عليهم لو آمنوا به ، فلو آمنوا بالإسلام ما كان ليظهر عليهم ويعلوهم .

فما كنتم تُشكِّكون فيه وتقولون إنه ما كان يصدر من إله ولا من رسول ، فها هى الأيام قد عضّتكم بأحداثها وتجاربها وألجأتكم إلى هذا الحكم الذى تعارضونه ، وها أنتم تُشرِّعون بتشريع الإسلام وأنتم كافرون به ، وهذا دليل ظهوره عليكم .

ومعنى ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً (٥٥)﴾ [الحج] يعنى : فجأة ، وقد تكلَّم العلماء فى معنى الساعة : أهى يوم القيامة ، أم يوم يموت الإنسان ؟ الساعة تشمل المعنيين معاً ، على اعتبار أن مَنْ مات فقد قامت قيامته حيث انقطع عمله ، وموت الإنسان يأتى فجأة ، كما أن القيامة تأتى فجأة ، فهما - إذن - يستويان .

لكن ، إنْ كانت الساعة بغتة تفجؤهم بأهوالها ، فما العلامات الصُّغْرى ؟ وما العلامات الكبرى ؟ أليست مقدمات تأذن بحلول الساعة ، وحينئذ لا تُعَدُّ بغتة ؟ قالوا : علامات الشىء ليست هى إذن وجوده ، العلامة تعنى : قُرْب موعده فانتبهوا واستعدُّوا ، أمَّا وقت حدوثه فلا يعلمه أحد ، ولا بُدَّ أنْ يأتى بغتة رغم هذه المقدمات .

ثم يقول تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] البعض[1] اعتبر : ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] يعنى القيامة ، وبالتالى فالساعة تعنى الموت ، وآخرون[2] يقولون : ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] المراد يوم بدر الذى فصل الله فيه بين الحق والباطل .

وهذا اجتهاد يُشْكرون عليه ، لكن لما نتأمل الآية : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ.. (٥٥)﴾ [الحج] يعنى : المرية مستمرة ، لكن بدراً انتهت ، المرية ستظل إلى أن تقوم الساعة[3] .

ولا مانعَ أن تكون الساعة بمعنى القيامة ، واليوم العقيم أيضاً هو

---

(١) قاله الضحاك ، ومجاهد . قالا : يوم القيامة لا ليلة له . [نقله القرطبى فى تفسيره ٤٦١٩/٦ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٧٠/٦] .

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . [نقله القرطبى فى تفسيره ٤٦١٩/٦] .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٣١/٣) : « هذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا ، لكن هذا هو المراد ، ولهذا قال : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ (٥٦)﴾ [الحج] » .

يوم القيامة ، فيكون المدلول واحداً ، لأن هناك فرقاً بين زمن الحدث والحدث نفسه ، فالساعة هى زمن يوجد فيه الحدث وهو العذاب ، فالساعة أولاً ثم يأتى العذاب ، مع أن مجرد قيام الساعة فى حَدِّ ذاته عذاب .

ومعنى ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] العقيم : الذى لا يلد ، رجل كان أو امرأة ، فلا يأتى بشىء بعده ، ومنه قوله تعالى عن سارة امرأة إبراهيم عليه السلام : ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩)﴾ [الذاريات] وكذلك يوم القيامة يوم عقيم ، حيث لا يوم بعده أبداً ، فهى نهاية المطاف على حَدِّ قول أحدهم : حَبَتْهُم به الدنيا وأدركَها العُقْم .

أو ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] بمعنى : أنها لا تأتى بخير ، بل بشرٍّ ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات]

ذلك لأن الريح حين تهبُّ ينتظر منها الخير ، إما بسحابة مُمطرة ، أو تحريك لقاح الذكورة بالأنوثة ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ..(٢٢)﴾ [الحجر] أما هذه فلا خَيْر فيها ، ولا طائل منها ، وليتها تقف عند عدم النفع ، ولكن تتعدَّاه إلى جَلْب الضُّر ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)﴾ [الذاريات] فهى تدمر كل شىء تمرُّ عليه .

وكما جاء فى قوله سبحانه : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ (٢٥)﴾ [الأحقاف]

فالمعنى ـ إذن ـ ﴿عَقِيمٍ (٥٥)﴾ [الحج] لا خيرَ فيها ولا نفع ، بل فيها الشر والعذاب ، أو عقيم يعنى : لا يأتى يوم بعده ؛ لأنكم تركتم

دنيا الأغيار ، وتقلّب الأحوال حال بعد حال ، فالدنيا تتقلّب من فقر إلى غنى ، ومن صحة إلى مرض ، ومن صغر إلى كبَر ، ومن أمْن إلى خوف ، وتتحول من صيف إلى شتاء ، ومن حر إلى برد ، ومن ليل إلى نهار .. وهكذا .

أما فى الآخرة فقد انتقلتم من عالم الأغيار الذى يعيش بالأسباب إلى عالِم آخر يعيش مع المسبِّب سبحانه ، وإلى يوم آخر لا يومَ بعده ، كأنه عَقم أن يكون له عَقب من بعده أو مثيل له ، كما لو حضرتَ حفلاً مثلاً قد استكمل ألوان الكمال والنعم ، فتقول : هذا حدث لا يتكرر يعنى : عقيم لا يأتى بعده مثله .

وإذا كنتَ فى الدنيا تعيش بالأسباب التى خلقها الله لك ، فأنت فى الآخرة ستجلس مستريحاً تتمتع بالمسبِّب عزَّ وجلَّ ، ويكفى أن يخطر الشىء ببالك ، فتراه بين يديك ؛ ولأن القيامة لا أغيارَ فيها ولا تقلّب ، فسيظل الجميع كلٌّ على حاله فى سنٍّ واحدة ، لا يشيب ولا يهرم ، ولا يمرض ولا يموت .

ألاَ ترى إلى قوله تعالى فى نساء الجنة : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا[(١)] أَتْرَابًا (٣٧) لأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ﴾ [الواقعة]

والكاره لزوجته فى الدنيا لأنها كانت تتعبه نقول له : لا تقسْ زوجة الدنيا بزوجة الآخرة ؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ (٥٧) ﴾ [النساء]

أى : مطهرة من كل ما كنتَ تكرهه فيها فى الدنيا شكلاً وطَبْعاً وخُلقاً ، فأنت الآن فى الآخرة التى لا يعكر نعيمها كَدَر .

---

(١) العُرُب : جمع عَرُوب ، وهى المرأة المتحببة إلى زوجها ، والأتراب : جمع تِرْب ، وهو المساوى فى السن . [القاموس القويم ١/٩٩] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) ﴾

ولقائل أنْ يقول : أليس الملْك لله يومئذ ، وفى كل يوم ؟ نعم ، الملْك لله فى الدنيا وفى الآخرة ، لكن فى الدنيا خلق الله خَلْقاً وملّكهم ، وجعلهم ملوكاً من باطن مُلْكه تعالى ، لكنه مُلْك لا يدوم ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : ففى الدنيا ملوك ملّكهم الله أمراً من الأمور ، ففيها ملك للغير ، أمّا فى الآخرة فالملْك لله تعالى وحده : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وفى القيامة ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ .. (٥٦) ﴾ [الحج] فقد رَدَّ الملْك كله إلى صاحبه ، ورُدَّت الأسباب إلى مُسبِّبها .

ومعنى ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ .. (٥٦) ﴾ [الحج] أن هناك خصومةً بين طرفين ، أحدهما على حق ، والآخر على باطل ، والفَصْل فى خصومات الدنيا تحتاج إلى شهود ، وإلى بينة ، وإلى يمين فيقولون فى المحاكم : البينة على المدَّعِى واليمين على مَنْ أنكر ، هذا فى خصومات الدنيا ، أما خصومات الآخرة فقاضيها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم السرَّ وأخفى ، فلا يحتاج إلى بينة ولا شهود ولا سلطة تُنفِّذ ما حكم به .

محكمة الآخرة لا تحتاج فيها إلى مُحامٍ ، ولا تستطيع فيها أنْ تُدلِّس على القاضى ، أو تُؤجِّر شاهد زور ، لا تستطيع فى محكمة الآخرة أن تستخدم سلطتك الزمنية فتنقض الحكم ، أو تُسقطه ؛ لأن المُلْك يومئذ لله وحده ، والحكم يومئذ لله وحده ، هو سبحانه القاضى والشاهد والمنفِّذ ، الذى لا يستدرك على حكمه أحد .

وما دام هناك حكومة ، فلا بُدَّ أن تسفر عن محكوم له ومحكوم عليه ، ويُوضِّحهما قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) ﴾ [الحج]

وهؤلاء هم الفائزون الذين جاء الحكم فى صالحهم .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) ﴾

وهؤلاء هم الجبابرة وأصحاب السيادة فى دنيا الكفر والعناد ، والذين حكم الله عليهم بالعذاب الذى يُهينهم بعد عِزَّتهم وسلطانهم فى الدنيا ، وتلحظ أن العذاب يُوصَف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه مُهين .

فالعذاب الأليم الذى يُؤلم صاحبه ، لكنه قد يكون لفترة ثم ينتهى ، أما العذاب العظيم فهو الدائم ، والمهين هو الذى يُذِله ويدوس كرامته التى طالما اعتز بها . وأنت تجد الناس يختلفون فى تقبُّل ألوان العذاب : فمنهم مَنْ لا يؤثر فيه الضرب الموجع ولا يحركه ، لكن

تؤلمه كلمة تجرح عزَّته وكرامته . لذلك جاء العذاب هكذا ألواناً ؛ ليستوعب كل صنوف الملكات النفسية ، ويواجه كُلَّ نفس بما يؤلمها .

● ● ●

ثم تكلم الحق سبحانه عن أمر كان لا بُدَّ أن نعرفه ، فالمسلمون الأوائل فى مكة أُخرِجوا من ديارهم وأبنائهم وأموالهم لأنهم قالوا : ربنا الله ، ولا شَكَّ أن للوطن وللأهل والبيئة التى نشأ فيها المرء أثراً فى ملكات نفسه ، لا يمكن أنْ يُمحَى بحال ، فإنْ غاب عنه اشتاق إليه وتمنَّى العودة ، وكما يقول الشاعر :

بَلَدِى وَإنْ جَارَتْ علىَّ عَزِيزَةٌ أهْلِى وإنْ ضَنُّوا علىَّ كِرَامُ

لذلك ، فطالب العالم عندما يترك بلده إلى القاهرة يقولون : لا بُدَّ له أن يرجع ، ولو أن تعضَّه الأحداث والشدائد ، فيعود ليطلب من أهله العون والمساعدة ، أو حتى يعود إليها فى نهاية المطاف ليدفنوه فى تراب بلده .

وقالوا : إن سيدنا سليمان ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ لما تفقَّد الطير ﴿فَقَالَ مَا لِىَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ[1] عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾ [النمل] ذلك لأنه نبى ، فالمسألة ليستْ جبروتاً وتعذيباً ، دون أن يسمع منه . وقالوا : إن الطير سأل سليمان : كيف يعذب الهدهد ؟ قال : أضعه

(١) قال ابن عباس : يعنى نتف ريشه . وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه مُلْقًى يأكله الذر والنمل . [تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٠]

فى غيـر بنى جنسه ، وفى غيـر المكان الذى يألفه ، يعنى : فى غـير موطنه .

يقول تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) ﴾

وفى موضـع آخر يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ (٤٠) ﴾ [الحج] هؤلاء تحـملوا الكثيـر ، وتعبـوا فى سبيل عـقيدتهم ، فلا بُدَّ أنْ يُعـوِّضـهم الله عن هذه التضحـيات ، لذلك يقول هنا : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا (٥٨) ﴾ [الحج] وأوضحنـا أن الموت غيـر القتل : الـموت أن تخرج الروح دون نَقْضٍ للبنية ، أما القتل فهو نَقْض للبِنْية يترتب عليه خروج الروح .

﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا .. (٥٨) ﴾ [الحج] تعويضاً لهم عـمَّا فاتوه فى بلدهم من أهل ومال ، كما يُعوّض الحـاكم العادل المظلوم فيعطيه أكثـر ممـَّا أُخذ منه ؛ لذلك يقـول سبـحانه فى مـوضـع آخر : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

لأن مَنْ قُتل فقد فاز بالشهادة ونال إحدى الحُسْنيين ، أما مَنْ مات فقد حُرِم هذا الشرف ؛ لذلك فقد وقع أجره على الله ، وما بالك بأجر مُؤدِّيه ربك عز وجل ؟ وكما لو أن رجلاً مُتْعباً يسير ليس معه شيء ولا يجد حتى مَنْ يقرضه ، وفجأة سقطت رجْله فى حفرة فتكدَّر وقال : حتى هذه ؟! لكن سرعان ما وجد قدمه قد أثارتْ شيئاً فى التراب له بريق ، فإذا هو ذهب كثير وقع عليه بنفسه .

ويُرْوى أن فضالة[1] حضرهم وهم يدفنون شهيداً ، وآخر مات غير شهيد ، فرأوْه ترك قبر الشهيد وذهب إلى قبر غير الشهيد ، فلما سألوه : كيف يترك قبر الشهيد إلى غير الشهيد ؟ قال : والله ما أبالى فى أىِّ حفرة منهما بُعثْت[2] ما دام قد وقع أجرى على الله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) ﴾ [الحج] حين يصف الحق سبحانه ذاته بصفة ، ثم تأتى بصيغة الجمع ، فهذا يعنى أن الله تعالى أدخل معه الخَلْق فى هذه الصفة ، كما سبق أنْ تكلمنا فى قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

فقد أثبت للخَلْق صفة الخَلْق ، وأشركهم معه سبحانه فى هذه الصفة ؛ لأنه سبحانه لا يبخس عباده شيئاً ، ولا يحرمهم ثمرة مجهودهم ، فكل مَنْ أوجد شيئاً فقد خلقه ، حتى فى الكذب قال ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) هو : فضالة بن عبيد الأنصارى الأوسى ، أبو محمد ، صحابى ممن بايع تحت الشجرة شهد أحداً وما بعدها ، وشهد فتح الشام ومصر ، وسكن الشام ، ولى الغزو والبحر بمصر ، ثم ولاه معاوية قضاء دمشق وتوفى فيها عام (٥٣هـ) [الأعلام للزركلى ٥/١٤٦].

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٦٢٠) وعزاه لابن المبارك أنه ذكر عن فضالة بن عبيد .

لأن الخَلْق إيجاد من عدم ، فأنت حين تصنع مثلاً كوب الماء من الزجاج أوجدتَ ما لم يكن موجوداً ، وإنْ كنت قد استخدمت المواد المخلوقة لله تعالى ، وأعملتَ فيها عقلك حتى توصلْتَ إلى إنشاء شيء جديد لم يكُنْ موجوداً ، فأنت بهذا المعنى خالق حسن ، لكن خلق ربك أحسن ، فأنت تخلق من موجود ، وربك يخلق من عدم ، وما أوجدتَه أنت يظل على حالته ويجمد على خلْقتك له ، ولا يتكرر بالتناسل ، ولا ينمو ، وليست فيه حياة ، أما خَلْق ربك سبحانه فكما تعلم .

كذلك يقول سبحانه هنا : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) ﴾ [الحج] فأثبت لخَلْقه أيضاً صفة الرزق ، من حيث هم مُتَسَبَّب فيه ؛ لأن الرزق: هو كل ما ينتفع به حتى الحرام يُعَدُّ رزقاً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة]

نقول : فالعبد سبب فى الرزق ؛ لأن الله تعالى هو خالق الرزق أولاً ، ثم أعطاك إياه تنتفع به وتعمل فيه ، وتعطى منه للغير ، فالرزق منك مناولة عن الرازق الأول سبحانه ، فأنت بهذا المعنى رازق وإنْ كرهوا أنْ يُسمَّى الإنسان رازقاً ، رغم قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) ﴾ [الحج] لماذا ؟ قالوا : حتى لا يفهم أن الرزق من الناس .

لذلك نسمع كثيراً من العمال البسطاء ، أو موظفاً صغيراً ، أو بواب عمارة مثلاً حين يفصله صاحب العمل ، يقول له : يا سيدى الأرزاق بيد الله . كيف وقد كنت تأخذ راتبك من يده ومن ماله ؟ قالوا : لأنه نظر إلى المناوِل الأول للرزق ، ولم ينظر إلى المناوِل الثانى .

أمـا الرزق الحـسن الذى أعـدَّه الله للـذين هاجـروا فى سـبـيله ، فيوضحه سبحانه فى قوله :

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

لأن الرزق قد يكون حسناً لكنه لا يُرضِى صـاحبه ، أما رزق الله لهؤلاء فقد بلغ رضاهم ، والرضـا : هو اقتناع النفس بشىء تجد فيه متعة ، بحيث لا تستشرف إلى أعلى منه ، ولا تبغى أكثر من ذلك .

لذلك بعد أنْ ينعَم أهل الجنة بنعيمها ، ممَّا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر علـى قلب بشر ، بعدها يتجلَّى الحق - سـبحانه - عليهم فيقول لعباده المؤمنين : يا عـبادى أرضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقـد أعطيْـتنا مـا لم تُعْط أحـداً من العـالمـين ؟ قـال : ألا أعطيكم أفـضل من هذا ؟ قالوا : وهل شـىء أفـضل ممـا نحن فـيه ؟ قال : نعم ، أُحِلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً[1].

ومن ذلك قولـه تعالى لنبيـه محـمد ﷺ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر]

يبـالغ فى الرضا ، حـيث يتـعداك الرضـا إلى أن تكون عـيشـتك نفسـها راضية ، وكأنها تعشقك هى ، وترضى بك .

---

(١) متفق علـيه . أخرجه البخـارى فى صحيحـه (٧٥١٨) ، وكذا مسلم فى صحـيحه (٢٨٢٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها . من حديث أبى سعيد الخدرى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الحج]

عليم : بما يستحقه كل إنسان عند الحساب من النعيم ، ثم يزيد مَنْ يشاء من فضله ، فليس حساب ربك فى الآخرة كحسابكم فى الدنيا ، إنما حسابُه تعالى بالفضل لا بالعدل .

وحليم : يحلم على العبد إنْ أساء ، ويتجاوز للصالحين عن الهَفَوات ، فإنْ خالط عملك الصالح سوء ، وإنْ خالفت منهج الله فى غفلة أو هفوة ، فلا تجعل هذا يعكر صفو علاقتك بربك أو يُنغِّص عليك طمأنينة حياتك ؛ لأن ربك حليم سيتجاوز عن مثل هذا على حَدِّ قولهم (حبيبك يبلع لك الزلط)

لذلك لما وَشَى أحد المؤمنين[1] للكفار فى فتح مكة ، وهَمَّ عمر أن يقتله فنهاه رسول الله ﷺ وقال : « لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم »[2]

ويكفى أنهم خرجوا بأنفسهم واقتحموا معركة غير متكافئة فى العدد والعُدَّة ، ألا نذكر لهم هذا الموقف ؟ ألم يقل الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود] ومَن ابتُلِى بشىء يضعف أمامه ، فليكن قوياً فيما يقدر عليه ، وإنْ غلبك الشيطان فى باب من أبواب الشر فشمِّر له أنت فى أبواب الخير ، فإن هذا يُعوِّض ذاك .

---

(١) هو حاطب بن أبى بلتعة ، وقصته أنه كاتب أهل مكة بتجهيز رسول الله ﷺ لفتح مكة ، فقال عمر : دعنى أضرب عنقه فقال إنه شهد بدراً واعتذر حاطب بأنه لم يكن له فى مكة عشيرة تدفع عن أهله فقبل عذره . قال المرزبانى فى « معجم الشعراء » : كان أحد فرسان قريش فى الجاهلية وشعرائها . قال المدايني : مات حاطب فى سنة ثلاثين فى خلافة عثمان وله ٦٥ سنة . [الإصابة لابن حجر ١/٣١٤] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٩٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٩٤) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ يعنى هذا الأمر الذى تحدثنا فيه قد استقر ، وإليك هذا الكلام الجديد ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحج]

الحق - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان وجعل فيه ملكات مختلفة ليؤدى خلافته فى الأرض بحركات متوازنة ، فخلق لنا عواطف وجعل لها مهمة ، هذه العواطف لا يحكمها قانون . وخلق لنا أيضاً غرائز ولها مهمة ، لكن محكومة بقانون تعلية الغرائز عند الخلق ، فإياك أنْ تتعدى بغريزتك إلى غير المهمة التى خلقها الله لها .

فمثلاً ، غريزة حب الطعام جعلها الله فيك لاستبقاء الحياة ، فلا تجعلها غرضاً أصيلاً لذاتها ، فتأكل لمجرد أنْ تلتذَّ بالأكل ؛ لأنها لذة وقتية تعقبها آلام ومتاعب طويلة . وهذه الغريزة جعلها الله فى النفس البشرية منضبطة تماماً كما تضبط المنبّه مثلاً ، فحين تجوع تجد نفسك تاقتْ للطعام وطلبته ، وإنْ عطشتْ مالتْ نفسك نحو الماء ، وكأن بداخلك جرساً يُنبِّهك إلى ما تحتاجه بنيتك من مُقوِّمات استبقائها .

حب الاستطلاع غريزة جعلها الله فيك لتنظر بها وتستطلع ما فى الكون من أسرار دالة على قدرة الله وعظمته ، فلا تتعدى هذا الغرض ، ولا تحرِّك هذه الغريزة إلى التجسُّس على الخَلْق والوقوف على أسرارهم .

التناسل غريزة جعلها الله لحِفْظ النوع ، فلا ينبغى أنْ تتعدى ماجعلت له إلى ما حرَّم الله .

الغضب غريزة وانفعال قَسْرى لا تختاره بعقلك تغضب أو لا تغضب ، إنما إنْ تعرضتَ لأسبابه فلا تملك إلا أنْ تغضب ، ومع ذلك جعل له حدوداً وقنَّن له وأمر فيه بضبط النفس وعدم النزوع .

الحب والكُرْه غريزة وعاطفة لا تخضع لقانون ، ولا يحكمها العقل ، فلك أن تحب وأن تكره ، لكن إياك أنْ تتعدَّى هذه العاطفة إلى عمل عقلىٍّ ونزوع تعتدى به أو تظلم .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ[1] قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا.. ⑧﴾ [المائدة]

لأن هذه المسألة لا يحكمها قانون ، وليس بيدك الحب أو الكره ؛ لذلك لما قابل سيدنا عمر قاتل أخيه قال له عمر : أَدرْ وجهك عنى فإنِّى لا أحبك . وكان الرجل عاقلاً فقال لسيدنا عمر : أَوَ عَدَمُ حبك لى يمنعنى حقًا من حقوقى ؟ قال عمر : لا ، فقال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء . يعنى أحِبَّ أو اكره كما شئْتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تحرمنى حقاً من حقوقى .

فهل وقفنا بالغرائز عند حدودها وأهدافها ؟ لو تأملتَ مثلاً الغريزة الجنسية التى يصفُها البعض بملْء فيه يقول : غريزة بهيمية .. سبحان الله ألاَ تستحى أنْ تظلم البهائم لمجرد أنها لا تتكلّم ، وهى أفهم لهذه الغريزة منك ، ألاَ تراها بمجرد أن يُخصِّب الذكَر أُنثاه

---

(١) شناه وشَنِئَه شنآناً : أبغضه وكرهه . والشانىء : المبغض . [القاموس القويم ١/٣٥٧]
وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب أو جُرْم . أى : لا يحملنكم بُغْض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . [القاموس القويم ١/١٢١] .

لا يقربها أبداً ، وهى لا تمكِّنه من نفسـها إذا ما حملَتْ ، فى حين أنك تبـالغ فى هذه الغريزة ، وتنطلق فـيهـا انطلاقاً يُـخرجهـا عن هدفـهـا والحكمة منهـا ؟ على مثل هذا أن يخزى أن يقول مثـل هذه المقولة ، وألاَّ يظلم البهائم ، فمن الناس مَنْ هم أدْنى من البهائم بكثير .

وما يقـال عن غريزة الجنس فى الحـيوان يقال كـذلك فى الطعام والشراب .

إذن : الخالق سبحانه خلق الغرائز فـيك ، ولم يكبتها ، وجعل لها منافذ شـرعية لتـؤدى مهمتـهـا فى حيـاتك ؛ لذلك أحاطها بسـياج من التكليف يُنظِّمـها ويحكمهـا حتى لا تشرد بك ، فـقال مثـلاً فى غريزة الطعـام والشراب : ﴿ يَـٰبَنِى آدَمَ خُـذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَـسْجِـدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا .. (٣١) ﴾ [الأعراف]

وقـال فى غـريـزة حب الاسـتطلاع : ﴿ وَلا تَجَـسَّـسُـوا .. (١٢) ﴾ [الحجرات] وهكذا فى كل غرائزك تجد لها حدوداً يجب عليك ألاَّ تتعداها .

لذلك قلنا فى صـفـات الإيمان وفى صـفـات الكفر أن الله تعـالى يصف المؤمنين بأنه ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] لأنهم يضعون كل غـريزة فى موضعها فالشـدة مع الأعداء ، والرحمة مع إخوانهم المـؤمنين ، ويقف عند هذه الحدود لا يقلب مـقاييسـها ، ويلتـزم بقول الحق سـبحانه وتـعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

وكأن الخالق عز وجل يُسوِّينا تسـوية إيمانية ، فالمؤمن لم يُخلَق عزيزاً ولا ذليـلاً ، إنما الموقف هو الذى يضـعه فى مكانه المناسب ، فهو عزيز شامخ مع الكفار ، وذليل مُنكسِر متواضع مع المؤمنين .

ويتفرع عن هذه المسألة مسألة ردِّ العقوبة إذا اعتُدى عليك : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. ﴿٦٠﴾﴾ [الحج] الحق - سبحانه وتعالى - هو خالق النفس البشرية ، وهو أعلم بنوازعها وخَلَجاتها ؛ لذلك أباح لك إن اعتدى عليك أنْ تردَّ الاعتداء بمثله ، حتى لا يختمر الغضب فى نفسك ، وقد ينتج عنه ما هو أشد وأبلغ فى ردِّ العقوبة ، يبيح لك الرد بالمثل لتنتهى المسألة عند هذا الحد ولا تتفاقم ، فمَنْ ضربك ضربة فلك أنْ تُنفِّس عن نفسك وتضربه مثلها ، لك ذلك ، لكن تذكَّر المثلية هنا ، لا بد أن تكون تامة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]

وهل تستطيع أن تضبط هذه المثلية فتردّ الضربة بمثلها ؟ وهل قوتك كقوته ، وحِدَّة انفعالك فى الرد كحدَّة انفعاله ؟ ولو حدث وزدْتَ فى ردِّك نتيجة غضب ، ماذا تفعل ؟ أتسمح له أنْ يردَّ عليك هذه الزيادة ؟ أم تكون أنت ظالماً معتدياً ؟

إذن : ماذا يُلجئك لمثل هذه المتاهة ، ولك فى التسامح سعَة ، وفى قول الله بعدها : ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل] مَخْرج من هذا الضيق ؟

وسبق أنْ حكينا قصة المرابى اليهودى الذى قال لطالب الدَّيْن : إن تأخرت فى السداد أشترط عليك أنْ آخذ رطلاً من لحمك . وجاء وقت السداد ولم يُوف المدين ، فرفعه الدائن إلى القاضى وأخبره بما اشترطه عليه ، فقال القاضى : نعم من حقك أن تأخذ رطلاً من لحمه لكن بضربة واحدة بالسكين تأخذ رطلاً ، إنْ زاد أو نقص أخذناه منك .

إذن : مسألة المثلية هنا عقبةٌ تحدُّ من ثورة الغضب ، وتفتح باباً للارتقاءات الإيمانيـة ، فإنْ كان الحق سبحـانه سمح لك أن تُنفِّس عن نفسك فقال : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. ④⓪﴾ [الشورى] فإنه يقول لك : لا تنسَ العفو والتسامح ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ①③④﴾ [آل عمران]

لذلك ، فالآية التـى معنا تلفتنا لَفْـتةً إيمـانية : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ .. ⑥⓪﴾ [الحج] واحدة بـواحدة ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ .. ⑥⓪﴾ [الحج] يعنى : زاده بعـد أنْ ردَّ العـدوان بمثله وظلمـه واعـتدى عليـه ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ .. ⑥⓪﴾ [الحج] ينصره عـلى المعتـدى الذى لم يرتَض حكم الله فى ردِّ العقوبة بمثلها .

وتلحظ فى قوله تعـالى مخايل النصـر بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ⑥⓪﴾ [الحج] مع أن الصفـة التى تناسب النُّصْـرة أن يقـول قـوى عزيز ؛ لأن النُّصْـرة تحتاج قـوة وتحتاج عزة ، لكـنه سبحانه اخـتار صفة العفو والمغفرة ليلفت نظر مَنْ أراد أنْ يعاقب إلى هذه الارتقاءات الإيمانية : اغفـر وارحم واعْفُ ؛ لأن ربك عفو غفور ، فاخـتار الصفة التى تُحنِّن قلب المؤمن على أخيه المؤمن .

ثم أليس لك ذنب مع الله ؟ ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. ②②﴾ [النور] فما دُمْت تحب أن يغفر الله لك فاغفـر لعباده ، وحين تغفر لمَنْ يستـحق العقوبة تأتـى النتيجـة كما قـال ربك عز وجل : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ③④﴾ [فصلت]

فالـحق سبحـانه يريد أن يشـيع بيننا الصفـاء النفسى والتـلاحم الإيمانى ، فأعطاك حقَّ ردِّ العقوبة بمثلها لتنفِّس عن نفسك الغيظ ، ثم دعاك إلى العفو والمغفرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج] يعنى ما قُلْته لك سابقاً له دليل ، فما هو ؟ أن الله يأخذ من القوى ويعطى للضعيف ، ويأخذ من الطويل ويعطى للقصير ، فالمسألة ليست ثابتة (أو ميكانيكا) وإنما خلقها الله بقدر . والليل والنهار هما ظرفا الأحداث التى تفعلونها ، والحق سبحانه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج]

يولج الليل يعنى : يُدخل الليل على النهار ، فيأخذ منه جزءاً جزءاً فيُطوِّل الليل ويُقصِّر النهار ، ثم يُدخل النهار على الليل فيأخذ منه جزءاً جزءاً ، فيُطوِّل النهار ويُقصِّر اللَيل ؛ لذلك نراهما لا يتساويان ، فمرة يطول الليل فى الشتاء مثلاً ، ويقصر النهار ، ومرة يطول النهار فى الصيف ، ويقصر الليل . فزيادة أحدهما ونَقْص الآخر أمر مستمر ، وأغيار متداولة بينهما .

وإذا كانت الأغيار فى ظرف الأحداث ، فلا بُدَّ أن تتغير الأحداث نفسها بالتالى ، فعندما يتسع الظرف يتسع كذلك الخير فيه ، فمثلاً عندنا فى المكاييل : الكَيْلة والقدح والوَيْبة وعندنا الأردب ، وكل منها يسَعُ من المحتوى على قدر سعته . وهكذا كما نزيد أو ننقص فى ظرف الأحداث نزيد وننقص فى الأحداث نفسها .

ثم تُذيِّل الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج] سميعٌ لما يقال ، بصيرٌ بما يفعل ، فالقول يقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، والبعض يظن أن العمل شىء والقول شىء آخر ، لا ؛ لأن

العمل وظيفة الجارحة ، فكل جارحة تؤدى مهمتها فهى تعمل ، عمل العَيْن أن ترى ، وعمل الأذن أنْ تسمع ، وعمل اليد أن تلمس ، وعمل الأنف أن يشُم ، وكذلك عمل اللسان القول ، فالقول للسان وحده ، والعمل لباقى الجوارح وكلاهما عمل ، فدائماً نضع القول مقابل الفعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ② ﴾ [الصف]

والسمع والبصر هما الجارحتان الرئيسيتان فى الإنسان ، وهما عمدة الحواس كلها ، حيث تعملان باستمرار على خلاف الشَّم مثلاً ، أو التذوق الذى لا يعمل إلا عدة مرات فى اليوم كله .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ٦٢ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ .. ٦٢ ﴾ [الحج] أى الكلام السابق أمر معلوم انتهينا منه ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. ٦٢ ﴾ [الحج] والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير أبداً ، فكُلُّ ما سوى الله ـ عز وجل ـ يتغير ، وهو سبحانه الذى يُغيِّر ولا يتغير ؛ ولذلك أهل المعرفة يقولون : إن الله تعالى لا يتغير من أجلكم ، لكن يجب عليكم أنْ تتغيروا أنتم من أجل الله .

وما دام أن ربك ـ عز وجل ـ هو الحق الثابت الذى لا يتغير ، وما عداه يتغير ، فلا تحزن ، ويا غضبان ارْضَ ، ويا مَنْ تبكى اضحك واطمئن ؛ لأنك ابن أغيار ، وفى دنيا أغيار لا تثبت على شيء ؛ لذلك فالإنسان يغضب إذا أُصيب بعقبة فى حياته يقول : لو لم تكُنْ هذه !! نقول له : وهل تريدها كاملة ؟ لا بُدَّ أنْ يصيبك شيء ؛ لأنك ابن أغيار ، فماذا تنتظر إنْ وصلْتَ إلى القمة لا بُدَّ أنْ تتراجع ؛

لأنك ابن أغيار دائم التقلُّب فى الأحوال ، وربك وحده هو الثابت الذى لا يتغير .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ .. (٦٢) ﴾ [الحج] كل ما تدعيه أو تعبده من دون الله هو الباطل ، يعنى الذى يَبْطُل ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ [الإسراء] يعنى : يزول ولا يثبت أبداً ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) ﴾ [الحج] العلى يعنى : كل خَلْقه دونه . وكبير يعنى : كل خَلْقه صغير .

ومن أسمائه تعالى ﴿ الْكَبِيرُ (٦٢) ﴾ [الحج] ولا نقول أكبر إلا فى الأذان ، وفى افتتاح الصلاة ، والبعض يظن أن أكبر أبلغ فى الوصف من كبير ، لكن هذا غير صحيح ؛ لأن أكبر ما دونه كبير ، إنما كبير مقابله صغير ، فهو سبحانه الكبير ؛ لأن ما دونه وما عداه صغير .

أما حين يناديك ويستدعيك لأداء فريضة الله يقول : الله أكبر ؛ لأن حركة الحياة وضروريات العيش عند الله أمر كبير وأمر هام لا يغفل ، لكن إنْ كانت حركة الحياة والسعى فيها أمراً كبيراً فالله أكبر ، فربُّك يُخرجك للصلاة من عمل ، ويدعوك بعدها إلى العمل : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٦٣) ﴾ [الحج] إنْ كانت للأمر الحِسِّى الذى تراه العين ،

فأنت لم تَرَهُ ونُنبهك إليه ، وإنْ كانت للأمر الذى لا يُدرك بالعين فهى بمعنى : ألم تعلم . وتركنا العلم إلى الرؤية لنبين لك أن الذى يُعلِّمك الله به أوثق مما تهديك إليه عَيْنك .

فالمعنى : ألم تعلم وألم تنظر ؟ . المعنيان معاً .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٦٣)﴾ [الحج] فهذه آية تراها ، لكن ترى منها الظاهر فقط ، فترى الماء ينهمر من السماء ، إنما كيف تكوَّن هذا الماء فى طبقات الجو ؟ ولماذا نزل فى هذا المكان بالذات ؟ هذه عمليات لم تَرَها ، وقدرة الله تعالى واسعة ، ولك أن تتأمل لو أردتَ أنْ تجمع كوب ماء واحد من ماء البخار ، وكم يأخذ منك من جهد ووقت وعمليات تسخين وتبخير وتكثيف ، فهل رأيتَ هذه العمليات فى تكوين المطر ؟

إذن : رأيت من المطر ظاهره ، لذلك يلفتك ربك إلى ما وراء هذا الظاهر لتتأمله .

لذلك ؛ جعل الخالق ـ عز وجل ـ مسطح الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، فاتساع مُسطَّح الماء يزيد من البَخْر الذى ينشره الله تعالى على اليابس ، كما لو وضعتَ مثلاً كوبَ ماء فى غرفتك ، وتركتَه مدة شهر أو شهرين ، ستجد أنه ينقص مثلاً سنتيمتراً ، أما لو نثرتَ الكوب على أرض الغرفة فسوف يجفّ بعد دقائق .

إذن : فاتساع رقعة الماء يزيد من كمية البخار المتصاعد منها ، ونحن على اليابس نحتاج كمية كبيرة من الماء العَذْب الصالح للزراعة وللشرب .. الخ ، ولا يتوفر هذا إلا بكثرة كمية الأمطار .

ثم يُبيِّن سبحانه نتيجة إنزال الماء من السماء : ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ

مُخْضَرَّةً .. ﴿٦٣﴾ [الحج] يعني : تصير بعد وقت قصير خضراء زاهية . دون أن يذكر شيئاً عن تدخُّل الإنسان في هذه العملية ، فالإنسان لم يحرث ولم يبذر ولم يَرْو ، إنما المسألة كلها بقدرة الله ، لكن من أين أتت البذور التي كوَّنَتْ هذا النبات ؟ ومَنْ بذرها ووزَّعها ؟ البذُور كانت موجودة في التربة حيَّة كامنة لم يُصِبْها شيء ، وإنْ مَرَّ عليها الزمن ؛ لأن الله تعالى يحفظها إلى أنْ تجد الماء وتتوفَّر لها عوامل الإنبات فتنبت ؛ لذلك نُسمِّي هذا النبات (العِذْي) ؛ لأنه خرج بقدرة الله لا دَخْل لأحد فيه .

وتولَّتْ الرياح نَقْل هذه البذور من مكان لآخر ، كما قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. ﴿٢٢﴾ [الحجر] ولو سلسلْتَ هذه البذرة ستجدها من شجرة إلى شجرة حتى تصل إلى شجرة أُمٍّ ، خلقها الخالق سبحانه لا شجرةَ قبلها ولا بذرة . لذلك يُرْوى أن يوسف النجار وكان يرعى السيدة مريم عليها السلام ويشرف عليها ، ويقال كان خطيبها ـ لما رآها حاملاً وليس لها زوج سألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بلا بذرة ؟ قالت : نعم الشجرة التي أنبتتْ أول بذرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ [الحج] اللطْف هو دقَّة التناول للأشياء ، فمثلاً حين تريد أن تدخل خيطاً في إبرة ، تجد الخيط لا ينفذ من ثقبها لأول مرة ، فتحاول أنْ تُرقِّق من طرف الخيط وتبرمه حتى يدِقّ فينفذ من الثقب ، فالخيط بعد أنْ كان غليظاً أصبح لطيفاً دقيقاً .

ويقولون : الشيء كلما لَطُف عَنُف ، في حين يظن البعض أن الشيء الكبير هو القوي ، لكن هذا غير صحيح ، فكلما كان الشيء

لطيفاً دقيقاً كان خطره أعظم ، ألاَ ترى الميكروب كيف يصيب الإنسان وكيف لا نشعر به ولا نجد له ألماً ؟ ذلك لأنه دَقيق لطيف ، وكذلك له مدخل لطيف لا تشعر به ؛ لأنه من الصِّغَر بحيث لا تراه بالعين المجردة .

والبعوضة كم هى هيِّنة صغيرة ؛ لذلك تُؤلمك لدغتها بخرطومها الدقيق الذى لا تكاد تراه ، وكلما دَقَّ الشيء احتاج إلى احتياط أكثر لتحمى نفسك من خطره ، فمثلاً إنْ أردتَ بناء بيت فى الخلاء أو منطقة نائية ، فإنك ستضطر أنْ تضع حديداً على الشبابيك يحميك من الحيوانات المفترسة كالذئاب مثلاً ، ثم تضع شبكة من السلك لتحميك من الفئران ، فإن أردْتَ أن تحمى نفسك من الذباب والبعوض احتجت إلى سِلْك أدق ، وهكذا كلما صَغُر الشيء ولطف احتاج إلى احتياط أكثر .

فاللطيف هو الذى يدخل فى الأشياء بلطف ؛ لذلك يقولون : فلان لطيف المدخل يعنى : يدخل لكل إنسان بما يناسبه ، ويعرف لكل إنسان نقطة ضَعْف يدخل إليه منها ، كأن معه (طفاشة) للرجال ؛ يستطيع أن يفتح بها أى شخصية .

لكن ، ما علاقة قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحج] بعد قوله : ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً .. ﴿٦٣﴾﴾ [الحج] ؟ قالوا : لأن عملية الإنبات تقوم على مَسَامّ وشعيرات دقيقة تخرج من البذرة بعد الإنبات ، وتمتصّ الغذاء من التربة ، هذه الشعيرات الجذرية تحتاج إلى لُطْف ، وامتصاص الغذاء المناسب لكل نوع يحتاج إلى خبرة ، كما

قال تعالى : ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ.. ④﴾ [الرعد]

فالأرض تصبح مُخضَرَّة من لُطْف الحق سبحانه ، ومن خبرته فى مداخل الأشياء ، لذلك قال بعدها : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ⑥③﴾ [الحج]

ولدقّة الشعيرات الجذرية نحرص ألاَّ تعلو المياه الجوفية فى التربة ؛ لأنها تفسد هذه الشعيرات فتتعطن وتموت فيصفرٌ النبات ويموت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ٦٤﴾

فما فى السموات وما فى الأرض ملْك لله تعالى ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحق سبحانه بشىء ، إنما خلقها لمنفعة خَلْقه ، وهو سبحانه غنىٌّ عنها وغنىٌّ عنهم ، وبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ما فى السماوات وما فى الأرض ؛ لذلك قال بعدها : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⑥④﴾ [الحج]

وصفات الكمال فى الله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق الخَلْق ، وبصفات الكمال خلق ، وملكيته تعالى للسماوات وللأرض ، ولما فيهما ملكية للظرف وللمظروف ، ونحن لا نملك السماوات ، ولا نملك الأرض ، إنما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع مما ملَّكنا الله له ، فهو الغنى سبحانه ، المالك لكل شىء ، وما ملَّكنا إلا من باطن مُلْكه .

والحميد : يعنى المحمود ، فهو غنى محمود ؛ لأن غنَاه لا يعود

عليه سبحانه ، إنما يعود على خَلْقه ، فيحمدونه لغنَاه ، لا يحقدون عليه ، ومن العجيب أن الحق سبحانه يُملِّك خَلْقَه من مُلْكه ، فمَن استخدم النعمة فيما جُعلتْ له ، ومَنْ أعطى غير القادر من نعمة الله عليه يشكر الله له ، وهى فى الأصل نعمته . ذلك لأنك أنت عبده ، وقد استدعاك للوجود ، وعليه سبحانه أنْ يتولاّك ويرعاك .

فإن احتاج غير القادر منك شيئاً ، قال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فاعتبره قرضاً ، وهو ماله ، لكنه ملّكك إياه ؛ لذلك لا يسلبه منك إنما يأخذه قرضاً حسناً ويضاعفه لك ؛ لأنه غنيٌّ حميد أى : محمود ، ولا يكون الغنى محموداً إلا إذا كان غير الغنى مستفيداً من غِنَاه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

هذه الآية امتداد للآية السابقة ، فما فى السماء وما فى الأرض ملْك له سبحانه لكنه سخَّره لمنفعة خَلْقه ، فإنْ سأل سائل : فلماذا لا يجعلها الله لنا ويُملكنا إياها ؟ نقول : لأن ربك يريد أنْ يُطمئنك أنه لن يعطيها لأحد أبداً ، وستظل ملْكاً لله وأنت تنتفع بها ، وهل تأمن إنْ ملّكها الله لغيره أنْ يتغيّر لك ويحَرمك منها ؟ فأمْنُك فى أن يظل المُلْك لله وحده ؛ لأنه ربك ومُتولّيك ، ولن يتغير لك ، ولن يتنكّر فى منفعتك .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٦٥) ﴾ [الحج]

الفُلْك : السفن ، تُطلق على المفرد وعلى الجمع ، تجرى فى البحر بأمره تعالى ، فتسير السفن بالريح حيث أمرها الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] وهذه لا يملكها ولا يقدر عليها إلا الله ، وقال فى آية أخرى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣) ﴾ [الشورى]

وتأمَّل دقَّة الأداء القرآنى من الله الذى يعلم ما كان ، ويعلم ما يكون ، ويعلم ما سيكون ، فلقائل الآن أنْ يقول : لم نَعُد فى حاجة إلى الريح تُسيِّر السفن ، أو توجهها ؛ لأنها أصبحت تسير الآن بآلات ومحركات ، نعم السفن الآن تسير بالمحركات ، لكن للريح معنى أوسع من ذلك ، فالريح ليست هذه القوة الذاتية التى تدفع السفن على صفحة الماء ، إنما الريح تعنى القوة فى ذاتها ، أياً كانت ريحاً أم بُخاراً أم كهرباء أم ذرة .. إلخ .

بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦) ﴾ [الأنفال] يعنى : تذهب قوتكم أياً كانت هذه القوة حتى الصياد الذى يركب البحر بقارب صغير يُسيِّره بالمجاديف بقوة يده وعضلاته هى أيضاً قوة ، لا تخرج عن هذا المعنى .

وهكذا يظل معنى الآية صالحاً لكل زمان ولكل مكان ، وإلى أن تقوم الساعة .

والريح إنْ أُفردَتْ دلَّتْ على حدوث شَرٍّ وضرر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات]

وقوله : ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦) ﴾ [الأنفال]

وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[الأحقاف]

وإنْ جاءت بصيغة الجمع دلَّتْ على الخير ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر]

وسبق أنْ تحدثنا عن مهمة الريح فى تماسك الأشياء وقيامها بذاتها ، فالجبلُ الأشمّ الذى تراه ثابتاً راسخاً إنما ثبتَ بأثر الريح عليه ، وإحاطته به من كل جانب ، بحيث لو فُرِّغ الهواء من أحد جوانب الجبل لانهار ، وهذه هى الفكرة التى قامت عليها القنبلة ، فالهواء هو الذى يقيم المبانى والعمارات ويثبتها ؛ لأنه يحيطها من كل جانب ، فيُحدِث لها هذا التوازن ، فإنْ فُرِّغ من أحد الجوانب ينهار المبنى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج] فالسماء مرفوعة فوقنا بلا عَمَد ، لا يمسكها فوقنا إلا الله بقدرته وقيوميته أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه تعالى ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر]

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج] فمن صفاته تعالى الرأفة والرحمة ، والفَهْم السطحى لهاتين الصفتين يرى أنهما واحد ، لكن هما صفتان مختلفتان ، فالرأفة تزيل الآلام ، والرحمة تزيد الإنعام ، والقاعدة أن دَرْء المفسدة مُقدَّم دائماً على جَلْب المصلحة ، فربك يرأف بك فيزيل عنك أسباب الألم قبْل أن يجلب لك نفعاً برحمته .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمثل : قلنا هَبْ أن واحداً يرميك بحجر ، وآخر يرمى لك تفاحة ، فأيُّهما يشغلك أولاً ؟ لا شكَّ ستُشغل

بالحجر ، كيف تقى نفسك من ضرره ثم تحاول أن تنال هذه التفاحة ؟

لذلك قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٦١)﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُذكّرنا ببعض نعمه وببعض العمليات التى لو تتبعناها لوقفنا بمقتضاها على نِعَم الله علينا ، ولم نَنْسها أبداً .

أولها : ﴿وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ .. (٦٦)﴾ [الحج] والإحياء : أن يعطى المحيى ما يُحييه قوة يؤدى بها المهمة المخلوق لها . والإحياء الأول فى آدم - عليه السلام - حين خلقه ربه وسوّاه ونفخ فيه من روحه ، ثم أوجدنا نحن من ذريته .

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. (٦٦)﴾ [الحج] وكما أن الخَلْق آية من آيات الله ، فكذلك الموت آية من آيات الله ، نراها ونلمسها ، وما دُمْتَ تُصدِّق بآية الخَلْق وآية الموت ، وتراهما ، ولا تشك فيهما ، فحين نقول لك إن بعد هذا حياة أخرىٰ فصدِّق ؛ لأن صاحب هذه الآيات واحد ، والمقدمات التى تحكم أنت بصدقها يجب أنْ تؤدى إلى نتيجة تحكم أيضاً بصدقها ، وها هى المقدمات بين يديك صادقة .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ.. (٦٦)﴾ [الحج] والإحياء

يُطلَق فى القرآن على معانٍ متعددة ، منها الحياة المادية التى تتمثل فى الحركة والأكل والشرب ، ومنها الحياة فى الآخرة التى قال الله عنها : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

وهذه هى الحياة الحقيقية ؛ لأن حياة الدنيا تعتريها الأغيار ، ويتقلَّب فيها الإنسان بين القوة والضعف ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والصِّغَر والكِبَر ، وبعد ذلك يعتريها الزوال ، أما حياة الآخرة التى وصفها الله بأنها الحيوان يعنى : مبالغة فى الحياة ، فهى حياة لا أغيار فيها ولا زوالَ لها .

إذن : لديك حياتان : حياة لبِنْية المادة وبها تتحرك وتُحِس وتعيش ، وحياة أخرى باقية لا زوالَ لها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] كيف - إذن - ونحن أحياء ؟ قالوا : لما يحييكم ليست حياة الدنيا المادية التى تعتريها الأغيار ، إنما يحييكم الحياةَ الحقيقية فى الآخرة ، الحياة الباقية التى لا تزول ، التى قال الله عنها : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : العلم الحقيقى الذى يهدى صاحبه .

فإنْ كانت الحياة المادية الدنيوية بنفْخ الروح فى الإنسان ، فبِمَ تكون الحياة الثانية ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

قالوا : هذه الحياة تكون بروح أيضاً ، لكن غير الروح الأولى ، إنها بروح القرآن الذى قال الله فيه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] وسمَّى الملك الذى ينزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

فالروح الثانية التى تُحييك الحياة الحقيقية الخالدة هى منهج الله فى كتابه الكريم ، إن اتبعته نلْتَ هذه الحياة الباقية الخالدة وتمتعتَ فيها بما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، وهى لا مقطوعة ولا ممنوعة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾ [الحج] كفور : صيغة مبالغة من كافر ، والكفور الذى لم يعرف للمنعم حَقّ النعمة ، مع أنه لو تبيَّنها لما انفكَّ أبداً عن شكر المنعم سبحانه .

والإنسان يمرُّ بمراحل مختلفة بين الحياة والموت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ﴾ [غافر] ، فمتى سيقولون هذا الكلام ؟

قالوا : هذا يوم القيامة ، وقد أحياهم الله من موت العدم ، فأحياهم فى الدنيا ثم أماتهم ، ثم أحياهم فى الآخرة ، فهناك موت قبل إيجاد ، وموت بعد إيجاد ، ثم يأتى البعث فى القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ .. (٦٦) ﴾ [الحج] قضية قالها الخالق ـ عز وجل ـ ولم يدعها أحد لنفسه مع كثرة الكفار والملاحدة والأفاقين فى كل زمان ومكان ، لم نسمع مَنِ ادَّعَى مسألة الخَلْق ، وهذه قضية يجب أن نقف عندها وأن نبحث : لماذا لم يظهر مَنْ يدَّعى ذلك ؟ وإذا لم يَدَّع الخَلْق أحدٌ ، ولم يدَّع الإحياء أحد ، فمَنْ ـ إذن ـ صاحب الخَلْق والإحياء والإماتة ؟

إذا كان الناس يهتمون ويؤرخون لأىِّ مخترع اخترع آلة مثلاً ، فيقولون : مخترع الكهرباء فلان وعاش فى بلدة كذا ، وكان من أمره كذا وكذا ، وتعلم فى كذا ، وحصل على كذا .. الخ فكيف بمَنْ خلقكم

وأحياكم من عدم ؟ خاصة وهذه المسألة لم يتبجح بادعائها أحد فثبتت القضية له سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ[1] فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - خلق آدم عليه السلام خليفة له فى الأرض ، وأجرى له تدريباً على مهمته بالأمر الإلهى والنهى الإلهى ، وأخبره بعداوة الشيطان له ولذريته ، وحذَّره أن يتبع خطواته ، وقد انتهت هذه التجربة بنزول آدم من الجنة إلى الأرض ليباشر مهمته كخليفة لله فى أرضه على أنْ يظلَّ على ذِكْر من تجربته مع الشيطان ، وقد سخَّر الله له كل شىء فى الوجود يخدمه ويعمل من أجله .

ثم أنزل الله عليه منهجاً ، يعمل به لتستقيم حركة حياته وحياة ذريته ، وذكَّره بالمنهج التدريبى السابق الذى كلَّفه به فى الجنة ، وما حدث له لما خالف منهج ربه ، حيث ظهرت عورته : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف]

كذلك إنْ خالفت هذا المنهج الإلهى فى الدنيا ستظهر عوراتكم . لذلك إذا رأيت أى عورة فى المجتمع فى أىِّ ناحية : فى الاجتماع ، فى الاقتصاد ، فى التربية ، فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عُطِّل ، فظهرت سوأة من سوءات المجتمع ؛ لأن منهج الله هو قانون الصيانة

(١) المنسَك : الموضع الذى تذبح فيه النسك . والمنسك : شرعة النُّسْك وهو الذبح ، والمناسك : المتعبدات . [لسان العرب - مادة : نسك] .

الذى يحميك وينظم حياتك لتؤدى مهمتك فى الحياة .

كما لو دخلتَ بيتك فوجدتَ آلة من آلات البيت لا تؤدى مهمتها ، فتعلم أن بها عطلاً فتذهب بها إلى المهندس المختص بصيانتها ، كذلك إن تعطل فى حياتكم شىء عن أداء مهمته فردُّوه إلى صاحب صيانته إلى الله وإلى الرسول ، وهذا منطق حازم يعترف به الجميع المؤمن والكافر أن ترد الصنعة إلى صانعها ، وإلى العالم بقانون صيانتها ، وأنت لم يدّع أحد أنه خلقك ، فحين يحدث فيك خَلَل ، فعليك أنْ تذهبَ إلى ربك وخالقك .

لذلك كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[1] ، ومعنى « حزبه أمر » يعنى : شىء فوق طاقته وأسبابه ، يُهرَع إلى الصلاة ليعرض نفسه على ربه عز وجل ، فإنْ وجدتَ فى نفسك خللاً فى أى ناحية ، فما عليك إلا أنْ تتوضأ ، وتقف بين يدى ربك ليصلح ما تعطل فيك .

وإن كان المهندس يُصلح لك الآلة بشىء مادى ، ولو قطعة صغيرة من السلك ، فإن ربك عز وجل غَيْب ، وعلاجه أيضاً غَيْب يأتيك من حيث لا تدرى .

ومنهج الله الذى وضعه لصيانة خَلْقه فيه أصول وفيه فروع ، الأصول : أن تؤمن بالإله الواحد الفاعل المختار ، وهذه قاعدة ما اختلف عليها أىٌّ من رسالات السماء أبداً ، كما يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

فهذه أصول لا يختلف عليها دين من الأديان ، لكن لما كان الناس منثورين فى شتى بقاع الأرض ، تعيش كل جماعة منهم منعزلةً عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده [٥/٣٨٨] ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

الأخرى لبُعْد المسافات وانعدام وسائل الاتصال والالتقاء التى نراها اليوم ، والتى جعلتْ العالم كله قرية واحدة ، ما يحدث فى أقصى الشرق تراه وتسمع به فى أقصى الغرب ، وفى نفس الوقت . لما عاش الناس هذه العزلة لا يدرى أحد بأحد لدرجة أنهم كانوا منذ مائتى عام يكتشفون قارات جديدة .

وقد نشأ عن هذه العزلة أنْ تعددت الداءات بتعدد الجماعات ، فكان الرسول أو النبى يأتى ليعالج الداءات فى جماعة بعينها يُبعَث إلى قومه خاصة ، فهذا ليعالج مسألة الكيل والميزان ، وهذا ليعالج طغيان المال ، وهذا ليعالج انحراف الطباع وشذوذها ، وهذا ليعالج التعصب القبلى .

أما رسالة محمد ﷺ ، فجاءت فى بداية التقاء الجماعات هنا وهناك ، فكانت رسالته ﷺ عامة للناس كافة ، وتجد أصول الرسالات عند موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام أصولاً واحدة ، أمّا الفروع فتختلف باختلاف البيئات .

لكن ، لما كان فى علمه تعالى أن هذه العزلة ستنتهى ، وأن هذه البيئات ستجتمع وتلتقى على أمر واحد وستتحد فيها الداءات ؛ لذلك أرسل الرسول الخاتم لهم جميعاً على امتداد الزمان والمكان .

وفى هذه الآية : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ .. (٦٧)﴾ [الحج] أى : أن الحق سبحانه جعل لكل أمة من الأمم التى بعث فيها الرسل مناسك تناسب أقضية زمانهم ؛ لأنهم كانوا فى عزلة بعضهم عن بعض ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. (٤٨)﴾ [المائدة]

فالشرائع تختلف فى الفروع المناسبة للزمان وللمكان وللبيئة ،

أما الأخلاق والعقائد فهى واحدة ، فالله عز وجل إله واحد فى كل ديانات السماء ، والكذب مُحرَّم فى كل ديانات السماء لم يأْت نبىّ من الأنبياء ليبيح لقومه الكذب .

والمنسك : المنهج التعبدى ، ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام]

﴿هُمْ نَاسِكُوهُ .. (٦٧)﴾ [الحج] يعنى : فاعلوه .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ .. (٦٧)﴾ [الحج] كأنْ يقولوا : أنت رسول ونحن أيضاً نتبع رسولاً ، له منهج وله شريعة ، نعم : لكن هذه شريعة خاتمة جاءت مهيمنة على كل الشرائع قبلها ، ومناسبة لمستجدّات الأمور .

لذلك يُطمئن الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ بعدها : ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧)﴾ [الحج] يعنى : اطمئن ، فأنت على الحق وادْعُ إلى ربك ؛ لأنك على هدى مستقيم سيصل إليهم إنْ لم يكن إيماناً فسيكون إصلاحاً وتقنيناً بشرياً تلجئهم إليه أحداث الحياة ومشاكلها ، فلن يجدوا أفضل من شرع الله يحكمون به ، وإنْ لم يؤمنوا .

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ: لا تنازعهم ولا ينازعونك ، وخُذْ ما أمرك الله به : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾ [الحجر] الذين يجادلونك وينازعونك فى الرسالة ، وسوف تحدث لهم أقضية بقدر ما يُحدثون من الفجور ويلجئون إلى شرعك وقانونك ليحلوا به مشاكلهم .

والهدى وُصِف بأنه مستقيم ؛ لأنه هدى من الله صنعه لك ، هدى

الخالق الذى يعلم ملكات النفس الإنسانية كلها ، وشرع لكل ملكة ما يناسبها ، وأحداث الحياة ستضطرهم إلى ما قنن الله لخلافته فى الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

الجدل : مأخوذ من جَدْل الحبل بعضه على بعض لتقويته ، وإنْ كانت خيطاً رفيعاً نبرمه فنعطيه سُمْكاً وقوة ؛ لذلك الخيط حين نبرمه يقل فى الطول ؛ لأن أجزاءه تتداخل فيكون أقوى ، فالجدْل من تمتين الشيء وتقويته ، وكذلك الجدال ؛ فهو محاولة تقوية الحجة أمام الخصْم .

وفى آية أخرى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] فالمعنى : إنْ جادلوك بعد التي هى أحسن فقُلْ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : ردهم إلى الله واحتكم إليه ؛ لذلك جاء بعدها :

﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

لاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : يحكم بيننا وبينكم كما يقتضى المعنى ؛ لأنكما طرفان تتجادلان . وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لرسوله ﷺ : أتركهم فسوف يختلفون هم فيما بينهم ، ولن يظل الخلاف معك ؛ لأن الخلاف فى شيء واحد ينشأ عن هوى النفس ، وهوى النفس ينشأ من الحرص على السلطة الزمنية ، يعنى : أرح نفسك ، فربُّك سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

هذه قضية حكم بها الحق سبحانه لنفسه ، ولم يدَّعها أحد ، فلا يعلم ما فى السماء والأرض إلا الله ، وهذه الآية جاءت بعد الحكم فى المنازعة فربما اعترض أحد وقال : ما دام الأمر من الله أحكاماً تنظم حركة الحياة وقد جاء كل رسول بها ، فما ضرورة أنْ يجيء رسول الله ﷺ للناس كافة .

وقلنا : إن الدين نوعان : نوع لا يختلف باختلاف الرسل والأمم والعصور ، وهذا فى القضايا العامة الشاملة التى لا تتغير ، وهى العقائد والأصول والأخلاق ، ونوع آخر يختلف باختلاف العصور والأمم ، فيأتى الحكم مناسباً لكل عصر ، ولكل أمة .

وما دام الحق سبحانه هو الذى سيحكم بين الطرفين قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج] أعلم كل شيء كائن فى الوجود ظاهره وباطنه ، فأنا أحكُم عن علم وعن خبرة .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج] والعلم شيء ، والكتاب شيء آخر ، فما دام الله تعالى يعلم كل شيء ، وما دام سبحانه لا يضل ولا ينسى ، فما ضرورة الكتاب ؟

قالوا[1] : الكتاب يعنى به اللوح المحفوظ الذى يحوى كل شيء .

---

(١) قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبى حاتم وابن مردويه . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٧٤) .

وفي آية أخرى قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) ﴾ [عبس]

حتى القرآن نفسه في ذلك الكتاب : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾ [البروج]

وقال تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ [الرعد] ويقول تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

فضرورة الكتاب ليدلّك وليدلّ الملائكة المطّلعين على أن الأشياء التي تحدث مستقبلاً كتبها الله أزلاً ، فمجيئها في المستقبل على وَفْق ما كتبه دليل علمه سبحانه بها ، فالذي كتب الشيء قبل أنْ يكون ، ثم جاء الشيء موافقاً لما كتب أكبر دليل على علْمه وإحاطته .

إذن : مجيء الكتاب لا ليساعدنا على شيء ، إنما ليكون حُجَّة عليك ، فيقال لك : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء] ها هو تاريخك ، وها هي قصتك ، ليس كلاماً من عندنا ، وإنما فعْلك والحجة عليك .

وعِلْم الله تعالى في قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٧٠) ﴾ [الحج] يحمل الوعد والوعيد في وقت واحد ، وهذا من عجائب الأداء القرآني ، أنْ يعطي الشيء ونقيضه ، كيف ؟ هَبْ أن عندك ولديْن اعتدى أحدهما على الآخر في غَيْبتك ، فلما عُدْتَ أسرعا بالشكوى ، كل من صاحبه ، فقلتَ لهما : اسكتا لا أسمع لكما صوتاً ، وقد عرفت ما حدث وسأرتب لكل منكما ما يناسبه وما يستحقه على وَفْق

ما علمت ، لا شكَّ عندها أن المظلوم سيفرح ويستبشر ، وأن الظالم سيخاف ويتغير لونه .

إذن : فعلم الله بكل شيء في السماء والأرض وإحاطته سبحانه بما يجرى بين خَلْقه وَعْد للمحق ، ووعيد للمبطل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ ﴾

كأن العبادة ـ وهي : طاعة أمر واجتناب نهي ـ يجب أن تكون صادرة من أعلى منا جميعاً ، فليس لأحد منا أن يُشرِّع للآخر ، فيأمره أو ينهاه ؛ لأن الأمر من المساوى لك لا مُرجح له ، وله أنْ يقول لك : لماذا أنت تأمر وأنا أطيع ؟ أما إنْ جاء الأمر من أعلى منك فأنت تطيع بلا اعتراض ، ومعك الحجة أن الأمر من أعلى ، تقول : أبى أمرني بكذا وكذا ، أو ربي أمرني بكذا وكذا ، أو نهاني عن كذا وكذا .

إذن : كل دليل على حكم الفعل أو الترك لا بُدَّ أنْ يكون مصدره من الحق سبحانه وتعالى ، فهو الأعلى منى ومنك ، وإذا انصعْتَ لأمره ونهيه فلا حرجَ عليَّ ولا ضرر ؛ لأنني ما انصعت لمساوٍ إنما انصعت لله الذي أنا وأنت عبيد له ، ولا غضاضةَ في أن نتبع حكمه .

لذلك في حِكَم أهل الريف يقولون : (اللي الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم) لماذا ؟ لأنك ما قطعته أنت إنما قطعه الله ، فليس في الأمر تسلط أو جبروت من أحد ، وليس فيه مذلّة ولا استكانة لأحد .

ومعنى : ﴿وَيَعْبُدُونَ من دُون اللَّه .. (٧١)﴾ [الحج] يعنى : يعبدون غيره تعالى ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ به سُلْطَانًا .. (٧١)﴾ [الحج] السلطان : إما سلطان قَهْر ، أو سلطان حجة ، سلطان القهر أن يقهرك ويجبرك على ما لم تُردْ فعْله ، أما سلطان الحجة فيقنعك ويُثبت لك بالحجة أن تفعل باختيارك ، وهذه الآلهة التى يعبدونها من دون الله ليس لها سلطان ، لا قَهْر ولا حُجَّة .

لذلك ، فى جدل إبليس يوم القيامة للذين اتبعوه يقول لهم : ﴿وَمَا كَانَ لِى عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى.. (٢٢)﴾ [إبراهيم] يعنى : كنتم على إشارة فاستجبتم لى ، وليس لى عليكم سلطان ، لا قوة أقهركم بها على المعصية ، ولا حجة أقنعكم بها .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ .. (٧١)﴾ [الحج] يعنى : علم الاجتهاد الذى يستنبط الأحكام من الحكم المُجْمل الذى يُنزله الحق تبارك وتعالى ، وهذه هى حجة العلم التى قال الله تعالى عنها : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِى الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣)﴾ [النساء] يعنى : أهل العلم .

إذن : العبادة لا بُدَّ أن تكون بسلطان من الله نصاً قاطعاً وصريحاً لا يحتمل الجدل ، وإما أنْ تكونَ باجتهاد أُولى العلم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١)﴾ [الحج] لم يَقُلْ سبحانه : لن ينتصر الظالمون ، ولم ينْفِ عنهم النصير ؛ لأن هذه مسألة مُسلمة إنما لا يفزع لنصرتهم أحد ، فلن ينتصروا ولن ينصرهم أحد ، ولا يفزع أحد لينصر أحداً إلا إذا كان المنصور ضعيفاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾

تصور هذه الآية حال الكفار عند سماعهم لكتاب الله وآياته من رسول الله أو صحابته ، فإذا سمعوها ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الخج] أى : الكراهية تراها وتقرؤها فى وجوههم عُبُوساً وتقطيباً وغضباً وانفعالاً ، ينكر ما يسمعون ، ويكاد أن يتحول الانفعال إلى نزوع غضبى يفتك بمَنْ يقرأ القرآن لما بداخلهم من شر وكراهية لما يتلى عليهم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحج] والسَّطْو : الفَتْك والبطش ؛ لأن العمل الوجدانى الذى يشغل نفوسهم يظهر أولاً على وجوههم انفعالاً يُنبىء بشىء يريدون إيقاعه بالمؤمنين ، ثم يتحول الوجدان إلى نزوع حركى هو الفتك والبطش .

(قُلْ) فى الرد عليهم : ماذا يُغضبكم حتى تسطوا علينا وتكرهوا ما نتلو عليكم من كتاب الله . والغيظ والكراهية عند سماعهم القرآن دليل على عدم قدرتهم على الرد بالحجة ، وعدم قدرتهم أيضاً على الإيمان ؛ لذلك يتقلَّبون بين غيظ وكراهية .

لذلك يخاطبهم بقوله : ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧٢)﴾ [الحج] يعنى : مالى أراكم مغتاظين من آيات الله كارهين لها الآن ، والأمر ما يزال هيِّناً ؟ أمجرد سماع الآيات يفعل بكم هذا كلّه ؟ فما بالكم حينما تباشرون النار فى الآخرة ، الغيظ الذى تظنونه شراً فتسطُون علينا بسببه أمر بسيط ، وهناك أشرّ منه ينتظركم ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧٢)﴾ [الحج]

وما أشبه هذا بموقف الصِّدِّيق أبى بكر حينما أوقف صناديد قريش بالباب ، وقدّم عليهم المستضعفين من المؤمنين ، فغضبوا لذلك وورِمَتْ أنوفهم ، فقال لهم : أَوَرِمتْ أنوفكم أنْ قدمتهم عليكم الآن ، فكيف بكم حين يُقدمهم الله عليكم فى دخول الجنة ؟

وكلمة ﴿وَعَدَهَا .. (٧٢)﴾ [الحج] الوعد دائماً يكون بالخير ، أما هنا فاستُعملَتْ على سبيل الاستهزاء بهم والتقليل من شأنهم ، كما قال فى آية أخرى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤)﴾ [الانشقاق] فساعةَ أن يسمع البُشْرى يستشرف للخير ، فيفاجئه العذاب ، فيكون أنكَى له .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩)﴾ [الكهف] لأن انقباض النفس ويأسها بعد بوادر الانبساط أشدّ من العذاب ذاته .

وقوله : ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)﴾ [الحج] أى : ساءت نهايتكم ومرجعكم .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾

قُلْنا : الضرب إيقاع شيء على شيء بقوة ، ومنه نقول : ضربنا الدينار يعني : بعد أن كان قطعة من الذهب أو الفضة مثلاً أصبح عملة معروفة متداولة .

والمثل : تشبيه شيء غير معلوم بشيء آخر معلوم وعجيب وبديع يَعْلَق في الذهن ، كما نصف لك إنساناً لم تَرَهُ بإنسان تعرفه . نقول : هو مثل فلان . وهكذا كل التشبيهات : شيء تريد أن تعلمه للمخاطب وهو لا يعلمه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾ [الأعراف]

وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [العنكبوت]

إذن : الأمثال : إعلام بشيء معلوم ليصل العلم فيه إلى شيء

مجهول ، وكلمة (مثل) استقلَّتْ بأن يكون المثَل بديعاً فى النسج ، بليغاً موجزاً ، بحيث تتناقله الألسنة بسرعة فى كلمات معدودة .

فلو وجدتَ مثلاً تلميذاً مُهملاً تكاسل طوال العام ، ولم يذاكر ، فلما حضر الامتحان راح يجتهد فى المذاكرة ، فتقول له : (قبل الرماء تملأ الكنائن) يعنى : قبل أنْ تصطاد بالسهام يجب أنْ تُعدَّها أولاً وتملأ بها كنانتك ، فهذا مثَلٌ يُضرَبُ للاستعداد للأمر قبل حلوله .

ومن أمثلة أهل الريف يقولون : (أعْط العيش لخبازه ولو يأكل نصفه) ويُضرب لمن يجعل الصنعة عند غير صانعها والمتخصص فيها .

ويقولون فيمَنْ يُقصِّر فى الأمر المنوط به : (باب النجار مخلع) .

وحين ترسل مَنْ يقضى لك حاجة فيفلح فيها ويأتى بالنتيجة المرجوة يقول لك : (أبدى المخْضُ عن الزبد) والمخضُ عملية خَضٍّ اللبن فى القِرْبة لفصْل الزُّبْد عن اللبن .

وهكذا ، المثل قَوْل موجز بليغ قيل فى مناسبته ، ثم استعمله الناس لخفَّته وجماله وبلاغته فى المواقف المشابهة ، والمثَل يظل على حاله الأول لا يغير ، ويجب الالتزام بنصِّه مع المفرد والمثنى والجمع ، ومع المذكر والمؤنث ، فمثلاً إنْ أرسلْتَ رسولاً يقضى لك حاجة ، فعندما يعود تقول له : (ما وراءكِ يا عصام) هكذا بالكسر فى خطاب المؤنث مع أنه رجل ، لماذا ؟ لأن المَثَل قيل أول

ما قيل لمؤنث ، فظلَّ على هذه الصيغة من التأنيث حتى ولو كان المخاطَبُ مذكَّراً .

وقصة هذا المثَل أن الحارث ملك كندة أراد أن يتزوج أم إياس ، وبعث مَنْ تخطبها له ، وكان اسمها عصام ، فلما ذهبت إليها قالت لها أمها : إن فلانة جاءت تخطبك لفلان ، فلا تخفى عنها شيئاً ، ودعيها تشمُّك إنْ أرادت ، وناطقيها فيما استنطقتْك به ، فلما دخلتْ على الفتاة وأرادت أن ترى جسمها خلعتْ ثوبها ، وكشفتْ عن جسمها ، فقالت المرأة : (ترك الخداع من كشف القناع) فسارت مثلاً ، ثم عادت إلى الحارث فاستقبلها متعجلاً ردَّها فقال : (ما وراءكِ يا عصام) يعنى : ما الخبر ؟ فظلَّ المثل هكذا للمؤنث ، وإن خُوطِب به المذكر .

والحق - تبارك وتعالى - يضرب لكم هذا المثل ويقول : خذوه فى بالكم ، وانتبهوا له ، وافتحوا له آذانكم جيداً واعقلوه ؛ لأنه سينفعكم فى علاقتكم برسول الله وبالمؤمنين .

والخطاب هنا مُوجَّه للناس كافّة ، لم يخُصّ أحداً دون أحد : ﴿ **يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ** .. (٧٣) ﴾ [الحج] فلم يقُل يا أيها المؤمنون ؛ لأن هذا المثَلَ مُوجَّه إلى الكفار ، فالمؤمنون ليسوا فى حاجة إليه ﴿ **فَاسْتَمِعُوا لَهُ** .. (٧٣) ﴾ [الحج] يعنى : انصتوا وتفهَّموا مراده ومرماه ، لتسيروا فى حركتكم على وَفْق ما جاء فيه ، وعلى وَفْق ما فهمتم من مغزاه .

فما هو هذا المثَل ؟

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ** .. (٧٣) ﴾ [الحج]

أى : الذين تعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣)﴾ [الحج] وهو أصغر المخلوقات ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] يعنى : تضافَرَتْ جهودهم ، واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، وهذا ترقٍّ فى التحدى ، حيث زاد فى قوة المعاند .

كما ترقَّى القرآن فى تحدِّى العرب ، فتحداهم أولاً بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، ولأن القرآن كثير تحدّاهم بعشر سور فما استطاعوا ، فتحدَّاهم بسورة واحدة فلم يستطيعوا .

ثم يترقى فى التحدى فيقول : اجمعوا كل فصحائكم وبلغائكم ، بل والجن أيضاً يساعدونكم ولن تستطيعوا : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

وقوله تعالى : ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣)﴾ [الحج] جاءت بنفى المستقبل فلم يقُلْ مثلاً : لم يخلقوا ، فالنفى هنا للتأبيد ، فهم ما استطاعوا فى الماضى ، ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد حتى لا يظن أحد أنهم ربما تمكّنوا من ذلك فى مستقبل الأيام ، ونفى الفعل هكذا على وجه التأبيد ؛ لأنك قد تترك الفعل مع قدرتك عليه ، إنما حين تتحدَّى به تفعل لتردّ على هذا التحدِّى ، فأوضح لهم الحق سبحانه أنهم لم يستطيعوا قبل التحدى ، ولن يستطيعوا بعد التحدى .

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] فقد تقول : إن عملية الخَلْق هذه عملية صعبة لا يُتحدَّى بها ، لذلك تحداهم بما هو أسهل من الخَلْق ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] وهل يستطيع أحد أن يُعيد ما أخذه الذباب من طعامه على جناحيه أو أرجله أو خرطومه ؟

وكانوا يذبحون القرابين عند الأصنام ، ويضعون أمامها الطعام

ليباركوه ، فكانت الدماء تسيل عندها وتتناثر عليها ، فيحطّ عليها الذباب ، ويأخذ من هذه الدماء على أرْجُله النحيفة هذه أو على أجنحته أو على خرطومه ، فتحدَّاهم أن يعيدوا من الذباب ما أخذه ، وهذه مسألة أسهل من مسألة الخَلْق .

ولك أنْ تُجرِّب أنت هذه العملية ، إذا وقع ذباب على العسل الذى أمامك ، فلا بُدَّ أن يأخذ منه شيئاً ولو كان ضئيلاً لا يُدرك ولا يُوزَن ولا تكاد تراه ، لكن أتستطيع أنْ تُمسك الذبابة وتردّ ما أخذتْ منك ؟

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج] يعنى : كلاهما ضعيف ، فالذباب فى ذاته ضعيف وهم كذلك ضعفاء ، بدليل أنهم لن يقدروا على هذه المسألة ، لكن هناك ضعيف يدَّعى القوة ، وضعيف قوته فى أنه مُقرٌّ بضعفه ، فالذباب وإنْ كان ضعيفاً إلا أن الله تعالى قال فيه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦)﴾ [البقرة] يعنى : ما فوقها فى الصِّغر ، ليس المراد ما فوقها فى الكبر كالعصفور مثلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾

يعنى : هؤلاء الكفار الذين عبدوا من دون الله آلهة لا تستطيع أن تخلق ذباباً ، ولا تستطيع حتى أنْ تردَّ من الذباب ما أخذه ، هؤلاء ما عرفوا لله قَدْره ، ولو عرفوا قَدْر الله ما عبدوا غيره .

والقَدْر : يعنى مقدار الشيء ، وقلنا : إن مقادير الأشياء تختلف

حسب ما تريده من معرفة المقادير ، فالطول مثلاً له مقياس يُقَاس به مقدار الطول ، لكن هذا المقياس يختلف باختلاف المقيس ، فإنْ أردتَ أنْ تقيسَ المسافة بين القاهرة والأسكندرية مثلاً لا تستخدم المللى أو السنتيمتر ولا حتى المتر ، إنما تستخدم الكيلومتر ، فإنْ أردت شراء قطعة من القماش تقول متر ، أما إنْ أردتَ صورة شخصية تقول سنتيمتر .

إذن : لكل شيء مقدار يُقدَّر به ، ومعيار يُقاس به ، فإنْ أردتَ المسافة تقيس الطول ، فإنْ أردت المساحة تقيس الطول في العرض ، فإنْ أردتَ الحجم تقيس الطول في العرض في الارتفاع ، الطول بالمتر والمساحة بالمتر المربع ، والحجم بالمتر المكعب . كذلك في الوزن تُقدِّره بالكيلو أو الرطل أو الجرام .. إلخ .

وقدر تأتي بمعنى : ضيَّق ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ .. (١٦) ﴾ [الفجر]

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق]

والمقدار كما يكون في الماديات يكون أيضاً في المعنويات ، فمثلاً تعبر عن الزيادة المادية تقول : فلان كبر يعني شَبَّ وزاد ، أما في المعنويات فيقول الحق سبحانه : كَبُر ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. (٥) ﴾ [الكهف] يعني : عَظُمتْ .

والحق - تبارك وتعالى - ليس مادة ؛ لأنه سبحانه فوق المادة ، فمعنى المقدار في حقه تعالى عظمته في صفات الكمال فيه ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .. (٧٤) ﴾ [الحج] ما عظّموه حَقَّ التعظيم الذي ينبغي له ،

وما عرفوا قَدْره ، ولو عرفوا ما عبدوا غيره ، ولا عبدوا أحداً معه من هذه الآلهة التى لا تخلق ذباباً ، ولا حتى تسترد ما أخذه منهم الذباب ، فكيف يُسَوُّون هؤلاء بالله ويقارنونهم به عز وجل ؟ إنهم لو عرفوا لله تعالى قَدْره لاستحيوا من ذلك كله .

ثم تُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾ [الحج] فما مناسبة هاتين الصفتين للسياق الذى نحن بصدده ؟

قالوا : لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تكلَّم فى المثَل السابق عَمَّنْ انصرفوا عن عبادته سبحانه إلى عبادة الأصنام وقال : ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج] فقال فى مقابل هذا الضعف إن الله لقوىٌّ ، قوة عن العابد ؛ لأنه ليس فى حاجة إلى عبادته ، وقوة عن المعبود لأنه لو شاء حَطَّمه ، وما دُمْتم انصرفتم عن الله وعبدتم غيره ، فهذا فيه مُضارَّة ، وكأن هناك معركة ، فإنْ كان كذلك فالله عزيز لا يغالب .

والآية : ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .. (٧٤)﴾ [الحج] وردتْ فى عدة مواضع فى كتاب الله ، منها : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ .. (٩١)﴾ [الأنعام] فلم يعرفوا لله تعالى قَدْره لأنهم اتهموه ، وله سبحانه كمال العدل ، فكيف يُكلف عباده بعبادته ، ولا يبلغهم برسول ؟ وهو سبحانه القائل : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]

فحين يقولون : ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ .. (٩١)﴾ [الأنعام] كأنهم يصفُون الحق سبحانه بأنه يُعذِّب الناس دون أنْ يُبلِّغهم بشىء . ويَردّ عليهم فى هذه المسألة : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ .. (٩١)﴾ [الأنعام]

وفى موضع آخر : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ .. (٦٧) ﴾ [الزمر]

ونقول : قَدَّرَه حَقَّ قدره ، وقَدَره قَدْره ، كأن الأمور تختلف فى تقدير الأشياء ، فمثلاً تنظر إلى حجرة فتقول : هذه تقريباً ٥×٤ هذا تقدير إجمالى تقريبى ، إنما إنْ أخذت المقياس وقدَّرْتَ تقديراً حقيقياً ، فقد تزيد أو تنقص ، فالأول تقول : قدَّرْت الحجرة قَدْرها . والآخر تقول : قدرت الحجرة حَقَّ قَدْرها .

وعليه فإنك إنْ أردت أنْ تُقدِّر الله تعالى حَقَّ قَدْره فإنك تقدِّره على قَدْر استيعاب العقل البشرى ، إنما قَدْره تعالى حقيقة فلا تحيط به ؛ لأن كمالاته تعالى لا تتناهى ولا تُدرَك إدراكاً تاماً .

ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه عن علم اليقين وعين اليقين وحقِّ اليقين . ولما نزل قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] قال بعض الصحابة[1] : ومَنْ يقدر على ذلك ، إنها مسألة صعبة أن نتقى الله التقوى الكاملة التى يستحقها عز وجل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] ونزلت : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

---

(١) عن سعيد بن جبير وهو من كبار التابعين قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ (١٦) ﴾ [التغابن] . فنسخت الآية الأولى . [أخرجه ابن أبى حاتم] .
وابن عباس فى قوله ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ (١٠٢) ﴾ [آل عمران] قال : لم تنسخ ولكن ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ (١٠٢) ﴾ [آل عمران] أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم . [أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى ناسخه] . أوردهما السيوطى فى الدر المنثور ٢/٢٨٣ .

وكان النبي ﷺ إذا أثنى على الله تعالى يقول: «سبحانك، لا نحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(١).

لماذا؟ لأنه لا يملك أحد مهما أُوتى من بلاغة الأسلوب أنْ يُثنى على الله الثناء المناسب الذى يليق به سبحانه، ومن رحمة الله تعالى بعباده أن تحمل عنهم هذه المسألة فأثنى الحق سبحانه على نفسه، وعلَّمنا كيف نثنى عليه سبحانه، فإذا ما تحدث البليغ وأثنى على الله بفنون القول والثناء، فإن العيىَّ الذى لا يجيد الكلام يطمئن حيث يُثنى على ربه بما علمه من الثناء، وما وضعه من صيغ يقولها الفيلسوف، ويقولها راعى الشاة.

ولولا أن الله تعالى علَّمنا صيغة الحمد فى سورة الفاتحة فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة] ما تعلمنا هذه الصيغة، فتعليم الله لعباده صيغة الحمد فى ذاتها نعمة تستحق الحمد، والحمد يستحق الحمد، وهكذا فى سلسلة لا تنتهى، ليظل الحق - تبارك وتعالى - محموداً دائماً، ويظل العبد حامداً دائماً.

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مسألة الألوهية وما ينبغى لها من صفات الكمال المطلق، وحذر أنْ نُدخل عليها ما ليس منها وما لا يستحقها، وهذه قمة العقائد، وبعد أن نؤمن بالإلهيات بهذا الصفاء ونُخلِّص إيماننا من كل ما يشوبه لا بُدَّ من البلاغ عن هذه القوة الإلهية التى آمنا بها، والبلاغ يكون بإرسال الرسل.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٥٨، ٢٠١) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

لذلك قال سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ ﴾

إذن : المرحلة الثانية في الإيمان بعد الإيمان بالقمة الإلهية الإيمان بالرسل ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج] والاصطفاء : اختيار نخبة من كثير ، واختيار القليل من الكثير دليل على أنها الخلاصة والصفوة ، كما يختلف الاصطفاء باختلاف المصطفى ، فإنْ كان المصطفِي هو الله تعالى فلا بُدَّ أنْ يختار خلاصة الخلاصة .

والاصطفاء سائر في الكون كله ، يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الزمان ، ويصطفى من المكان ، كما اصطفى رمضان من الزمان ، والكعبة من المكان . ولم يجعل الحق سبحانه الاصطفاء لتدليل المصطفى على غيره ، إنما ليُشيع اصطفاءَه على خَلْق الله ، فلما اصطفى رمضان على سائر الزمن - لا ليدلل رمضان - إنما لتأخذ منه شحنة تُقوِّى روحك ، وتُصفِّيها بقية الأيام ، لتستفيد من صالح عملك فيها .

وقد يتكرر الاصطفاء مع اختلاف متعلق الاصطفاء ؛ لذلك وقف المستشرقون عند قول الله تعالى : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران]

يقولون : ما فائدة تكرار الاصطفاء هنا ؟ ولو تأملنا الآية لوجدنا فَرْقاً بين الاصطفاء الأول والآخر : الاصطفاء الأول اصطفاء ؛ لأنْ

تكونى عابدة تقية متبتلة منقطعة فى محرابك لله ، أما الاصطفاء الآخر فاصطفاء على نساء العالمين جميعاً ، بأن تكونى أماً لمولود بلا أب ، فمُتعلِّق الاصطفاء - إذن - مختلف .

وتنقسم الملائكة فى مسألة الاصطفاء إلى ملائكة مُصْطفاة ، وملائكة مُصْطَفًى منها . وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً (١) ﴾ [فاطر] يعنى : كلهم لهم رسالة مع عوالم أخرى غيرنا .

أما فى الآية التى معنا ، فالكلام عن الملائكة الذين لهم صلة بالإنسان أمثال جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، والحفظة الكاتبين والمكلفين بحفظ الإنسان ، فالله تعالى يصطفى هؤلاء ، أما الباقون منهم فالله مصطفيهم لعبادته فهم مُهيَّمون ، لا يدرون عن هذا الخلق شيئاً ، وهم الملائكة العالون الذين قال الله عنهم فى الحديث عن إبليس : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص] يعنى : الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ؛ لأن لهم مهمة أخرى .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) ﴾ [الحج] السمع يتعلق بالأصوات ، والبصر يتعلق بالأفعال ، وهما كما قلنا عُمْدة الحواسِّ كلها ، والحق سبحانه فى قوله : ﴿ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) ﴾ [الحج] يُبيِّن لنا أن رسله سيُوَاجَهُون بأقوال تؤذيهم واستهزاء ، وسيُقَابلون بأفعال تعرقل مسيرة دعوتهم ، فليكُنْ هذا معلوماً حتى لا يفُتّ فى عَضُدهم ، وأنا معهم سميع لما يُقال ، بَصير بما يفعل ، فهُمْ تحت سمعى وبصرى وكلاءتى .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) ﴾

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ (٧٦)﴾ [الحج] ما أمامهم ، ويعلم أيضاً ما خلفهم ، فليعمل الإنسان ما يشاء ، فعلْم الله محيط به .

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦)﴾ [الحج] فالمرجع فى النهاية إليه سبحانه ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يخلق خَلْقه ليتركهم هَمَلاً ، إنما خلقهم لحكمة ، وجعل لهم نهاية يُجازَى فيها كُلٌّ بعمله ، فمَن تعب ونصب فى سبيل دعوة الله وتحمّل المشاقّ فى مساندة رسل الله فله جزاؤه ، ومَنْ جابههم وعاندهم سواء بالأقوال السَّابّة الشاتمة المستهزئة ، أو بالأفعال التى تعوق دعوتهم ، فله أيضاً ما يستحق من العقاب .

وبعد أن حدَّثنا ربنا عز وجل عن الإلهيات وعن الرسل التى تُبلِّغ عنه سبحانه ، يُحدِّثنا عن المنهج الذى سيأتون به لينظم حركة حياتنا ، هذا المنهج موجز فى افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهو لا يشمل فى أوامره ونواهيه كل حركات الحياة . فالأوامر والنواهى محصورة فى عدَّة أمور ، والباقى مباح ؛ لأن الله تعالى وضع الأوامر والنواهى فى الأصول التى تعصم حركة الحياة من الأهواء والنزوات ، وترك الباقى لاختيارك تفعله على أىٍّ وجه تريد .

لذلك نرى العلماء يجتهدون ويختلفون فى مثل هذه الأمور التى تركها الله لنا ، ولو أراد سبحانه لأنزل فيها حكماً محكماً ، لا يختلف عليه أحد . ولك أن تقول : ولماذا ترك الحق سبحانه هذه الأمور تتضارب فيها الأقوال ، وتختلف فيها الآراء ، وتحدث فيها نزاعات بين الناس ؟

قالوا : هذا مراد الله ؛ لأن الله تعالى خلق الإنسان مُسخَّراً فى أشياء ، ومختاراً فى أشياء أخرى ، فللناس أن يتركوا المجتهد يجتهد

ما وسعه الاجتهاد ، ثم يحكمون على ما وصل إليه أنه حق ، وآخر يجتهد ويقررون أنه باطل ؛ لأن الله لو أراده على لون واحد لقاله ، إنما تركه محتملاً للآراء .

إذن : أراد سبحانه أن تكون هذه الآراء لأن الإنسان كما هو محكوم بقهر فى كثير من الكونيات وله اختيار فى بعض الأمور ، كذلك الحال فى التكليف ، فهو مقهور فى الأصول التى لو حاد عنها يفسد العالم ، ومختار فى أمور أخرى يصح فعْلها ويصحّ ترْكها .

يقول تعالى فى هذا المنهج :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) ﴾

النداء في ضَرْب المثل السابق[1] كان للناس كافَّة ؛ لأنه يريد أنْ يلفت عُبَّاد الأصنام إلى هذا المثَل ، ويُسْمعهم إياه ، أمَّا هنا فالكلام عن منهج ودستور مُوجَّه ، خاصّة إلى الذين آمنوا ، لأنه لا يُكلِّف بالحكم إلا مَنْ آمن به ، أما مَنْ كفر فليس أهْلاً لحمل هذه الأمانة ؛ لذلك تركه ولم ينظم له حركة حياته . وكما قلنا فى رجل المرور أنه يساعد مَن استعان به ووثق فيه ، فيدلّه ويرشده ، أما مَنْ شكَّ فى كلامه وقلّل من شأنه يتركه يضل فى مفترق الطرق .

فإذا ناداك ربك بما يكلفك به ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا .. (١٣٦) ﴾ [النساء]

وقد اعترض على أسلوب القرآن في هذه الآية بعض الذين

---

(١) يقصد قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

يأخذون الآيات على ظاهرها ، يقولون : كيف يخاطبهم بيأيها الذين آمنوا ثم يقول : آمِنوا ، كيف وهم يؤمنون بالفعل ؟

قالوا : المراد يا أيها الذين آمنوا قبل سماع الحكم الجديد ظلُّوا على إيمانكم في الحكم الجديد ، واستمرّوا على إيمانكم ؛ لذلك إذا طلبتَ شيئاً ممَّنْ هو موصوف به فاعلم أنَّ المراد الدوام عليه .

كما أن هناك فَرْقاً بين الإيمان بالحكم وبين تنفيذ الحكم ، فقد تؤمن بالحكم أنه من الله ولا تشكّ فيه ولا تعترض عليه ، لكنك لا تنفذه وتعصاه ، فمثلاً في الحج يقول تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ.. ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] الذي لله تعالى على عباده أنْ يحجوا البيت ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] وهذا شرط ضروري ، فلا تكليفَ بلا استطاعة ، ثم يقول : ﴿وَمَن كَفَرَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران]

فهل يعني هذا أن مَنْ لم يحج فهو كافر ؟

قالوا : لا ، لأن المراد : لله على الناس حكم يعتقده المؤمن ، بأن لله على الناس حج البيت ، فمن اعتقد هذا الاعتقاد فهو مؤمن ، أما كونه ينفذه أو لا ينفذه هذه مسألة أخرى .

ثم يبدأ أول ما يبدأ في التكليف بمسألة الصلاة : ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ.. ﴿٧٧﴾﴾ [الحج] لقد جاء الرسل من عند الله بتكاليف كثيرة ، لكن خَصَّ هنا الصلاة لأنها التكليف الذي يتكرر كل يوم خمس مرات ، أما بقية التكاليف فهي موسمية : فالصوم شهر في العام كله ، والحج مرة في العمر كله لمن استطاع ، والزكاة عند خروج المحصول لمن يملك النصاب أو عند حلول الحَوْل .

إذن : تختلف فريضة الصلاة عن باقي الفرائض ؛ لذلك خَصَّها

رسول الله ﷺ في قوله : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمَنْ تركها فقد كفر »[١] .

ويقول : « الصلاة عماد الدين »[٢] .

وخصَّها الحق - تبارك وتعالى - بظرف تشريعي خاص ، حيث فُرِضت الصلاة بالمباشرة ، وفُرِضت باقي الفرائض بالوحي .

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - قلنا : إن رئيس العمل يمكن أن يرسل لك ورقة يقول : افعل كذا وكذا ، فإنْ كان أمراً هاماً اتصل بك تليفونياً ، وأخبرك بما يريد لأهميته ، فإنْ كان الأمر أهم من ذلك وجاء من جهة أعلى يقول لك : تعال عندي لأمر هام ، ويُكلِّفك به مباشرة ، وكذلك على حسب الأهمية يوجد ظرف التشريع .

فالصلاة لم تأت بالوحي كباقي الفرائض ، إنما جاءت مباشرة من المُوحي سبحانه وتعالى ؛ لأنها ستكون صلة بين العبد وربه ، فشاء أن يُنزِّهَها حتى من هذه الواسطة ، ثم ميَّزها على غيرها من التكاليف ، فجعلها الفريضة التي لا تسقط عن المسلم بحال أبداً . فقد تكون فقيراً فلا تلزمك الزكاة ، وغير مستطيع فلا يلزمك حج ، ومريض أو مسافر فلا يلزمك صوم .

أما الصلاة فلا يُسقطها عنك شيء من هذا كله ، فإنْ كنت غير قادر على القيام فلك أنْ تُصلِّي قاعداً أو مضطجعاً أو راقداً ، تشير

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٢١) ، والنسائي في سننه (١/٢٣١) من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه . قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريجه للإحياء (١/١٤٧) : « رواه البيهقي في الشُّعَب بسند ضعَّفه من حديث عمر » وقال الملا على القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط : إنه غير معروف . وقال النووي في التنقيح : إنه منكر باطل ، لكن رواه الديلمي عن علي كما ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩) .

بطرفك لركوعك وسجودك ، ولو حتى تجرى أفعال الصلاة على قلبك ، المهم أن تظلّ ذاكراً لربك متصلاً به ، لا يمر عليك وقت إلا وهو سبحانه فى بالك .

وقلنا : إن ذكر الله فى الأذان والإقامة والصلاة ذكْر دائم فى كل الوقت لا ينقطع أبداً ، فحين تصلى أنت الصبح مثلاً غيرك يصلى الظهر ، وحين تركع غيرك يسجد ، وحين تقول : بسم الله الرحمن الرحيم . غيرك يقول : الحمد لله رب العالمين .. الخ .

فهى عبادة متداخلة دائمة لا تنقطع أبداً ؛ لذلك يقول أحد أهل المعرفة مخاطباً الزمن : يا زمن فيك كل الزمن . يعنى : فى كل جزئية من الزمن الزمن كله ، كأنه قال : يا ظُهْر ، وفيك العَصر ، وفيك المغرب ، وفيك العشاء . وهكذا العالم كله يدور بعبادة لله لا تنتهى .

وذكر من الصلاة الركوع والسجود ؛ لأنهما أظهر أعمال الصلاة ، لكن الركوع والسجود حركات يؤديها المؤمن المخلص ، ويؤديها المنافق ، وقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُميِّز هذا من هذا ، فقال : ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ .. (٧٧) ﴾ [الحج]

فليست العبرة فى حركات الركوع والسجود ، إنما العبرة فى التوجّه بها إلى الله ، وإخلاص النية فيها لله ، وإلا أصبحت الصلاة مجرد حركات لا تعدو أن تكون تمارين رياضية كما يحلو للبعض أن يقول : الصلاة فيها تمارين رياضية تُحرِّك كل أجزاء الجسم ، نعم هى كما تقولون رياضة ، لكنها ليست عبادة ، العبادة أن تؤديها لأن الله تعالى أمرك بها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) ﴾ [الحج]

والخير كلمة عامة تشمل كل أوامر التكليف ، لكن جاءت مع الصلاة على سبيل الإجمال ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فالخير - إذن - كلمة جامعة لكل ما تؤديه وظائف المناهج من خير المجتمع ؛ لأن المنهج ما جاء إلا لينظم حركة الحياة تنظيماً يتعاون ويتساند لا يتعاند ، فإنْ جاء الأمر على هذه الصورة سَعِد المجتمع بأسْره .

ولا تنْسَ أن المنهج حين يُضيِّق عليك ويُقيِّد حركتك يفعل ذلك لصالحك أنت ، وأنت المستفيد من تقييد الحركة ؛ لأن ربك قيَّد حركتك وضيَّق عليك حتى لا تُلحق الشر بالآخرين ، وفى الوقت نفسه ضيَّق على الآخرين جميعاً أن يتحركوا بالشر ناحيتك ، وأنت واحد وهم كثير ، فمن أجل تقييد حركتك قيَّد لك حركة الناس جميعاً ، فمَنِ الكاسب فى هذه المسألة .

الشرع قال لك : لا تسرق وأنت واحد وقال للناس جميعاً : لا تسرقوا منه ، وقال لك : غُضَّ بصرك عن محارم الغير وأنت واحد . وقال لكل غير : غُضُّوا أبصاركم عن محارم فلان ، فكل تكليف من الله للخَلْق يعود عليك .

فالمعنى : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ (٧٧) ﴾ [الحج] أى : الذى لا يأتى منه فساد أبداً ، وما دامت الحركات صادرة عن مراد لهوى واحد فإنها تتساند وتتعاون ، فإنْ كان لك هوى ولغيرك هوى تصادمتْ الأهواء وتعاندت ، والخير : كل ما تأمر به التكاليف المنهجية الشرعية من الحق تبارك وتعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) ﴾ [الحج] لكن ، أين سيكون هذا الفلاَح : فى الدنيا أم فى الآخرة ؟

الفلاَح يكون فى الدنيا لمن قام بشرع الله والتزم منهجه وفعل

الخير ، فالفَلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله فى أىِّ مجتمع يتحرك أفرادُه فى اتجاه الخير لهم وللغير ؛ مجتمع يعمل بقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] وعندها لن ترى فى المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة .. الخ هذا الفلاح فى الدنيا ، ثم يأتى زيادة على فلاح الدنيا فلاح الآخرة .

إذن : لا تظنوا التكاليف الشرعية عبْئاً عليكم ؛ لأنها فى صالحكم فى الدنيا ، وبها فلاح دنياكم ، ثم يكون ثوابها فى الآخرة مَحْض الفضل من الله .

وقد نبهنا النبى ﷺ إلى هذه المسألة فقال : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أنْ يتغمدّنى الله برحمته »[2] ذلك لأن الإنسان يفعل الخير فى الدنيا لصالحه وصالح دنياه التى يعيشها ، ثم ينال الثواب عليها فى الآخرة من فضل الله كما قال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج] نعرف أن لعل أداة للترجى ، وهو درجات بعضها أَرْجى من بعض ، فمثلاً حين تقول : لعل فلاناً يعطيك ، فأنت ترجو غيرك ولا تضمن عطاءه ، فإنْ قلت : لعلِّى أعطيك . فالرجاء - إذن - فى يدك ، فهذه أرجى من سابقتها ، لكن ما زلنا أنا وأنت متساويين ، وربما أعطيك أولاً ، إنما حين تقول : لعل الله يعطيك فقد رجوْتَ الله ، فهذه أرجى من سابقتها ، فإذا قال الله تعالى بذاته : لعلى أعطيك فهذا أقوى درجات الرجاء وآكدها ؛ لأن الوعد من الله والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨) ﴾

معنى ﴿ حَقَّ جِهَادِهِ (٧٨) ﴾ [الحج] كالذى قلناه فى ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (٧٤) ﴾ [الحج] لأن الجهاد أيضاً يحتاج إلى إخلاص ، وأنْ تجعل الله فى بالك ، فربما خرجتَ لمجرد أن تدفع اللوم عن نفسك وحملتَ السلاح فعلاً ودخلت المعركة ، لكن ما فى بالك أنها لله وما فى بالك إعلاء كلمة الله ، كالذى يقاتل للشهرة وليرى الناس مكانته ، أو يقاتل طمعاً فى الغنائم ، أو لأنه مغتاظ من العدو وبينه وبينه ثأر ، ويريد أن ينتقم منه ، هذه وغيرها أمور تُخرِج القتال عن هدفه وتُفرغه من محتواه .

لذلك لما سئل سيدنا رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمَنْ فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] وهذا هو حق الجهاد ، وأنت فيه حكَم على نفسك ، لأن ميزان ذلك فى يدك .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٠٤) عن أبى موسى الأشعرى .

وقد تسأل : ولماذا الجهاد ؟ قالوا : لأنك إذا انتفعتَ بالمنهج تطبيقاً له بعد التحقيق الذى أتى به الرسل تنفع نفسك ، لكن ربك - عز وجل - يريد أنْ يُشيع النفع لمن معك أيضاً ، وهذا لا يتأتّى إلا بالجهاد بالنفس أو المال أو أىّ شىء محبوب ، وإلا فكيف ستربح الصفقة التى قال الله تعالى عنها : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ..(١١١)﴾ [التوبة]

وكما أن للجنود فى ساحة القتال مهمة ، كذلك لمن قعد ولم يخرج مهمة : الجندى حين يقتحم الأهوال والمخاطر ويُعرِّض نفسه للموت ، فهذا يعنى أنه ما دخل المعركة وما عرَّض نفسه للقتل إلا وهو واثق تمام الثقة ، أن ما يذهب إليه بالقتل خير مما يناله بالجُبْن ، وهذا يشجع الآخرين ويحثُّهم على القتال .

لذلك ، فى غزوة بدر لما سمع الصحابى كلام رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد وكان فى فمه تمرة يمصُّها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فيه وخرج لتوِّه إلى الجهاد(١) لأنه واثق تمام الثقة أن ما سيذهب إليه بالشهادة خير مما ترك .

أما الذين بَقَوْا ولم يخرجوا ، فمهمتهم أن يحملوا المنهج ، وأنْ يحققوه ، وإلا لو خرج الجميع إلى القتال واستشهدوا جميعاً ، فمَنْ يحمل منهج الله وينشره ؟

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل : أين أنا يا رسول الله إن قُتلت ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات كُنَّ فى يده . ثم قاتل حتى قُتل . وفى حديث سويد : قال رجل للنبى ﷺ يوم أُحد . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) كتاب الإمارة . قال ابن حجر فى الفتح (٧/٣٥٤) : « لم أقف على اسم الرجل ، وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحمام وسبقه إلى ذلك الخطيب واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس . قلت : لكن وقع التصريح فى حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر » .

وجاءت كلمة الجهاد عامة لتشمل كل أنواع الجهاد ، فإذا ما أثمر الجهاد ثمرته وتغلبنا على الكفر فلم يَعُدْ هناك كفار ، أو خلَّوْا طريق دعوتنا وتركونا ، وأحبوا أنْ يعيشوا في بلادنا أهل ذمة ، فلا داعى - إذن - للقتال ، ويتحول الجهاد إلى ميدان آخر هو جهاد النفس .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ .. (٧٨) ﴾ [الحج] يعنى اختاركم واصطفاكم لتكونوا خير أمة أخرجت للناس ، وثمن هذا الاجتباء أن نكون أهلاً له ، وعلى مستوى مسئوليته ، وأنْ نحقق ما أراده الله منّا .

كما ننصح جماعة من أهل الدعوة الذين حملوا رايتها ، نقول لهم : لقد اختاركم الله ، فكونوا أهْلاً لهذا الاختيار ، واجعلوا كلامه تعالى في محلّه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (٧٨) ﴾ [الحج] يعني : ما اجتباكم ليُعنتكم ، أو ليُضيِّق عليكم ، أو ليُعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعل الأمر كله يُسْر ، وشرعه على قَدْر الاستطاعة ، ورخَّص لكم ما يُخفِّف عنكم ، ويُذهب عنكم الحرج والضيق ، فمَنْ لم يستطع القيام صلى قاعداً ، ومَنْ كان مريضاً أفطر ، والفقير لا زكاة عليه ولا حج .. الخ .

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ .. (٢٢٠) ﴾ [البقرة] لكنه سبحانه ما أعنتكم ولا ضَيَّق عليكم ، وما كلَّفكم إلا ما تستطيعون القيام به .

وقوله تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ (٧٨) ﴾ [الحج] كلمة (ملة) جاءت هكذا بالنصب ، لأنها مفعول به لفعل تقديره : (الزموا) ملة أبيكم إبراهيم ؛ لأنكم دعوته حين قال : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا .. (١٢٨) ﴾ [البقرة]

ومن دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] لذلك كان النبى ﷺ يقول : « أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرى عيسى »[١] .

يعنى : من ذريته وذرية ولده إسماعيل ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا .. (١٢٨) ﴾ [البقرة] أعطنا التكاليف ، وكأنه مُتشوِّق إلى تكاليف الله ، وهل يشتاق الإنسان للتكليف إنْ كان فيه ضيق أو مشقة ؟

وكذلك كان صحابة النبى ﷺ يعشقون تكاليف الإسلام ، ويسألون عنها رسول الله رغم قوله لهم : « ذرونى ما تركتكم »[٢] إلا أنهم كانوا يسألون عن أمور الدين ليبنوا حياتهم الجديدة ، لا على ما كانت الجاهلية تفعله ، بل على ما أمر به الإسلام .

ولنا ملْحظ فى قوله تعالى : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ .. (٧٨) ﴾ [الحج] فالخطاب هنا لأمة الدعوة ، ولأمة الإجابة ، وهل أمة الإسلام كلها من ذرية إبراهيم حتى يقول ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ .. (٧٨) ﴾ [الحج] ؟

نقول : الإسلام انقياد عَقَدِىٌّ للجميع ، وفى أمة الإسلام مَنْ ليس من ذرية إبراهيم ، لكن إبراهيم عليه السلام أبٌ لرسول الله محمد ﷺ ، والرسول أب لكل مَنْ آمن به ؛ لأن أبوة الرسول أبوة عمل واتباع ، كما جاء فى قول الله تعالى فى قصة نوح عن ابنه : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .. (٤٦) ﴾ [هود]

---

(١) قال أبو أمامة : قلت يا نبى الله ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منهما نور أضاءت منها قصور الشام . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٦٢) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٤٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فانتهوا ، وما أمرتكم فائتوا منه ما استطعتم » .

ولما كان النبى ﷺ أباً لكل مَنْ آمن به سَمَّى الله زوجاته أمهات للمؤمنين ، فقال سبحانه : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب]

وما دامت الأزواج أمهات ، فالزوج أب ، وبناءً على هذه الصلة يكون إبراهيم عليه السلام أباً لأمة الإسلام ، وإنْ كان فيهم مَنْ ليس من سلالته .

ونجد البعض ممَّنْ يحبون الاعتراض على كلام الله يقولون فى مسألة أبوة الرسول لأمته : لكن القرآن قال غير ذلك ، قال فى قصة زيد بن حارثة : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ..﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب] فنفى أن يكون محمد أباً لأحد ، وفى هذا ما يناقض كلامكم .

نقول : لو فهمتم عن الله ما اعترضتُم على كلامه ، فالله يقول : ما كان محمد أباً لأحدكم ، بل هو أب للجميع ، فالمنفىّ أن يكون رسول الله أباً لواحد ، لا أن يكون أباً لجميع أمته . وقال بعدها : ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ..﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب] وما دام رسول الله ، فهو أب للكل .

ثم يقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ..﴿٧٨﴾﴾ [الحج] يعنى : إبراهيم عليه السلام سماكم المسلمين ، فكأن هذه مسألة واضحة وأمْر معروف أنكم مسلمون منذ إبراهيم عليه السلام : ﴿وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ..﴿٧٨﴾﴾ [الحج]

وفى موضع آخر يحدث تقديم وتأخير ، فيقول سبحانه : ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]

لماذا ؟ قالوا : لأن رسول الله بلَّغ رسالة الله ، وأشهد الله على ذلك حين قال : « اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد »[1] اشهد أنِّى بلغتُ ، وهو ﷺ يريد من أمته أن يكون كل شخص فيها حاملاً لهذه الرسالة ، مُبلِّغاً لها حتى يسمع كلام الرسول مَنْ لم يحضره ولم يَرَهُ ، وهكذا يكون الرسول شهيداً على مَنْ آمن به ، ومَنْ آمن شهيداً على مَنْ بلّغه .

لذلك من شرف أمة محمد أولاً أنه لا يأتى بعده رسول ؛ لأنهم مأمونون على منهج الله ، وكأن الخير لا ينطفىء فيهم أبداً . وقلنا : إن الرسل لا يأتون إلا بعد أنْ يعُمَّ الفساد ، ويفقد الناس المناعة الطبيعية التى تحجزهم عن الشر ، وكذلك يفقدها المجتمع كله فلا ينهى أحد أحداً عن شر ؛ عندها يتدخل الحق سبحانه برسول ومعجزة جديدة ليُصلح ما فسد .

فختام الرسالات بمحمد ﷺ شهادة أن الخير لا ينقطع من أمته أبداً ، ومهما انحرف الناس سيبقى جماعة على الجادة يحملون المنهج ويتمسكون به ويكونون قدوة لغيرهم . لذلك حدَّد رسول الله هذه المسألة فقال : « الخير فىَّ حصراً ، وفى أمتى نثراً » فالخير كله والكمال كله فى شخص رسول الله ، ومنثور فى أمته .

ثم يعود السياق إلى الأمر بالصلاة : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ.. (٧٨) ﴾ [الحج] لأنها الفريضة الملازمة للمؤمن ، وفيها إعلاء الولاء المكرر فى اليوم خمس مرات ، وبها يستمر ذكْر الله على مدى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٧٣٩) فى خطبة الوداع من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أنه ﷺ قال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا » .

الزمن كله لا ينقطع أبداً فى لحظة من لحظات الزمن حين تنظر إلى العالم كله ، وتضم بعضه إلى بعض .

والمتأمل فى الزمن بالنسبة للحق - تبارك وتعالى - يجده دائماً لا ينقطع ، فاليوم مثلاً عندنا أربع وعشرون ساعة ، واليوم عند الله ألف سنة مما تعدُّون ، واليوم فى القيامة خمسون ألف سنة ، وهناك يوم اسمه يوم الآن أى : اللحظة التى نحن فيها ، وهو يوم الله الذى قال عنه : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] لذلك يقول : ما شغل ربك الآن وقد صَحَّ أنَّ القلم قد جَفَّ ؟ قال : « أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ، ويضع آخرين »[(١)] .

فيوم الآن يوم عام ، لا هو يوم مصر ، ولا يوم سوريا ، ولا يوم اليابان إذن : فى كل لحظة يبدأ لله يوم وينتهى يوم ، فيومه تعالى مستمر لا ينقطع .

ونقرأ فى الحديث النبوى الشريف : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسِىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسِىء الليل »[(٢)] .

نهار مَنْ ؟ وليل مَنْ ؟ فالنهار والليل فى الزمن دائم لا ينقطع ، وفى كل لحظة من لحظات الزمن ينتهى يوم ويبدأ يوم ، وينتهى ليل ويبدأ ليل . إذن : فالله تعالى يده مبسوطة دائماً لا يقبضها أبداً ، كما

---

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] قال : « من شانه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » . أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (١/١٢٩) وابن ماجه فى سننه (٢٠٢) ، وأبو نعيم فى الحلية (٥/٢٥٢) وأبو الشيخ فى العظمة (ح ١٥٠) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٩٥ ، ٤٠٤) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

قال سبحانه : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ (٦٤)﴾ [المائدة]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ(٧٨)﴾ [الحج] الجئوا إليه فى الشدائد ، وهذا يعنى أنكم ستُواجهون وتُضطهدون ، فما من حامل منهج لله إلا اضطُهد ، فلا يؤثر فيكم هذا ولا يفُتُّ فى عَضُدكم ، واجعلوا الله ملجأكم ومعتصمكم فى كل شدة تداهمكم ، كما قال سبحانه : ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ (٤٣)﴾ [هود]

واعتصامكم بالله أمر لا تأتون إليه بأنفسكم إنما ﴿هُوَ مَوْلاكُمْ(٧٨)﴾ [الحج] يعنى : المتولّى لشأنكم ، وما دام هو سبحانه مولاكم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾ [الحج]

